

تاريخ غزو العرب

في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه

حقوق الطبع محفوظة

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



&



LIBRARY


 BUTLER LIBRARY
COLUMBIA UNIVERSITY
NEW YORK 27, N. Y.

فهرست الكتاب

الصفحة	
٤	المقدمة
٥	ماحق بالمقدمة
٧	كلمة بين يدي الرحلة لتتبع الآثار العربية في الاقطار الغربية
١١	الكلام على طلوze وقرقشونة
١٣	طلوze
١٤	قرقشونة
	مبدأ غارات العرب على فرنسة وما اعتمد عليه المؤلف من
١٤	الروايات عنها
٢٩	خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد
٤٧	الولة على الأندلس بعد موسى بن نصير
٥٠	رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسة
٦٠	حرب القيسية واليمانية
٦٤	الكلام على مدينة أربونة
٧١	السمح بن مالك الخولاني وغارات العرب على فرنسة
٩٣	واقعة بلاط الشهداء

	غارات العرب على فرنسا ، من بعد جلائهم عن أربونة
١١٤	الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ م
١٣٩	أساطيل الاسلام فى الأندلس وافريقية
	نزول العرب فى بروفانس وغاراتهم من هناك على سافواى
١٦٠	وييمونت وسويسرة الى دور اجلائهم عن فرنسا
٢٠٦	الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التى ترتبت عليها
	كتاب غارات العرب على سويسرة فى أواسط القرن
٢٤٤	العاشر - تأليف الدكتور فرديناند كلر
٢٦٢	آثار كتابة فى كنيسة القديس بطرس مونتجو
٢٦٤	أسماء عربية فى البلاد
٢٦٦	أسوار وطرق وكهوف وغير ذلك
٢٦٩	المسكوكات
٢٧٢	الملابس العربية
٢٧٦	القصص على آثار العرب فى وادى فاله من سويسرة
٢٨٤	فتح المسلمين لمالطة
٢٩٦	مغازى العرب فى أوربة وجزائر البحر المتوسط
٣٠٣	كتابات عربية على القبور الاسلامية فى مالطة

تاريخ غزو انا العرب

في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

Butl Stax

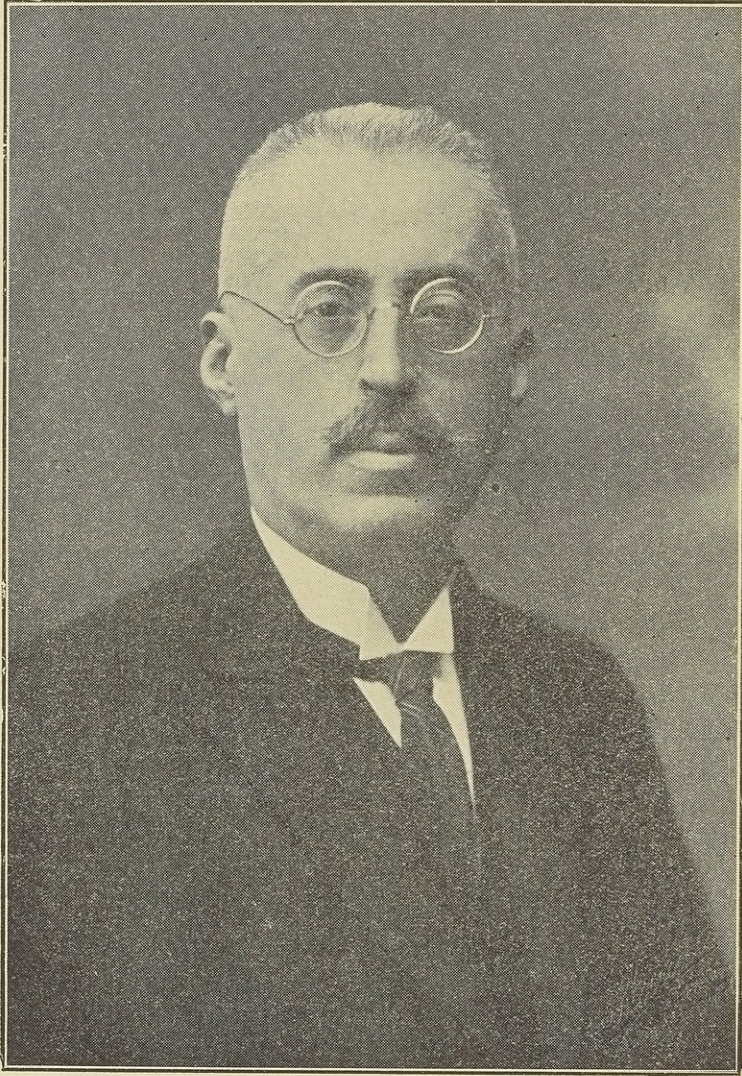
DC

41

.A7

A78

12338



tr-f. for 4/5/99 (orig)

عطوفة الامير شكيب أرسلان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا إليك نفرع من مداحض القدم ، وبك نستعصم في ما يجري به القلم .
ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك باري النسم ومفيض النعم ، وباسط
الوجود على العدم ، شهادة نعوذ بها للنجاة اذا اشتدت النعم ، وتنق بها النار ذات الضرر .
ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا الى توحيدك من بين الأمم ، وساطان
من طهر الأرض من عبادة الصنم ، المنزل عليه كلامك الموصوف بالتقدم ، المبعوث بالآيات
الباهرة والحكم . اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم ، وأصحابه
حملة الكتاب وليوث الكتائب في المزدحم ، الذين أشرقت شمسهم في الشرق
والغرب فأماطت الظلم وأنارت الظلم ، وسلم يارب كثيرًا

وبعد فانه مما يجب أن يخلد في الصدور قبل السطور ، وأن يكتب على الحديق
قبل الورق ، ان حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموها ، ورقى الأقوام
وسموها ، وانه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة
بنفسها الا اذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها ، متذكرة لأوليئها ومبادئها ، مقيدة
لوقائعها مسلسللة لانسابها حاشدة لاحسابها خازنة لأدائها ، مما لا يقوم به الا علم
التاريخ الذي هو الواصل بين الماضي والمستقبل ، والرابط بين الآنف والمستأنف . وانه
لا جدال في كون الأمة العربية التي تتحفز لتنباع وتستوفز لتمد طائل الباع ، لم تكن
لتحدث نفسها بالنهوض الذي جعلته نصب نواظرها والاتحاد الذي سيرته شغل
خاواظرها لو لم تكن رقت من رئاسة المالك فيما غبر هاتيك الدرجات العالية ، وطالعت
من تاريخها تلك الصفحات المتتالية فجعلت الحاضر منها ينجل أن يقصر عن شأو
الغابر ويستطار أن يعلم أباه سيداً في الأوائل وهو عبد في الأواخر ، فكان اذاً تاريخ
العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون اليه من معال ، ووسيلتهم فيما يندفعون الى تحقيقه

من آماله ولمعنى ان هذا التاريخ المجيد وان سقته سيول المحابر واخضرت له أعواد المنابر، وسبقت فيه تأليف استولى أصحابها على الأمد إخراجا، ولعت فيه كتب لولاحت كانت بروجاً ولو نضدت لكانت أبراجا، لاتزال فيه نواقص بادية العوار ومعالج طامسة الآثار. ومظان متوارية غامضة، ومعلومات قاعدة غير ناهضة، تحتاج إلى همهم بعيدة من الأفواج الآتية لينثروا من دفائنهم، وإلى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينثروا من كنائنها. وان من أخص ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنه من أعجذ ماضيهم وألمع ما لعت فيه مواضعهم هو الدور الذى كان لهم فى القارة الأوربية خارجا عن الأندلس، وذلك كفتوحاتهم فى ديار فرنسة وإيطالية وسويسرة وما كانوا يقولون له الأرض الكبيرة، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التى رفعوا فوقها أعلامهم حقبا طويلة، وأثروا فيها آثاراً كثيرة أثيرة. فان هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولاً، بل ان كثيراً من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيراً ولا قليلاً. والحال انه من أقعس فتوحاتهم مجداً وأوعر مغازيهم غوراً ونجداً، وأدل أعمالهم على ما أوتوه من علو الهمم ومضاء العزائم. وما كان غالباً على أخلاقهم يومئذ من احتقار الطوائع واستصغار العظائم. فلماذا خصصت بهذا الموضوع كتاباً مستقلاً أسميته « الخبيئة المنسية فى مقام العرب بجبال الالب والبلاد الافرنسية » وجعلت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابى الذى أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم « الحلة السندسية فى الرحلة الاندلسية » وسيكون فيما أحزر أربعة أو خمسة أجزاء ان لم يكن أكثر

هذا وقد رأيت أن أزوج هذا الكتاب باسم الملك العربى الصميم منزعاً ونسباً، ذؤابة بيت الرسول الكريم وحسبك بذلك شرفاً وطهراً وأماً وأباً، الذى وقف نفسه الأبية على خدمة أمته العربية عاملاً لنهضتها بعد ربضتها، ومجاهداً فى ربوتها بعد كبوتها فيصل بن الحسين ملك العراق والرافدين، أطال الله أيامه ونصر أعلامه وسدد آراءه وأحكامه، وأبلغه من مجد العرب مرامه. وذلك بالاتفاق مع أخويه الامامين المهامين

العاقلين العادلين ملكي الجزيرة العربية في هذا العصر، المكتوب لهما فيه باذن الله التمكين والنصر، الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب مملكة اليمن السعيدة ، والملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود صاحب الدولة العربية السعودية، أيدهم الله جميعاً لتأييد هذه الأمة وصيانة ذمارها، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها وإقالة عثارها، حتى يعود أمرها كما بدا وترجع أيام عزها جُداً، وما ذلك على الله بعزيز جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢
شكيب أرسلان

ملحوظة

قد كنت حررت هذه المقدمة منذ أشهر قلائل والملك فيصل في الحياة والأمة العربية تستمد حياتها السياسية من حياته، وتبنى معظم آمالها على أصيل آرائه ومنصور راياته، وقبل أن بوشر طبع هذا الكتاب اختار الله هذا العربي الكبير لجواره، وكانت بموته الفادحة التي لم يرزأ العرب بمثلها، وقامت نوادبهم وسالت مدامعهم في كل غور ونجد من أجلها، فلم نشأ أن نغير شيئاً من مقدمة هذا الكتاب بل أبقيناه متوجاً باسمه كما لو كان في الحياة إذ أننا لا نزال نعد فيصلاً حياً في القلوب والخواطر وان غاب بوجهه الكريم عن النواظر لا سيما ان المرحوم كان قد سمع بخبر هذا التأليف وسألني ، واحسرتاه عليه اذ كان مؤخراً في برن ، عنه وعن مباحثه وعمما أمكنني الاطلاع عليه من آثار العرب في القرى السويسرية التي كان انتهى الى سماعه أنني ذهبت إليها ونقبت فيها. وكان مهمتها بهذا الموضوع مرتاحا الى نشر هذا الكتاب كما كان مرتاحا الى نشر كل أثر عربي . وما كان فيصل رحمه الله إلا رمزاً للقضية العربية والرمز لا يموت عند قومه . فاذا كان فيصل قد مات فلن يموت تذكاره ولا تتمحى آثاره. ولنا نعم العزاء في جلالة ولده المعظم الملك غازي الأول الذي نرتقب من هلاله بدرأ نامياً ، وزجو من كرم الحق تعالى أن يجعله فيصلاً ثانياً . آمين

شكيب أرسلان

جنيف ١٤ جادى الثانية ١٣٥٢

كلمة بين يدي رجلي

لنتبع الآثار العربية في الأقطار الغربية

ليس بعجيب أن يكون مثلي مغرماً بالأندلس وآثار العرب فيها وفيما جاورها من الأصقاع الأوربية ، فإن كل عربي صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالي هممهم مع إخوانه ويترك من ذلك تراثاً خالداً لأعقابهم . ولعمري إن آثار العرب في الأندلس هي غرة شاذخة وهمة شاذخة في تاريخ الأمة العربية . بل نقول ولا نخشى مغالطاً أنها من أنفس ما أثره العرب ، بل من أنفس ما أثره البشر في الأرض . فلا غرو أن يعجب بها العربي وينقب عنها ويشد الرحال إليها ويأخذ العبرة اللازمة منها ، فليست هي الآية الناطقة والبينة القاطعة على مجدنا الماضي وعلى ما قدرنا أن نعمله في سالف الحقب خصب ، بل هي الحجة الملزمة والآية المعجزة المفحمة على جدارتنا بالاستقلال التام ، وكفايتنا إذا ملكنا الاستقلال أن نحسن الاضطلاع بالأحكام . وهي أيضاً الدلالة على أننا نقدر أن نعمل في الأعصر المستأنفة ما عملناه في الأعصر السالفة إذا تركنا الأجانب وشأننا

كنت إذاً منذ ريعان شبابي وغضاضة اهابي مولعاً بمحاضرة الأندلس العربية وآثارها، مشغولاً بتاريخها وأخبارها حتى أتى منذ أربع وثلاثين سنة وهي مدة يصح أن تسمى دهرًا نقلت من الافرنسية الى العربية رواية الكاتب الأشهر شاتوبريان المسماة بآخر بني سراج ، وذيلت تلك الرواية المترجمة بتاريخ للأندلس استخلصته من السكتب العربية والأوربية ، وأجلت معظم قدام البحث فيه عن سقوط مملكة غرناطة وجلاء العرب الأخير عن تلك الجزيرة لأن هذه الحقبة من ذلك التاريخ كادت تكون في عصرنا مجهولة، وقد صادف ظهور هذا الكتاب مبدأ النهضة العربية فكان

له في النواحي رنة نواح، وسال له من المآقي مدمع سفّاح، وتجددت تذكارات أشجان وبلغ التأثير من قلوب جميع الذين قرأوه انهم كانوا يتلونّه المرة بعد المرة شفاء لما في صدورهم، أشبه بالشكلى التى لا يشفى ما بها سوى ذرف دموعها ولطم خدودها وتلمس آثار مفقودها، وكانت بازدياد الهضة العربية تزداد الرغبة في هذا المقام وتشرّب الى الأندلس الأعناق وتتخلّب على ذكرها الشفاء، فأعدت من سنين قلائل طبع الرواية المذكورة «آخر بنى سراج» مع ذيلها، وأضفت اليهما تاريخاً قديماً عن سقوط غرناطة عثرت عليه في مدينة مونيخ عاصمة بافاريا يسمى «أخبار العصر في انقضاء دولة بنى نصر» لمؤلف لم يذكر اسمه فيه، لكنه يرجح كثيراً مما لحظنا من كلامه أنه كان ممن حضر الوقائع بنفسه أو ممن عاصر أهلها، لأنه يسرد أخبارها سرد من شاهدها بالعيان، أو من روى عن من شاهدها، وأظن المقرئ عند ما كتب نفح الطيب كان مطلعاً على ذلك الكتاب، لأنى رأيت في كتاب «أخبار العصر» هذا جملاً كثيرة رأيتمها في النفح بحروفها. نعم أعدت طبع كتابى ذاك عن الأندلس مضموماً اليه هذا الكتاب الذى عثرت عليه في مونيخ غفلاً من اسم مؤلفه ومعه أربعة مراسيم سلطانية من السلطان أبى الحسن علي بن الأحمر والد أبى عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس الذى سلم غرناطة الى الملك فرديناند والملكة ايزابلا، وكان طبعى لهذه الكتب منذ ثمانى سنوات بمطبعة المنار الشهيرة بمصر

ولكن كل هذا لم ينقع غلى ولم يشف ماى من أمر الأندلس، وبقيت بعد معرفتها بالقلم متشوقاً الى مشاهدتها بالعيان والتجوال فيها بالقدم، استزادة من معرفة أخبارها واقتصاص آثارها ووفاء بواجب ازديارها. وما زلت أحدث نفسى برحلة أقوم بها في تلك الديار التى ترك لنا عنها آباؤنا أجمل تذكّار وتعوقى العوائق عنها وتعترضنى الأشغال من دونها وأنا أخشى أن توافينى النية قبل تحقيق هذه الأمنية الى أن يسر الله هذه الرحلة منذ ثلاث سنوات والأمور مثل النفوس مرهونة بالأجال. وكنت موطناً

النفس على السفر الى الأندلس في ربيع سنة ١٣٤٨ وفق سنة ١٩٣٠ فجدت شؤون وطرات طوارئ اقتضت أن تراجع جمعية الأمم في جنيف مراجعات مستمرة قضت على بأن لا أفارق جنيف في تلك الآونة بحيث انه أقبل الصيف يسحب من ذيله ، وجاء الحر هاجما برجله وخيله ، فأخذ بعض الإخوان يشيرون على بتأخير الرحلة الى الشتاء التالى أو الى الربيع الذى وراءه ذهابا الى أن السياحة فى أسبانية لا تلائم فى أيام القيظ لا سيما القطعة الأندلسية التى أنا قاصدها . فلم يكن ذلك ليغير من نيتي ولا ليرخى من مشدود طيبي ، لأنى لم أبرح فى هذه المسألة منذ ثلاثين سنة أمنى بها النفس ، وكلما حدا سائق بدا عائق ، ونحن نعتمد على التأخير والتسويق ونعلل النفس بشتاء وصيف وربيع وخريف ، وقد عرفنا أكثر البلاد الأوروبية ولم تبق مدينة فيها الا دخلناها وربما بدل المرة الواحدة مراراً ، وقتلنا أحوالها درساً واختباراً ، ولم يبق من أوربة ما لم نعرفه سوى الاصقاع الإسكندنافية فى الشمال والبلاد الأسبانية فى الجنوب . فأما الأولى فانه يجوز لثلاثنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها ، ولكن الأندلس التى نحن إليها منذ نعومة الأظفار وتقرأ عنها بل تؤلف الأسفار ، فانه لا يجوز لثلاثنا أن يتأخر عن السفر إليها ونحن لا نزال انضاء أسفار بين الأقطار . وعليه انتهزنا هذه الفرصة واغتنمنا من وقتنا هذه الخلسة قاصدين الى الأندلس عن طريق فرنسة التى حصلنا على رخصة المرور بها أياما معدودات . وذلك أنه لما كان الغرض الأصلي من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلّوا وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغريبة كان لا بد لنا أولاً من زيارة فرنسة التى كانت للعرب فيها جولة ، بل كانت لهم فى جنوبها دولة وصولاً ، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجية بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة والباشكنس وغيرهم من أمم الغرب التى خفضوا دعائمها ونقضوا مرائرها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها . وهما أنا ذا أحدث عن سياحتي :

في ١٨ يونيو قبل الظهر من سنة ١٩٣٠ فصلت من لوزان قاصداً الى باريس
فوصلت الى تلك العاصمة ليلاً . وكان قد عرف بقدمي شابان من نخبة أدباء المغاربة
السيد احمد بلافريج من ذوائب بيوتات الأندلسيين في رباط الفتح، والسيد محمد الفاسي
من آل الجد الفهريين الأندلسيين من أعيان فاس . فأنزلت من القطار حتى
وجدتهما أُمّامى في المحطة وركبنا معاً الى فندق أورليان بالاس في شارع برون
« Boulevard Brune » وتحدثت اليهما في موضوع رحلتي وكان ذلك قبل ميعاد
عطلة الدروس التي كانا يريدان بعدها السفر الى وطنهما فاتفقنا على أن يوافيانى الى
مجرىط ليرافقاني في بعض هذه السياحة، وبعد ذلك بأيام قلائل مرّاً علىّ بالفعل إذ أنا
في فندق رومة في عاصمة الأسبانيول . وكان في اليوم التالي من وصولي الى باريس
أقبل علينا أولادنا الطلبة السوريون وأنسنا بلقائهم واجتمعنا مع فئة من نخبتهم
في المطعم العربي الذي بقرب الجامع . وبعدها ذهبت أنا والسيدان محمد الفاسي وأحمد
بلافريج الى مكتبة غوتتر المتخصصة بالكتب الشرقية حيث اشتريت بعض كتب
عربية أكثرها يتعلق بالأندلس . وصادف أنى لدى نزولى في أورليان بالاس وجدت
صديق الحميم حسين رؤوف بك بطل الدارعة حميدية الشهير ورئيس نظار أنقرة
سابقاً وناظر البحرية العثمانية من قبل، فسررت بلقائه كثيراً لأن آخر العهد بيننا كان
في الاستانة سنة ١٩٢٤ وكذلك جاء لزيارتي هناك رحى بك الذى كان والياً لأزمير
أيام الحرب الكبرى وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقى في تركيا وهو من أعز
إخوانى وإخوان ابن عمى الأمير أمين مصطفى أرسلان، فكانت لى بغير ميعاد فرحة
عظيمة بالاجتماع بهذين الخليلين اللذين طال عهدى بلقائهما وذهبنا الى المطعم العربى
فأوصينا على مطاعم مغربية ، وسمعنا من شجى ألحان الموسيقى العربية ولا سيما الألبان
الأندلسية ، وسمرنا أجمل سمر وكانت ليلة كلها سحر . وبعد إقامة خمسة أيام بياريز

ركبت القطار الحديدى الى تولوز « طلويزة » وجاء لوداعى الى المحطة جمهور من شبان العرب يباريز وهتفوا فى المحطة : فليحى العرب

ووصلت الى طلويزة بعد مسيرة ثمانى ساعات بالقطار ونزلت فى فندق قريب من محطتها اسمه « ترمينوس ^(١) » وفى اليوم التالى قصدت قرقشونة ^(٢) التى فيها الآثار الشهيرة فزرت البلدة والقلعة وصعدت الى الأسوار وجولت فى تلك الحصون نحواً من ساعتين، ورجعت فى المساء الى طلويزة، والمسافة بالقطار بين هاتين البلديتين لا تزيد على ساعتين

﴿ الكلام على طلويزة وقرقشونة ﴾

رأيت مناسباً ابتداء الكلام على فرنسة العربية قبل الانتقال الى اسبانية العربية وذلك بناء على كونى بدأت رحلتى من فرنسة . ولما كان غرضى من هذه الرحلة هو استقصاء آثار العرب وأخبارهم أينما كانوا وحلوا من القارة الأوربية توخيت أن لا أخرج عن هذا الصدد الا نادراً مما يقتضيه سياق البحث . فلو كنت زرت الأندلس مبتدئاً من المكان الذى دخل منه العرب أى من الجنوب لكان الترتيب يقضى علىَّ بأن أبدأ ببجل طارق فالجزيرة الخضراء فشريش فاشبيلية فقرطبة فطليطلة وهلم جراً نحو الشمال، وأن أتنهى بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون الى جبال الألب بين ايطالية وفرنسة وسويسرة . وهكذا كان ينبغى أن أفعل لو كنت حراً أن أسكن فى هذه الأيام وطنى سورية فكان السفر منها الى الأندلس على الطريق الذى سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار وهى طريق المغرب . ولكن الغربة التى تطوحنا بها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوربة وأن نقصد الأندلس

(1) Terminus

(2) Carcassonne

من شاليها لا من جنوبيها أى من حيث نحن مقيمون الآن ومن حيث انتهى العرب
فى فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها . ولما كان المقصود هو كما قلنا من
استقراء آثار السلف وتأثر خطواتهم حيث دل عليها التاريخ وأثبتها الأثر من قارة
أوروبة بدون تقيد بمكان معين وبدون التزام ما شاهدناه من هذه الأما كن بالعين
بل باطراد الكلام على ما شاهدناه الى ما لم نشاهده مما جاوره ودخل تحت حكمه ، أى
جميع ما قيل ان أقدام العرب وطئته من هذه البلدان فى حملتهم الأولى على الغرب ، لم
يكن لنا بد من أن نتناول طلوزة وقرقشونة وأربونة ونيم وأفينيون وليون . وليست
هذه فقط بل جميع البلاد التى احتلوها من جنوبى فرنسة وما صاقب ذلك من شالى
إيطالية، وما نواح ذلك من جبال الالب العالية الواقعة اليوم بين هذه الممالك الثلاث :
فرنسة وإيطالية وسويسرة ، الى حدود بحيرة كونستاتزة من ألمانية

فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم «تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا
 وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط » هو فى الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التى نحن
بسييلها لأنها هى خاتمة مطاف العرب فى أوروبة وفاتحة ما أفاضوا اليه من الممالك بعد
فتحهم للأندلس . واذا لحظت أنى قد بدأت بالرحلة وبتاريخ حملة العرب على أوروبة
من هذه الجهة كان لك أن تقول انى جعلت أولاً ما كان ينبغى أن يكون آخرأ، فان هذا
الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول
باعتبار ترتيب سياحتى التى بدأت فيها من الشمال الى الجنوب فرأيت أنا أولاً
ما فتحوه هم أخيراً ورأيت آخرأ ما احتلوه هم أولاً .

وبالجملة فموضوع هذا الكتاب هو أيام العرب، فى فرنسة وفى شالى الإيطالية وقلب
سويسرة . وهو أول تأليف عربى مستقل فى هذا الموضوع

تولوزة TOULOUSE

كانت تولوزة في قديم الدهر حارات متفرقة ولم تأخذ شكل مدينة الا في أيام الرومانيين ، ومن ثم صارت قاعدة مملكة التكتوزاجيين ^(١) ومركز علم وصناعة ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه . وبعد أن سقطت سلطنة رومة صارت تولوزة عاصمة ملوك القوط ، وبقيت دار مملكتهم من سنة ٤١٩ للمسيح الى سنة ٥٠٨ وكانت حينئذ قاعدة بلاد أكتانية المنضمة الى أسبانية . وسنة ٧٧٨ صارت كونتيّة مستقلة واشتهر من أمراءها الكونت ريموند الرابع ولم تنضم الى مملكة فرنسة إلا سنة ١٢٧١ للمسيح ^(٢) . في القرن الخامس كانت دار ملك القوط وفي القرن السابع والثامن كانت مركز دوقية أكتانية ، وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر صارت قاعدة كونتيّة تولوزة . ولما شن العرب الغارة على فرنسة كانت تولوزة من المدن التي قصدوها لكنهم لم يتمكنوا منها كما تمكنوا من أربونة وقرقشونة وغيرها .

وقد كانت غارة العرب على تولوزة في أيام امارة السمع بن مالك الخولاني على الأندلس وذلك لمضى إحدى عشرة سنة على دخول العرب الى اسبانية كما سيأتي عند الكلام على غارات العرب في جنوب فرنسة

(١) وهم جيل من الغولوا ولا نعلم Valces Tectosages هل هم الذين أشار اليهم صاحب نفح الطيب في أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشلولقات . وفي صبح الأعشى يذكر الشبوتقات ويقول إنهم ملكوا الأندلس وبلاد الافرنجة معاً وإن القوط خرجوا عليهم .

قرقشونة CARCASSONNE

مدينة على نهر الأود Aude وقناة الجنوب وهي قيمان: الأول الذي فيه القلعة وهو مبنى على متن رابية مشرفة على القسم الثانى وفيه بعض بيوت وشوارع ضيقة وكنيسة معروفة بكنيسة سان نازير Saint-Nazaire من بناء القرن الحادى عشر . وجميع أبنية هذا القسم العالى لا تزال كما كانت فى القرون الوسطى ، وليس مثلها فى كل فرنسة فى هذا الباب ، ولهذا هى مقصد السياح من كل فج . والقسم الثانى هو الذى على شاطئ النهر ويسمى قرقشونة الجديدة، وهى جديدة بالنسبة الى قرقشونة القديمة التى على الرابية . ولكن هى فى الحقيقة من زمن لويس التاسع ملك فرنسة ، أى القديس لويس الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر ^(١) . وأما تاريخ العرب فيها فالشهور أنهم افتتحوها فى سنة ٧١٣ للمسيح وأما بقيت فى أيديهم الى سنة ٧٥٩ على مااستقرأه عند الكلام على غارات العرب فى جنوبى فرنسة

مبدأ غارات العرب على فرنسة

وما اعتمدنا عليه من الروايات عنها

أهم كتاب وضع فى هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الفرنسى الشهير المسيو « رينو » ^(٢) « الذى عاش فى الثلثين الأولين من القرن الماضى ، وكتابه يسمى

(١) هو الذى قام بالحرب الصليبية وغزا مصر ، ووقع فى الأسر واعتقل فى دار ابن لقمان وقيل فيه :

وقل لهم ان أزمعوا عودةً لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

(٢) Reinaud واسمه جوزيف رينو ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧

« غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواى وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » (١)

فان جميع المؤرخين الاوروبيين ذكروا غارات العرب على فرنسا بعد استيلائهم على اسبانية وأجمعوا على أن شارل مارتيل الذى يسميه العرب قارله هو الذى أنقذ أوروبا فى وقعة « پواتيه » الشهيرة من الوقوع تحت سلطة العرب ، وأنه لولا انهزام العرب فى تلك المعركة لكانوا استولوا على أوروبا كلها وربما كانت بأجمعها قد دخلت فى الاسلام . ولا نقدر أن نحصى ما جاء فى كتب الاوروبيين من فرنسيس وألمان وانكليز واسبانيول وطيلىان فى هذا الموضوع ، ولا نجد لزوما لهذا الاستقصاء بعد أن قررّوه فى الجملة وأجمع عليه مؤرخوهم وأيدت ذلك تواريخنا العربية . وانما

Invasion Des Sarrazins En France et De France (١)
en Savoie , en Piémont et dans La Suisse

Pendant les huitième, neuvième et dixième siècles de notre ère .
D'après Les auteurs Chrétiens et Mahométans .

Par M . Reinaud

Membre de L'institut (Académie royale des inscriptions et belles - lettres) , conservateur - adjoint des manuscrits orientaux de la bibliothèque Royale , etc

وهو يعبر عن المسلمين بلفظة « سارازين » التى قيل انها أطلقت على العرب لكونهم غالباً سمر الألوان أشبه بالحنطة السمراء التى يقال لها « سارازين » وقيل بل هى محرفة عن « سرا كنو » التى هى المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن Scharaka أى شرقى أو « شراقة » أى شرقيين بالجمع . وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سرا كنو ؟ أى مسلم

كان غرضنا في هذا الكتاب استقصاء جزئيات هذه الغارات العربية الى قلب أوروبا والإحاطة بما يتسنى لنا من تفاصيلها . ولم نجد في هذا الباب كتاباً أوعى من كتاب المسيو رينو المذكور لأنه وضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ولأن واضعه هو من أشهر المحققين في المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها في الكتب اللاتينية القديمة بما جاء في الكتب العربية . وإنك لتجده لا يروى رواية ولا خبراً إلا ذكر في الحاشية مأخذ تلك الرواية أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلف والجزء والصفحة وأحياناً خزانة الكتب التي فيها ذلك المؤلف . وقد يورد النصوص بعينها لا سيما إذا كانت من التواريخ التي وضعت في عصر تلك الفتوحات . وكما أنه يستعمل هذه الدقة في الاستشهاد من كتب الإفرنجية فإنه يستعمل الدقة نفسها في الاستشهاد من كتب العرب ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا في تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه ، كما أننا اعتمدنا في تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالي إيطاليا ومن أهالي سويسرة عليه أيضاً وعلى مؤلف آخر من أهالي سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيللر^(١) سنأتي بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيو رينو وسنقابل جميع رواياتهم بما لدينا من التواريخ العربية الشهيرة

قال المسيو رينو في مقدمة كتابه :

جاء وقت كانت فيه فرنسة عرضة لغارات شعب أجنبي كان قد استولى على أسبانية وبلدان أخرى مجاورة لها ، وجاء بدين جديد ولسان جديد وأوضاع جديدة

Der Einfall der Sarazenen in der Schwæiz um die mitte des x . (١)
Yahrhenderts , Von Dr

Ferdinand Keller

Mittheilungen der antiquarischen Gesellschaft in Zürich

غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر تأليف الدكتور فرديناند كيللر

من مطبوعات جمعية الآثار القديمة في زوريخ

فأصبحت المسألة مسألة هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التي لما تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الانسان من دين ووطن وأوضاع أم لا ؟ وكان الناس يتساءلون عن كنه هذه الوقائع التي ترتب عليها احتلال ذلك الشعب لقسم من بلادنا ومن أية جهة وقعت ، وأية أحوال أحاطت بها ، وهل كان الغيرون كلهم من العرب أم كانوا من أمم شتى ؟ وما كانت نتائج هذه الغارات المتكررة كثيراً ؟ وهل بقى في البلاد منها آثار أم لا ؟

ولقد جرى البحث أكثر من مرة عن هذه القضية ولكن لم يعن أحد فيما يظهر لنا بأن يضع لهذا الموضوع تأليفاً خاصاً يحيط بجميع الوقائع التي نحن بصدها ويستنبط منها نتائج عامة ^(١) ولا شك في أن تأليفاً وافياً بهذا الغرض ينبغي له الجمع بين الروايات الأوربية المسيحية والروايات العربية الاسلامية ليعرف قول الغالب وقول المغلوب معاً .

ومن مدة طويلة كان الناس في أوربة قد لحظوا أن روايات مؤرخي أوربة المسيحية عن هذه الوقائع لم تكن كافية ، وإن الزمن الذي قد حصلت فيه هذه الحوادث وأغار فيه العرب على فرنسة هو أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سواداً . ففي سنة ٧١٢ عند ما بدأت هذه الحملات على فرنسة كانت هذه البلاد مقسمة بين أفرنج الشمال الذين كانوا يملكون « نوستريا » ^(٢) و « اوسترازايا » ^(٣)

(١) على أن رينو يستدرك هنا بقوله انه سبقه فيه مؤرخان أحدهما صاحب « خلاصة تاريخية لحروب المسلمين في بلاد الغال » والآخر صاحب « التاريخ العام للقرون الوسطى » قال :

Nous devons cependant faire mention du « précis historique des Guerres des Sarrazins dans les Gaules » par M . B . . . N . C . F. Paris 1810; et de " l'histoire générale du moyen - âge , , Par M. Desmichels, Paris 1831, T . II

(٢) Neustrie بلاد واقعة بين نهر اللوار وبريتانيا الافرنسية وبحر المانش ونهر الموز

(٣) Austrasie في شرق فرنسة قاعدتها متر

و « بورغونيا » ^(١) وبين افرنج الجنوب الذين كانوا يملكون « ا كيتانية » ^(٢) من نهر اللوار الى جبال البيرانه ، وبين بقايا القوط الغربيين ^(٣) الذين كان بقي في أيديهم قسم من مقاطعة « لانغدوق » ^(٤) وقسم من مقاطعة « بروفانس » ^(٥) وكانت الفوضى قد وقعت في الحكومة والمجتمع فلذلك لم تأتأ إلا معلومات ضئيلة عن ذلك العهد . ولم تبدأ الأخبار التاريخية تنجلي الا في أيام « بين » ابن « شارل مارتل » وفي أيام شارلمان بن بين . ولكن في ذلك الوقت كان المسلمون قد نكصوا الى الوراء . ثم عاد جوّ فرنسا فاربد ثانية في زمان أولاد لويس الحليم « Le Débonnaire » ووجد العرب غاراتهم على فرنسا أيام كان النورمنديون من جهة والمجار من جهة أخرى يشنون مثلها ويعيثون في الأرض مفسدين

ولا نقدر أن نقول ان تواريخ العرب عن تلك الحوادث كانت مستوفية الشروط ، فان المؤلفين الذين كتبوا عنها جاءوا بعدها بزمن فلم يعاصروها ، إلا أن يكون ثمة مؤرخون لم تصل إلينا كتبهم . فقد ذكر العرب أن لموسى بن نصير تاريخاً ألفه حفيده ، وان لأحد الشعراء قصيدة في تاريخ طارق بن زياد نظمها بعد عهده بقرنين . ولكن هذه الكتب التي كتبت بعد الحوادث بمدة غير قصيرة لم تكن مستوفية شروط التحقيق . وأكثر الأحيان يروى أصحابها روايات شفوية

(١) Bourgogne مقاطعة ذات شأن في شرق فرنسا قاعدتها ديجون كانت مملكة مستقلة ثم

صارت دوقية كبيرة وكانت تجاذب ملك فرنسا الجبل ولم تخضع تماماً للتاج الا سنة ١٤٧٧

(٢) Aquitaine مقاطعة من بلاد الغال القديمة تقع على ضفاف الغارون اليوم

(٣) Visigoths القوط الغربيون سنة ٤١٢ مسيحية زحفوا على بلاد الغال واستولوا عليها

وسنة ٤١٨ جعلوا طلويزة قاعدة ملكهم

(٤) Languedoc ولاية من جنوبي فرنسا قاعدتها طلويزة أوتولوز

(٥) Provence كانت مملكة مستقلة لها ملوك ثم أكتاد . ثم استلحقها الفرنسيين في زمان

كارلس الثامن وهي الآن تشتمل على بلاد الالب السفلى ومصاب الرون ومقاطعة القار وفوكالوز

عن أفواه الرواة^(١) وغير خاف أن العرب كانوا في ذلك الدور ، دور الحماسة والمجد ، لا يفكرون إلا في اعلاء شأن دينهم . فكان لا يهمهم شئ بقدر الشعر والضرب في أودية الخيال

إذاً حكاية العرب لوقائع غارات العرب على فرنسة كانت متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع المسيحي ، كما ان منها ما لم يتعرض العرب للبحث عنه أصلاً ولقد كان في أيدي العرب وسائل لمعرفة أحوال فرنسة الداخلية وما جاورها ، لأنهم عدا احتلالهم مدة مديدة جانباً منها كانت صلاتهم مع هذه البلاد مستمرة ، وكانت السفراء تختلف بين الفريقين الفينة بعد الفينة ، فقد ذكر المسعودي انه في نواح سنة ٩٣٩ مسيحية توجه إلى قرطبة مطران جيرون من كتالونية وكان اسمه « غودمار » Godmar وذلك في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وألف لولده الحكم المشهور بحبه للعلم تاريخاً لبلاد فرنسة من زمن كلوفيس إلى ذلك العهد^(٢) وكانت

(١) يقول رينو في حاشية هذه الجملة مايلى : ولا نقول شيئاً عن تاريخ « فتح العرب لاسبانية مرتين » لأبى القاسم طريف بن طارق أحد الذين حضروا الوقائع ، فان هذا التاريخ مقتعل وضعه في القرن السادس عشر للمسيح ميكال دولونا Miguel de Luna ترجمان الملك فيليب الثاني (٢) قال رينو في الحاشية على هذه الجملة : « ان اسم غودمار واسم جيرون وجميع هذا المبحث قد تعاورها الحذف والتبديل في أكثر نسخ مروج الذهب للمسعودي التي في الخزانة الملوكية (في باريز) وإنما اعتمدنا على نسخة كانت تخص الميسو شولز » اه

قلت : وجدنا في مروج الذهب للمسعودي طبعة مصر التي طبعت بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هجرية سرد هذه الرواية كما يلى : وجدت في كتاب وقع الى الفسطاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهده غومار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الافرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولى عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت ، في عهده : يأمر المؤمنين إن أول ملوك افرنجة « قلووزيه » وكان مجوسياً فتنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت . ثم ولى بعده ابنه لذريق . ثم ولى بعده قركان بن دفشرت . ثم ولى بعده ابنه تنين . ثم ولى بعده نازلة بن تنين وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة . وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس . وقد تواقع أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الافرنجة بسببهم ،

كتالونية أيام شارلمان خاضعة لمملكة فرنسة وكان مطران جيرون يعترف بسيادة لويس دوترمير Louis - d'Outremer وعليه نعتقد أن تاريخ فرنسة هذا الذى قال المسعودى انه عثر على نسخة منه فى مصر تاريخ صحيح . ولكن مع الأسف لم نعلم عن هذا التاريخ شيئاً الا هذا القليل الذى رواه منه المسعودى ^(١)

ومما كان يشق جداً على العرب كثرة الأسماء الأعجمية من أسماء الرجال والبقاع التى كانت تعرض لهم وكانت مجهولة عندهم . ولم يكن من المؤلفين عندهم وضع

وصار لذريق بن نازلة صاحب ملكهم فلك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر . وهو الذى أقبل الى طرطوشة فحاصرها . ثم ولى بعده ابنه نازلة وهو الذى تهادى مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان . وكان محمد يخاطب بالإمام . وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر . ثم ولى بعده ابنه لذريق ستة أعوام . ثم وثب عليه قائد الافرنجة المسمى برشة وملك افرنجة فأقام فى ملكهم ثمانى سنين ، وهو الذى صالح المجوس عن بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنج اليهم . ثم ولى بعده نازلة بن بغربرت أربع سنين . ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر . ثم ولى بعده لذريق بن نازلة وهو ملك افرنجة الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . واستوت مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب ما نعى الينا من خبره اه

قلت : فى الأسماء تحريف كثير عن الأصل ، فأما « قلووزيه » فهو كلوفيس ، هذا ظاهر . وأما أن له ولداً اسمه « لذريق » فهذا الاسم بدوت شك هو هنا خطأ من النساخ ، إذ أنه لم يكن لكلوفيس أو قلووزيه ولد يقال له لذريق Rodrigue وإنما كان له ولد اسمه « كلودومير » Clodomir ولعل العرب لفظوها « قلدمير » فجاء النساخ للكتاب وقلبوها الى لذريق . وأما « دفشرت » بن كلوفيس فهو تحريف أيضاً وأصله بدون شك « شيلديرت » Childeburt لأنه اسم أحد أولاد كلوفيس . وأما « تين » فهو تحريف أيضاً وأصله « تيرى » Thierry اسم أحد أبناء كلوفيس الذى كان له أربعة أولاد ، هؤلاء الثلاثة ، والرابع هو (كلوتير) Clotaire فأما نازلة فنظنه مجرد خطأ من النساخ وربما كان أصل اللفظة « كلوتره » أو « كلاتره » ولم يحسنوا قراءتها وقلبوها راءها زايأ فابتعدت جداً عن أصلها . وأما قول المسعودى عن مؤلف هذا الكتاب انه غومار مطران زهرة من مدن الافرنجة ، فقد تحققنا أن أصل اسمه غودمار وانه من جيرون ، وانه كان أسقفاً على « سيريه » Ceret من مدن « روسيون » Roussillon التى هى اليوم من مدن ولاية البيرانه الشرقية من فرنسة . فزهرة تحريف عن « سيريه » أو « سره »

(١) غير موجود هذا التاريخ بالفرنسية ولا بالاسبانية

الحركات . ثم كان نساخهم كثيرى السقط فى التنقيط فتبعد اللفظة عن أصلها بعداً يجعلها محاولة تماماً (١)

وقد كان مما يفيد فى هذا الباب المسكوكات التى كان يضر بها الفاتحون . الا أن العرب فى اسبانية وفرنسة لم يكونوا الى القرن العاشر يعرفون سوى مسكوكات قرطبة . فأما مسكوكات ما قبل هذا التاريخ فلم يكن فيها شئ سوى آيات قرآنية ولم يكن فيها ذكر ملك ولا أمير

فمن أجل هذا كان من الصعب جداً معرفة أخبار العرب فى الأدوار الأولى من استيلائهم على اسبانية . وأصعب منه معرفة أخبار استيلائهم على ما استولوا عليه من فرنسة

ومن الكتب النفيسة فى هذا الموضوع تاريخ « استيلاء العرب على اسبانية » الذى ظهر بالاسبانيولية فى السنوات الأخيرة لمؤلفه « كوند » Conde الذى كان لديه كتب عربية كثيرة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فاستقى بدون شك من منابع غزيرة الا أنه لم ينتدح له أن ينقح كتابه كما يجب وربما كان هو نفسه غير ماهر فى التمحيص (٢) . وهناك تأليف آخر لم يطالع عليه كوند وهو مجموعة رسائل مفيدة فى ايضاح

(١) هذا شأن الفريقين سواء العرب أو الافرنج عند ما يخوض كل فريق فى لغة الفريق الآخر . فليس تحريف « شيلدبرت » الى « دفشرت » الا من قبيل تحريف ابن رشد الى « افرويس »
(٢) اسم الكتاب Historia de la dominacion de los Arabes en Espana

ذكر رينو أنه ظهر ترجمتان لهذا الكتاب بالفرنسية إحداها ترجمة مخصصة بقلم الميسو أوديفره Audiffret فى كتابه عن تحقيق تواريخ السنين، والثانية بقلم الميسو « دومارليس » De Marlès قلت : ونحن عندنا ترجمة دومارليس مع حواشيتها وسننقل فى بعض الأماكن عنها . ولكن كتاب كوند هذا — والاسبانيول يقولون له « كوندى » — موصوف بعدم الضبط وكثرة الخطأ . وأكثر من أنحى عليه بالتخطئة المستشرق دوزى الهولاندى الذى يعده الأوربيون أفضل مؤلف عن الأندلس قرا ودرى . وقال قديره Kodeira المستشرق الاسبانيولى الذى يقال انه من أصل عربى : انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندى هذا

تاريخ اسبانية أيام العرب بقلم « فوستينو بوربون » الذى اطلع على المخطوطات العربية التى فى خزانة الاسكوريال وكان معظم همه تخطئة « تاريخ اسبانية » تأليف « ماسدو » Masdeu

وفى كتاب فوستينو بوربون هذا شواهد عربية محرفة الا أنه عنده بصر بالنقد وانك لتجد فى كلامه على جيوش العرب الفاتحين واختلاف أصولها الذى أدى الى تنازعها تدقيقات لا يعرفها كوند

اننا نحن لم نكن فى هذا التأليف لنجهل المشكلات التى ستعترضنا فى طريقنا لكننا برغم ذلك وجدنا فى استطاعتنا اضافة معلومات جيدة الى ما تقرر فى هذا الباب الى حد الآن . وفى الغزوات العربية التى لم نجد لها أثر رواية الا فى كتب الاوربيين أمكننا أن نصل الى أبعد مما وصل اليه « موراتورى » ^(١) والدون « بوكه » ^(٢)

ولقد اتبعنا فى عملنا هذا الطريقة الآتية وهى أن نمحص عن الوقائع شهادات المعاصرين أو الذين كانوا فى العهد أقرب من غيرهم اليها . ومهما قيل عن النقصان الذى فى روايات المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى ذلك العهد فاننا قد وجدنا فيها ما يستحق كثيراً من الاعتبار بحيث اذا تطابقت مع روايات العرب جزمنا بأن الحقيقة هى هناك . وأما ان لم تطابق روايات هؤلاء روايات أولئك فاننا ننقل حينئذ ما قاله كل من الفريقين ونبدى رأينا فى ترجيح الأقرب الى العقل . وأما المنابع التى لم تقدر أن نصل اليها فقد نبهنا عليها وأشرنا الى أما كتبها وذلك ك بعض وقائع رواها كوندى نقلا عن كتب العرب فقد كان الأحسن أن ننقل تلك النصوص بعينها ولكننا لم نظفر بها

(١) Muratori واسمه لودوفيكو اتونيو مؤرخ آثارى طليانى توفى سنة ١٧٥٠

(٢) Don Bouquet اسمه مارتين : راهب بنديكتينى مؤرخ بجائنة مشهور ولد فى (آمين)

Amiens بفرنسة وتوفى سنة ١٧٥٤

وفي آخر كتابنا هذا نذكر الشعوب التي انضمت الى العرب وأوشكت بالاتحاد مع العرب أن تخضع أوربة كلها لشريعة القرآن . فنحن نطلق على الجميع اسم « سارازين » وهي لفظة لم يجزم الى الآن في وجه اشتقاقها ، أو لفظ « المور » أى المغاربة . وذلك لأن العرب جاءوا أولاً الى المغرب ومنه دخلوا الى اسبانية فسموا من أجل هذا مغاربة . وليعلم أنه في أثناء ما كان المسلمون يكتسحون أراضي فرنسة ويحتاحون شمالى ايطالية وبلاد سويسرة كانت منهم عصابات حاكمة في صقلية وجنوبى ايطالية . ولم يكن لغارات هؤلاء صلة بغارات أولئك ولكن كان لها تأثير بعضها في بعض مما لم تفتتنا الاشارة اليه

ثم انه في جميع البلاد التي احتلها العرب طويلاً أو قصيراً كانت بقيت لهم آثار وسرت عنهم أخبار ، فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يحتاجون تلك الأرض ، وهناك كانت مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسماً على المارين ، وهناك كهف في واد كانوا يضعون فيه الغنائم ، وعلى تلك الجبال أبراج متناوذة كانوا يتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم ، وهلم جرأ . فالآثار والأخبار التي لا ترتكز على دليل وثيق من ذلك العصر نفسه لم تتعرض لها .

ومثل ذلك فعلنا بالقصص التي قصها الرواة الذين لم يعاصروا تلك الحوادث والتي هي أقرب الى أن تكون من عمل خيالات القصاص المولعين بأخبار الحماسة والمغرمين بأحاديث المجد والرئاسة

ففي القصص التي تروى الرواة عندنا أغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخى ذلك الوقت مثل تلقيبهم المسلمين « السارازين » بلفظة « باين » Payens أى وثنيين . وذلك ان المسيحيين كان من عادتهم أن يسموا جميع الأمم السالفة للنصرانية « وثنيين » وجميع الأمم التي حاربها الافرنسيس وثنيين . ومن جملة هؤلاء حسبوا المسلمين ! ولهذا فقد عزوا الى هؤلاء آثاراً ومباني وهياكل كانت في الحقيقة هي

من عمل غيرهم وليسوا منها في قبيل ولا دير
وكذلك لما كانت شهرة شارلمان قد غلبت شهرة الجميع فان القصاص نسبوا الى
أيامه حوادث وقعت من قبله وحوادث أخرى وقعت من بعده . فالوقائع التي
جرت في زمان شارل مارتل جعلوها في زمان شارلمان وما زالوا ينسبون الى أيام
شارلمان غزوات جميع الافرنج في بلاد المسلمين الى القرن العاشر بل الى آخر القرن
الحادى عشر أى الزمن الذى استصرخ فيه مسلمو الأندلس يوسف بن تاشفين ملك
المرابطين . فتأمل

ومن هذا النمط تعتمد بعض القصاص والزجالين أن ينحلوا أجداد ممدوحهم
فضل تحرير البلاد وطرد الاعداء . وذلك مثل قصيدة غيلوم دى الانف
الاصلم الذى ينسب اليه الشاعر اجلاء العرب عن تولوز ونيم واورانج وغيرها من
مدن فرنسة

ثم انه كان المجار قد جاءوا من شرقى أوربة وعاثوا في نواحي فرنسة ، فاختلط على
الناس ما عاثه المجار بما عاثه العرب ، بحيث كثيراً ما كان أولئك القصاص يسمون
المجار « سارازين » ويسمون الفاندال « سارازين » وممن قال بذلك الأب
« لو كوانت » P. Lecoinge مؤلف التاريخ الاكليريكى في فرنسة والدون
« مايون » Mabillon والأب « باجى » Pagi والدون « فاسيت » Vaissette
والدون « بوكه » Bouquet والحقيقة انه لم يوجد دليل واحد من رواية مرجعها
الى القرن الثامن يدل على كون الفاندال اجتاحوا فرنسة في ذلك العصر . وقد يقال
ان هذه الأقاويل وردت في تواريخ القديس « ديس » Saint - Denis الشهيرة
التي هي الحجّة الكبرى عند آبائنا . ولكن تواريخ القديس كتبت في أواسط القرن
الثانى عشر وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت .
ولم يزل التاريخ لم يحص ولم ينفصل عن الاقاصيص الى القرن السابع عشر

ولنعد الى موضوع كتابنا هذا فنقول: ليست المسئلة مسئلة اجتياح بعض مقاطعات محدودة بل قد بقى جانب كبير من فرنسة ميداناً لجيوش العرب مدة طويلة . ثم تجاوزوا منها الى « سافواى » و « بيمونت » و « سويسرة » واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة، وذلك من خليج « سان ترويس » الى بحيرة « كونستازة » ومن نهر الرون وجبل « جورا » الى سهول جبل « فرات » و « لومبارديه » ومما لا جدال فيه أن تذكر الغزوات العربية فى هذه الديار لم يكن بدون تأثير فى الحملات الصليبية وفى هذه الحركة العامة التى اندرأت بها أوربة على آسية وافريقية ووضعت أصحاب الانجيل فى وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة

لقد فسحنا بهذا الكتاب مجالاً للباحثين فى هذا الموضوع بحيث يمكن من يأتى بعدنا أن يأتوا بمعلومات جديدة عنه . ولما كانت الشقة بعيدة بين زمن هذه الوقائع والزمان الحاضر فقد بقيت فى كتابنا مواضع كثيرة مفتقرة الى الجلاء . ومع هذا فإن كنا قد قدرنا أن نلقى بعض الشعاع على هذا القسم الذى هو أغمض قسم من تاريخ فرنسة فلا يكون ذهب عناؤنا سدى

ولقد قسمنا كتابنا هذا الى أربعة أقسام : الأول ما يتعلق بحملات العرب الزاحفين من الأندلس مخترقين جبال اليرانه ^(١) الى أن طردهم « بين » القصير من « نابون » وكل « اللانغدوق » سنة ٧٥٩ مسيحية . الثانى ما يتعلق بغارات العرب برأ وبحراً على « پروفانس » فى نواحي ٨٨٩ . الثالث ذكر توغل المسلمين من پروفانس الى « دوفيني » و « سافواى » و « بيمونت » وسويسرة . الرابع شكل هذه الغزوات والنتائج التى ترتبت عليها .

انتهى ملخصاً كلام المستشرق الافرنسى رينو فى مقدمة كتابه ثم شرع رينو فى سرد الوقائع فقال تحت عنوان « القسم الأول فى حملات

(١) العرب يقولون جبال البرانس

العرب الأولى على فرنسا الى عهد اخراجهم من أربونة واللانغدوق سنة ٧٥٩ مسيحية :
لما وصف أحد مؤرخي العرب كيفية فتح أبناء ملته لاسبانية روى عن محمد (ص)
الكلمات الآتية : « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

وقد كاد يكون هذا هو الواقع . وجاء زمن ظن الناس فيه أن جميع الربع العامر
سيعنول راية النبي . فانه ماضت سنوات قلائل حتى ضرب الاسلام بجراحه على العراق
وفارس والشام ومصر وافريقية الى سيف الاوقيانوس الاطلنطيكي . ثم من افريقية
اغار العرب على اسبانية وما زالوا يجوسون خلال البلاد الى أن بلغوا فرنسا وصارت
جميع قارة أوربة تحت خطر استيلائهم . ثم من الجهة الاخرى تجاوزوا سيحون
وجيحون وما زالوا يفتحون البلدان حتى ظن أنه لن يقف في وجههم شيء إلا ان

(١) ذكر رينو في الحاشية أن هذا الحديث ورد في تاريخ اسبانية المقرى وقال ان منه مخطوطاً
في الخزنة الملكية وانه عبارة عن مجموع في عدة أجزاء قد ألفه صاحبه في أوائل القرن السابع
عشر ونقل عن كتب لم تصل الينا . وقد ظهر أن المؤرخ كوندى الأسباني لم يطلع على هذا
الكتاب . اهـ

قلت : هذا الكتاب هو « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب » للعلامة احمد بن محمد بن احمد المقرى المغربى التلمسانى المالكي الأشعري رحمه الله .
وهو من أشهر كتب الأدب والتاريخ في العربية . ألفه صاحبه في سنة ١٠٣٧ هـ ، وذلك في
الشام حيث كان قد ألقى عصا التسيار بعد أن حج البيت الحرام وزار المسجد الأقصى . وقد ذكر
في مقدمة الكتاب أن له بالشام تعلقاً من وجوه عديدة : أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام . ثانياً
ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام . ثالثاً ان غالب أهل الأندلس هم من عرب الشام الذين اتخذوا
بالاندلس وطناً مستأنفاً . رابعاً ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها الشبهها بها في القصر
والنهر والدوح والزهرة الخ

أما حديث « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » فقد رواه مسلم وأحمد والنسائي وهو مروي عن أبي الربيع العتكي وقتيبة
ابن سعيد عن حماد بن زيد (واللفظ لقتيبة) : حدثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء

كان من الحدود الطبيعية التي للكرة الارضية
وكان مركز هذه السلطنة التي لانهاية لها هو في سورية بمدينة دمشق القديمة
وكانت الرئاسة الروحية والدينية في الخلفاء بني أمية . وكان الخليفة يومئذ هو
الوليد^(١)

وكان العرب قد وجدوا في افريقية أمة تسكن جبال الاطلس اسمها البربر
اشتهرت بصعوبة المراس وبجبال الحرية والاستقلال وقاتلت القرطاجنيين والرومانين من
دونها . وكان بعض هؤلاء البربر يهوداً وبعضهم نصارى وبعضهم وثنيين . وكان هؤلاء البربر
لسان خاص بهم . ومنهم من كان يتكلم بلغة تقرب من العربي والعبري والفينيقي^(٢)
فسواء كان هؤلاء البربر بقايا شعوب جاءت من أرض كنعان وفينيقية^(٣) أو كانوا

عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ
مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ السَّكَنَ فِي
الْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ بَعَامَّةٌ (وعلى رواية
أخرى : بسنة عامّة) وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ
وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمَّتِكَ
أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةً بَعَامَةً وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ
بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال : مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا) حَتَّى
يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » اهـ

- (١) الوليد بن عبد الملك بن مروان
(٢) استند رينو في ذلك على الجريدة الآسيوية الجديدة نقلا عن مقدمة ابن خلدون والأصح أن
يكون ابن خلدون تكلم عن ذلك في تاريخه الخاص بالبربر وهو أحسن تاريخ لهذه الأمة . وقد
ترجم الى الافرنسية بقلم البارون « دوسلان » De Slane وأعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت
إشراف « بول كازانوف » من أساتيد مدرسة فرنسا Collège de France وهو جزآن
(٣) استشهد رينو على هذه الرواية بكلام بروكوب Procope في تاريخ حروب الفندال

قد رحلوا من اليمن فرارا من وجه الاحابيش الذين كانوا قد استولوا على بلاد اليمن^(١) فهذا التشابه في اللغة كان عاملا كبيرا في استقرار دولة العرب في افريقية واعان البربر العرب في فتوحاتهم ومغازيهم . وأضف الى ذلك كون العرب والبربر متشابهين أيضا في البداوة وسكنى الوبر وشطف العيش وطلب النجعة وحب القتال وشن الغارات

خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد

فما رسخت أقدام العرب في افريقية حتى فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين افريقية واوربة . وكان ذلك سنة ٧١٠ م وأمير افريقية من قبل الخليفة هو موسى بن نصير من أهل الحجاز، ولد في زمان عمر بن الخطاب ورضع مع اللبن الغرام بالغزو حباً في نشر عقيدة التوحيد^(٢) . وكان عمره يوم قام بهذه الغزوات ثمانين سنة . ولكن كانت فيه همه الشبان تتوقد نارها لم يفتر منها شيء . وكانت اسبانيا تحت

وبتاريخ لوبو Lebeau الافرنسي الذي أنف تاريخ دولة بيزنطية Hisoire du Bas - empire

(١) استشهد رينو بكلام ابن خلدون وبتاريخ أهل افريقية الشمالية الذي وضعته لجنة من أكاديمية الآثار الكتابية والآداب بفرنسة ونشر سنة ١٨٣٥ وبغير ذلك

(٢) ولد موسى بن نصير اللخمي بالولاء المسكني بأبي عبد الرحمن في سنة ١٩ للهجرة في خلافة عمر رضى الله عنه . قال ابن خالكان انه كان عاقلا كريماً شجاعاً تقياً وكان من التابعين روى عن تميم الدارى . وكانت ولاية موسى على افريقية سنة ٨٩ بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك وهو الذى أداخ البربر بعد حروب شديدة، وبعد أن دوخ المغرب كله الى السوس الأقصى استعمل مولاه طارق بن زياد البربرى على طنجة وترك عنده ١٩ ألف فارس من البربر بالعدد السكاملة وكانوا أسلموا وحسن اسلامهم وترك عندهم بعض العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية أى بلاد تونس اليوم ، وقد أطاعته كل بلاد المغرب ، وعند ذلك أرسل الى طارق بغزو الأندلس . وسيأتى خبر موسى وطارق وغزواتهما مفصلاً في باطن هذا الجزء ثم في الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لاسبانية . وكانت وفاة موسى سنة ٩٨ بوادى القرى من الحجاز وعمره ٧٩ سنة فالصحيح أنه لما فتح الأندلس كان ابن ٧٣ سنة

حكم القوط وكان الأمير عليها لذريق^(١) . وكان يتبعها من أرض فرنسة مقاطعة «روسيون»^(٢) وقسم من «اللانغدوق»^(٣) من (بروفنس)^(٤) وكانت في اسبانية حواضر حافلة بالعمرات زاهرة، إلا أن روح الانتقاض كان كامناً في النفوس، وفساد الاخلاق كان قد تغلغل في جسم الأمة فلم يكن عجباً أن تسقط مملكة كهذه ولو عظيمة في ظاهرها بيد عدد قليل من المتدينين الأحامس الذين يسوقهم الى الحرب حب الغنائم، فضلاً عما يعتقدونه من انهم مرسلون من الله لهداية البشر

غرب موسى التجربة الاولى ببعض برابر أجازهم الى طريفة^(٥) فعاثوا ونهبوا ولم يصادفوا مقاومة فاشتد بذلك عزم موسى . وفي السنة التالية (٧١١) جرد تجريدة جديدة اثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر عقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله ، واحتز رأس لذريق وبعث

(١) Rodrigue رودريق والعرب تقول لذريق آخر ملوك القوط باسبانية كان أبوه دوق قرطبة فغضب عليه غيطشة ملك البلاد وسمل عينيه فثار لذريق على غيطشة وقاتله وهزمه واستوى على عرش اسبانية مكانه . فاتفق أولاد غيطشة مع الكونت يليان والى سبته واستنجدوا العرب وأجاز طارق بن زياد الى الأندلس وهزم لذريق وجوعه بالقرب من شريش كما سيأتى الكلام عليه في الأجزاء التالية . وقتل لذريق في المعركة وأخذ العرب رأسه . وقيل بل غاب ولم يدر أين وقع وإنما وجد المسلمون فرسه الأبيض وهذه رواية « أخبار مجموعة »

(٢) Roussillon هي المقاطعة المسماة بالبرانة الشرقية استولت عليها فرنسة سنة ١٦٥٩ قاعدتها (برينيان) Perpignan

(٣) Languedoc هي المقاطعة الواقعة الى الشمال من روسيون وقاعدتها تولوز وكان استيلاء فرنسة عليها سنة ١٢٧١

(٤) Provence هي مقاطعة عظيمة في جنوبي فرنسة تضم جبال الالب السفلى ومصاب نهر الرون وبلاد القار والفوكلوز وقد تقدم التعريف بها

(٥) Tarifa والعرب يقولون طريف مرسى في جنوبي الأندلس بازاء جبل طارق الى الغرب ، سمي كذلك باسم أبي زرعة طريف بن مالك النخعي من جماعة موسى بن نصير كما سيأتى الكلام عليه في الجزء التالى

به الى الخليفة ^(١) في دمشق . وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطيطة . وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواءً أطعم منه عسكره . وطارق بن زياد ^(٢) هو الذي سمي باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق .

(١) هذا على إحدى الروايات وقيل إن لذريق لم يوجد بعد المعركة لحياءً ولا ميتاً
(٢) ذكر ابن عذارى المراكشي صاحب « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » نسب طارق بن زياد فقال : هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفوم بن بزغاسن بن ولهاص بن يطومت بن نقزاو ، فهو نقزى ، ذكر أنه من سبي البربر وكان مولى موسى بن نصير . وقال : في سنة ٩٢ من الهجرة خرج طارق الى الأندلس وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر ورهائنهم الذين ترك موسى عنده وكان قد أخذهم حسان (أى حسان بن النعمان أمير إفريقية لعبد عبد الملك بن مروان) من المغرب الأوسط قبله . وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة ٨٥ وفي هذا التاريخ تم اسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون الى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات . اهـ وسند ذكر عن طارق ما هو أوسع من هذا في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب . وأما ان طارقاً أطعم عسكره من لحم أسرى العدو فقد ذكر رينو في حاشية كتابه أن راوى هذا الخبر هو ابن القوطية في كتابه « فتح الساميين للأندلس » قال رينو : وقد عاش ابن القوطية في النصف الثاني من القرن العاشر للمسيح . وقيل له ابن القوطية لانه من ذراري ملوك القوط باسبانية اهـ

قلت : قيل له ابن القوطية نسبة إلى جدته ابنة « وبه » ابن « غيطشة » ملك اسبانية الذي انتزع لذريق منه الملك وانضم بسبب ذلك أولاد غيطشة الى العرب . هذه رواية ابن خلكان قال : وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أربطاس ، فتزوجها في الشام عيسى بن مزاحم من موالى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وسافر معها الى الأندلس ، وجاءت القوطية بكتاب من الخليفة الى عامله على الأندلس فكف عمها عنها وأصفها مما كان لها قبله ورعى حرمتها وطالت حياتها الى أيام الأمير عبد الرحمن الداخل فكانت تدخل عليه وتقضى حاجتها وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم . ذكر ذلك في كتاب الاحتفال في أعلام الرجال تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عفيف . انتهى ملخصاً . وابن القوطية المؤرخ هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسي الأشبيلي الاصل القرطبي المولد والدار

فالمسلمون المؤمنون كانوا يرون هذا الجهاد مما يزيد سواد المسلمين ويضمن لهم الجنة ، والمسلمون الذين لم يكونوا يفكرون في أمر الآخرة قد رأوا في الأندلس قطراً خصباً فياضاً بالخيرات فيه كل ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين . فاجتمعت اذاً في هذا الفتح مقاصد الدنيا والأخرى وانتظم فيه الاحتساب مع الاكتساب . ومما لانزع فيه أنه قد كان من أهم أسباب فوز طارق في الأندلس عضد اليهود الذين كانوا كثيرين في اسبانية وكان المسيحيون يغلظون في معاملتهم ويعدون عليهم أنفاسهم فلما أقبل العرب وجدوا فيهم إخواناً يأخذون بثأرهم ^(١) وينفسون من خناقهم

أما في فتح الطيب فيقول انها سارة بنت « المند » كبير أولاد غيطشة ، بسط عمها ارطباش يده على ضياعها فأنشأت سارة مركباً حصيناً في اشبيلية وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ، ثم قصدت باب الخليفة هشام بدمشق ، فأبته خبرها وشكت ظالمتها من عمها واحتجت بالعهد المنعقد لانيها واخوته على الخليفة الوليد ، فأوصلها هشام الى نفسه وأعجبه صورته وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله على افريقية بانصافها من عمها ارطباش ، فأنفذ لها الكتاب بذلك الى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمه فتم لها ذلك وأنكحها الخليفة عيسى بن مزاحم فابتنى بها في الشام . ثم قدم بها الى الأندلس وولد له منها ولده ابراهيم واسحاق فأدركا الشرف المؤثر والرئاسة بأشبيلية . انتهى ملخصاً

(١) ذكر دوزى R. Dozy المستشرق الهولاندى الشهير في الجزء الثانى من تاريخه لدولة المسلمين في اسبانية عللاً كثيرة لسرعة فتح العرب لتلك البلاد سنذكرها في مكانها ، الا أننا نعلم منها هنا بقضية اليهود التى قد أشار اليها رينو في كتابه . فقال دوزى : ان رجال الدين الكاثوليكى كانوا يرهقون اليهود عسراً وبيالغون في إيذائهم . قال المؤرخ الفرنسى المشهور ميشله Michelet كان الناس في القرون الوسطى كلما سألوا : لما ذا هذا العالم الذى ينبغي أن يكون المثل الاعلى من الفراديس في ظل الكنيسة نراه اتقلب جميعاً ؟ أجابهم الكنيسة : « لان هذا من غضب الله الذى يرى أن قتلة ربنا لا يزالون وافرين »

فبدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة ٦١٦ في أيام الملك « سيسبوت » Sisebut . وتقرر اعطاء اليهود مهلة سنة ليتنصروا فان لم يتنصروا في خلال تلك السنة نفوا الى خارج اسبانية وضبطت أملاكهم وجلد كل منهم مائة جلدة . فتنصر منهم تسعون ألفاً من مجرد الرعب . ولكن المتنصرين كما لا يخفى لبثوا يختنون أولادهم سرا ويدينون بدين موسى . فقرر جمع الاساقفة الرابع المنعقد

فلما بلغ موسى بن نصير ما فتحه الله على يد طارق هاج أشد هياج للأخذ
بنصيبه من هذا الفتح وأقبل بجيش من العرب والبربر^(١) ومعه واحد من
أصحاب محمد عمره مائة سنة وكثير من أبناء الصحابة^(٢). وقد انتحى موسى طريقاً

في طليطلة تركهم أخيراً وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لاجل تنسيتهم في النصرانية . ثم في المجمع
السادس في طليطلة قرر الاساقفة أنه لا يؤذن بمبايعة ملك على اسبانية الا على شرط انفاذ قرارات
المجامع الاسقفية بحق اليهود . وبرغم هذا كله بقي يهود في تلك البلاد كثيرون ، ولكن استمر
المسيحيون يعذبونهم نحو من ثمانين سنة الى أن فرغت جعبة اضطبارهم فأجمعوا الثورة بمظاهرة
يهود البربر في افريقية ، ووعدهم هؤلاء بالاجازة الى الاندلس لاجل نجاتهم . وكان ذلك في زمن
الملك « اجيكا » Egica الذي بلغه هذا الخبر فجمع الاساقفة وبعد أن استوثقوا من صحة الخبر
قرروا استبعاد اليهود بأجمعهم وضبط جميع أملاكهم . ومن الغريب أنه قضى على بعض اليهود
بأن يكونوا عبيداً لمن كانوا عبيداً ، وتقرر أن يؤخذ أولادهم من بعد بلوغ سن السابعة وينشأوا
في النصرانية ولم يكن يؤذن بزواج اليهودي من اليهودية ، بل كان لا بد لليهودي بعد أن صار
عبداً من أن يتزوج بأمة مسيحية . وكان لا بد لليهودية من أن تتزوج بعبد مسيحي الخ

فلما جاء المسلمون وفتحوا اسبانية كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحرهم المسلمون من
الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم فنشمووا نسيم الفرج ، فلذلك كانوا
هم والارقاء وجميع الضعفاء من أعظم أنصار الاسلام . انتهى ملخصاً

(١) جاء في نفح الطيب نقلاً عن الرازي أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس في رجب سنة

٩٣ واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى وكان موسى في عشرة آلاف

(٢) جاء في النفح : زعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة اسمه
المنذر ، قال : ودخلها من التابعين (الذين صحبوا من صحب النبي صلى الله عليه وسلم) ثلاثة :
الامير موسى بن نصير ، وعلى بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل ان ثالثهم انما
هو حنش الصنعاني ، صنعاء الشام ، (قرية كانت على باب دمشق دون المزة) وانهم قفلوا عنها
بقول موسى . وأهل سرقسطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم
مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه اه . وقيل ان التابعين الذين دخلوا الاندلس أربعة
بأبي عبد الرحمن الجيلي الانصاري وخمسهم بعضهم بحيان أبي جبلة مولى بني عبد الدار كان في ديوان
مصر فأرسله عمر بن عبد العزيز الى افريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها . وكان روى

غير الطريق التي سلكها مولاه طارق وفتح بلداناً أخرى مثل ماردة^(١) وسرقسطة^(٢) وكان أكثر جنده من الفرسان وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفة

عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وغزا مع موسى بن نصير وانهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرشونة (هي حصن Carcassonne في جنوبي فرنسة) اهـ . وقال ابن الأبار في التكملة : حيوة بن رجاء التميمي ، ذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه وأنه من جملة التابعين . قاله ابن بشكوال . وقال ياقوت في معجمه عند ذكر صنعاء الشام : وحش بن عبد الله الصنعاني — صنعاء الشام — سمع فضالة بن عبيد ، روى عنه خالد بن معدان والحلاج أبو كبير وعامر بن يحيى العامري . قال ابن الفرضي عداؤه في المصريين ، وهو تابعي كبير ثقة ، ودخل الأندلس . قال : وهو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد بن قتيان بن ثعلبة بن عبد الله بن تامر السبائي وهو الصنعاني يكنى أبا رشيد (بفتح الياء) كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قتل علي ، وغزا المغرب مع ربيعة بن ثابت والأندلس مع موسى بن نصير (الى أن يقول) ومات بافريقية وولده بمصر . وقيل مات بمصر . وقيل بسرقسطة ، وقبره بها معروف ، كل ذلك عن ابن الفرضي . اهـ . وأما المنذر الصحابي فقد جاء في الفتح أن ابن حبيب لم ينسبه وانما ذكره ابن عبد البر (الأندلسي) في الصحابة ، وقال انه المنذر الافريقي . وروى عنه أبو عبد الرحمن الجيلي . قال : حدثنا المنذر الافريقي ، وكان سكن افريقية ، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً فأنا الزعيم له فلا تخزن يده فلا أدخله الجنة » رواه ابن عبد البر بسنده اليه

(١) Mérida من ولاية بطايوس والى الشرق منها وهي بلدة من بناء أغسطس الروماني استولى عليها العرب نحواً من ٥١٥ سنة ، وسيأتى ذكرها في الجزء الآتي من الحالة

(٢) أصل اسمها عند الايبيريين « سالدوبة » وقد سميت سرقسطة . في زمان الرومانيين باسم الإمبراطور أغسطس فهي Cesar-Augusta أى سيزار أوغسطة وقد حرقها العرب الى سرقسطة وكان يقال لها الثغر الأعلى لأنها قاعدة الحدود بين العرب والافرنجة ، وكان القوط استولوا عليها سنة ٤٧٦ وحاصرها الافرنج (الافرنسيون) في زمان أحفاد كلوفيس فعجزوا عنها ، ولما استولى العرب على اسبانية كانت من القواعد الكبار ، وحصرها شارلمان في أيام عبد الرحمن الداخل وعجز عنها واسترجعها الاسبانول سنة ١١١٨ كما سيأتى الكلام عليه ، بعد حصار استمر تسعة أشهر وحرب استمرت خمس سنوات . دخل اليها محرر هذه السطور سنة ١٩٣٠ في أواخر

من حملة الارزاق بالغال . وان مؤرخى العرب متفقون على أن موسى بن نصير وصل بغزواته الى فرنسة ، وأنه فى « ناربون »^(١) وجد فى احدى الكنائس سبعة تماثيل فضية منقوشة ، وكذلك فى قرقشونة عرضت لمطامعه فى كنيسة « سانت مارى » سبعة أعمدة كبار هائلة من الفضة^(٢)

وكان العرب يطلقون على فرنسة اسم « الأرض الكبيرة » ويعنون بها جميع الأرض الواقعة بين جبال البيرانه (التي يقول لها العرب البرانس) وجبال الألب والاوقيانوس ونهر البام ومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق فى الحقيقة على فرنسة

يونيو وشاهد أهم آثارها ومن جملتها قصر الجعفرية المنسوب الى أبى جعفر أحمد ، بناه فى أواسط القرن الحادى عشر للمسيح ، ولا يزال الجامع الذى فيه محفوظاً . ومما شاهدناه فيها كنيسة « السيو » التى بنيت على اتقاض الجامع الاعظم . وبقي الاسبانول يشتغلون بها من سنة ١١١٩ الى سنة ١٥٢٠ فجاءت من أفخم كنائس أوربة . ولها باب من الجهة الشمالية الشرقية لا تزال عليه الصنعة العربية والزليج الذى تمتاز به قصور العرب . وفى هذه الكنيسة قبة بالنحاس الاصفر من صنع المهندس العربى الذى كان يقال له الرامى ، بنيت سنة ١٤٩٨ وفيها من الزخرف شئ كثير يحار له العقل . وفى سرقسطة كنائس كثيرة بدیعة غير هذه وقصور وجسر على نهر « ايره » يصل بين البلدة والربض Rabal ويلفظون الربض « رابال » وهو لفظ غريب ، ولكن له أصل فى العربى ، وقد سمعت أناساً من ثقیف ومن هذيل يقلبون الضاد لاماً ، وذكرت ذلك فى رحلتى الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف . هذا وسكان سرقسطة اليوم ١١٠ آلاف نسمة

(١) Narbonne والعرب يقولون لها أربونة كانت قاعدة ثغورهم الشمالية مدة نصف قرن ، وهى مدينة على مسافة قريبة من البحر يمر بها جدول من نهر الود ، وقد دخلتها سنة ١٩٣٠ فى أوائل سبتمبر وأنا قافل من الاندلس ، ورأيتها تشبه كثيراً المدن العربية فى ضيق أزقتها وازدحام بيوتها ، ورأيت فيها الاشجار التى تكثر فى البلاد العربية كالتين والصبير والرمان وما أشبه ذلك . وفيها زقاق منسوب الى السمح Zama وهو السمح بن مالك الخولاني . وعدد سكانها الآن لا يزيد على ٣٠ ألف نسمة

(٢) فى الصفحة ١٣٠ من نفح الطيب الجزء الاول الطبعة الازهرية يقول : قال بعضهم ان بين قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة « سنت مريه » وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الرءاوت مثلاً ، لا يحيط الانسان بذراعيه على واحد منها مع طول مقرط

في زمن شارل مارتل (١) وابنه بين (٢) ولا سيما في زمان شارلمان (٣) . وكانت الأمم التي في هذه المملكة تتكلم بعدة لغات كما يقول مؤرخو العرب

(١) Charles Martel أى كارل المطرقة ، والعرب تقول « فارله » ابن « باين دريستال » ولد سنة ٦٨٩ واتهمه أبوه بقتل أخيه « غريموالد » فحبسه في « كولونيه » ولما مات أبوه سنة ٧١٤ صار هو حاجب الملك مكان أبيه بمساعدة الاوسترازين وقهر النوستريين في عدة وقائع واستبد بأمر الملك شيلبريك الثاني ، ثم بأمر « تيرى » الرابع ، ولم يبق لأحد منهما من الملك سوى الاسم، وحارب الصكصون والبافارين وتغلب عليهم، وهزم أولاد دوق اكيثانية، الا أن هذا لما رأى العرب فتحوا بلاده استصرخ قارله ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فحشد لقتال العرب عصابات الاوسترازين والألمان، وتغلب على الأمير عبد الرحمن الغافقى في وقعة بواتيه سنة ٧٣٢. ومن بعدها لقب بالمطرقة أو الصاقور . وأجمع الأوروبيون على أن هذه الواقعة هى التي أثبتت أوربة والنصرانية من الاسلام . ثم طرد العرب من « نيم » وغيرها ، لكنه لم يقدر على طردهم من أربونة أو ناربون . وكانت وفاته سنة ٧٤١ وقد ترك من الولد « بين القصير » و « كرلومان » و « غرينون » و « رمى » و « برنار » و « جيروم » فاقتسم المملكة الأولان فيما بينهما وصار « رمى » مطراناً على مدينة روان Rouen

(٢) Pepin le Bref بين القصير ابن قارله، حارب الصكصون والبافارين وأمير أكيثانية . وفى سنة ٧٥١ بويع ملكاً على الفرنج Les Trancs وهو أول الدولة الكارلوفنجية Carlovingienne وكانت مبايعته بعضد الكنيسة. وترك من الولد شارلمان Charlemagne وكارلومان Carloman ومات سنة ٧٦٨ وهو الذى استرد أربونة وقرقشونة من أيدي العرب (٣) هو كبير ولد بين القصير، كانت ولادته في نوستريا سنة ٧٤٢ وتولى الملك هو وأخوه كارلومان الى أن مات هذا سنة ٧٧١ فانفرد شارلمان بالملك وحارب الاكيثانيين واللومباردين وقهرهم وأخذ ملك لومباردية أسيراً ، وحارب الصكصونيين والبافارين والتورنجيين والسلاف والآفارين والدانمركيين، ودوخهم جميعاً . ولكن أشد حروبه كانت مع الصكصونيين اذ جرد عليهم ٣٣ تجريدة ولم يبرح حتى أدخلهم في الطاعة وفي النصرانية معاً ، وكانوا من أشد أعدائها فبث فيهم الدعاة والمبشرين حتى تنصروا قاطبة . وبلغت جيوشه شرقى أوربة ، وانتزع من يد روم القسطنطينية سواحل دالماسيا (اليوم في يوغوسلافيا) وبلدان الدانوب ، وهكذا دخل في حوزته كل ما كان يسمى بأوربة المسيحية . وتوجه البابا لاون الثالث امبراطوراً على الغرب في سنة ٨٠٠ وجدد به السلطنة الرومانية . وكان عدا غرامه بالفتوحات مجتهداً في تنظيم ادارة رعيته وتوزيع العدالة بينها ، وفي تهذيب الأهالى وتعليمهم وايداب الثوار منهم ، فهو أعظم ملوك الغرب في القرون الوسطى،

وقد كان أشد ما بهت له المسيحيون أو انشد أنهم كانوا يرون أعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد . وكانت طريقهم في الفتح أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا على سكانه في مالهم ولا في دينهم ، وإنما كانوا يحولون جانباً من الكنائس الى جوامع ويغنمون ما فيها من النفائس ، ويضعون أيديهم على الأراضي التي ترح أهلها وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة . وكانت الجزية التي يضربونها على الأهالي متفاوتة بحسب الاحوال وربما أخذوا من الأهالي رهائن ليستوثقوا منهم . فأما البلاد التي لم تخضع لهم الا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال . وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم

وقد ذكر مؤرخو العرب في عرض الكلام على الفتوحات العربية في فرنسة أنه قد كان مقصد موسى بن نصير رحمه الله المعاد الى دمشق حضرة الخلافة عن طريق المانيا ماراً بالقسطنطينية وبآسية الصغرى ، بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الاسلامية ، يخدم مواصلات بعضها مع بعض . أما مؤرخو المسيحيين فلم يذكروا شيئاً عن دخول موسى الى أرض فرنسة . ولعل زحفة

خطب وده نيقوفور ملك الروم وهارون الرشيد خليفة العرب وأدارسة المغرب وغيرهم من الملوك المعاصرين

وقاتل شارلمان العرب قتالا مستمراً ، براً وبحراً ، وأجلاهم عن جزيرتي كورسيكا وسرديانية ، واسترجع منهم بلاد كتالونية وأراغون الى سرقسطة . وذلك بمساعدة اسبانيول آستوريا وناباريه . ولكنه لم يتمكن من فتح سرقسطة . وبينما هو قافل عنها دهمه الباشكنس في « رونسفالس » فاستأصلوا ساقه جيشه وقتل في ذلك اليوم « رولان » Roland أحد الأبطال الذين رافقوا شارلمان في تلك الحملة ، وهو الذي وضعت له الأفاصيص في فرنسة وتغنت بوقائعه شعراؤهم وزجالوهم ، أشبه بعنتره عندنا . وقيل ان العرب هم الذين هزموا جيش شارلمان في البيرانه وظاهرهم الباشكنس

موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة مر بها كخطفة البازي ورجع . ومما لا مشاحة فيه أن النصرانية كانت يومئذ تحت أشد الأخطار . وان الانسان ليرتجف رعباً عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحلّ بأوربة لو لم يقع الخلف من أول الأمر بين العرب الغالين » اه كلام رينو ملخصاً

وقد استشهد رينو هنا بكلام المقرئ فوجب أن ننقل قول المقرئ في هذا الصدد جاء في الصفحة ١٢٩ من الجزء الأول من نفتح الطيب ما يأتى ببعض اختصار : كانت نفس موسى بن نصير تزعج الى جليقية (وهى ما يسميه الافرنج Galicie غاليسيا وقاعدتها مدينة كان العرب يسمونها شانت ياقو Santiago ويقول لها الافرنج Saint - Jacques De Compostelle) فيها هو يعمل في ذلك ويُعد له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوجود فيها ، فسأله ذلك وقطع به عن ارادته ، اذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب الى وقت ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة ، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك (هو فى الافرنجية Luque) فأقام هناك وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز . وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين . فاتسع نطاق الاسلام بأرض الأندلس ، وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الأمل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى فى القبول وكتب اليه يوبخه وألزم رسوله ازعاجه . فانقلع حينئذ من مدينة « لك » بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقبله مع نفسه ومضيا جميعاً ، وقفل معهما الرسولان مغيث وأبو نصر

حتى احتلوا اشبيلية . فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الأندلس وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر . وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه . وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنة ، وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر . وحمل موسى الغنائم والسبي وهو ثلاثون ألف رأس والمائة (سيأتي ذكر ذلك كله في محله من الجزء الآتي) منوهاً بها ومعها من الجواهر مالا يقدر قدره وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاتته أسف على ما لحقه من الازعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد افرنجة ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس في الشام ، متخذاً مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيباً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومحبيهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحراً . وقيل انه أوغل في أرض افرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هي : « يابني اسماعيل انتهيتم فارجعوا » فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعني كبير . فشاور أصحابه في الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية اهـ

وجاء في نفح الطيب بعد ذلك بصفتين ما يأتي : وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي هي : ارجعوا يابني اسماعيل الخ — مامعناه : (وان سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض ^(١)) اهـ

(١) قصة الكتابة العربية هذه أشبه بأن تكون ملفقة أو محرفة عن قصة أخرى . والحقيقة أن عدم تحقيق موسى بن نصير مقصده العظيم ذاك من اختراق أوربة من الغرب الى الشرق ونفوذه الى دمشق عن طريق القسطنطينية لم يكن عن قراءته في الصخر كتابة عربية أو سريانية ، فالذي يقوم بتلك الأعمال الكبيرة الخارقة للعادة لا يكون ممن يعمل فيه الوسواس لكتابة كهذه يجوز — ان صح خبرها — أن تكون كتابة محدثة نقرأها الافرنج أنفسهم ليدخلوا الوهل على قلوب العرب بعد أن رأوهم أوغلو في بلادهم وصمموا أن يصلوا الى غايتها . وانما لم يتمكن موسى بن نصير

وقال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير الى الأندلس ما يلي :

« نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر ، فوافوا خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز الى الأندلس ، وتلقاه طارق فانقاد واتبع . ويقال ان موسى لما سار الى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل طارق وتم الفتح وتوغل في الأندلس الى برشلونة في جهة المشرق ، وأربونة في الجوف ، وصنم قادس في الغرب . ودوَّخ أقطارها وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز الى الشام ودروب الأندلس ودروبه ، ويخوض اليه ما بينهما من

من اكمال مشروعه بسبب الحاح الخليفة الوليد عليه في القدوم الى دمشق ليفقه منه على حقيقة خبر الأندلس وافرنتجة ويشافيه في عمل عظيم كهذا لا تكفي المسكنة من بعيد في تديره . وقد يكون الوليد خاف على المسلمين أن تأكلهم القاصية أو تنزل بهم داهية ، وأنت تعلم أن موسى بن نصير لما اتصل به يليان كونت سبتة وشوكة الى غزو الأندلس انتقاماً من الملك لذريق الذي كان اغتصب ابنة يليان على ما سيأتى خبره في الجزء التالي ، وكتب موسى الى الوليد يخبره بما دعاه اليه يليان ويستأذنه في اقتحام الأندلس كان جواب الوليد أن : خضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . فراجعته موسى بأنه ليس ببحر زخار وأنما هو خليج منه يبين للنظر ما خلفه . فكتب اليه الخليفة : وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه

فاذا كان الخليفة لم يسمح لموسى بعبور بحر الزقاق وهو خليج ضيق عرضه ١٤ كيلو متراً الا بعد مراجعات متعددة فكيف يسمح له باختراق أوربة من اسبانية الى فرنسة الى ايطالية الى بلاد البلقان الى القسطنطينية الى آسية الصغرى بدون أن يتروى في الأمر ويرويه مرة قبل أن يقدم عليه ، فقد كانوا في اشفاق دائم على جيوش المسلمين أن يقطعوا عن مركز الخلافة وتحمل بهم نائبة وسترى فيما بعد أن الأندلس كانت امتلاّت بالمسلمين ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لا يزال يفكر في اخراج المسلمين منها وإعادةهم الى افريقية خوفاً عليهم لا تقطاعها عن بلاد الاسلام ، ولقد صح خوفه من بعد ثمانمائة سنة . فالخليفة الوليد باستقدامه موسى بن نصير اليه كان قد وقف المشروع حتى يتروى فيه ، ولكن ما وصل موسى الى دمشق حتى مات الوليد وخلفه سليمان أخوه وكان حاقداً على موسى فنكبه تلك النكبة الشنيعة وجازاه على فتوحاته جزاء سنار ، وعطل ذلك المشروع بحقه واثقاده الى هواء دون المصلحة العامة . وسترى في كلام ابن خلدون أن استخدام الوليد لموسى لم يكن الا من خوفه على المسلمين

بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق . ونفي الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتدَّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما همَّ به موسى تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف وأسرَّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين أن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده . ففتَّ ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها . واستعمل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة . واحتلَّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها ، بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر . يقال أن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي . وولى على إفريقية ابنه عبد الله ، واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب ، فكان صاحب القيروان ناظرأف في الجميع . وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولى الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه . وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان . وكان خيراً فاضلاً وافتتح في ولايته مدناً كثيرة . وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة القهري . وكان سبب غضب سليمان على موسى أنه لما توجه إلى المشرق وانتهى إلى مصر وصل أشرافها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد، ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من سليمان يثبطه، فأسرع موسى باللاحق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال، فغاض ذلك سليمان ، وأساء مكافأته حين أفضى الأمر إليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع . وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك . اهـ

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني : ارتدَّت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحري الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الإسلام

بالمغرب وأذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة . اهـ

وقال ابن عذارى الرا كشي في «المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب» مايلي :
وفي سنة ٩٦ توفي الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة وولى الخلافة سليمان
فغضب على موسى غضباً عظيماً وأمر عليه فأوقف في يوم شديد الحر ، في الشمس ، وكان
رجلاً بادناً ذا نسمة ، فوقف حتى سقط مغشياً عليه ، وقال له سليمان : كتبت اليك فلم
تنظر كتابي هلمّ مائة ألف دينار . فقال : يا أمير المؤمنين : قد أخذتم ما كان معي من
الأموال فمن أين لي مائة ألف ؟ فقال سليمان : لا بد من مائتي ألف . فاعتذر . فقال :
لا بد من ثلاثمائة ألف دينار وأمر بتعذيبه وعزم على قتله . فاستجار يزيد بن المهلب
وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال : يؤدي ما عنده . وقيل ان موسى
افتدى من سليمان بألف ألف دينار . ذكر ذلك ابن حبيب وغيره . ثم ان يزيد بن
المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له : يا أبا عبد الرحمن في كم تعتدّ أنت وأهل
بيتك من الموالى والخدم أم تكونون في ألف ؟ فقال : نعم وألف وألف . قال : فلم
ألقيت بيدك الى التهلكة ؟ أفلا أقمت في قرار عزك وموضع سلطانك ؟ فقال : والله لو
أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئاً ، ولكني آثرت الله عز وجل ولم أر الخروج
عن الطاعة . اهـ

قلت : لم يكن يزيد بن المهلب بالذي يجهل فضل الطاعة للخليفة وشناعة شق
العصا ، ولكنه قال لموسى هذا الكلام لما أثار من غيظه عمل خليفة كسليمان بن
عبد الملك برجل عظيم خدم الإسلام ما لم يخدمه أحد مثل موسى بن نصير . فقد كافأه
بمالا يكافأ به مجرم . وهو في الحقيقة لا من أعظم رجال الإسلام فقط بل من أعظم
رجال العالم . وحسبك أنه هو الذي دوخ البربر المشهورين بشدة البأس وصعوبة المراس
بعد أن أشعلوا ثورات ، لا ينادى وليدها ولا يحصى عديدها ، وبعد أن ارتدوا عن
الإسلام اثنتي عشرة مرة . فلم يستقر إسلامهم الا على يد موسى بن نصير . وحسبك

أنه دخل الأندلس واستتم فتحها واستنصف ممالكها وهو ابن ٧٥ سنة وكان جميع جيشه هو وطارق لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل . ولو أن قائداً معه ثلثمائة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأتخن فيها ما أحاطه موسى وأتخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حواليه كالأبحر الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفوفاً لهمته بل حدثته نفسه التي قل مثلها في نفوس البشر، في بعد المهمة، أن يوغل في أرض الأفرنج ويعطف منها الى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية .

وقرأت في تاريخ « دول الاسلام » للإمام الذهبي أن موسى بن نصير توفي في وادي القرى عن ٧٨ عاماً ، وأنه كان يقول : لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية

وروى ابن عذارى أنه أقام على المغرب والأندلس أميراً نحواً من ١٨ سنة ومما ذكر في وفاته أنه حج مع الخليفة سليمان فلما وصلا الى المدينة قال موسى لأصحابه : ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب . وبالفعل كان موسى الرجل الذي ملأ اسمه المشرق والمغرب وكان في الرجولية كالصخرة التي تنحط عنها السيول

هذا ولم يكتفِ سليمان بن كتيبة موسى في شخصه حتى نكب جميع أولاده . فأمر محمد بن يزيد أمير إفريقية بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بني موسى ، فسجنه محمد وعذبه ثم قتله .

وأما عبد العزيز بن موسى فقد رويت في أسباب قتله روايات كثيرة، أقربها الى العقل أنه لما بلغه ماحل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع طاعة بني مروان، فجاء أمر سليمان الى وجوه العرب بالأندلس بقتله، فقتلوه وحمل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعها بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه (١) .

(١) جاء في كتاب « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة الضبي ترجمة عبد العزيز ابن موسى بن نصير قال : كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها سنة ٩٥ فأقام واليها الى أن كتب سليمان بن عبد الملك الى الجند هناك فقتلوه وأتوه برأسه . كذا قال سعيد بن يونس . وكان قتله فيما قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في سنة ٩٩ وقال : ان الجند

قال ابن عذارى : « فكان فعل سليمان هذا بموسى من هفوات سليمان التي لم تزل تنقم عليه »

قلت : من هفوات ابن عذارى أن يعبر عن أعمال سليمان هذه بلفظة هفوات . وهى فى الواقع من الجرائم التي لا تغفر . ولكن مما لا يجوز أن ننسأه أن موسى بن نصير أخذته الغيرة مما وفق اليه طارق بن زياد من الفتوح ، وأهانته ، بعد أن تلاقيا فى الأندلس . وكان هذا العمل الصغير غير متناسب مع كبراة نفس موسى وعلو همته ولم يخلُ من تأثير فى قضية نكبته لأن طارقاً شكاً الى الخليفة ما فعله به وظاهره فى ذلك مغيث الرومى رسول الوليد الى الأندلس . قال صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم » وهو من أقدم ما كتب من تواريخ الأندلس يظهر أن صاحبه حرره ^(١) فى عهد الحكم

اجتمعوا على قتله لأمر نقموها منه وبلغتهم عنه فثاروا به وقتلوه وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وانه لما احضر بين يدي سليمان حضر موسى بن نصير فقال له سليمان : أعرف هذا ؟ قال : نعم أعرفه صوماً قوماً فعليه لعنة الله ان كان الذي قتله خيراً منه اه
(١) قد أورد دوزى المستشرق الهولاندى المتخصص بتاريخ الأندلس عن كتاب « أخبار مجموعة » هذا بحثاً مدققاً كعادته فى المقدمة التي وضعها بالفرنسية على كتاب « المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى المرأ كشى فقال دوزى ما محمله :

« ان العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ فى القرنين الأولين من استيلائهم على اسبانية وذلك لأن العرب كانوا يعتمدون كثيراً على الروايات الشفهية وان قوة ذاكرتهم لعجبية فليس فى الأمم أمة تضاهيهم فى حفظ ما يحفظونه من وقائع وسنين وأعلام وأنساب وذلك بدون ضياع ولا تحريف الا مالا بال له . فلم يكن بهم حاجة اذا الى كتب مدونة . وكان التاريخ فى جميع الأفواه يتناقله الأبناء عن الآباء . ثم ان الذين كانوا يشتغلون بالكتابة كان عددهم نزرأ جداً وكانوا اذا كتبوا اختاروا التأليف فى الديانة وكانت التأليف فى غير الديانة مكروهة . فلهذا ندرت الكتابة فى التاريخ فى الصدر من أيام أمراء بنى أمية بالأندلس . وقع هذا فقد وجدت شذرات تاريخية من ذلك العهد ملحقه بتاريخ ابن القوطية وعليها هذا الاسم التالى : أخبار مجموعة فى افتتاح الأندلس وذكر من وليها من الأمراء الى دخول عبد الرحمن بن معاوية وتغلبه عليها وملكه فيها هو وولده والحروب الكائنة فى ذلك بينهم . ومن تأمل فى هذا الاسم علم أنه موضوع الكتاب وشك فى أن يكون هو اسمه . لهذا قد كنت ظننت أن « أخبار مجموعة » هو « الكتاب الخزانى »

المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - : انه لما دخل موسى الأندلس كان ذلك سنة ثلاث.

الا أتى رأيت ابن الخطيب ينقل في كتابته عن الصميل بن حاتم فصلا عن الخرائتي لم أجده في مخطوط « أخبار مجموعة » الذي في خزانة باريز . فعدلت عن هذا الرأي . والذي يدور عليه الكلام في أخبار مجموعة هو كيفية فتح العرب للأندلس ثم الحروب الأهلية التي وقعت بينهم الى زمان عبد الرحمن الداخل ومن عهده الى زمان عبد الرحمن الثالث وهناك ينتهي الكتاب . ويظهر أن المؤلف عاش الى ما بعد سنة ٣٥٠ لأنه يذكر أن عبد الرحمن الثالث ملك مدة خمسين سنة . بل أظن أن المؤلف عاش بعد ذلك بكثير لا في أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث ولا في زمن المنصور ابن أبي عامر بل في القرن الحادى عشر للمسيح لأنه عندما ذكر كيف فكر عمر بن عبد العزيز في نقل المسلمين من الأندلس هتف قائلا : « وليت الله كان أبغاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله » وغير ممكن أن يكون كاتب شاهد لفتوحات الحكم الثاني وفتوحات المنصور ابن أبي عامر ويقول هذا الكلام وهو كلام جدير بالعربي الذي شاهد حوادث الأندلس في عهد تفهقر العرب فيها كالقرن الحادى عشر للمسيح (أى بداية الأربعمئة للهجرة) الذي كاد فيه الاذفش السادس يستولى على جميع ديار المسلمين في الجزيرة الأندلسية ، ولكن يوجد في هذا الكتاب فصل لا يمكن أن يكون قد كتب الا في القرن العاشر المسيحي وهو الذى يقول فيه : أخبرنا محمد ابن الوليد . وهو رجل محدث ترجمه الحميدى مات سنة ٣٠٩ . ثم انه يقول في مكان آخر انه سمع رواية فرار عبد الرحمن الداخل عن فم أحد معاصرى هذا الأمر ؟ وهو تناقض غريب اذ ينبغى أن يكون سمع من فم رجل عاش في القرن الثامن . وعبارته هذه هي : أخبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدء حديث هربه قال الخ. فلاجل التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ينبغى أن يكون بعض هذا الكتاب كتب في أواخر القرن الثامن وأن النسخة المحفوظة في مكتبة باريز قد اشتملت على فصول كتبها بعض رجال القرن الحادى عشر فهو بالحقيقة مجموعة تواريخ لا تاريخ واحد ومما يجدر بالذكر أن كل من تأمل في هذا الكتاب يرى مؤلفيه من أنصار دولة بنى أمية اه

قلت : يجوز أن يكون في هذا الكتاب روايات مجموعة لعدة رواة منهم من تقدم ومنهم من تأخر ولكن تشاؤم مؤلف الكتاب بمصير الأندلس لا أراه بسبب كون المشائم عاش في القرن الحادى عشر للمسيح أو الرابع للهجرة ، بل يجوز أن يكون قد عاش أيام الفتوحات والطوائل ويبقى متشائماً وذلك لاستمرار الفتن بين مسلمى الأندلس بدون انقطاع ولأن الشيطان ألقى بينهم روقه فأطاعوه وهذا مع نقل حملهم وكثرة عدوهم واتصال الأندلس بالأرض الكبيرة أى أوربة ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين خطر هذا المقام من بداية الأمر والعامل بشغوف بصيرته يدرك طرفاً من خزائن الغيب، وصدور الأمور مؤذونات بأعجازها . وسندكر فيما يلي من الأجزاء خلاصة ما قاله دوزى عن تواريخ الأندلس العربية .

وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفاً — وهذا خلاف الرواية التي نقلها المقرئ وهي أنه دخلها بعشرة آلاف — وقد بلغه ما صنع طارق فحسده فلما نزل الجزيرة قيل له : اسلك طريقه . قال : ما كنت لأسلك طريقه ، فقال له العلوج الأدلاء : نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله . فامتلاً بذلك سروراً ، فكان فعل طارق قد غمّه ، فساروا به الى مدينة شدونة فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم اليه ، ثم سار الى مدينة قرمونة ^(١) فقدم اليها العلوج الذين معه وهي مدينة ليس في الأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار . وقد قيل له حين دعا اليه ليست تؤخذ الا باللطف ، فقدّم اليها علوجاً ممن قد آمنه واستأمن اليه مثل يليان ولعلمهم أصحاب يليان ، فأتوهم على حال الافلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم فلما دخلوها بعث اليهم الخيل ليلاً وفتحوا لهم باب قرطبة — من أبواب قرمونة — فوثبوا على أحراسه ودخل المسلمون قرمونة . ومضى موسى الى اشبيلية وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا وأعجبها بنيانًا وآثارًا ، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلب القوطيون حولوا السلطان الى طليطلة ، وبقي شرف الرومانيين وفقههم ودينهم ورئاستهم في دنياهم باشبيلية ، فأتاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهراً . ثم ان الله فتحها وهرب العلوج الى مدينة باجة فضمّ موسى يهودها ومضى الى مدينة ماردة . وكانت أيضاً دار بعض ملوك الأندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوت الوصف ، فحصرها وقد كان أهلها خرجوا اليه وزحمهم دفعة ، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر ، قتالا شديداً . فلما رأى خروجهم اليه أبصر فيها حفراً كانت مقاطع للصخر فأكن فيها الرجال والخيل ليلاً ، فلما أصبح زحف اليهم فخرجوا اليه كهيئة خروجهم بالأمس ، فركبهم المسلمون وخرج عليهم الكمين وقتلوا قتلاً ذريعاً ونجا من نجا منهم الى المدينة . وهي مدينة حصينة لها سور لم يبنِ الناس مثله ، فثبت

(١) مدينة مبنية على متن أكمة عالية تنحط عنها الأرض من جميع جهاتها وحولها سهول فيح الى مسافة بعيدة قد زرتها سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الأندلس وشاهدت آثارها وحصونها المتهدمة وهي من عمل اشبيلية

عليهم يقاتلهم أشهراً حتى عمل دبابه فذبّ المسلمون تحتها الى برج من أبراجها فنقبوا
صخره فلما نزعوا صخره أفوضوا في داخله الى الصماء التي يقال لها « اللاشه ماشه »
بلسان أهل الأندلس، فنبت عنها معاولهم وفؤوسهم . فبينما هم يضربون فيها إذ استفاق
عليهم العلوج فاستشهد المسلمون تحت الدبابه فسمى بذلك البرج « برج الشهداء » الى اليوم .
وما أقل من يعرف هذا . وكان فتحه لها في رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر .
فلما كان من أمر الشهداء ما كان ، قال العلوج : قد كسرناه فان كان يوماً مجيئاً الى
الصلح فاليوم فاطلبوه اليه . فخرجوا اليه فألقوه أبيض الاحية فراوضوه على شيء لم
يوافقه ثم رجعوا . فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا اليه ليراوضوه فاذا هو قد شبب لحيته
بالحناء ، فألقوه أحمر الاحية ، فعجبوا وقال قائلهم : أظنه يأكل ولد آدم أو ما هذا الذي
رأيناه بالأمس . ثم خرجوا اليه يوم الفطر فاذا الاحية سوداء فرجعوا الى أهل مدينتهم
فقالوا : يا حماقي انما تقاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشبيون ^(١) قد صار
ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً ، اذهبوا فأعطوه ما سأل . فصالحوه على أن جميع
أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها
له . ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وتسعين . ثم ان عجم أهل اشبيلية تحيلوا
على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبلة ومدينة يقال لها باجة وقتلوا من
بها من المسلمين - قتل فيها ثمانون رجلاً - فقدم فلهم على موسى بن نصير بماردة فلما
فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش الى اشبيلية فافتتحها ورجع . ثم مضى
موسى من ماردة في عقب شوال يريد طليطلة . وبلغ طارقاً اقباله فخرج معظماً له متلقياً
فلقيه بكورة طليطلة ، فلما رآه نزل اليه ، فوضع موسى السوط على رأسه ووبنه فيما كان
من خلاف رأيه ، ثم سار به الى مدينة طليطلة ، ثم قال له : أحضرنى بما أصبت وبالمائدة ^(٢)
فأتاه بها وقد اقتلع رجلاً كسرهما من أرجلها فقال له : أين هذه الرجل ؟ فقال : انى لا

(١) ماورد في كتب اللغة فعل « تشبب » بمعنى جعل نفسه شاباً ويظهر أن الكاتب قاسها
على فعل « تشيخ » أى صار شيخاً

(٢) سنأتى بخر هذه المائدة التي أصابوها بطليطلة في الجزء القادم عند الكلام على فتح طليطلة

علم لي، كذلك أصبتها . فأمر بالرجل فعمل لها من ذهب وعمل لها سفظ من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومدانها . اه
ولم يرد في « أخبار مجموعة » أن موسى دخل بلاد افرنجة . ومقتضى كلام صاحب هذا التاريخ أن هذا حصل من بعده فانه يذكر بعد ولاية موسى بن نصير ولاية ابنه عبد العزيز، ولا يذكر ان مقتل عبد العزيز كان بشارة من سليمان بن عبد الملك كما ذكر كثير من المؤرخين ، ولا يقول ان عبد العزيز بن موسى خرج عن الطاعة بعد ما بلغه ما فعل الخليفة بأبيه، بل بالعكس هو يقول انه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على افرقية بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزيد بن النابغة اللذين قتلاه ، وان يقفلهما اليه مع من شرهما في قتله من وجوه الناس

الولاية على الأندلس بعد موسى بن نصير

وهو يذكر أن أهل الأندلس ولوا عليهم بعد عبد العزيز والياً صالحاً كان يؤمهم في صلاتهم هو أيوب بن حبيب اللخمي ^(١) ابن اخت موسى بن نصير . وتولى بعده الحر بن عبد الله الثقفي . ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تولى السمع ابن مالك الخولاني، وأمره الخليفة بأن يخمس الأراضي ويخرج منها ما كان عنوةً خمساً لله من أرضها وعقارها ويقر القرى في أيدي غنمها بعد أن يأخذ الخمس، وأمره بأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها . وكان رأيُه انتقال أهلها منها لانتقاعهم عن المسلمين .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : ولت الله كان أبقاء حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وهذه العبارة تدل على أن عقلاء المسلمين ، من أول الفتح وفي أيام عنجبية

(١) هو الذي بنى « قلعة أيوب » والاسبانيول يقولون Calatayoud وهى مدينة مررنا عليها في طريقنا من سرقسطة الى مجريط

العرب بالأندلس وأيام كانت قرطبة عاصمة فيها مليون ونصف من السكان وكان في الأندلس من عز الاسلام ما كان ، لم يزالوا يستشعرون خطر القمام بتلك البلاد نظراً لانقطاعها عن بلاد الاسلام ولكثرة فتن العرب بعضهم مع بعض وقتن العرب مع البربر وغير ذلك .

هذا وبعد السمح بن مالك الخولاني تولى عنبسة بن سحيم الكلبي ، ثم يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم عثمان بن أبي سعيد الخثعمي ، ثم حذيفة بن الاحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد فى واقعة بلاط الشهداء ^(١) ثم عبد الملك بن قطن المحاربى القرشى ^(٢) .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون فى البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس اه

وذكر المؤرخ (كوندى) الاسبانيولى أن الحر الثقفى هو الذى تجاوز حدود الأندلس الى بلاد افرنجة ونواحى أربونة وسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقال : ان غزو الحر لافرنجة وصرف قوته الى الجهاد فى بلاد الغال كانا من الأسباب التى سهلت للمسيحيين المتجئين الى جبال آستوريا الاجتماع على العصيان

(١) هى واقعة بواتيه الشهيرة

(٢) فى الجزء الخامس من صبح الأعشى ورد ترتيب أمراء الأندلس كما يلى : موسى بن نصير أقام بالأندلس سنتين واستخلف عليها ابنه عبد العزيز ، ثم وليها بعد قتله عبد العزيز بن عبد الرحمن القيسى سنتين وثلاثة أشهر ، ثم وليها السمح بن مالك الخولاني سنتين وتسعة أشهر ، ثم وليها عنبسة ابن سحيم الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر ، ثم وليها يحيى بن مسلمة سنتين وستة أشهر ، ثم وليها حذيفة بن الأحوص القيسى سنة واحدة ، ثم وليها عثمان بن أبي نعة الخثعمى خمسة أشهر ، ثم وليها الهيثم بن عبيد خمسة أشهر ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى سنتين وثمانية أشهر ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى أربع سنين ، ثم وليها عقبة بن الحجاج خمس سنين ، وشهرين ، ثم وليها مفلح ابن بشر القيسى أحد عشر شهراً ، ثم وليها حسام بن ضرار الكلبي سنتين ، ثم وليها ثوبة الجذامى سنة واحدة ، ثم وليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى تسع سنين وتسعة أشهر ، وكانت دولة بنى أمية بالأندلس . انتهى

وقد جاء فى الحاشية فى الطبعة الأميرية من الكتاب تصحيح لهذا الترتيب من ذلك أن أول وال بعد عبد العزيز هو أيوب بن حبيب اللخمى كما فى نفح الطيب والعبر

وزرع نواة المقاومة ووضع أساس دولة مسيحية في اسبانية محل الدولة التي كانت قد بادت . وقد انضم الى هذا السبب سبب آخر أراد الله به تيسير أمرهم هو سحق الناس على ادارة الحرّ، وتبرّم الدهماء بعسفه ، المسلمون والمسيحيون في ذلك سواء . فان الحرّ كان قد آسف الخاصة والقواد والأمراء وصاروا إلّبا عليه، وكانت الأهالي في غاليسيا وليون والجبال الأستورية حديثة العهد بالخضوع للعرب ، فثقل عليهم الظلم أكثر مما ثقل على الذين أطاعوا من قبل . وظهر في ذلك الوقت رجل استفاد من هذه الأحوال الروحية في الشعب وجمع شمل بقايا حزب المقاومة وثار به ، وهو بيلاي^(١) أول ملك لاسبانيول بعد دخول العرب للأندلس اه

وذكر صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وأخبار أمرائها والحروب الواقعة بينهم » أن عبيد الله بن الجحباب بن الحارث ، مولى بني سلول من قيس ، عندما ولاه الخليفة مصر أقرّ بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبة بن الحجاج السلولى الأندلس فدخلها سنة ١١٠ وافتتح الأرض حتى بلغ اربونة

ثم ذكر أنه لما وقعت الواقعة بين العسكر الشامى وعبد الملك بن قطن أمير الأندلس في خبر سيأتى ذكره في الجزء الآتى، وقتل الشاميون عبد الملك وصلبوه في قرطبة، كان ابنه في نواحي اربونة . قال صاحب « أخبار مجموعة » : فلما بلغ ابنه ما كان حشدا من أقصى اربونة وراجعا أهل البلد والبربر، وسيوفهم تقطر من دماء البربر، فرضيت البربر أن تنال ثارها من أهل الشام^(٢) فاذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى . فأقبل

Pélage (١)

(٢) وذلك أن عبد الملك بن قطن كان قاتل البربر الثأرين عليه، بأهل الشام، وهزمهم وأوقع بهم وأخذ ثأر العرب الذين كان البربر قد أخرجوهم من جليقية واسترقه وشمالى الأندلس . ولكن لم تستقر الغلبة للعرب حتى عادوا الى أحقادهم القديمة وثار الجند الشامى بعبد الملك وقتلوه واضطر ولده قطن وأمية أن يرجعا الى البربر ويستعينا بهم على العرب . وقد جاء نسب عبد الملك بن قطن في بغية الملتمس هكذا : عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن حجوان بن عمر بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر الفهرى أمير الأندلس وليها سنة ١١٥ بعد عبد الرحمن العكى من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى الأمير بافريقية وقتل بالأندلس سنة ١٢٥

قطن وأمّية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب، وأقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب اربونة، فأقبلوا في مائة ألف أو يزيدون اه
ومن هنا يعلم القارىء ما كان من بال العرب بأربونة منذ خيم الإسلام بعقرتها
وما كان من وفرة جيوشهم فيها لأجل الرباط وسداد الثغور

رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسا

نعود الى كلام المستشرق «رينو» في موضوع غارات العرب على جنوبي فرنسا
فهو يذكر ان فتن العرب المستمرة المصطلمة، بعضهم مع بعض، قد نفّست من
خناق المسيحيين في الاندلس وفرنجة. ويقول: ان معظم اهتمام الخلفاء كان وقتئذ
توجه الى الاستيلاء على القسطنطينية التي كانوا أغزوها جيشاً عدته مائة وعشرون
ألف مقاتل وأسطولا عدده ألف وثمانمائة سفينة. ولا شك ان سموهم الى فتح
شرقي أوربة شغلهم عن الزحف على غربي أوربة. ولكنه يقول: ان مؤرخي
العرب ذكروا مع ذلك بعض غارات على «اللانغدوق» في أيام ولاية الحر الثقفي
سنة ٧١٨ مسيحية.

وقد أيد هذه الرواية «إيزيدور» اسقف «باجة»^(١) وهو من المؤرخين الذين
عاشوا في ذلك العصر، و«لذريق شيمينيس» مطران طليطلة^(٢) وقالوا: ان العرب
زحفوا الى الامام حتى وصلوا الى مدينة «نيم» ولم يجدوا مقاومة ورجعوا بالغنائم
والسبي الكثير.

قال رينو: ولم تكن مقاطعات جنوبي فرنسا لتقدر أن تقف في وجه
العرب المندفقين عليها من جبال البيرانه، وكان الحكم للدولة المعروفة بدولة
«الكسالي»^(٣) اذ ذاك، وكانت بلاد اللانغدوق يقال لها «القوطية» Gotie

(١) قال رينو في الحاشية انه نقل روايات إيزيدور الباجي عن مخطوطات متعددة

(٢) لذريق شيمينيس: كتب في القرن الثالث عشر للمسيح. واعتمد على كتب العرب. قال رينو

ان تاريخه مطبوع بالعربي واللاتيني في ليدن

(٣) Fainéants هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على أواخر ملوك الدولة الميروفنجية الذين

بسبب طول مقام القوط بها . وقد يقال لها أيضاً « سبيتانية » أى « السبعية » لاشتغالها على المدن السبع : اربونة، ونيم، واقد، وبيزيه، ولوديف، وقرقشونة، وماقلونة^(١) وكانت من جملة مملكة « اود » دوق اكينتانيه^(٢) وكان هذا يدعى انه من ذرية الملك كلوفيس^(٣) وبهذا السبب كان من أبناء عم ملوك فرنسا الشمالية فكان يكره بطبيعة الحال حجاب القصر الذين قد استولوا على الامور واستبدوا بها من دون الملوك ولم يبق لهم هم الا فى توطيد سلطتهم وسلطة جنس الفرنج^(٤) فى تلك المملكة مما ثنى أعنتهم عن صدّ العرب الموجفين على جنوبي فرنسا

فصارت بلاد اللانغدوق والبروفانس متروكة لاهلها الغالين^(٥) وكان هؤلاء شعباً مركباً من أعقاب الرومانين القدماء ومن القوط . وكانت لكل من الفريقين عادات خاصة وشرائع يمتاز بها . فلم يكن من واق لجنوبي فرنسا فى ذلك الوقت أحسن من وقوع بأس العرب فيما بينهم . وذلك ان حكومة اسبانية العربية كان مرجعها القيروان فى افريقية ، وحكومة افريقية كانت عائدة الى دمشق دار الخلافة . فلم يكن من الممكن أن تكون سلطة موزعة الى هذا الحد، وأن تتعدد مراكزها كل هذا التعدد وأن يستتب بها النظام ، وأن تقيم على الطاعة رجالات نشأوا فى ظلال السيوف . ثم ان النزاع كان وقع بين العرب والبربر، وبين المسلمين وغير المسلمين من الجيوش الفاتحة ولما كانت أراضي المسيحيين التى دخلت فى حوزة الفاتحين قد صارت الى ايدى عدد

سلموا الأحكام لحجاب القصر تسليم خلفاء قرطبة بعد الحكم المستنصر الى المنصور بن أبى عامر ثم الى أولاده من بعده . وقد استمرت هذه الحالة فى فرنسا من عهد « تيرى » الثالث (سنة ٦٧٥) الى عهد « شيلديريك » الثالث (٧٥٢)

(١) Narbone, Nime, Agde, Beziers, Lodève. Carcassonne et maguelone

(٢) Eudes duc D'itquitaine

(٣) Clovis أول ملوك فرنسا هذا الذى يسميه السعوى كلوزيه

(٤) Les Francs الفرنك وهم من السلالة الجرمانية تغلبوا على فرنسا فسببت اليهم وتسمت بهم ثم ان العرب تلفظوا بها « الفرنج » أو « الافرنج » وغلبت هذه اللفظة على كل الأوربيين

(٥) Gaulois نسبة الى بلاد الغال. والفرنسيس يقولون الغول

من ذوى الأَطْع، وحرّم كثير من المستحقين، الفء الذى يستحقونه، أدّى ذلك النزاع أخيراً الى القتال وسالت الدماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض. وهناك سبب آخر كان به أعظم الفرج لفرنسة نفس من خناقها وأرخی من رباقتها وهو انتقاض عصابة من مسيحي اسبانية فيهم شماس وصعوبة مراس ثاروا بالعرب ثورة الضواری، وأبوا الا الدفاع عن دينهم ووطنهم، فلجأوا الى جبال آستورية^(١) وغاليسية^(٢) ونابار^(٣) وهناك بدأوا بمقاومة لم تضع عصاها الا باجلاء المسلمين أجمع عن تلك البلاد وكان الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز اطلع على مادب من الخلل الى موقف العرب بالاندلس، فأنفذ اليها السّمح بن مالك الخولاني أميراً، وعهد اليه باصلاح الامور ورم الثغور. وكان السّمح مدبراً حكيماً وقائداً باسلاً وسائساً حازماً، ذا دربة بتمشية الأمور، فرتق الفتوق ووازن بين الدّخل والخرج وأنصف الجند في الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الأراضى وعهد بما بقى منها الى وكلاء من ذوى الأمانة ورد ريعها الى بيت المال. وكان الخليفة قد أمر السّمح بأن يقدم له بياناً عن البلدان المفتوحة وما فيها من النفوس والجايات، ليبرم في أمر الاندلس رأياً، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الاسلام، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين في تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكر في اجلاء مسيحي اسبانية وجنوبى فرنسة الى افريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة، الا أن السّمح طمأن مخاوف الخليفة قائلاً له: ان الاسلام ينمو ويتشعّر وتمتد شماريخه بسرعة في اسبانية، وانه لا يبعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة للدين محمد. روى ذلك بعض مؤرخى العرب وأسفوا من كون السّمح بن مالك الخولاني لم يعمل برأى الخليفة في هذا الموضوع^(٤) انتهى

(١) Asturies والعرب يقولون اشتوريش

(٢) Galice غاليسية وأكثّر ما يقول العرب جليقية

(٣) Navarre والعرب تقول نبره ونابار والاسبانيول يقولون ناباره

(٤) قال رينو في الحاشية : ان من جملة هؤلاء الذين سفهوا رأي السّمح هذا ابن القوطية

ولنقابل الآن كلام رينو وكلام من نقل عنهم من مؤرخى الاسبانيول والافرنج بكلام العرب لتزداد الحقائق وضوحاً فنقول :

نقل المقرئ فى النفح عن ابن حيان مايلي :

قالوا ان موسى اصطليح مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته على رسمه وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه وسار موسى خلفه فى جيوشه فارتقى الى الشجر الأعلى وافتتح سرقسطة وأعمالها وأوغل فى البلاد، وطارق أمامه، لايمران بموضع الافتح عليهما وغنمهما الله تعالى مافيه. وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد الا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق فى ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس من أقام على سلمه ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين الى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادى « ردونة ^(١) » فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم. وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد افرنجة، فلكت مدينتى برشلونة ^(٢) وأربونة ^(٣) وصخرة « اينيون ^(٤) » وحصن « لودون ^(٥) » على وادى ردونة، فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جداً .

(١) نهر الرون Rhone وهكذا لفظ اسمه اليوم ولكن أصل اسمه هو « رودانوس » باللاتينى ومنه قال العرب « ردونة » كما كان الافرنج يقولون له فى أيام قدومهم الى تارك الديار . وهذا النهر يخرج فى سويسرة وينصب فى بحيرة ليان ثم يخرج منها عند جنيف ويدخل أرض فرنسة ويتصبب الى البحر المتوسط وطول مجراه ٨١٢ كيلو متراً

(٢) Barcelone قاعدة كتالونيا وأكبر مدينة فى اسبانية وارقاها وسيأتى عليها لكلام فيما يأتى

Narbonne (٣)

(٤) Avignon والعرب تقول « اينيون » لأنها تجعل الفاء باء وربما قالت « افينون » بالفاء الموحدة . وصخرة افينيون هى المكان الذى بنى عليه قصر الباباوات الذين جعلوا اقامتهم بافينيون من سنة ١٣٠٩ الى سنة ١٣٧٧

(٥) Lyon ثالث مدينة فى فرنسة فى عدد السكان. وأصل اسمها « لودونوم » يمر بها نهر الرون والساوون ويقسمها الى ثلاثة أقسام وهى من أعظم المدن الصناعية فى أوربة . وقد بنى ليون

وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً وقيل ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً . ولما أوغل المسلمون الى اربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالأرض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فحشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم . فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة ايبيون فلم يجد بها أحداً وقد عسكر المسلمون قدّامه فيما بين الأجيل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرة لاعيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالا شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها، فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجال، وتعذر عليه المقام وخامره دعر وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلا الى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي ردونة شكّها بالرجال فصيّرها ثغراً بين بلده والمسلمين وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس انتهى

ان كلام ابن حيان هذا يجمع خبر غزوات العرب لافرنجة أو فرنسة من أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد الى زمان عبد الرحمن الغافقي . ومنه يعرف أن غزو العرب لافرنجة يرجع الى أول الفتح الأندلسي، وان كان مؤرخو الافرنج لا يذكرون مغازي العرب لفرنسة الا من بعد ولاية السمع بن مالك الخولاني . وأما المؤرخان المسيحيان ايزيدور الباجي وشيمينس مطران طليطلة، وأولهما عاصر زمان الفتح، فانهما يذكran غارات للعرب على فرنسة في زمان الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي أمير الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ثار به الجند وقتلوه حسبما تقدم الكلام عليه

والذي في نفح الطيب نقلا عن ابن خلدون أن محمد بن يزيد عامل الخليفة سليمان ابن عبد الملك على افريقية لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الحر بن

الوالي الروماني اوسيسيوس موناتيوس سنة ٤١ قبل المسيح وصارت عاصمة بلاد الغال في زمان أغسطس ولا تزال من أمهات مدن فرنسة

عبد الرحمن الثقفي أميراً على الأندلس . وفي صفحة ١٤٠ من نفح الطيب من الجزء الأول الطبعة الأزهرية يذكر أمراء الأندلس على النسق الآتي :

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير . ثم الأمير موسى بن نصير ، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة . ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وسريه اشبيلية . ثم أيوب بن حبيب اللخمي ، وسريه قرطبة . وكل من يأتي بعده فسريه قرطبة والزهراء والزاهرة بجانبيها الى أن انقضت دولة بني مروان على ما بينه عليه . ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ثم السمح بن مالك الخولاني . ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . ثم عنبسة بن سحيم الكلبي . ثم عذرة بن عبد الله الفهري . ثم يحيى بن سلمة الكلبي . ثم عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي . ثم حذيفة بن الأحوص القيسي . ثم الهيثم بن عبيد الكلابي . ثم محمد بن عبد الله الأشجعي . ثم عبد الملك بن قطن الفهري . ثم بلج بن بشر ابن عياض القشيري . ثم ثعلبة بن سلامة العاملي . ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي . ثم ثوبة بن سلامة الجذامي . ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري . قال : وههنا انتهى الولاية الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة أفراداً عددهم عشرون فيما ذكره ابن سعيد ولم يتعدوا في السمة لفظ الأمير . قال ابن حيان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من لتريق سلطان الأندلس النصراني وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة ٩٢ الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة وهو يوم الاثنين لعشر خلون من ذي الحجة سنة ١٣٨ ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى

وأما ابن عذارى في « البيان المغرب » فيذكر في الجزء الاول أن محمد بن يزيد أمير افريقية استعمل على الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسي ، وكانت الأندلس اذ ذاك الى والى افريقية كما كان أيضاً والى افريقية من قبل والى مصر ، ثم قال : وسنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك واستخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يوم وفاته فاستعمل على افريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم . قال : واستعمل اسماعيل بن أبي المهاجر على الأندلس السمح بن مالك الخولاني . ثم ذكر

ابن عذارى أنه عند ولاية بشر بن صفوان على إفريقية ولى الأندلس عنبة بن سحيم الكلبي . ثم ذكر أنه عند ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على إفريقية تولى عثمان ابن أبي نسعة على الأندلس، ثم من بعده حذيفة بن الأحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عبيد الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد ببلاد الشهداء . ثم ذكر اماره عبد الملك بن قطن على الأندلس ، ثم ولاية بلج بعد مقتل عبد الملك ، ثم ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي ، ثم ولاية أبي الخطار الكلبي ، ثم ولاية ثوابه بن سلامة الذى ثار على أبي الخطار وهزمه ، ثم ولاية يوسف الفهري آخر أمراء الأندلس الذى دخل فى زمانه عبد الرحمن بن معاوية الأموى الى تلك البلاد

وأما صاحب « أخبار مجموعة فى تاريخ أمراء الأندلس » فذكر بعد اماره عبد العزيز بن موسى بن نصير اماره أيوب بن حبيب اللخمي، كان يؤم أهل الأندلس فى صلاتهم وكان رجلاً صالحاً، فولوه أمرهم بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو ابن عمه عبد العزيز . وجاء بعده الحر بن عبد الله الثقفى ^(١) (ولم يقل الحر بن عبد الرحمن الثقفى) ثم ذكر انه لم يستقر بالحرّ القرار حتى ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد والى إفريقية (ولم يقل محمد بن يزيد) وولاهها اسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه . فأتى وفد إفريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغراً فكان ما فضل بعد اعطيات الأجناد وفرائض الناس ينقل الى الخليفة . فلما وفدوا بخراج إفريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا خلف الثانية ونكل اسمعيل بن عبيد الله

(١) وبعض المؤرخين يسمونه الحر بن عبد الرحمن القيسى وهو واحد لان الثقفى قيسى وثيف من بطون هوازن . وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

مولى بنى مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمَّهما الى نفسه فاختر منهما صلاحاً وفضلاً . فلما ولي عمر ولي اسماعيل افريقية وولى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يخمس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة ، خمساً لله من أرضها وعقارها ، ويقر القرى في أيدي غنّامها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأمنارها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لا قطعهم عن المسلمين وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله . فقدمها السمح سنة مائة فوضع يداً في السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفي اخراج البعوث . وبني القنطرة وذلك انه كتب الى عمر يستشيره ويعلمه ان مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها وكان لها جسر يعبر عليه نهراً ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة « فان أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلتُ فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وان أحبَّ صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم » فيقال والله أعلم ان عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور وأن يبنى السور باللبن اذ لا يجده صخراً فوضع يداً فبنى القنطرة في سنة احدى ومائة

ثم هلك عمر رحمه الله ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أخا حنظلة بن صفوان افريقية ، فعزل بشر السمح بن مالك وولى عنبسة بن سحيم الكلبي ، ثم تتابعت ولاية الاندلس بعد عنبسة . فوليها يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم وليها بعد يحيى عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي ، ثم وليها بعد عثمان حذيفة بن الأحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكناني ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وعلى يديه استشهد أهالي بلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن . وولى عبد الملك بن قطن المحاربي محارب فيهر من قریش ، وولايته الاولى نحو من ستة أشهر ، لم تطل . وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الاندلس (الى أن يقول) : ان هشام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله ابن الجحباب بن الحارث مولى بنى سلول من قيس وجعل اليه أمر افريقية والاندرلس

فأقر بشر بن صفوان على إفريقية وولى عقبة بن الحجاج الأندلس . (ثم قال) :
فدخل الأندلس (أى عقبة بن الحجاج) سنة عشر ومائة فأقام عليها سنين وافتتح
الأرض حتى بلغ أربونة ، وافتتح « جليقية ^(١) » و « ألبه ^(٢) » و « بنلونة ^(٣) »
ولم يبق بجليقية قرية لم تفتح غير الصخرة فانه لا ذهابها ملك يقال له « بلاى » فدخلها
فى ثلثة راجل ، فلم يزالوا يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أصحابه جوعاً وترامت طائفة
منهم الى الطاعة فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلاً ليست معهم عشر نسوة
فيما يقال انما كان عيشهم بالعسل ، ولاذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم
جباح ^(٤) والنحل عندهم فى خروق الصخرة ، احترزوا وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم
وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يكون أمرهم ؟ واحتقروهم . ثم بلغ أمرهم الى أمر عظيم
سندكره اذا بلغنا موضعه ان شاء الله اه

ثم ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان عقبة بن الحجاج بقى أميراً على الأندلس
الى سنة ١٢١ اذ ثارت البربر فى إفريقية ودخلوا طنجة وقتلوا واليها عمر بن عبد الله
المرادى ، وشغل صاحب إفريقية بشر بن صفوان بهذه الثورة ، فوثب عبد الملك بن قطن
المحاربى على عقبة بن الحجاج ، فخلعه ولا أدرى أقتله أم أخرجه ؟ فملكها بقية ٢١ و ٢٢
و ٢٣ حتى دخل بلج بن بشر القشيري ثم الكعبي بأهل الشام . وقد وصفنا سبب
دخوله فى أحاديث تأتى بعد هذا

(١) جليقية أو غاليسية : يحدها من الشمال والغرب بحر الاوقيانوس ، ومن الجنوب البرتغال ، ومن
الشرق بلاد ليون وجبال أستوريش ، وفيها لقى العرب أشد المقاومة . وكان انضمام هذه البلاد الى
مملكة قشتالة سنة ١٠٧٣ لكنها بقيت حافظة استقلالها الداخلى الى زمان فرديناند وايزابلا ، ففى
عهدهما اندمجت فى بقية اسبانية . والاسبانيول يكتبون اسمها هكذا Galicia

(٢) Alava احدى مقاطعات شمالى اسبانية واقعة فى جنوبى البيرانه أهلها من الباشكنس
(٣) العرب كانوا يسمون نافار بنلونة وأحياناً نبرونة وقد يقولون لها نبرة . وهذه اللفظة
بنبلونة Pampeluna اسم مدينة فى نافار فيها قلعة

(٤) الجبح - بضم فسكون وبكسر فسكون - حيث تعسل النحل . قال فى لسان العرب : اذا كان غير
مصنوع والجمع اجبح وجبوح وجباح . وقيل : هى مواضع النحل فى الجبل

ثم ذكر ما معناه : انه بعد موت بلج القشيري تولى الأندلس ثعلبة بن سلمة العاملي ، وجار في سياسته ، وذهب وفد من الأندلس الى حنظلة بن صفوان أمير افريقية يشكون ما هم فيه ، فأرسل عليهم والياً أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فأصلح الأمور ورضى به الشاميون والبلديون ، وكان رجلاً من خيار الناس وأنزل أهل الشام في الكور . وبقي أبو الخطار أربع سنين وستة أشهر الى أن دخل الأندلس الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن . وشمر هو الذي قتل الامام الحسين ابن علي رضي الله عنه ، وقتله بعد ذلك المختار بالكوفة ، فارتحل ولد الشمر عن الكوفة الى الجزيرة ، ثم ارتحلوا الى الأندلس مع جند قنسرين ، ورأس الصميل بالأندلس ودانت له قيس فيها واقتتل مع أبي الخطار وانهزم هذا ، وتولى ثوابة بن سلمة الجذامي ، ثم مات سنة ١٢٩ وتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري . وفي أيامه اشتدت العداوة بين قيس واليمن ، فأنحازت مضر وربيعة الى يوسف ومعه الصميل ، واجتمعت يمن الأندلس حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها تحت لواء أبي الخطار . وكانت بين الفريقين أشد حرب عرفها العرب بعضهم مع بعض . قال صاحب « أخبار مجموعة » : « وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الاسلام بالأندلس الا أن يحفظه الله . »

ومن كلام هذا المؤرخ الذي كتب هذا التاريخ في أيام الحكم المستنصر يظهر انهم كانوا يخشون على اسلام الأندلس البوار ، لا من جهة انقطاع مسلمي الاندلس من وراء البحر فقط ، بل من جهة الفتنة التي لا يفتر أوارها فيما بينهم . ولقد وقع ما كانوا منه يحذرون ، فما كان زوالهم من هناك بحرب الاسبانيول خسب بل كان أقوى عامل على زوالهم من الأندلس شدة عداوة بعضهم لبعض ، وهو مرض الفرقة الذي رافقهم الى الساعة الأخيرة من ملكهم هناك ^(١)

(١) كان لم يبق للعرب في كل الأندلس الا مدينة غرناطة وكان الطائعتان فرديناند وايزابالا آخذين منهم بالخنق الذي يقطع الانفاس وقد أقاما وعساكرهما بمعسكر من الحجر بدلا من الحيام ايذاناً بأنهما لن يقلعا عنها . وكان أهل غرناطة مع ذلك يقاوانون الاسبانيول في النهار ثم يعودون

رجع الحديث الى حرب القيسية واليانية

ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان ابن حريث ^(١) وأبا الخطار زحفا الى يوسف والصميل ^(٢) بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية « شقندة » ^(٣) . وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صلوا الصبح فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحمت الشمس . ثم تداعوا الى البراز فتنازلا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت . ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ولم يكن في الاسلام صبر مثله الا ما يذكر من صفين ^(٤) . ولم يكن القوم بالكثير لاهؤلاء ولا هؤلاء وانما كانوا خيار الفريقين ، وكانوا متقاربين ، الا ان اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعيا بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض ، بالقسي والجباب ، ويحش بعضهم التراب على بعض ، اذ قال الصميل ليوسف : ماوقفنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم في غفلة قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة . فرد اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب سوقه ، فأخرجهم منهم نحواً من أربعائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق فخرج الجزّارون بسكاكينهم فجاءوا الى قوم موتى وقد مضت الظاهر والعصر لم يصلوها لاصلاة خوف ولا أمن ، فجرّدوهم وقتلوا وأسروا بشراً كثيرأخياراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث

مساء فيقتتلون في البلدة بعضهم مع بعض ، حارة غرناطة مع حارة البيازين . راجع كتابنا « آخر نبى سراج » مع ذيله . واذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه

(١) يحيى بن حريث على وزن أمير : كان أميراً بكورة رية وبها سكنى أهل الاردن

(٢) الصميل على وزن أمير

(٣) الاسبانول يكتبونها Xecunde

(٤) حرب صفين بين علي ومعاوية هي التي أخرت سير الاسلام الى الامام بعد أن كان أوشك أن يشمل الأرض . ولقد اضطر معاوية بسببها أن يهادن الروم . قال البلاذري في « فتوح البلدان » ان معاوية صالح الروم على أن يؤدي اليهم مالا . وحرب القيسية والينية في الاندلس كانت الثلثة التي اقتحمت منها الاسبان والافرنج على العرب حتى نكص هؤلاء الى الوراء وما زالوا

لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحي التي بموضع بيع الخشب . فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس عليّ فوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث . فدلّ عليه فأخرج وقتلا جميعاً . وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربت بها . فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟ فقتلا ، وأسر منهم بشر كثير . ثم أتى بالأسرى وقعد الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة ، وهي اليوم موضع مسجدھا الجامع ، فضرب أوساط سبعين منهم . فلما رأى ذلك أبو عطاء بن حمد المرمي قام اليه فقال له : أبا جوشن أغمد سيفك أو ارجع سيفك . قال له : اقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك . فجلس ولم يغمد السيف . ثم قام اليه فقال له : يا عرابي ، والله إن تقتلنا إلا بعداوة صفين لتكفنّ أولادعون بدعوة شامية . فأغمد سيفه وأمن الناس على يدي أبي عطاء بعد بلاء عظيم ، فيقال والله أعلم : ان تلك الواقعة توجد في بعض العلم انها قاطعة الأرحام ^(١) . وكانت قبل سنة احدى وثلاثين ومائة ، قال : فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الاندلس سنة اثنتين وثلاثين ثم سنة ثلاث ، فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علج يقال له بلای ، قد ذكرناه في أول كتابنا ، نخرج من الصخرة ^(٢) وغاب على كورة « واستورس » ^(٣) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل « استورقة » ^(٤) زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابه ^(٥)

ينكصون الى أن عادوا من حيث أتوا وأكروا كما أرموا وانطوى من هناك بساطهم الطويل العريض وكان وعد الله مآتيّاً

(١) قرأت في كتاب « تاريخ مسلمي اسبانية » لدوزي المستشرق الهولاندي الذي يعده الاوريون أفضل مؤرخ لدولة العرب في اسبانية كلاماً معناه أن بغض قيس لليمن وبغض اليمن لقيس هو أشد من بغض العرب للامم الاعجمية . فتأمل

(٢) يقال لها صخرة Aguilar « اغيلار »

(٣) Asturias

(٤) استورقة : من بلاد ليون في شمالي اسبانية ، والاسبانيول يكتبونها Astorga

(٥) أي ان هذه الفتنة بين العرب بعضهم مع بعض اهتبل الاسبانيول فيها الغرة فأخرجوا المسلمين

فلما كان في سنة ثلاث وثلثين هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصر كل مذنب في دينه وضعف عن الخروج، وقتل من قتل وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى « استورقة » حتى استحکم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى « قورية ^(١) » و « ماردة ^(٢) » في سنة ست وثلثين . واشتد الجوع فخرج أهل الاندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت اجازتهم من واد بكورة « شذونة ^(٣) » يقال له وادي « برباط ^(٤) » فتلك السنون تسمى سني برباط نخف سكان الاندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم اه

هذا ما اخترنا تلخيصه وتمحيصه من أخبار الامراء الذين تعاقبوا على الاندلس والذين كانوا يغزون افرنجة أو فرنسة . ولنصف اليهم ما ذكره ابن عميرة صاحب « بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ^(٥) فهو يذكر الحر بن عبد الرحمن القيسي ويقول انه عزل بعنبرة بن سحيم الكلبي ، ويقول ان عنبرة تولى الأندلس سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان امير افريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل ١٠٩

واما ابن خلدون فيذكر أن ولاية عنبرة بن سحيم كانت من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل افريقية ، لا بشر بن صفوان ، وان بشر بن صفوان كان والياً على افريقية

من جليقية . وهكذا تأسست الدولة الاسبانية الاولى بعد الفتح العربي وما زالت تشتد وتمتد حتى أخرجت المسلمين من كل اسبانية

(١) Coria

(٢) Merida من بلاد بطليوس في غرب الاندلس

(٣) Sidonia

(٤) بقرب طرف الاغر Trafalgar وتكتب بالاسبانيولي Barbate

(٥) احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي له تاريخ بغية الملتبس وصل فيه إلى أوائل دولة الموحدين وذكر واقعة الارك الشيبيرة التي أدال الله فيها للمسلمين على الاذفنش الملقب بالانبراطور وتاريخها ٩ شعبان ٥٩١

وقت مقتل عنبة . ولما بلغه الخبر أرسل مكانه والياً على الأندلس يحيى بن مسلمة الكلبي . ويقول ابن خلدون : ان استشهاد عنبة كان في أرض الفرنجة سنة ١٠٧ . وبين ابن خلدون وصاحب « أخبار مجموعة » اختلاف في الأسماء ، لعله من تصحيف النساخ . ففي نفع الطيب نقلاً عن ابن خلدون يذكر « الهيثم بن عبيد الكلبي » - وهكذا في صبح الأعشى - وفي « أخبار مجموعة » الهيثم بن عفير الكنتاني . ثم ان صاحب « أخبار مجموعة » يذكر بعد الهيثم ولاية عبد الرحمن الغافقي بلا فاصل ، على حين أن ابن خلدون يذكر بعد الهيثم محمد بن عبد الله الأشجى . ولعل صاحب أخبار مجموعة أهمله لقصر مدته لأنه لم يلبث الا شهرين وأما ابن عذارى فيذكر في « المغرب » أن بشر بن صفوان تولى افريقية مرتين وفي الثانية منهما ولى على الأندلس عنبة بن سحيم . ثم يقول انه سنة ١٠٧ ولى على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبي . ومن هنا يعرف أن مقتل عنبة بن سحيم بأرض افرنجة غازياً كان سنة ١٠٧ وهذه هي رواية ابن عميرة وابن خلدون أيضاً . والمستشرق رينو^(١) يقول انه قتل سنة ٧٢٥ مسيحية . والمؤرخ كوندي الاسبانيولى يجعل قتله سنة ١٠٦ هجرية الموافقة ٧٢٤ مسيحية

ولنرجع الى تاريخ رينو عن غارات العرب على فرنسة فهو يقول : ان السمع بن مالك الخولاني الذى تولى الأندلس في خلافة عمر بن عبد العزيز بعد أن سكن الدهاء وأصلح الأمور في الداخل أعمل همته في الجهاد ليستأنف المسلمون الحرارة الأولى وليجدد عزائمهم بعد الالتيث ويعقد صرائمهم بعد الانتكاث قال : وكان ذلك سنة ٧٢١ مسيحية ، في خلافة يزيد بن عبد الملك ، وكان مضى على فتح العرب للأندلس احدى عشرة سنة لا غير . فأجاز السمع الى بلاد فرنسة ، تفيض بجيوشه أقطارها ، وزعم مؤرخو الافرنجة المعاصرون أن العرب جاءوا ومعهم نساؤهم

(١) استشهد رينو على هذه الرواية بتاريخ دير « مواساك » Abbaye de Moissac الذى فى مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » Recueil Des Historiens des Gaules للدون « بوكيه » Don Bouquet الراهب البندىكتى المشهور فى علم التاريخ ولد فى « آميان » سنة ١٦٨٥ وتوفى سنة ١٧٥٤ واستشهد بمجموع آخر اسمه مجموع « موراتورى » Recueil de Muratori

وأولادهم لأنهم كانوا على نية الاستقرار في البلاد : قالوا وكان الفقراء والمحاويج يأتون من جزيرة العرب والشام ومصر وأفريقية ومعهم عائلاتهم لأجل سد مفقرهم بالفتوحات وارتياذ الرزق من وراء الغارات

قال رينو : ولم يزل السماح يتقدم بجيشه الى أن صار امام أربونة فحصرها ولم يلبث أن فتحها وقتل رجالها وسبي نساءها وذرائعها . وكانت أربونة بمصاقتها للبحر وسهولة الوصول اليها بالسفن من اسبانية ثم بمنعتها الطبيعية من جهة البر تصلح أن تكون مسلحة للعرب في أرض افرنجة . فزاد السماح في تحكيم حصونها ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها

الكلام على مدينة أربونة Narbonne

كانت زيارتي لأربونة بعد أن قفلت من الأندلس، لا كما كانت زيارتي لطلوزة وقرقشونة، أى قبل أن دخلت اليها . وأربونة هي كما لا يخفى المدينة التي توجهت اليها همه العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة . وذلك لكونها على كثر من البحر ولسهولة التوصل اليها من الأندلس على الماء ، وكونها لذلك العهد أهم حاضرة افرنسية في جوار اسبانية، فكان العرب اذا أفاضوا من جبال البيرانه ناحرين الشمال يجدون أربونة هي المدينة الأولى التي تستقبلهم

وموقع أربونة هو على ارتفاع ١٠ أمتار فقط عن سطح البحر الملح، وعلى مسافة ١٤ كيلومترا منه الى الشرق . ونهر الأود يمر بالقرب منها، والسهول التي بينها وبين البحر هي متكونة من الرواسب التي أبقاها هذا النهر بحريه من آلاف وآلاف من السنين وهي الآن مدينة من الدرجة الثالثة، لا يزيد عدد أهلها على ٣٠ ألفاً. ومناخها شبيه بمناخ المدن العربية أى انها لطيفة الشتاء نادرة الثلج حارة القيظ لولا نسيمات لطاف تهب عليها أحيانا من جهة البحر فتخفف من حرارتها . وفي مدة تزيد على نصف السنة تعصف الرياح في أربونة من الشمال الغربي، وتسفى التراب وتكدر صفو المزاج، ولكنها تفيد في تنشيف ماحول أربونة من المستنقعات . وأكثر حاصلات أربونة من الكرم

وفيهما جميع أشجار البلاد الحارة وقد شاهدت فيها التين والزيتون والصبير
ويمر بأربونة جدول اسمه «رويين»^(١) مشتق من قناة الجنب المستمدة من الأود
وأربونة من أقدم مدن الأرض عثروا فيها على آثار الآدميين، من العصر الحجري، وعلى
قبور مما قبل التاريخ . وفي أواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح أغار السلتيون على
أربونة واستقروا بها . وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونانيين الذين كانوا يترددون
الى سواحل بروفانس والكاتالان

وقد جعل الجبل المسمى « بالفولسك »^(٢) مدينة أربونة حاضرة لهم . وجاء
الرومان سنة ١٢١ قبل المسيح فافتتحوها وصارت في أيامهم مركزا تجاريا عظيما
تضارع مرسلية . وكان الولاية الرومانيون يقيمون بها ، وكانت لها امتيازات لعهدهم
عريضة ، وبلغ عدد أهلها مائة ألف نسمة في ذلك العصر . وسنة ١٤١٣ استولى
عليها القوط وتزوج فيها ملكهم ادولف بالأميرة « بلاسيدة غاله »^(٣) اخت الامبراطور
الرومانى ، وكانت لزفافه فيها حفلة عظيمة . ثم استولى على أربونة « غونديود »^(٤) ملك
البرغونديين^(٥) ، لكنه لم يتمتع بها طويلا ، وعادت للقوط ، وثبت هؤلاء فيها
برغم غارات الفرنج عليها

نقلنا هذه الخلاصة عن « دليل أربونة »^(٦) ولنذكر ما جاء في هذا الدليل
بشأن العرب ، قال : في أوائل القرن الثامن للمسيح ظهر العرب على « سبتيمانية »

La Robine (١)

Volsques (٢)

Placida - Galla (٣)

Gondebaud (٤)

Burgundes (٥) شعب جرمانى أغار على بلاد الغال سنة ٤٠٦ للمسيح واستوطن
وادي الرون أو ردونة وأخذ بالثقافة اللاتينية وامتزج بالغاليين . وقد تزوج كلوفيس ملك فرنسا
بأبنة غونديود ملك البورغوند أو البورغون هؤلاء . وكان العرب يقولون لهم البرجان

(٦) اسمه Narbonne Historique et Archéologique

وافتح « زاما »^(١) « أربونة سنة ٧١٩ بعد حصار استمر ثمانية وعشرين يوماً فقتل الرجال وسبي النساء والأطفال . ثم نظر « زاما » الى أهمية أربونة الجغرافية فحصنها وشحنها بالميرة . وهكذا تمكن العرب فيها من صد غارة شارل مارتل الذي حاصر أربونة سنة ٧٣٢ بعد أن هزم العرب في معركة بواتيه . ثم ان « بين » القصير حاصر أربونة سنة ٧٥٢ ونكص عنها ، ولم يتمكن منها سوى شارلمان سنة ٧٥٩ وذلك بعد أن حاصرها مدة سبع سنوات . فان الأهالي الذين في البلدة كانوا ملوا هذا الحصار الطويل فثاروا بالحامية العربية وذبحوها . وعاد العرب سنة ٧٩٢ فحاصروا أربونة ، فبعث شارلمان لنجدتها بعثاً عدته عشرون ألف مقاتل ، عقد لواءه للفارس المشهور غليوم^(٢) وتلاقى الجمعان بقرب أربونة ، فاستأصل العرب جيش الافرنج ولم يبق من هؤلاء الا غليوم وثلاثة عشر من رفاقه ، وسلم أنف غليوم في المعركة ولقب من ذلك اليوم بنى الأنف القصير . الا أنه أحرز مجد قتل عبد الملك أمير الجيش العربي بيده . فأما أربونة فبرغم انكسار الافرنج ذلك اليوم لم تسقط في أيدي العرب انتهى ما جاء في دليل أربونة . وهذا غير مطابق لما في تواريخ العرب . انظر الى ما

جاء في نفح الطيب في هذا الصدد ، قال : « كان هشام (ابن عبد الرحمن الداخل الأموي) يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها . فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه أو أنصف منه ولم يستعمله بعد . ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا^(٣) . وفي أيامه

(١) السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز . وفي أربونة

اليوم شارع باسم السمح Rue, de Zama

(٢) Guillaume au court nez

(٣) قد بلغ هذا الكلام عن سيدنا مالك رضى الله عنه الأمير هشاماً الأموي صاحب الأندلس فال الى مذهبه في الفقه ، وحمل عليه أهل الأندلس ، وكانوا من قبل يتفقهون على مذهب سيدنا الأوزاعي رضى الله عنه . وقد استوفينا الكلام على ذلك في الكتاب الذي حررناه عن الأوزاعي وهو الآن تحت الطبع

فتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية^(١) من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة وبني منه المسجد الذي قدام باب الجنان وفضت منه فضلة بقيت مكوّمة . وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له. وقصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد «البّة»^(٢) والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين . وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بخت، فلقى «ابن منده»^(٣) وهزمه، وأخن في العدو . وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث^(٤) لغزاة العدو، فباغ البّة والقلاع فأخن في نواحيها . ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجرندة^(٥) فأخن فيها ووطى أرض برطانية^(٦) .

(١) العرب كانوا يسمون بالجلالة أهالي غاليسيا في شمالي اسبانية وأهالي جنوبي فرنسة أحياناً

(٢) Alava وقد تقدم ذكرها

(٣) لا أعلم أن كان هذا هو الاسم الحقيقي أو كان محرفاً عن «برموده» Bermude وهو ملك كان في جليقية نزل في آخر الأمر عن الملك للاذفئش لأنه كان أضاع به منه . اتنا لم نقرأ اسم ملك ولا أمير اسباني اسمه «ابن منده» وتحريف العرب أسماء الافرنج وتحريف الافرنج أسماء العرب بحر لا يلج فيه

(٤) المؤرخ الاسبانيولى كوندى يذكر أن الأمير هشاماً أرسل جيشاً إلى جبال الاشطوريش Asturias عدته ٣٩ ألف مقاتل بقيادة عبد الواحد بن مغيث لا عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث . وقد ذكرنا أن المحققين لا يمدحون تاريخ كوندى ولا يثقون بسبل تلغته

(٥) Gironde هي إحدى مقاطعات فرنسة الجنوبية الغربية، يحدها اليوم من الشمال شارانت Charente السفلى، ومن الغرب خليج غامسقونيا، ومن الجنوب مقاطعة اللاند Landes ومن

الشرق مقاطعة لودوغارون Lot - et - Garonne ومقاطعة دوردون Dordogne

(٦) مقاطعة عظيمة من غربي فرنسة Bretagne أهلها من الجنس الساتي ولغتهم غير الافرنسية يحدها برطانية من الشمال بحر المانش، ومن الغرب والجنوب الغربي البحر المحيط، ومن الجنوب الشرقى «بواتو» ومن الشرق «انجو» و«ماين» ومن الشمال بلاد نورمانديا . وكانت برطانية مستقلة في القديم تولاهها ٣٥ أميراً وما استلحقها فرنسة الا في أيام فرنسوا الأول سنة ١٥٣٥ ولا تزال فيها بقايا عصبية تنزع إلى الاستقلال عن فرنسة . والأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية برطانية الافرنسية بل امبرطانية الكتالانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد التي قبلها جرندة

وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم. ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى بلاد جليقية ، فانتهى الى «استرقة»^(١) فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك الباشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه وأتبعه عبد الملك ، وكان هشام قد بعث بالجيش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأخذوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فقالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين اهـ

فمن هنا يظهر أن العرب عادوا فافتتحوها أربونة في زمان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولكن الرواية عن الفتح التام والاستقرار تضعف بقول المقرئ في النسخ: «ثم بعثه في العساكر الى أربونة ، وجرندة فأخضع فيها» فإذا كان قد تم له فتحها فلا محل لغزوها ثانية مرة والاثنان فيها. وقد جاء ذكر الأمير هشام في العملة الإسلامية لهوتها وباسيت ورفاقها ، ولم يذكروا أنه فتح أربونة وإنما قالوا أنه أغزى مراراً الجيش الإسلامية بلاد النصراري وجنوبي فرنسة ، ووصلت جيوشه إلى «استرقة» و«أوبياده»^(٢) «من المملكة التي أسسها بقايا ملوك المسيحيين في إسبانية ، ممن لم يخضعوا للعرب ، من أعقاب بلای»^(٣)

التي هي في جنوبي فرنسة وقاعدتها بوردو بل جرندة التي هي من مقاطعات كتالونيا أي جرندة التابعة لبرشلونة والتي يقال لها اليوم جيرونه ، فان اسمها الروماني القديم جرندة Gerunda وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب . نهيى الى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسي القهري وقال لي انه لم يزل بفاس الى الآن عائلة من الأندلس يقال لها عائلة الجرندى نبغ منها علماء أعلام مثل أبى العباس أحمد بن على بن عبد الرحمن الجرندى الأندلسي المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ترجمه القادري في نشر المثاني ، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الانقاس . ولا شك في أن العرب سكنوا جرندة الكتالونية طويلا ولكنهم لم يسكنوا جرندة التي عاصمتها بوردو ولا عرفوها الا في الغزوات عابري سبيل . روى لي محمد الفاسي أن المستشرق الاسباني قديره Codera كتب فصلا خاصاً عن فتح العرب للندن الثلاث: برشلونة وجرندة وأربونة ، يتلخص منه أن العرب فتحو جرندة عند ما فتحوا الاندلس ، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ثم عادوا ففتحوها ثم أخرجوا منها نهائياً سنة ٨٠٠

(١) Astorga من بلاد ليون في شمالي اسبانية

(٢) Oviedo وابن حوقل يسميها أوبيط

(٣) Pélage أول من ملك على فل الاسبانيول وأسس دولتهم المستقلة بعد فتح العرب

للاندلس وسندكر خبره وخبر أعقابه تفصيلا في الجزء الثاني

وغزا جيرونه ^(١) وأربونة . ولم يرد في الانسيكلوبيديا الاسلامية أنه فتح أربونة
أما المؤرخ الاسبانيولى كوندى فانه يذكر غزوات الأمير هشام في جليقية
بالجيش الذى أرسله تحت قيادة الحاجب عبد الواحد بن مغيث ، وغزواته في نواحي
البيرايه بالجيش الذى أرسله تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك، ويقول: ان عبد الله هذا فتح
جيرونه سنة ٧٩٣ وفقى ١٧٧ . وبعد أن فاز بفتح هذه البلدة زحف صوب الشمال فعبّر
البيرايه وفتح أربونة وذبح أهلها واكتسح أقطارها ، ووصل إلى قرقشونة حيث
تجمعت لصدّه أمراء البلاد قاطبة، وناجزته الحرب بين قرقشونة وأربونة، فظهر المسلمون
في هذه المعركة ، وانهزم المسيحيون انهزاما غير تام ، يدل على ذلك أن عبد الله قفل
راجعا إلى الاندلس بعد تلك الطائلة . وقيل : ان سبب قفوله هو خوفه أنه بطول
القتال يفقد الغنائم الوافرة التى كان غنمها . وقالوا: ان هشاما جعل هذه الاموال في
بناء جامع قرطبة . ثم ان الامير ولى عبد الله بن عبد الملك سرقسطة، وسرح عبد الكريم
ابن الحاجب عبد الواحد إلى جليقية فعاث ودمر ، ولكنه سقط في كين دبره له
الاذفش ، وهلك فيه أكثر عسكره وقواده ومنهم يوسف قائد الفرسان
وأما المستشرق رينو في كتابه « غارات العرب على فرنسة ومن فرنسة على
سافواى وبيمونت وسويسرة » فانه يذكر ما رواه مؤرخو العرب عن هذه الغزاة وما
تابعهم فيه لذريق شيمينيس ، ويروى قصة أحمال التراب التى حملها اسارى المسيحيين
المساكين على ظهورهم وبالعجلات من مسافة مائتى مرحلة، ويقول ان مؤرخى العرب
زعموا سقوط أربونة تلك النوبة في أيديهم، ولكنه يستبعد هذا الأمر بسبب كون
المؤرخين المسيحيين لم يذكروا ذلك ولو بمناسبة دخول المسيحيين ثانية إلى أربونة . ثم
يقول ان النويرى الذى روى خبر هذه الغزاة ببعض تفصيل لم يصرح بأن جيوش
العرب استولت على أربونة في هذه الغزاة واستقرت فيها ^(٢) ، وسنذكر بقية هذا

(١) Gironna من بلاد السكتالان تابعة لبرشلونة

(٢) قال المسعودى في مروج الذهب بعد أن روى واقعة سمورة على جيش عبد الرحمن الناصر

البحث فيما يأتى عند الكلام على غزوات بنى أمية فى فرنسا

ما نصه : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة . ومدينة أربونة خرجت من أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها ، مما كان بأيديهم من المدن والحصون ، وبقي ثغر المسلمين فى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة ، وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة افراغة على نهر عظيم ثم لاردة . انتهى

ثم ذكر دوزى الهولاندى ، ادرى من حرر تاريخ عرب الأندلس من الاوربيين ، وذلك فى الجزء الثالث من « تاريخ الاسلام فى اسبانية » انه بعد ثورة « يلاى » جرت حوادث أخذت بأيدي الأستوريين ، وهى أن مسلمى شمالى اسبانية كان أكثرهم من البربر فتاروا على العرب ووقعت بين الفريقين الوقائع ، وظهر البربر فى البداية على العرب ، ثم عاد هؤلاء فأخذوا بالثار وغلظوا على البربر فألجأوهم الى الجلاء راجعين الى افريقية ، وعلى تقيئة ذلك حصلت مجاعة شديدة استمرت نحواً من خمس سنوات متوالية ، فلم يبق من البربر هناك الا النزر . وخلت الديار تقريباً من المسلمين فتار الأستوريون تحت قيادة الأذفنش صهر « يلاى » وذلك سنة ٧٥١ مسيحية ، وذبحوا من بقى من المسلمين ، ولم يبق منهم أحد فى « براغة » ولعل براغة هذه هى التى يسميها المسعودى افراغة (لأن القاء يلفظها الأسبان باء) Braga ولا فى « بورتو » Porto ولا فى « فيزو » Viseu . وأصبح جميع الساحل الى مصب نهر « دورو » أى الوادى الجوفى Duero خالياً من المسلمين . ثم انكشف المسلمون عن « استرقة » Astorga و « ليون » Léon و « سمورة » Zamoura و « دجنة » Diesma و « ظلمنكة » Talamanqua فاستقروا فى « قورية » و « ماردة » Merida وأما من جهة الشرق فجلا المسلمون عن « سردانة » Serdana و « سمينكه » Simankas و « سيقويه » Segovia و « ايله » Avila و « أوفة » Oca و « ميرانده » Miranda على نهر « ابره » Ebra . وصارت ثغور الإسلام « قويمرة » Coimbra و « طلبيرة » Talavera و « طليطة » و « تطيلة » Tudela و « بنبلونة »

Pampelona

رجع الحديث الى السمح بن مالك الخولاني

وغارات العرب على فرنسة

قال رينو :

وبعد أن انتهى السمح من أمر أربونة ، وشحن المدن المجاورة لها بالمقاتلة ، زحف نحو
 طلوze (١) وكانت وقتئذ عاصمة ا كيتانية (٢) فشد « اود » دوق ا كيتانية كل ما قدر
 على حشده من الجنود ، وخف لصد العرب عن المدينة ، بينما كانوا قد أخذوا بمخنقتها
 واستعملوا المنجنيقات وسائر آلات الحصار في قتالها إلى أن أوشك أهلها أن يسلموها .
 وإذا باود قد أقبل بجيش يسد الفضاء حتى قال مؤرخو العرب ان العثير المتطاير من
 زحف أقدامهم كان يغطي عين الشمس من كثرتهم ، قتلا السمح لعسكره الآية القرآنية :
 (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) ولما تدانى الجمعان خيل أن الجبال تلاقى بعضها
 ببعض ، وكانت المعركة من أهول ما يتصوره العقل ، وكان السمح يظهر في كل مكان وسيفه
 ينطف دما وهو يشدد عساكره بقوله وبفعله . وكان كالفجل الهائج لا يرد رأسه شيء
 أو كالأسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد في وجهه ، فهاهو إلا أن أصابته طعنة
 خرب بها صريعا عن جواده . فلما رآوه المسلمون مجذلا (٣) فت في أعضادهم ونكصوا على
 أعقابهم ، وتركوا قتلاهم بالعراء ورجعوا إلى الوراء . وكانت هذه الواقعة في شهر مايو من
 سنة ٧٢١ وطاح فيها عدد من فرسان المسلمين المغاور الذين شهدوا الفتوحات السابقة .
 ولقد تولى قيادة الجيش ، بعد قتل السمح وتقهقر العرب ، عبدالرحمن (الغافقي) وعاد
 به الى الأندلس (٤)

Toulouse (١)

Aquitaine (٢)

(٣) جاء في « بغية الملتبس في تاريخ رجل الأندلس » لابن عميرة الضبي ما يلي في حرف
 السين : السمح بن مالك الخولاني ثم الحياوى ؟ أمير الأندلس استشهد في قتال الروم بالأندلس في
 ذى الحجة يوم التروية سنة ١٠٣

(٤) استشهد رينو هنا بكوندى الاسبانولى وايزيدور الباجى وانستاز السكتي صاحب ترجمة

ولما شاع خبر هذه الواقعة دبّت الحماسة في قلوب أهالى اللانغدوق والبيرانه وهبوا لخلع طاعة العرب وحميت أنوفهم ، الا أن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين في أربونة ، وكانت قد جاءتهم نجدات من الأندلس فعادوا يشنون الغارات منها على البلاد المجاورة، وآذت جيوشهم تتقدم من كل مكان وتجر بنخزائم الطاعة أنوف السكان وكان الرهبان والقسيسون في ذلك الوقت هم أصحاب الكلمة العليا ، وكانت الكنائس والأديار مملأى بالنفائس والذخائر، فلم يكن من العجب أن تتوجه همه العرب قبل كل شيء الى اجتياح هذه المعابد وصب البلاء على الرهبان . ولم يكن من العجب أن يكون هذا القسم من تاريخنا ملآن بقصص تدمير العرب للأديار والبيع ، لأن الذين كانوا يكتبون اذ ذاك انما كانوا من الرهبان والا كايريكيين ، فكان معظم كلامهم الحديث عما حلّ بأديارهم وتقديمها على ديارهم

فقد جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير « جوسل »^(١) بقرب « بيزيه »^(٢) ودير القديس « بوزيل »^(٣) بقرب « نيم »^(٤) ودير « صنجيل »^(٥) بقرب « آرل »^(٦) والدير المشهور بالثروة المسمى بدير الترتيل^(٧) بقرب « آغيمورت »^(٨) وكان يسمى كذلك لأن الرهبان كانوا ألزموا أنفسهم فيه النشيد الدائم بتسليح الرب، وذلك على أنه كلما تعبت طائفة خلفتها طائفة في الترتيل فلا ينقطع الترتيل من الدير لا ليلاً ولا نهاراً . فدهم العرب هذه الأديار كلها بغتة، منحدرين عليها انحدار العقبان ، بحيث لم يقدر الرهايين الذين فيها

حياة البابا غريغوار الثاني ومجموعة مواساك التي فيها كتاب مؤرخى فرنسة

Jaucels (١)

Beziers (٢)

Saint-Bausile (٣)

Nimes (٤)

Saint-Gilles (٥)

Arles (٦)

Psalmodie (٧)

Aiguemortes (٨)

الا أن يخلصوا ، نجيأ برقابهم ويبيعض ذخائر القديسين التي كانت عندهم^(١) ، وكان العرب أول ما يعمدون الى الأجراس والنواقيس فيكسرونها^(٢) وكانت بعض عصابات من أهالى البلاد تقاتل العرب فى الاحايين ، وكان هؤلاء لا يسيئون معاملة الذين يدخلون فى طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال

ثم انه فى سنة ٧٢٤ تولى اماراة الأندلس غنبة (ابن سحيم الكلبي)^(٣) واجتاز جبال البيرانية بجيش جرار ، وأوغل فى البلاد ، وفتح قرقشونة وأوقع بمن وجد فيها ، ثم فتح نيم واخذ من أهلها زهائن أرسلهم الى برشلونة^(٤) وقد كانت فتوحات غنبة بحسب رأى ايزيدور الباجى فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ، ولذلك تضاعف فى أيام غنبة خراج بلاد الغال . وقيل ان غنبة نفسه قد زاد الخراج على الأهالى ، ولا يظهر أن ذلك صحيح . وانما ازداد الخراج بتوفيره وبحسن تديره . ثم ان غنبة وقع قتيلا فى احدى الوقائع سنة ٧٢٥ خلفه فى القيادة « حذيرة » وجاءت الى هذا نجدات من الأندلس ، وعادت ريح الاسلام فبعصفت يبلاد النصرانية من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخى العرب . فالسبتيانىة الى حدود الرون و« الالبيجوا »^(٥) و « الرورغ »^(٦) و « الجيفودان »^(٧) و « الثبيلاي »^(٨) « صارت ميداناً لغارات العرب وشملها الخراب من كل جهة . وما لم يؤخذ بالحديد سلطوا عليه النار الى حد أن كثيرين

(١) استشهد رينو على ذلك بتاريخ نيم تأليف مينار Menard

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن الزيرى

(٣) جاء فى بغية الملتبس فى « تاريخ رجال أهل الأندلس » لاحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة مايلى : غنبة بن سحيم الكلبي كان أمير الأندلس فى سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير افريقية فى أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل سنة تسع . والله أعلم

(٤) نقل رينو هذا الخبر من مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » عن تاريخ مواساك Moissac

Albigeois (٥)

Rouergue (٦)

Gevaudan (٧)

Velay (٨)

من الغزاة أنفسهم أكبروا هذا العيث الزائد في تلك البلاد . فانهم لم يكونوا يعفون عن شيء سوى الجواهر النفيسة والسلاح والخيول وكل ما يزدادون به قوة على قوة وأكثرت ما شمل الخراب مقاطعة « روديس »^(١) « فقد احتل العرب فيها حصناً يظنه بعضهم حصن « روكريف »^(٢) والآخر حصن « بالاغيه »^(٣) وأخذوا يجتاحون جواره ولا يلقون مناهضاً ولا عرقاً نابضاً . وقد بقيت عندنا عن تلك النوازل شهادة رجل كان يقال له « دادون »^(٤) « عندما زحف العرب خرج بسلاحه ومعه جماعة مسلحون من أهل وطنه ، فجاء العرب الى بيته ولم يجدوا فيه سوى أمه فأخذوها من جملة السبي ، وعادوا الى الحصن الذي كانوا تبوءوه ، فجاء دادون بسلاحه ومعه رفاقه ، ووقفوا أمام باب الحصن ، وطلب دادون تسليم أمه وقال انه ليس يبارح حتى ينقذها فأجابته واحدة من العرب : إن شئت أن نرد عليك أمك فادفع الينا الجواد الذي أنت راكبه والا فاننا نذبح أمك أمام عينيك . فأجاب دادون وقد كاد الغضب يخرج من عقله : افعالوا بأمر ما تريدون فلا أسلم جوادى . عند ذلك جاء البربرى بأمر دادون وقطع رأسها وألقاه من فوق الحصن إلى ما بين يدي ذلك المسكين . فعندما شاهد دادون رأس والدته كادت نفسه تزهق من الألم وأخذ ينتحب ويصيح : ياللاً أخذ بالثار . ولكنه لم يكن يقدر أن يدخل الى الحصن . فذهب وقد خولط في عقله وانقطع عن الناس ، وأقام على ضفاف وادى « دوردون »^(٥) في المكان الذي بنى فيه فيما بعد الدير المسمى بدير « كونك »^(٦)

وقد استشهد رينو على هذه الحادثة بقصيدة « ارمولس نيجلوس »^(٧) التى

Rhodés (١)

Roqueprive (٢)

Balaguier (٣)

Dadon (٤)

Dourdon (٥)

Conques (٦)

Ermoldus Nigellus (٧)

نشرها في موراتوري^(١) ثم الدون بوكيه^(٢) في مجموعة مؤرخي بلاد الغال، ثم المسيو بيرتس^(٣) في تاريخ الجرمانيين . وقد جاءت هذه الحادثة في البيت المائتين والسبعة من قصيدة « نيجلوس » وليس يوجد في القصيدة ولا في تاريخ دير « كونك » ما يدل على السنة التي أغار فيها العرب على « رورغ » ولكن إذا عرفنا أن دادون مات في أواخر القرن الثامن علمنا الزمن الذي وقعت فيه هذه الحادثة . فأما دير « كونك » فقد بقي قائماً الى زمان الثورة الفرنسية

ولندكر حادثاً آخر يدل على ما بلغته من الفجائع تلك الغارات التي كان جانب عظيم من فرنسة مرزحاً لها، وهذا الحادث وقع في دير « موناستييه^(٤) » في جهات « فيلي^(٥) » فقد كان المسلمون اجتاحوا مقاطعات « بوى^(٦) » و « كليرمون^(٧) » وكنيسة « بريود^(٨) » ثم أشرفوا على دير « موناستييه » فجمع القديس « شافر^(٩) » رئيس الدير رهبانه، وأمرهم بأن ينسحبوا الى الحراج المجاورة، ويأخذوا معهم الاعلاق النفيسة والذخائر التي في الدير ويتواروا في البرية، الى أن يتأذن الله بالفرج وبأوقات أحسن فيعودوا فيها الى متبوءهم الأول . أما هو أى القديس المذكور فقد أجمع أن يبقى في الدير مهما كان البرابرة يريدون أن يفعلوا به، فان أمكنه أن يردهم الى الصراط المستقيم فذاك، وإلا فان قتلوه فيكون تردى بالأحمر من أثواب الشهادة . فأخذ الرهبان ييكون ويستغيثون راجين منه أن يذهب معهم الى البرية ويطلب النجاة

Muratori (١)

Bouquet (٢)

Pertz (٣)

Monastier (٤)

Velay (٥)

Puy (٦)

Clermont (٧)

Brioude (٨)

Saint Chaffre (٩) وكان يقال له أيضاً Saint Théofroi

كما يطلبون أو أن يتركهم يموتون معه . فأصرَّ القديس على كلامه وقال لهم إن اتقاء الخطر ضرورى لا سيما اذا كان فى السلامة فائدة للكنيسة . وضرب لهم مثلاً مسألة الرسول بولس الذى كان اليهود أعداؤه يقتضون أثره فى دمشق للاقتصاص منه ، ففر منهم ونزل ليلاً فى زنبيل تدلى به من عن سور المدينة وخلص نجياً . وكذلك بطرس رئيس الحواريين كان قد أجمع الفرار من وجه نيرون لو لم يكن سبق فى إرادة الله توقيف خطواته . ثم قال لهم القديس : أما أنا فإني لست بذهاب من هذا الدير ، فان من واجبات الراعى أحياناً أن يضجى بنفسه فى سبيل خلاص رعيته ، وإنى إن سال دى هذه المرة فربما يسكن بانفجاره الغضب الإلهى الثائر بدون شك من خطايا البشر فلما رأى الرهايين تصميم القديس هذا لم تسعهم إلا طاعته ، وبعد أن سمعوا القداس وأخذوا معهم النفائس اتى فى الدير خرجوا إلى البرية ، وتغلغلوا فى الغابات ، ولكن انسلَّ منهم اثنان فصعدوا فوق رابية مشرفة على الدير ليشهدوا ما عساه أن يقع فيه . ولم يلبث العرب أن حضروا فوجدوا القديس « شافر » عاكفاً على الصلاة فى زاوية من الدير ، فلم يأبهوا له ، وإنما أخذوا يطوفون فى الدير أملاً بالعثور على شئ يغتمونه ، وكان مرادهم أن يثقفوا الرهبان وأن يأخذوا منهم أحدثهم سنّاً وأقواهم بنيةً ليبيعوهم فى سوق النحاسين بالأندلس . فلما علموا أن الرهبان قد فروا بأسرهم وأنه لم يبق فى الدير شئ من النفائس التى كانت تحذتهم أنفهم بها استشاطوا غضباً وانهملوا على القديس بضرب مبرح

وكان فى ذلك اليوم عند البرابرة عيد يقدمون فيه ضحية لله ، ولم يقل المؤرخ الذى نقل عنه هذه القصة ما شكل تلك الضحية ؟ ولكنه يقول إنهم كانوا فى ذلك العيد يشربون الخمر ويطنزون ، مما يدل على أن العصابة التى أغارت على كورة « فيلاى » لم تكن عصابة مسلمة ، ولكن عصابة بربرية لا يزال أهلها غائضين فى لجج الوثنية . فلما رآهم القديس قد انتبدوا مكاناً للقيام بشعائر عيدهم جاء إليهم ونصح لهم بأنهم بدلاً من عبادة الشياطين يكون أولى بهم أن يعبدوا خالق الأكوان الذى لولاه لم يكن شئ فى هذه الدنيا ، فلم يكن هذا الكلام ليقع منهم موقع القبول بل زادهم سخطاً

وجاء أحدهم فرماه بحجر فسقط على الأرض مغشياً عليه . ثم أراد البرابرة أن يحرقوا الدير ويدكوه الى الخضم ، ولكن يقول المؤرخ انهم بينما هم يهيمون بأن يفعلوا سلط الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية وصواعق محرقة فاركنوا الى الفرار ، وتركوا الدير . ثم مات القديس بعد أيام قلائل من أثر الضرب ، بعد أن عاد الرهبان إلى ديرهم . ولا تزال الكنيسة تحتفل بعيد القديس « شافر » في ١٩ أكتوبر من كل سنة . وأما الدير المذكور فقد بق قائماً الى زمان الثورة الفرنسية الكبرى

ونظن أنه في ذلك العهد كانت قد وقعت غارة العرب على مقاطعة « دوفيني »^(١) وعلى مدينة « ليون »^(٢) وعلى بلاد « برغونيا »^(٣) وقد ذكر أحد مؤرخي العرب هذه الغزوات قائلاً : إن الله قد قذف الرعب في قلوب الكفار فلم يكن واحد منهم يقف في وجه المسلمين إلا لطلب الأمان ، ولم يزل المسلمون يتقدمون في البلاد ويؤمنون العباد الى أن وصلوا الى وادي « الرون » وهناك ابتعدوا عن السواحل وأوغلوا الى الداخل

وقد نقل رينو هذا الكلام عن المقرئ . ولكن إن كان الكلام الذي نقله هنا هو الوارد في النفح فان العبارة التي اطلعنا عليها هي هذه نقلا عن ابن حيان : إن موسى اصطالح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته ، على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الشجر الأعلى وافتتح « سرقسطة » وأعمالها وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليها وغنمها الله تعالى مافيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأ من نفوس من أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام

(١) Dauphiné مقاطعة من فرسة قاعدتها « غرينوبل » تتألف منها الآن ولايات « الازير »

و « الدروم » و « الالب » العليا

(٢) مدينة ليون الشهيرة وقد تقدم ذكرها

(٣) تقدم ذكرها أيضاً

لتمييز ذلك وقتاً، وأمضى المسلمين إلى أفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا وانتهوا، حتى انتهوا إلى وادي «ردونة» فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم. وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلاد أفرنجة فلما ملكت مدينتي «برشلونة» و«أربونة» وصخرة «آيينون» وحصن «لودون» على «وادي ردونة» فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جداً . انتهى

فهذه العبارة قد تقدم نقلنا إيها في الكلام عن موسى بن نصير وطارق .
رجع الى كلام رينو . قال :

ولا نعلم في الحقيقة الأماكن التي أشرف عليها العرب ذلك اليوم الا بأخبار الاجتياح الذي وقع فيها، فانه في نواحي « فيين ^(١) » على ضفاف « الرون » أصبحت الكنائس والأديار كلها دكاً، و « ليون » التي يسميها العرب « لودون » رأيت أيضاً تخريباً عظيماً ككنائسها . وكذلك شمل العيث « ماسون ^(٢) » و « شالون ^(٣) » وكذلك « بون ^(٤) » حل فيها من العيث ما لا يوصف . ووصل العرب الى مدينة « أوتون ^(٥) » وأحرقوا كنيسة « سان ^(٦) نازير » وكنيسة « سان جان ^(٧) » ودير « سان ^(٨) مرتين » . وكذلك نهبوا دير « سين ^(٩) اندوش » في « صوليو ^(١٠) » وكذلك

(١) Vienne مدينة على وادي « الرون » تبعد ثمانين كيلو متراً عن « غرينوبل » الى الشمال الغربي

(٢) مدينة Maçon من مقاطعة الصاوون والوار على مسافة ٤٤١ كيلو متراً الى الجنوب من باريز

(٣) قصبة Chalon على نهر الصاوون، على ٥٨ كيلو متراً من ماسون وهي غير مدينة شالون

على المارن

(٤) Bon مدينة على ٣٨ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من « ديجون »

(٥) Autun مدينة على مسافة ١٠٦ كيلو مترات الى الشمال الغربي من ماسون

(٦) Saint-Nazaire

Saint-Gean (٧)

Saint-Martin (٨)

Saint-Andoche (٩)

(١٠) Saulieu قصبة من ساحل الذهب من ولاية سيمور Semur

دمر العرب دير « بيز^(١) » بقرب « ديجون^(٢) ». وقد استشهد « رينو » على هذه الحوادث بتاريخ « مواساك » من مجموعة مؤرخي بلاد الغال وبتاريخ « الدون^(٣) » بلانشيه « المسمى بتاريخ برغونيا وبتاريخ « غاليا كريستيانا^(٤) » ويذهب بعضهم إلى أن غارات العرب قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا ، وقالوا إنهم بثوا سراياهم إلى جهات نهر « اللوار » وأخرى بقرب « نيفير^(٥) » وأخرى إلى مقاطعة « فرانش^(٦) كونتي »

وقالوا إن دير « سان^(٧) كولومبان » قد دكه العرب في تلك الغزوة ، وأنهم قتلوا أكثر الرهبان والقسيسين الذين صادفهم في « بيزانسون ». قال « رينو » : وليس في هذه الروايات شئ لا يقبله العقل ولا سيما ما تعلق منها بمقاطعة « فرنش كونتي » التي فيها أسماء وآثار عربية كثيرة . وقالوا أيضا ان الدير الذي في سفح جبال « الفوج^(٨) » المسمى بدير « لوكسول^(٩) » قد جعله العرب أيضا أثراً بعد عين ، وذبخوا الرهبان الذين كانوا فيه تحت رئاسة القديس « ميلين^(١٠) » . نقل هذه الروايات « رينو » عن الأب « لكوانت^(١١) » ونقل أيضا عن « مايون^(١٢) » وقال : يظهر ان المسلمين لم يجدوا مقاومة

(١) Beze

(٢) Dijon قاعدة بلاد « برجونيا » على مسافة ٣١٥ كيلو متراً من الجنوب الشرق من

باريس

(٣) Plancher

(٤) Gallia Christiania

(٥) Nevers

(٦) Franche-Comté مقاطعة في شرق فرنسا ، قاعدتها « بيزانسون » تحتوي على ولايات

« الصاوون » العليا و « دويس » Doubs و « جورا » Jura

(٧) Saint-Colomban

(٨) Vosges

(٩) Luxeuil

(١٠) Mellin

(١١) Lecointe

(١٢) Mabillon

حقيقه إلا أمام مدينة «سانس»^(١) فان هذه المدينة كان فيها مطران ينتسب إلى عائلة نبيلة ، يقال له «ايول»^(٢) «اشتهر بالفضائل والكمالات حتى جعلوه في مصاف القديسين . فهذا المطران عندما سمع بالنجاف العرب قاصدين بلده بدأ بتحصين البلدة، وهياً أسباب الدفاع عنها، بحيث لما وصل العرب إليها وأخذوا يقذفونها بقذائف منجنقاتهم كان أهلها يرمونهم من أعلى الأسوار بأجزاء محرقة كانت تلتهب بها آلاتهم الحربية قال «رينو» : إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات كانوا من السرازين^(٣) ولا ثمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك ، بل كان المؤرخون يشيرون اليهم بقولهم «فندال»^(٤) وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على الحجاز عند ما جاء هؤلاء الى المانية ودخلوا الى فرنسة واكتسحوا «الازاس» و«اللورين» و«فراش كونتي» و«برغونيا» و«شمانيا» وغيرها

ثم يعود رينو، فيقول: إنه على كل حال قد تحقق محي العرب إلى فرنسة وتغلغلهم في أحشاء البلاد وأنهم لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيهم ومراميمهم، وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسة الا مقاومة واهية وعزما غير جميع . نعم تختلف فرنسة عن اسبانية في هذا الباب بأن اسبانية وجد فيها من انضم الى العرب وسعى بين أيديهم ودان بدينهم ، وأما في فرنسة فاذا استثنينا بعض أشخاص لا يعرفون معنى للدين ولا للوطن لم يوجد من الأهالي فئة كان لها شيء من الوجاهة والنبالة رضىت بأن تنحاز الى العرب أو أن تصبأ عن دينها، بل انه في وسط مدينتي أربونة وقرقشونة ، حيث أقام العرب مدة طويلة، بقى الاهلون متمسكين بدينهم المسيحي لا يرضون به بدلا

(١) Sens قصبة مقاطعة إفرنسية تسمى يوند «Yonnd»

(٢) Ebbon

(٣) Sarrazins وهو لقب المسلمين عند الإفرنج في ذلك الوقت

(٤) Vandales

وكان اود دوق اكيثانية طول هذه المدة منحرفا عن القتال، متجنباً الانغماس في الحرب، لأن غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ولم تكن في قلب البلاد مثل ذى قبل . وأما « شارل مارتل » فكان مشغولاً بمحاربة « الفرizonيين » و « البافاريين » و « السقسون » الذين كان يخشى أن يعبروا عليه نهر الرين وينازعوه مركز سلطانه . وكان بينه وبين « أود » ما بين النظراء الذين يغص بعضهم بمكان بعض . فأما مؤرخو العرب الذين لم يكن لهم اطلاع على تلك المنافسات الداخلية بين ملوك الافرنج فعملوا سكوت « شارل مارتل » الذى كانوا يسمونه « قارله » عن مقارعتهم بالتعليل الآتى . قالوا :

إن كثيراً من أمراء الافرنج فزعوا إلى « قارله » وشكوا له الأضرار التى حلت بهم من عيث المسلمين فى البلاد ، وأوْخُوا له العار الذى يلحق بها من كون جيش كالجيش العربى ، مجهز بأسلحة خفيفة ، يتغلب على جيوش شائكة بانقل الأسلحة غائصة فى الزرد إلى أعناقها كالجيوش الفرنجية . فأجابهم قارلة : دعوهم الآن يفعلون فانهم فى إبان صولتهم أشبه بالسيل الذى يجرف كل مايقف فى وجهه ، وهم اليوم قد اتخذوا من جرأتهم دروعاً ومن اقدامهم حصوناً ، ولكنهم بعد أن تمتلئ أيديهم من الغنائم ، وبعد أن يألفوا نعيم الحضر ويستولى الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضاً ويدخل الشقاق فى صفوفهم ، حينئذ نرحف إليهم ونتغلب عليهم ونترك جمعهم شريداً وقائمهم حصيداً .. وقد نقل هذا الكلام « رينو » عن المقرئ صاحب النفع . ونحن راجعنا المقرئ فوجدناه يقول فى آخر صفحة ١٢٨ من الطبعة الأزهرية المصرية مايلى :

وقال الحجارى فى المسهب ان موسى بن نصير نصره الله نصراً ماعليه مزيد ، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة - وهذه سمة للمكهم - فقالت له : ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من

جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادرع لهم. فقال لهم مامعناه: رأى عندي أن لا تعرضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فيئذ يتمكنون منهم بأيسر أمر. قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمصرية واليمنية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء. انتهى

قلت: إن أعظم العوامل التي قضت برجوع بدر العرب كالعرجون القديم، بعد أن كان تاماً وأثار المشرق والمغرب، تعود إلى عاملين كبيرين: أحدهما الفتنة التي ذكرها صاحب المسهب بين الشاميين والبلديين، فقد طال بينهما النزاع وتحول إلى فتنة صماء أوقفت سير الاسلام في أوربة بعد أن مشى فيها مشى النار في يابس العرفج. واهم من فتنة البلديين والشاميين فتنة العرب والبربر، فقد أجمع المؤرخون من العرب والافرنجة على أن الحرب التي اصطلت بين المسلمين في شمالي اسبانية والتي تغلب فيها البربر على العرب وأخرجوهم بها من تلك الديار كانت هي السبب في انتهاز الافرنج والاسبانيول تلك الغرة اللائحة لاستئناف دولتهم وصولتهم وطردهم للمسلمين من شمالي اسبانية. وبعد ذلك عندما جمع العرب شملهم وكروا على البربر ووقعوا بهم، انتقاماً عما صدر من البربر من قبل، استفاد الاسبانيول والافرنج فائدة كالفائدة الأولى، واغتموا أيضاً مثل تلك الفرصة، وقد كان أنكى من الفتنين المار ذكرهما فتنة القيسية واليمنية وواقعة شقنده المشهورة ووقائع أخرى كانت تشغل العرب بعضهم ببعض، فيستأسد العدو في خلالها وينهض من رائها فيكر عليهم ويسترجع منهم قلاعاً وحصوناً وحواسر عامرة. وقد شوهد أنه لما اشتدت الفتنة في قرطبة بين العرب والبربر في أيام الخليفة المستضعف هشام الثاني كان كل فريق من المسلمين يستعين بالاسبانيول، وكان هؤلاء يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون وكذا وكذا من المدن، وكان أولو الأمر

في قرطبة ينزلون لهم عنها^(١) . أما العامل الثاني الذي لم يكن يقل خطراً عن الأول فانه ولوع العرب بالغنائم وحرصهم عليها الى الدرجة التي كانت سبباً في الهزائم، فان الواقعة الكبرى التي وقعت بين عبد الرحمن الغافقي و «شارل مارتل» الذي يقول له العرب «قارله» كان سبب إدبار العرب فيها وتماص أوردية من أيديهم هو شدة الخوف على الغنائم لا غير، فانه لما تلاقي الجمعان أراد عبد الرحمن أن يأمر جيشه بترك الغنائم التي كانوا جمعوها حتى لا تبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال . ولكنه توجهس خيفة أن يكسر بذلك من قلوبهم، ففتر عزائمهم وتخبث نفوسهم، فأذن لهم في حفظ غنائمهم وهو كاره، فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم فيها . وعلم بذلك الأفرنج ولخطوا شدة حرص العرب عليها، فلما حمى الوطيس زحف جانب من جيش الأفرنج من طريق آخر قاصداً المعسكر الذي فيه الغنائم، فانكفأ العرب عن ميدان القتال راجعين إلى معسكرهم الذي فيه

(١) قال ابن عذارى في البيان المغرب : قال ابراهيم بن القاسم : وكان أهل قرطبة على حل شدتهم وعظيم محنتهم لاجين في الفتنة والتعصب على البربر، ومن ذكر الصالح قتل، حتى ان رجلاً من وجوه أهل العلم قال في الجامع : اللهم اصباح علينا فقتل في مكانه . وقال آخر في الجامع : ان الله أحب الصالح وأمر به، فقتل في الحين . وجاءت امرأة من القرن فأوقعت قدراً فانكسرت فكانت سوداء فقالوا ببربرية سوداء فقتلت «الى أن يقول» : وأتى رسل ابن مامة القومس زعيم نصرانيتها يستنجزون تسليم الحصون اليه على ألا يعذرهم ولا يتعرض لشيء من ثغورهم . فرضوا بهذا وحضر الفقهاء والعدول والقاضى وكتبوا كتاباً بذلك

قال : ولما وصل الرسل الى قرطبة حضر الفقهاء والقاضى والعدول وكتبوا كتاباً بالشروط وتسليم الحصون للنصارى وقرىء على الناس بمحضرة هشام (اى الخليفة) وواضح (أى الحاجب) وشهد فيه جميع من حضر وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان (تأمل كيف كانوا يستبشرون بتسليم الحصون الى الاسباينول بشرط أن يظاهروهم على البربر) فكان الذي صار لابن مامة جميع الحصون التي كان أخذها الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن أبى عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافاً من هشام . هكذا ذكر الرقيق في كتابه .

قال : وسمع الله بن ابن شاذبه أيضاً بما سلم الى الله بن ابن مامة دونه من الحصون، فكتب يطلب حصوناً آخر وتوعد وتهدد، فأجيب الى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها اليه . وهذا كله لجأجأ في ألا يصلح البربر اه

تلك الأسلاب ليدافعوا من دونها، ولم يبق في الميدان قوة كافية لصد السواد الأعظم من الجيش الفرنجي . وهكذا كانت تلك الهزيمة الكبرى في المحل الذي يسميه العرب ببلات الشهداء ، ويسميه الفرنج بمعركة «بواتيه» . فأنت ترى أن «قارلة» عندما قال للفرنج قوله ذاك «دعوا العرب يملأون أيديهم» كان كأنه يقرأ في ظهر الغيب نعود الى سياق التاريخ بحسب رواية «رينو» فنقول :

وفي سنة ٧٣٠ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن « الغافقي » الذي خلف السمع بن مالك الخولاني في قيادة الجيش المحاصر « لطلوزة » عند مصرع السمع في المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلاً صارماً عادلاً محبباً في جنده ، لنزاهته ولعدم رغبته في حطام الدنيا لنفسه، وكان أيضاً محل احترام صلحاء المسلمين لمعرفته بالحديث النبوي ومصاحبته لأحد أولاد الخليفة عمر (١)

(١) جاءت ترجمة عبد الرحمن الغافقي في كتاب بغية الملتبس في رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى بن عميرة، كما يلي :

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي وهو العكي: أمير الأندلس، وليها في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي صاحب إفريقية . وعبد الرحمن هذا من التابعين يروى عن عبد الله بن عمر وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعبيد الله بن عياض، استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة ١١٥ حكى ذلك غير واحد . وكان رجلاً صالحاً جميل السيرة في ولايته كثير الغزو للروم عدل القسمة في الغنائم وله في ذلك خبر مشهور، أخبرني أبو طاهر اسماعيل بن قاسم الزيات لقيته بفسطاط مصر، قال : أخبرنا الصادق بن مرشد بن يحيى بن القاسم المديني سماعاً عليه ، أخبرنا علي بن منير الحلال قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج، أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن ابن خلف قال : أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال : غزا عبد الرحمن يعني ابن عبد الله العكي إفريقية وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . وكانت فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد فأمر بها فكسرت ثم أخرج الخس وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه . فبلغ ذلك عبيدة يعني ابن عبد الرحمن القيسي الذي هو من قبله فغضب غضباً شديداً وكتب اليه كتاباً يتوعده فيه فكتب اليه عبد الرحمن : ان السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجلس الرحمن للمتين منها مخرجاً . انتهى . وسند ذكر في متن الكتاب تشكلاً أخبار عبد الرحمن الغافقي رحمه الله

وقبل أن نكمل ترجمة عبد الرحمن الغافقي التي ستنتهى بواقعة بلاط الشهداء ينبغي لنا أن نكمل الخبر عن الفترة التي وقعت بين امارة عنبة بن سحيم الكبي وامارة الغافقي ، فنقول : قال المؤرخ الاسبانيولى « كوندى » : إن أول عمل قام به عنبة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضي بين المسلمين بدون تجاوز على الأراضي التي لها ملاكون أصليون من الأهالي ، فكان يستوفى العشر من الذين خضعوا للدولة العرب من أنفسهم ، ويستوفى الخمس ممن لم يخضعوا الا بالسيف . وهو الذى بنى جسر قرطبة (١)

وطاف عنبة فى المقاطعات ينظر فى مظالم الناس ويوزع بينهم العدل بدون تمييز بين الأديان . ثم إن أهالي « طرسونه » انتقضوا عليه فزحف إليهم ودوخهم ودك حصونهم ، واقتص من زعماء الثورة وفرض عليهم غرامة مضاعفة .

ثم أغزى جيوشه بلاد افرنجية ، فدمر وأحرق ونسف زروعا وأسر خلقا كثيرا ، وقيل إنه كان يكره هذا العيث فى بلاد العدو ، إلا أنه كان يدارى جنده ويحذر أن يتهم بفتور الحمية الاسلامية (٢) . قال « كوندى » : ثم انه فى ذلك الوقت خرج فى سورية نبى كذاب اسمه « زوناريا (٣) » كان يزعم أنه المسيح المنتظر عند اليهود : فلما سمع بخبره عرب الاندلس ، وكان كثير منهم من أهل الشام ، صدقوا مقالته هذه وتركوا الغنائم التي كانوا غنموها والمساكن التي كانوا ارتضوها ، وعادوا إلى سورية مجفئين ، فضبط عنبة الأملاك التي تركوها ، وحوّلها لبيت المال . ثم فى السنة التالية غزا عنبة بلاد فرنسة ورافقه النصر فى أول الأمر ، وما زال يقطع الأودية ويستقرى

(١) أكثر المؤرخين يقولون ان باني جسر قرطبة هو سلفه السمع بن مالك الخولاني ، ولعل عنبة أكمل بناءه بعد قتل السمع

(٢) لا شك أن الغافقي بمكانه من معرفة الشرع كان يعلم أن نسف الزروع وهدم البيوت وقطع الأشجار واستعمال النار كل ذلك مخالف لقواعد الحرب فى الاسلام ولو فى بلاد العدو وقد نص على ذلك الأئمة بالصراحة ، وغاية ما شدد المشددون منهم هو أنه يصح اذا بدأ به العدو ولم تبق للمسلمين حيلة الا بمقابلاته بالمثل

(٣) Zonaria وهذا الخبر الذى رواه كوندى ، ونقله عنه ، رينو لم نسمع به حتى الآن وهو من أغرب ما سمع من الأخبار . ونظن أنه ان كان له أصل فيكون فى المجتمع اليهودى لا المجتمع الاسلامي

البسائط حتى عبر نهر « الرون » الى الشرق ، ولكنه وقع في إحدى الوقائع مثخناً بجراحات كثيرة، مات على أثرها ، وذلك سنة ١٠٦ للهجرة . وقبل أن مات استخلف حديرة الفهرى، فلم يشغل هذا المنصب الا مدة يسيرة ، لأن أمير افريقية أرسل أميراً على الأندلس يحيى بن سلمة ^(١) . وكان هذا قائداً مجرباً محباً للعدل صارماً جداً في اعطاء الحقوق لأصحابها ، فها به المسلمون والمسيحيون معاً . وبينما كان يطوف في الولايات الشمالية انتهنز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير افريقية عزله فأجابهم إلى ماسألوا وأرسل أميراً على الأندلس عثمان بن أبي نسعة ^(٢) وكان عثمان هذا مشهوراً بالبسالة والنجدة والبصيرة بالحروب، فتولى الامارة واضطلع بها، ولكن وجد أصحابه فيه عوداً صليماً وقناة لا تلين لغامر ولم يحققوا فيه آمالهم، ولا هو عرف لهم جميل سعيهم في تأميره، بل رأوا منه ما أمضٍ وأرمرض، فما زالوا يسعون به كما سعوا بسلفه حتى حملوا الخليفة هشاماً على صرفه بمخديفة بن الأحوص ^(٣) فلم يقيم هذا إلا قليلاً ، وعاد أمير افريقية فولى على الأندلس عثمان بن أبي نسعة نفسه، ولكن ولاه وكيلاً لا أصيلاً، إلى أن قدم من دمشق بأمر الخليفة المهيم بن عبيد الكنانى ^(٤) وكان المهيم شامياً ولكنه كان فظاً بخيلاً جاسياً، فأسف شيوخ العرب والبربر وساءت ملكته فيهم، فاتحدوا عليه فالتقى بهم في السجون وأهلك بعضهم

(١) في تفح الطيب أن يحيى بن سلمة الكلبى أنفذه بشر بن صفوان الكلبى، وإلى افريقية، لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنيسة فقدمها آخر سنة ١٠٧ وأقام في ولايتها سنتين ونصفاً .

(٢) الافرنج يسمونه « مونوزة » Munuza وهكذا جعلوا ابن أبي نسعة محرفاً إلى « مونوزة » ويقول « رينو » : ان كلا من الافرنج والعرب يحرفون أسماء بعضهم حتى تنكر على الانسان أصلها (٣) في تفح الطيب أن عثمان بن ابى نسعة اللخمى قدم والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السامى صاحب افريقية وعزله لخمسة أشهر بمخديفة بن الأحوص القيسى

(٤) في تفح الطيب يقول إنه قدم من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السامى أمير افريقية وأنه وصل في الحرم سنة ١١١ وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفى سنة ١١٣ لسنتين من ولايته . وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعى فولى شهرين . ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله ابن الحجاب صاحب افريقية فدخلها سنة ١١٣ وغزا الإفرنجية الخ .

وكان من جملة المنكوبين زياد بن زيد فرفع الشكوى الى الخليفة ، هو ومن معه ، واتهموا الهيثم بأنه يسير في الأندلس سيرة لا مناص من أن تنتهى بيوار الأمة والخطوب المدهمة، فأرسل الخليفة هشام محمد بن عبد الله، وفوض إليه أمر التحقيق عن الشكاوى الواقعة بحق الهيثم، وأذن له بأنه اذا ثبت لديه كون الهيثم مجرمًا يعزله ويقتص منه ويتبدل به الأمير الذى يراه الأصلح ، فجاء محمد هذا ومضى بالتحقيق اللازم على أحسن وجه . وعند ما ثبت لديه إجرام الهيثم ألغاه فى السجن واطلق الذين كان نكبتهم ورد عليهم أموالهم . ويقال إنه قبل أن نفى الهيثم من الأندلس الى افريقية أمر بتطويفه فى شوارع قرطبة راكبًا على حمار ، تشهيرًا له ونكالا وفاقًا وبعد ذلك فوض محمد بن عبد الله بالامارة الأمير عبد الرحمن الغافقى فاستحسن الجميع تولية عبد الرحمن الغافقى لما كانوا سبروا من نجايته ومن مزاياه العالية . ولم يشذ عن الجمهور الا عثمان بن أبى نسعة الذى كان يرى نفسه أولى بالامارة، فتولى عبد الرحمن سنة ٧٢٨ وفق ١١٠ (هنا فرق ثلاث سنوات عن رواية فنجح الطيب) . وكان متوفر العناية باقامة العدل ورفع المظالم وابتاء الحقوق أصحابها . ولأجل أن يتمكن من تسكين الدهماء وارضاء الجمهور بقى سنتين يطوف على بلد بلد ويباشر امطة المظالم وازاحة العلل بنفسه غير مميز بين المسلم والمسيحى، وعزل كثيرًا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية وكذلك أعاد الى المسيحيين الكنائس التى كانوا انتزعوها من أيديهم والتى كان لهم الحق بها وفقا للعهود ، كما أنه هدم الكنائس التى كانوا أخذوا الاذن فيها بالرشوة خلافاً للعهود .

ولم يكن يهدأ له بال الا بغزو فرنسة حتى يدوخها ويضمها الى إمارته أو يضم منها البلدان التى كانت من قديم الزمان تحت حكم القوط . فحشد جيشًا جرارًا من نخبة المقاتلة والصابرين فى الحروب، واستنجد أمير افريقية فأرسل اليه بجنود مختارة للجهاد، تلظى شوقًا الى الجلال . ولما وصلت نجدة أمير افريقية سرحها عبد الرحمن الى الدروب، وبعث الى عثمان بن أبى نسعة أمير الثغر بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش . فوقع من عثمان على باقة شديدة البأس كان بدون هذا ينافس عبد الرحمن على الامارة ولم يكن مرتاحًا الى عمل يبدأ به عبد الرحمن وينال

به حسن الذكر . وقد انضاف الى هذا السبب في كراهيته لتلك الحرب أنه في إحدى غاراته على فرنسة وقعت في يده ابنة « أود » دوق ا كيتانية، ويقال إنها كانت تسمى « نوميرانسه^(١) » ويقال ان اسمها « مينين^(٢) » ولكنها كانت مشهورة باسم « لامبيجييه^(٣) » وكانت بارعة في الجمال مع مكانها من بيت الملك ، فهام عثمان بها حباً وتزوج بها كما تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة « ايجيلونه^(٤) » أرملة الملك « لنديق » فمن بعد أن أصبح عثمان بن أبي نسهه صهرًا لدوق « ا كيتانية » عقد مع أبيها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها « دوق ا كيتانية » غارات العرب ولو الى مدة من الزمن . فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمن الغافق الى الأمير عثمان بن أبي نسة بالزحف على بلاد حميه « دوق ا كيتانية » وقع في حيص بيص ، وراجع الأمير قائلاً له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله . وكان عبد الرحمن قد عرف بزواج عثمان مع ابنة « أود » وانه قد شغفه حبها فغضب من تلكؤ عثمان عن الزحف ، وأفهمه أن ذلك العهد الذي كان عقده مع الافرنج بدون علمه لا يعده هو موثقاً له ، وأن عليه أن يتحرك للجهاد بدون مراجعة . فلما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن إعمال الغارة في بلاد « أود » أرسل الى حميه يخبره بما وقع^(٥) حتى يأخذ حذره ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان . فأرسل جيشاً الى الباب تحت قيادة ابن زيان ، انتخبه من أصدق رجاله ، وأمره بأنه إن تمكن يقبض على

Numérance (١)

Minine (٢)

Lampégie (٣)

Egilone (٤)

(٥) كان العرب يطلقون لفظة الباب على بلدة واقعة في أحد منافذ جبال « البرانس » أو « البرانس » والمؤرخ « كوندى » يظن انها مدينة « بوى سردا Puy Gerda » وهذا الرأي موافق لرأى المسيو « شينييه » Chenier الذى يقول ان عثمان بن أبي نسة كان أميراً في « سرده » ويقول آخرون إنه كان في الطرف الغربى من مقاطعة « روسيون » Rousillon في المحل الذى يقال له « سردانة » وهو قرية صغيرة لا تبعد عن « بوى سرده » وكانت تابعة لاسبانية برغم كونها محاطة

عثمان بن أبي نسعة ويرسله اليه، وان أبي الطاعة يهدر دمه . فوصل ابن زيان بعسكره بغتة الى مقر عثمان، وهو ينوى القبض عليه، ففر هذا في الجبال ومعه بعض أعوانه واستصحب أيضاً زوجته الأميرة «لمبيجية» التي كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش في اثره حتى أدركوه وأحاطوا به، فتفرق عنه أصحابه في تلك الأوعار ولم يبق معه سوى زوجته الحسناء، فدافع عن نفسه وعنهما دفاع الأسود حتى أردوه قتيلاً، وفي جسمه ما لا يحصى من طعن وضرب، فاحتزوا رأسه وأتوا به وبالأميرة الحسناء الى الأمير عبد الرحمن . فلما رأى عبد الرحمن هذه الغادة هتف قائلاً : والله ما كنت أظن أنه يوجد مثل هذا الصيد في جبال البرانس . وقد وقعت هذه الواقعة سنة ٧٣٠ وفق ١١٣ ثم إن الأمير عبد الرحمن أرسل الأميرة الى دمشق هدية للخليفة، وهكذا انتهت حياة الأميرة «لمبيجية» ابنة دوق «اكتانيا» في حرم الخليفة الأموي في الشام^(١) . ولما وصل خبر مصرع عثمان الى دوق «اكتانية» علم أن الحرب واقعة لا محالة وتأهب للدفاع الشديد، ولكن الجيش العربي اندلق من جبال «البيرائنه» اندلاق السيول من الجبال، لا يقف في وجهه شيء، فاكتمسح الأرضين من «نافارا»^(٢) الى «بورردو»^(٣) وامتلاّت أيدي المسلمين بالغنائم . ولما وصلوا الى «بورردو» حاول أهلها أن يدافعوا عنها فكسروهم وأخذوا البلدة عنوة ووضعوا السيف فيها ونهبوها .

بأرض فرنسة . وكان الى شمالي هذه القرية على جبل منفرد في حذاء «البيرائنه» حصن قديم فيظن بعضهم أن هذا الحصن هو الذي كان يقيم فيه أمير الباب من قبل العرب
(١) قال المسيو «دومارليس» صاحب الحواشي على تاريخ «كوندى» الاسبانيولى: إن هذه الواقعة هى السبب في قول المسيو «شينيه» Chenier بأن المسلمين يعتقدون أن أحد خلفائهم تزوج بأميرة إفرنسية . قلت: وليس هذا القول خطأ لأن «أود» دوق «اكتانية» أى ملك بلاد الغال في عصره كان ينتسب الى «كلوفيس» أول ملوك فرنسة
(٢) Navarr هى مملكة في شمال اسبانيا كان العرب يقولون لها «نافارا» وأحياناً «نبرا»

(٣) Bordeaux مدينة عظيمة في غرب فرنسة على مسافة ٣٧٨ كيلو متراً الى الجنوب الغربى من باريس، وهى قاعدة مقاطعة «الجيروند» التي كان العرب يقولون لها «جيرندة» وكانوا يقولون لمدينة «بورردو» بورديل

وكان الأهالى الذين وقعوا فى اليد يفدون أنفسهم بالمال . وأما أمير «بوردو» فقد قتل فى المعركة .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من فتح بوردو تقدم الى الشمال فوجد دوق «اكتانية» فى طريقه يحاول صده فى مضيق «دوردون»^(١) غير أن حملات العرب لم يكن ليصدها شئ ، فانهزم «أود» وفر بجيشه ، وقطع أمله من ملكه ، فتناسى جميع ما كان بينه وبين «شارل مارتيل» من الأحقاد والضغائن ، وأرسل يستصرخه ، فلم يمكن «شارل مارتيل» أو «قارله» إلا إجابة «أود» لا لأجل الإنسانية فقط بل لأجل السياسة ، إذ كان جميع مصير فرنسة والممالك المجاورة لها متوقفاً على نتيجة هذه الحرب فلو كان العرب تغلبوا ذلك اليوم على الأفرنج لما كانوا وقفوا الا على ساحل البلطيق

فامتد الصريح فى كل بلاد فرنسة وزحفت المقاتلة من كل صوب ، وانضم الجميع تحت لواء « شارل مارتيل » وبقي العرب يتقدمون الى أن وصلوا الى قريب من مدينة « تور »^(٢) وهناك علم عبد الرحمن الغافق أن جيشاً عظيماً زاحف لمصادمته ، وكان عبد الرحمن مع شدة بأسه وغرامه بالحرب عاقلاً حازماً بصيراً بالعواقب ، ففكر ساعة فيما بين أيدي رجاله من الغنائم الثقيلة وعلم ما يعوقهم عن القتال من اهتمامهم بحفظها ، فهم باعطاء الأمر الى الجيش بترك جميع ما فى أيديهم من الغنائم والأسلاب ، ولكنه خاف من إغصاب عسكره فيما لو حملهم على تجرع هذه الكأس المرة ، إذ قد تفتت همتهم وتلقس نفوسهم ، فرجع عن عزمه هذا معتمداً على ما كمن فى نفوسهم من شجاعة وصبر ، ثم تقدم وحصر « تور » وأخذها عنوة بمشهد من جيش « شارل مارتيل » وخيم بساحتها . ولما دخل العرب المدينة أسرفوا فى القتل والنكابة . ثم تلاقي الجمعان بين «تور» و« پواتيه»^(٣) وكان عبد الرحمن هو البادىء بالمناجزة فاستمرت

(١) Dordogne والمؤرخ « كوندى » الاسبانولى يقول إن هذه الواقعة حصلت على وادى « الغارون » ولكن « دومارليس » الذى حشى كتاب « كوندى » يقول إن أكثر المؤرخين الأفرنسيين يجعلونها فى مضيق « دوردون »

(٢) Tours من مدن فرنسة المشهورة واقعة على نهر « اللوار »

(٣) Poitiers مدينة على مسافة ٣٣٢ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من باريس

المعركة مدة طويلة، قبل أن يترجح النصر للأفرنج. ولما رأى عبدالرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط المعركة يصطليها بيده، ودخل حتى بين صفوف الأعداء أنفسهم، يغامر مغامرة الجندي الذي هو من عرض الجند، إلى أن خر هناك صريعاً، فلما رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر نزل بهم الرعب ونكسوا على أعقابهم وبنكوصهم خمدت جمرتهم وسقط في أيديهم، فأذرع الأفرنج فيهم القتل وطرحوا منهم بالعراء ألوفاً وما زالوا يعملون في أقفيتهم السلاح إلى «أربونة»^(١)

فلما وصل خبر هذه الفاجعة إلى الأندلس وإلى إفريقية زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وعم الحزن واشتد البث ولبس المسلمون أثواب الحداد، فأسرع أمير إفريقية بإرسال عبد الملك بن قطن الفهري، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي، وأنفذ معه جيشاً من خيل ورجل

(١) يقول المسيو «دومارليس» في حاشية كتاب «كوندى»: ان المؤرخين من الأفرنج لم يتفقوا على تعيين يوم هذه الواقعة ولا على محل نشوبها. فبعضهم يقول إنها وقعت في ٧ أكتوبر سنة ٧٣٢ وبعضهم مثل «كوندى» يقول انها وقعت سنة ٧٣٣ وأما العرب فانهم أوثق رواية عن يوم وقوعها، لأن هذه الحادثة المشؤومة على الأمة العربية، التي كانت سبب توقف سير قوتها والتي سقط فيها رجل من أعظم قواد العرب في التاريخ، كانت عندهم من أشد الوقائع نكابة بهم فحفظوا جيداً تاريخ وقوعها. فالعرب يقولون إنها وقعت سنة ١١٥ للهجرة. قلت: يريد «دومارليس» أن يقول إنها وقعت سنة ٧٣٣ ولكن الذي في نفع الطيب يخالف هذا إذ يقول إنها وقعت في رمضان سنة ١١٤ أي وفق سنة ٧٣٢.

قال: بقي مكان الواقعة. فبعض المؤرخين من الأفرنج مثل «فيللي» Velli يجعل وقوعها على خمس مراحل من «تور» والآخرين يقولون بل جرت بقرب «بواتيه» ومؤرخو العرب يذكرون انها نشبت على ضفاف نهر «أووار» Ovvar وربما قصدوا بذلك نهر «فين» Vienne الذي ينصب في اللوار. ويقول العرب إن سبب الهزيمة هو أنهم كانوا وضعوا الغنائم في الخيم وراءهم فانحرف فريق من الأفرنج وهاجموا المخيم فذاف العرب على الغنائم التي فيه. وبينما المعركة في أشد معمعانها ترك جانب كبير من فرسانهم ساحة الحرب ورجعوا لحماية الغنائم ورجوعهم هذا خفت كفتهم في ميدان القتال حيث كان منتصباً الميزان وكان أقل شيء يمكنه أن يرجح الكفة الواحدة على الكفة الأخرى. فعبد الرحمن كان حسب لقضية الغنائم هذه حساباً كبيراً وخاف أن تكون سبب بوار العرب ذلك اليوم فوقع فيما خاف منه.

وبعث الى الخليفة بدمشق يعلمه بفاجعة بلاط الشهداء وقتل الأمير عبد الرحمن الغافقي وبأنه أنفذ عبد الملك الفهرى مكانه وجرد معه جيشاً، فوافق الخليفة على عمل عامله وشمر للأخذ بالثار وأمر بغزو بلاد فرنسة وأخذها بالسيوف من كل ناحية، فسار عبد الملك الفهرى وفي نيته أن يأخذ بذحل المساهين ويحجر الكسر الذى وقع، ولكن هيهات فقد كان بلغ بالمساهين اليأس مبلغه وذهب كل كلام القائد فى استنهاض همهم سدى وسار منهم مع عبد الملك جيش الى فرنسة لكنهم ساروا بصدور غير منسرحة وآمال غير منفسحة . وكيف يقاتل جيش تعوزه القوة المعنوية . فانهزم جيش عبد الملك فى جبال « البيرانه »

وأخيراً أرسل الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج (السلولى) وكان اشتهر ببسالته وحسن تديره فى حرب البربر بافريقية فوصل إلى الأندلس ، وانتعشت به الآمال بما كان عليه من زكاء السيرة والعدل وسداد التصرف ، فبدأ بعزل العمال الذين عسفوا الرعية وحبس الذين غلوا من أموال الدولة أو قاموا بجبايات غير شرعية ، وانتصر للضعفاء واقتص لهم من الأقوياء، وأمر الولاة بتجنيد فرق من الجند أرصدها لاستئصال قطاع الطرق، وأسس كثيراً من المدارس والمساجد، على نفقة الدولة، وخصص لها الخدمة الكثيرين. وكان لا يميز فى المعاملة بين أصناف رعيته . وبالإجمال فقد كان عقبة هذا كامل العدالة تام الرجولية لا يجد قائل فيه مطعناً . ثم نظر فى سيرة سلفه عبد الملك الفهرى فلم يجد عليه ما يؤاخذ به، فجعله أميراً على الخيالة، وأرسله الى الثغر. وكان فى نية عقبة أن يزحف الى فرنسة بجيش جرار ^(١) امتثالاً لأمر الخليفة ، ولكن لما وصل الى « سرقسطة »

(١) وأما فى نفح الطيب فيقول ان عقبة بن الحجاج السلولى تولى من قبل عبيد الله بن الحجاج فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكنى المساهين « أربونة » وصار رباطهم على نهر « ردونة » ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله . ولكن المؤرخ كوندى الاسبانولى لا يروى الحوادث على هذه الصورة بل يقول انه فى غياب الأمير عقبة فى افريقية وقع الخلل فى إدارة الاندلس وصار كل أمير يعمل بما يعين له ووقعت الفوضى ولم يكن غير عبد الملك الفهرى من يعرف أن يحفظ النظام فى جيشه وأن يسد الثغور . وفى ذلك الوقت انتهز الاشتوريون فرصة هذه الفوضى بين العرب وخرجوا من جبالهم وطرادوا العرب الذين يلونهم

جاءه الخبر بأن البربر في افريقية ثاروا عوداً على بدء، وأمره أمير افريقية بأن يتولى قيادة الجيش الثائر للتنكيل بهم وأن يعبر البحر الى طنجة ، وهكذا اضطر عقبة أن يعدل عن غزو فرنسة وأجاز الى طنجة واشتدت به عزائم العرب في افريقية

وكانت هذه الواقعة سنة ٧٣٧ مسيحية وفق سنة ١٢٠ هجرية . وفي آخر هذه السنة توفي « ييلاي » بطل « استورية » الذي كان هو وحده بنفسه نواة المقاومة بما بقي من قوة الاسبانيول في وجه العرب بعد أن استصفي هؤلاء جميع اسبانية واخذوا على ملك المسيحيين بها ، فانه بطائفة قليلة من رجاله لم يزل يفر في جبال « استورية » من صخرة إلى صخرة إلى أن اعتصم بمغارة جعلها مركز قوته المنيعه ، ولم يبرح معتصماً بذلك الغار يشن منه الغارات على الأطراف القرية منه وهو بمنجاة من العرب ، حتى وسع رقعة إمارته وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إمارة مذكورة ثم مملكة ثم تغلبت هذه المملكة بعد عدة قرون على جميع إسبانية وأخرجت العرب من كل أوربة . وسندكر في الجزء التالي جميع مايتصل بنا علمه من خبر « ييلاي » هذا ، وكيفية نشوء إمارته ونمو أعقابه إلى أن استرجعوا جميع وطنهم بعد ثمانية قرون ولنعد الآن الى تاريخ « رينو » عن غزوات العرب في فرنسة ، ولنمهد لكلامه بما يلي :

واقعة بلاط الشهداء

قبل الدخول في شرح هذه الواقعة وأسبابها وما قيل فيها أرى أن أترجم للقاري

وتقدموا صوب بلاد المسلمين فزحف عبد الملك اليهم بمجيئه وهزمهم واضطروهم الى الرجوع من حيث أتوا . ثم بعد ثلاث سنوات كانت استمرت بها ثورة البربر الى أن دخلوا في الطاعة عاد عقبة ابن الحجاج الى الاندلس فوجد الولاة في أسوأ حل وليس هناك أمير كفؤ للإمارة نأى بالواجب عليه غير عبد الملك الفهرى فكتب اليه عقبة أنه لما كان طراً عليه مرض أصبح لا يقدر معه على الإمارة فقد كتب الى الخليفة بأن يوليه مكانه . وهكذا كان . ومات عقبة في قرطبة وبكاه الجميع بدون استثناء نظراً لحسن سيرته

بطل هذه المعركة عبد الرحمن الغافقي العربي و « شارل مرتيل » الافرنجى الذى يسميه العرب «قارلة» وأذكر خلاصة خبرهما، فيكون ذلك أعون على فهم الواقعة والحوادث التى أدت إليها ونشأت عنها .

« فشارل مرتيل » هو ابن « بين ديريستال ^(١) » مولده سنة ٦٨٩ كان اتمه أبوه بقتل أخيه الذى كان من غير أمه فاعتقله فى كولونية ^(٢) وما زال إلى أن مات أبوه بين سنة ٧١٤ فى الاعتقال فثار الأسترازيون أى أهالى القسم الشرقى من المملكة الميروفنجية الافرنجية بتلك الدولة وجعلوا شارل (أو كارل أو قارله) دوقاً عليهم وتغلبوا به على أهالى القسم الغربى من المملكة بعد وقائع متعددة سنة ٧١٦ وسنة ٧١٧ الى سنة ٧١٩ وعند ذلك اضطر الملك « شيلبريك » الثانى أن يتخذ شارل حاجباً فقسلم زمام الأمور واستبد بها وصار مع الملك «شيلبرك» الثانى والملك «تيتري» الرابع كما كان المنصور بن أبى عامر فى الأندلس مع الخليفة الأموى هشام أو كما كان عز الدولة ابن بويه أو ابن عمه عضد الدولة بن بويه مع الخليفة الطائع العباسى أو كما هو المقيم العام الذى يجعله إحدى الدول الاستعمارية من قبلها فى هذا العصر بجانب أحد سلاطين الاسلام ممن ليس له من السلطنة الا الاسم . هذا ومن ذلك الوقت أخذ شارل يمهّد البلدان التى تليه ويدوخ الشعوب التى فى جواره فقهر السكسون والبافاريين وغيرهم من الألمان وكذلك كان « أود » دوق اكيثانية قد هاجمه فحره .

ولكن لم يبلغ تلك الشهرة التى بلغها ولم يلقب بشارل مارتيل أى المطرقة الا بعد أن ظهر على العرب فى واقعة « پواتيه » أو بلاط الشهداء . جاء فى « المعلة التاريخية الافرنسية لغريغوار وموريس فال ^(٣) » ما يلى : وكان العرب استولوا على اسبانية وسبتيانية وتهددوا بلاد الغال والنصرانية كلها وهزموا « أود » دوق اكيثانية فاستصرخ هذا شارل فزحف شارل إلى العرب على رأس جيش الأسترازيين

Pepin D'heristal (١)

Cologne والامان يقولون كولن (٢)

Dictionnaire. Encyclopédique Par L. Gregoire et Maurice Vahl (٣)

والمقاتلة التي جاءت من وراء الرين ، فانتصر على الأمير عبد الرحمن انتصاراً عظيماً بين «تور» «وبواتيه» سنة ٧٣٢ ويقال إنه بعد هذه الواقعة تلقب بمارتيل ، وهي لفظة معناها المطرقة . ثم إنه بسط الملك الافرنجي على البلاد التي يسقيها نهر الصاوون ونهر الرون ، ودخل سبتانيا ، وطرد العرب من نيم ومدن أخرى ، لكنه لم يقدر على أربونه التي تم فتحها فيما بعد على يد ابنه بين القصير . انتهى .

ومات شارل مارتيل سنة ٧٤١ ولم يسمح لأحد من الملوك الميروفانجيين بشيء من الملك ولا بلقب الملك ، وترك سبعة أولاد ذكور ، أشهرهم بين وكارلومان ، فتقاسم هذان المملكة بينهما

أما عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فهو أمير الأندلس . كان مع السمح بن مالك الخولاني في غزاة طلوزة بحسب رواية «رينو» ولما استشهد السمح رحمه الله في تلك الغزاة تولى عبد الرحمن قيادة جيش العرب الغازي للافرنجة ، وقفل به الى الأندلس وآلت إليه الامارة فيما بعد . وقد ذكرنا في حاشية متقدمة ترجمة الأمير عبد الرحمن المذكور نقلاً عن بغية الملتبس لابن عميرة . ولندكر الآن شيئاً عن نسب هذا الرجل العظيم فنقول :

يقال له الغافقي نسبة الى غافق وهي قبيلة من الأزدي وهو ابن الشاهد بن عك ابن عدنان بن عبد الله بن الأزدي . وقيل بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدنان واليههم ينسب الحصن المعروف بغافق في الأندلس على مسافة مرحلتين من قرطبة . وجاء في تاج العروس ان لهم خطة أيضاً بمصر . وذكر ياقوت في معجم البلدان غافق ، فقال : إنها حصن بالأندلس من أعمال فخص البلوط منها أبو الحسن على بن محمد بن الحبيب بن الشماخ الغافقي كان من أهل النبل وتولى الأحكام ببلدة غافق مدة طويلة قدر ٦٥ سنة ومات سنة ٥٠٣ . وقال المقرئ في نفح الطيب : إن غافقا هو ابن عك بن عدنان بن أزان بن الأزدي ، قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب . وأكثر جهات شقورة ينتسبون الى غافق . انتهى

قلت : ومن العلماء المعروفين المنسوبين الى غافق عبدالعزيز بن علي بن عيسى بن سعيد

ابن مختار الغافقي أبو الأصبع المعروف بالشقورى المتوفى سنة ٥٣١ ترجمه ابن بشكوال
في الصلة وابن الأبار في التكملة

ومنهم عبد الرحمن بن بشر بن الصارم الغافقي أبو سفيان وفد على سليمان بن
عبد الملك ورجع الى الأندلس فاستشهد بها في قتال الروم، روى عنه بكير بن الاشج
وعبد الرحمن بن شريح

ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر بن حجاج الغافقي الاشبيلي وهو الذى جاور
بالمدينة المنورة وقال :

لم يبق لى سؤل ولا مطلب مذ صرت جاراً للحبيب الحبيب
لا أبتغى شيئاً سوى قربه وها أنا منه قريب قريب
جاء ذكره فى نفح الطيب

ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي الألبيرى الزاهد : كان من أهل الحديث
والضبط رحل إلى المشرق وسمع من شيوخ كثيرين وعاد إلى البيرة وطنه وتوفى بها
فى شوال سنة ٣١٩ عن تسعين سنة، ورد ذكره فى النفح أيضاً.

ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقي من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا حج
وحضر افتتاح أقريطش « أى جزيرة كريت » واستوطنها. قاله الرازى.

ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي : من
أهل بلنسية أصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى ترجمه صاحب نفح
الطيب، وقال : إنه كتب لبعض الامراء بشرق الأندلس وله كتاب سماه « المغرب فى
أخبار محاسن أهل المغرب » جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار
المصرية بعد أن رحل اليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة وتوفى بمصر سنة ٥٧٥ .
ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الاشبيلي الشهير بالمسيل : رحل
حاجا وقل إلى بلده. ذكره صاحب النفح .

ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خصيب بن احمد بن حزم الغافقي :
أندلسي سكن دمشق وتولى بها الحسبة وسمع بمصر وبغداد وطرابلس ودمشق وغيرها

كان مالكي المذهب لكنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، قال المقرئ : ماسمت بمالكي معتزلي غير هذا . توفي سنة ٤٠٤ ذكروه ابن عساكر .

ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقي من أهل المرية نزل مرسية وتولى القضاء والخطبة فيها وحدث بصحيح البخاري آخر الحجة سنة ٥٥٥ ذكروه صاحب النفع . ومنهم غير هؤلاء من الأعلام

وأما عبد الرحمن الغافقي ، أمير الأندلس ، فقد ذكر المقرئ في النفع نقلاً عن ابن سعيد أنه كان من التابعين تولى إمارة الأندلس في حدود العشر ومائة وهو من أبطال الاسلام المعدودين . كل ما ذكره المؤرخون من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الرجال ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام والسهر على مصالح الأنام وبعد النظر في السياسة

قال المؤرخ « رينو » إنه كان مهتماً بأخذ ثار المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا فيها في السنين الأخيرة قبل إمارته . وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسة يدوخ بها هذه المملكة ثم يجتاز منها إلى ايطالية فألمانية فالقسطنطينية ويدخلها في حكم الاسلام . ولما كانت الحماسة الدينية في ذلك الوقت في إبان غليانها ، وكانت الأندلس وفرنسة الجنوبية يخرجن أراضيهما واعتدال هوائيهما أصبحتا مقصداً للعرب من جميع الجهات ، وكان يأتيها كل يوم رجالات أشداء من جزيرة العرب ومن جبال الأطلس ، فقد كان الأمير عبد الرحمن الغافقي يمرن هؤلاء المجاهدين على استعمال السلاح ويثير فيهم نخوة القتال وكان مقامه بقرطبة ولكنه بقي مدة يطوف في الأندلس وينظر في مظالم العباد ويقتص من القوي للضعيف ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويتبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة . وكان يعامل المسلمين والمسيحيين على السواء تقريباً . وعلى كل حال لم يكن يخرج في معاملة المسيحيين عن العهود المعقودة معهم

وفي تلك الأيام كان المسلمون يوالون الغارات من أربونة وقرقشونة على البلدان المجاورة لهما ، ولكن حصل حادث نفس من خناق المسيحيين بعض الشيء ، وذلك أن

القائد الذى كان فى سردانة من جبال البيرانيه كان بحسب رواية إزيدور الباجى ولذريق شمينيس أحد أحلاس الحرب الافريقين الذين بالاتحاد مع العرب فتحوا الأندلس. وكان يسمى « مونوزه » وكان من ذوى البطش والشبا المرهوب وكان فى مبدأ أمره صارماً جداً فى معاملة المسيحيين وأحرق حياً أسقفاً اسمه « أنا مبادوس » فلما وقعت الحرب بين البربر والعرب مال بطبيعة الحال الى قومه البربر واتحد مع « أود » صاحب جنوبى فرنسة الذى لأجل أن يتمكن منه أزوجه ابنته المسماة « لبيجيا » وكانت فتاة بارعة فى الجمال ^(١) بلغت شهرة عظيمة

وقد روى « كوندى » الاسبانيولى هذه الحادثة بشكل آخر نقلا عن مؤرخى العرب ، فجعل « مونوزه » هذا محرفاً عن عثمان بن أبى نسعة ^(٢) الذى تولى إمارة الأندلس مرتين، وكان ينافس عبد الرحمن الغافقى على الإمارة ويرى نفسه أولى بها . وروى « كوندى » أن ابن أبى نسعة هذا أصاب هذه الأميرة فى إحدى غزواته فسابها فى من سبا وهام بحبها نظراً لجمالها واتحد من أجلها مع « أود » أبيها، ثم لما حمله عبد الرحمن على شن الغارات فى بلاد إفرنجة اعتذر « مونوزه » أو ابن أبى نسعة بوجوب مراعاة الميثاق الذى بينه وبين « أود » فلم يقبل عبد الرحمن منه هذا العذر وأصر عليه بالتعبية والزحف، فأسرع ابن أبى نسعة بتحذير حميه « أود » ليكون على أهبة ضامنة فى وجه عبد الرحمن، فأرسل عبد الرحمن نخبة من جنوده إلى « البيرانية » وأمرهم بالقبض على ابن أبى نسعة حياً أو ميتاً . فلما رأى هذا نفسه لا يقدر على الوقوف أمامهم فر ومعه زوجته الحسناء الى الجبال ، فتأثروه الى حيث ثقفوه ، وتغلبوا عليه واحتزوا رأسه وأرسلوا بالرأس الى دمشق . وكذلك أرسلوا الى دمشق الأميرة « لبيجيا » التى دخلت

(١) ذكر رينو أن بعض مؤرخى ذلك العصر اتهموا اود بأنه هو الذى دعا العرب إلى فرنسة . وهو وغيره يظنون أن هذه التهمة باطلة وان الذين كتبوا ذلك كانوا من أنصار شيلد براند أخى شارل مارتل وأنصار شارل وكلهم كانوا يريدون الوقعة باود

(٢) عثمان بن أبى نسعة هو عربى لخمى كما يظهر من كتب العرب . وهو الذى تزوج بابنة « اود » أمير بلاد الغال بحسب رواية « كوندى » الاسبانيولى ومؤرخى العرب . فأما ما يقوله « رينو » من أن صهر الأمير « اود » لم يكن عربياً وإنما كان بربرياً اسمه « مونوزه » فلم يقل على أى شئ استند فى هذه الرواية ولا ذكر شيئاً من تاريخ « مونوزه » هذا الذى سماه .

في حرم الخليفة . روى هذه الحادثة أيضا ايزيدور الباجي ولودزيق شيمينيس ، ثم روى أن المسلمين الذين كانوا في جنوبي فرنسة كانوا قبل واقعة « پواتيه » غزوا مدينة « أرل »

قال « رينو » : وقد أشار مؤرخو العرب الى هذا الحصار بدون تسمية هذه المدينة ولكن بوصفهم اياها بأنها مبنية على ضفاف نهر كبير هو أكبر نهر في تلك البلاد كانت تصعبه السفن من البحر . ويظن بعض مؤرخي الافرنج ان حملة العرب على مدينة أرل لم تكن الا خدعة يقصدون بها صرف نظر الافرنج عن وجهة الحرب الحقيقية وهي الجهة الشمالية . فان عبد الرحمن بعد أن لبث نحواً من سنتين ، يتأهب للزحف ويكتب الكتاب ويبعي الجنود ، توجه الى جبال البيرانية . وكان جيشه جراراً يرج الأرض ويهتز شوقاً الى القتال . والأرجح أن مروره من هناك وقع في ربيع سنة ٧٣٢ وقد جعل طريقه على أرغون ونابارة ودخل أرض فرنسة من أودية « بيغور ^(١) » و « بيرن ^(٢) » يستدل على ذلك من آثار التدمير التي وقعت في تلك الديار فقد هدم العرب الكنائس والأديار مثل دير « سان سافين ^(٣) » بقرب « طارب ^(٤) » ودير « سان سيفر دورستان ^(٥) » في « بيغور » وخرّب العرب « آير ^(٦) » و « بازاس ^(٧) » و « اوليرون ^(٨) » و « بيرن » وكذلك دير « سانت كروا ^(٩) » بقرب بوردو . ثم افتتحوا بوردو ^(١٠) عنوة . وأقبل اود دوق اكيثانيا بمجموعه محاولاً صدهم في ممر

Bigorre (١)

Béarn (٢)

Saint - Savin (٣)

Tarbe (٤)

Saint - Sever - De - Rustan (٥)

Aire (٦)

Basas (٧)

Oleron (٨)

Sainte-Croix أي الصليب المقدس (٩)

Bordeaux (١٠)

دور دفاون^(١) نهزم. وكان عدد قتلى المسيحيين من الكثرة بحيث أن المؤرخ ايزيدور الباجي^(٢) قال : ان الله تعالى وحده يقدر أن يحصيهم . فلما رأى أود أن لا طاقة له بالثبات أمام العرب استصرخ شارل مارتل الذي كان في ذلك الوقت يدافع عن مملكته فاستجاش عصائبه القديمة من جهات الدانوب والالبا^(٣) والاوقيانوس. ثم ان العرب بعد أن ظفروا بأود أوغلو حتى وصلوا الى بواتيه وأحرقوا دير « سانت إميلين^(٤) » وكنيسة « سانت إيلير^(٥) » في بواتيه

قال رينو : انه بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريح صرصر ، تقتلع كل ماجاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل ما يصادمه . وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم مدينة « تور » التي كان فيها دير « سان مارتين^(٦) » المشهور بنفائسه . وهناك تلقى العرب خبر قدوم شارل مارتيال بجيوش الافرنجة . فقلما ذكر التاريخ معركة لها مابعدھا مثل هذه المعركة . فكان المسيحيون من جهة يذبون عن ديارتهم وأوضاعهم وأملأ كههم وأنفسهم ، وكان المسلمون من جهة أخرى معتقدين أيضا أنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، خلا ما كان يهتمهم من حفظ الغنائم التي في أيديهم ، قال رينو : ان مؤرخا عربيا روى ان عبد الرحمن كان في آخر الأمر في خوف شديد من لهو جيشه بالغنائم الكثيرة التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وانه قد فكر في حملهم على تركها في أرضها لئلا تشغلهم عن القتال فتكون عليهم وبالا ، لكنه لم يشأ - وهو في مأزق كذلك المأزق - أن يغیظهم ويخسر توجه قلوبهم . وبقي واثقا بشجاعتهم ويمن نقيته في القتال . فكان لتردده هذا تلك النتيجة المشؤومة . وقد روى هذا المؤرخ العربي أن العرب هاجموا مدينة تور ،

Dordogne (١)

(٢) تقدم ذكر هذا المؤرخ

(٣) الدانوب معلوم . ونهر الالبا هو نهر شبير في المانية

Saint - Émilien (٤)

Saint - Hilaire (٥)

Saint - Martin (٦)

بمراى من شارل مارتل ، وأنهم انقضوا مثل النور الكاسرة على أهلها فذبجهم
ذبح الشياه مما لاشك أنه قد أغضب الله تعالى فعاقبهم بنكال قريب . أما مؤرخو
المسيحيين فكانت روايتهم عن هذه المعركة قاصرة ولم يذكروا شيئاً عن أخذ
العرب لمدينة تور . وقد بقى الجيشان يرابط كل منهما الآخر مدة ثمانية أيام ، وبعد
مناوشات ليست بذات بال أجمع الجيشان على الوقعة الفاصلة . وبحسب هذه الرواية
العربية تكون الوقعة قد حصلت بقرب تور . وهذا هو رأى لذريق شيمينيس الذى
كان يروى عن مؤرخى العرب . وأما مؤرخو الافرنجة فأكثرهم يذهبون الى أنها
وقعت فى احدى ضواحي « بواتيه » ويستدلون على ذلك من الآثار المحفوظة فى دير
مواساك . ومن الممكن الجمع بين الروايتين . وذلك بأن يقال ان بداية المعركة حصلت
بقرب تور وأنها انتهت بقرب بواتيه . وقد كان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٧٣٢
بحسب رواية بعضهم . وكان المسلمون هم الذين بدأوا القتال ، وكان الفرنج قادمين من
حروب اتسق لهم فيها النصر ، فكانت حماستهم تغلى مرآجلها ويزيدها فيهم وجود
شارل مارتل الذى كان كلما ظهرت ثلثة خف وسدّها بنفسه . وقد هاجم المسلمون
بخفة حركاتهم على سروات الخيل مهاجمات شديدة ، يحاولون بها خرق صفوف الافرنج
فكانوا يجردون أمامهم صفوفاً أشبه بالجدران فى ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حملات
العرب ، فاستمر القتال أول يوم طول النهار ولم يحجز بينهم سوى الظلام . وفى اليوم
التالى تجدد القتال ورخصت النفوس فى سوق المنايا وحمل المسلمون حملات اليأسين
اذ لم يكونوا ينتظرون من الافرنج مثل هذا الثبات ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً .
وبينا كانوا يضاعفون حملاتهم اذ أغارت فرقة من الافرنج على معسكر المسلمين يظن
ان قائدها كان اود دوق اكيثانية ، فلما رأى المسلمون غارة جانب من الافرنج على
خيمهم اشفقوا على الغنائم التى كانوا حازوها فتركوا المصاف وانكفأوا الى الخيم
ليستخلصوه من أيدي الافرنج . وعند ذلك هرع عبد الرحمن يرد المنكفيين ويسوى
الصفوف ، فذهب اجتهداه عبثاً ، وأصابه سهم من جهة العدو فخر صريعاً . وعند ذلك
وقع الفشل فى صفوف المسلمين ، لكنهم تمكنوا من تخلص خيمهم من أيدي الأعداء
وان كانوا فقدوا كثيراً من رجالهم . وأقبل الظلام فخال بين الفريقين . وكان مراد شارل

مارتل الكر على العرب عند الصباح ، الا أنه عندما أصبح الصباح لم يجد منهم أحداً .
وذلك أنهم لما رأوا ما حل بهم سروا في أحشاء الليل وانحازوا إلى الورا قاصدين جبال
البيرانه . وكان مسراهم من السرعة بحيث أنهم تركوا خيامهم منصوبة وغنائمهم مطروحة
في الأرض

ولما رأى شارل مارتل أن العدو أقلع بقضه وقضيضه وزع على عساكره
ما وجده في مخيم العرب من الغنائم الموكمة ، ولكنه لم يتأثر العرب في طريقهم وهم
قافلون . وعللوا ذلك بأنه خشي أن يكون انكفاؤهم إلى الورا استدراجا ومكيدة ، أو
أنه قد أمن بعد هذه الواقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها شرأ . فلذلك قطع نهر
الوارا ، راجعا إلى الشمال ، مقتحرا بما احرزه من النصر الباهر . ومنذ ذلك اليوم لقبوه
بمارتيل (أى المطرقة) سموه بها لثباته ولما سد به بنفسه من الثلم التي كانت تقع في جيشه
ولا يمكن قبول روايات بعض مؤرخي المسيحيين الذين أوصلوا عدد المسلمين
الصرعى في تلك المعركة إلى ثلاثمائة وستين ألفا ، فان المسلمين ذلك اليوم لم يسقطوا كلهم
صرعى ، وما كان من الممكن جمع جيش مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل في تلك الأيام وقد
كانت الحروب الداخلية المستأصلة للرجال لا تنقطع . ثم على فرض الحال وأنه كان ممكنا
حشد فيالق جرارة كهذه فكيف كان يمكن ايجاد الميرة اللازمة لهذه الفياق الجرارة
في البلاد التي تمر فيها وقد كانت خربت تقريبا من توالى الغارات والزوايا . نعم لا ينكر
أن هذا الجيش الذى قاده عبد الرحمن الغافق ، تلك النوبة ، كان أعظم جيش وأحمس
جيش قاده العرب الى وطننا الجميل ، وأنه كان قد هب للحرب كالريح المرسلة ، وأدل
دليل على ذلك هو كون فرنسة بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر
لمقابلة ذلك الجيش العربى المغير ، وأن هذه المعركة لا تزال حتى اليوم شاغلة أعظم موقع
في أذهان جميع الاوربيين

وأما مؤرخو العرب فلم يكونوا يعلمون من تفاصيل تلك المعركة الفاصلة أكثر
مما عرفه مؤرخو الافرنج . وغاية ما ذكر العرب أن عددا كبيرا من رجالهم استشهدوا
في بلاط الشهداء وهو الاسم الذى أطلقوه على تلك الواقعة . ويقولون انه لا يزال يسمع
هناك دوى خفى هو ضجيج الملائكة الذين يزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان

المقدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم

قال المستشرق رينو : وبعد هذه الهزيمة انكفأ فل الجيش العربي الى البيرانه مدمراً كل مامر به ومن جملة ذلك دير سولينياك^(١) . وقيل ان الافرنج غند ما انكفأ العرب أعملوا في أفتيتهم السلاح الى أن بلغوا أربونة . ولا يظهر أن هذه الرواية متينة^(٢) وقد كان تأثير هذه الهزيمة مختلفا جداً بين المسلمين والمسيحيين ، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم واستأنفوا صرائمهم ، وهبوا في جبال البيرانه للأخذ بالثأر ، واعتقدوا أن الله عاد معهم يؤيدهم على أعدائهم . والمسلمون استولى عليهم الوهل ونزل الوهن بعزائمهم وأخذ الأتقياء منهم يقولون ان ماحل بهم من الادبار بعد الاقبال انما كان جزاء وفاقا من الله تعالى على استرسالهم في معاصيهم وامعائهم في ركوب أهوائهم

وكان النائب في الامارة الذي تركه عبد الرحمن الغافقي في قرطبة قد طير الخبر بهزيمة المسلمين في بلاط الشهداء الى القيروان والى دمشق . فارتض الخليفة لهذا الخطب وأرسل أميراً على الأندلس اسمه عبد الملك^(٣) وجهاز معه جيشاً وأمره بالأخذ بثأر المسلمين وشفاء صدور المؤمنين واستنفاد الوسع في هذا الأمر . فأقبل هذا الأمير على الأندلس ، يحاول رتق الفتق ورفو الخرق ، واغذ بجيشه الى البيرانه ، وأخذ يخطب في الغزاة والمرابطة ويشدد من عزائمهم ويجدل سواعد المسلمين ويحبك من مرأئهم ويبين فضائل الجهاد وعلو رتبة الاستشهاد ، إلا أن كل هذه الخطب في المجاهدين لم تفعل فيهم الفعل الكفيل برأب ذلك الصدع . وكان نصارى شمالى اسبانية وجنوبى فرنسة قد رفعوا رؤسهم بعد هذه الوقعة ونبذوا الى المسلمين على سواء . وروى مؤرخ من مؤرخى العرب أن جيشاً من الفرنسيس قطع وقتئذ البيرانه واستولى على بانبلونه وجيرونه أما الأمير عبد الملك فاعمل الحركة أولاً الى كتالونيا واراغون ونافار^(٤) ثم تقدم

(١) Solignac

(٢) بل الأظهر أنهم رجعوا من بلاط الشهداء والعدو خائف أن يظأ أذيالهم لشدة ما كان لهم

من الرعب في قلوب الافرنج

(٣) هو عبد الملك بن قطن القهرى

(٤) كتالونيا هى بلاد الكتالان التى قاعدتها برشلونه . واراغون هى مملكة شمالى اسبانية

الى الشرق . ونافار هى من البلاد المجاورة لأراغون والعرب يسمونها نابرا وأحياناً نبرونه

الى بلاد اللندوق^(١) وحصن المدن التي كانت منها في أيدي المسلمين ، ثم أبعدهم الغار في بلاد العدو . وكانت بلاد « السبتيانيا » و « بروفانس » في حالة الفوضى تقريباً . وكان كل ذي طمع فيها قد انفرد بامارة واستأثر بزعامة . وكان بعض من هؤلاء الزعماء ينضون تحت جناح دوق أكيثانية والآخرين يتفياون في ظل شارل مارتل ، وذلك مصانعة لكل منهما ، ولكنهم كانوا في الحقيقة انما يريدون الاستقلال باماراتهم . وكثيراً ما كانوا يتحدون يداً واحدة مع المسلمين الذين كانوا في أربونة ، وذلك ليقبوا بأس أولئك الملوك الكبار . ومن هؤلاء الأمراء « موروند » الذي كان يلقب بدوق مرسيلىة والذي كان بيده أكثر مقاطعة بروفانس

وفي تلك المدة كان شارل مارتل مشغولاً ببسط سلطته على برغونية وعلى مقاطعة ليون ، حيث كان المسلمون قد شنوا الغارات واهرجوا البلاد وأمرجوها ، ثم انه زحف لقتال « الفريزون^(٢) » فشغلوه أيضاً عن قتال المسلمين

وفي سنة ٧٣٤ اتفق يوسف أمير أربونة العربي مع موروند دوق مرسيلىة وزحف المسلمون بجيش جرار ، وعبروا نهر الرن واستولوا على مدينة « آرل » ونهبوا أديار الرسل والعذراء^(٣) وهدموا قبر سان « سيزير^(٤) » ثم تقدموا إلى أواسط بلاد البروفانس ، وحاصروا مدينة « فريتا » المعروفة اليوم « بسان ريمى^(٥) » واستولوا عليها ، وساروا منها نحو « آفينيون » وعبثاً حاول مقاتلة « آفينيون » صد المسلمين في ممر « دورانس^(٦) » فان المسلمين ذللوا كل العقبات . وكانت « آفينيون » في ذلك الوقت عبارة عن الصخرة التي بنى عليها فيما بعد قصر الباباوات ، وهو المكان الذي كان مؤلفو العرب يسمونه بصخرة أبنيون . وقد بقى المسلمون في ذلك الوقت أربع سنوات

(١) Languedoc

(٢) Frisons شعب جرمانى كان ينزل بين بحر الشمال ونهر الرين الأدنى

(٣) Couvents des Saints- Apôtres et de la Vierge

(٤) St- Césaires وقد روى رينو هذا الخبر عن تاريخ « غاليا كريستيانيا »

(٥) Fretta, aujourd'hui St Remi

(٦) Durance

محتلين بلاد « بروفانس »^(١) وكان « أود » دوق أ كيتانيا قد توفي سنة ٧٣٥ بجاء شارل مارتل واستولى على بلاده وخضع له أولاد الدوق المذكور وأما الأمير عبد الملك^(٢) فبعد أن أهب الله له ربح النصر في هذه الغزوات بأرض فرنسة، عاد إلى جبال البيرانية ، لتدويخ الأهالي الباقين على العصيان ، فصادفته أنواء وأمطار وهو في جبال وأوعار فوقعت عليه هزيمة . وعندما بلغ الخليفة ما أصابه قلده إمارة الأندلس أميراً غيره اسمه عقبة^(٣) ولم يبق في يد عبد الملك سوى إمارة المقاطعات التي في جوار البيرانية

وكان عقبة هذا رجلاً يتقدم حمية على الاسلام ويرى في الجهاد قرة عينه . ويقول مؤرخو العرب إنه اختار إمارة الأندلس حبا بالجهاد والرباط . وكان اذا وقع في يده أسير من المسيحيين لا يهمل أن يعرض عليه الاسلام . وفي أيامه حصن المسلمون جميع المواقع التي أمكنهم تحصينها في بلاد اللندوق ، حتى ضفاف نهر الرون ، وشحنوها بالمقاتلة. وفي ذلك الوقت أعادوا المغار كما بدا على بلاد «دوفينية»^(٤) فغربوا بلدة «سان بول» المعروفة بالثلاثة القصور و «دوزير»^(٥) واحتلوا «فلانس»^(٦) وأصبحت جميع الكنائس المجاورة لمدينة « فين»^(٧) على ضفتي الرون قاعا صفصفا

(١) قد ذكر المستشرق رينو في حاشية كتابه نصوص التواريخ التي تنبئ عن هذه الواقعة وهي باللاتينية كما لا يخفى لأنها كانت لغة الكتابة في ذلك العصر . فن هذه النصوص ما نقله عن تاريخ دير «مواساك» «Moissac» ومجموعة مؤرخي فرنسة «Recueil des Historiens de France» وتاريخ بروفانس المؤلف بابون «Papon» وذكر أيضا لتأييد خبر الوقائع التي جرت بين العرب والافرنج على ممر «دورانس» كتابة لاتينية كانت في كنيسة بقرب «بونبا» «Bonpas»

(٢) أي عبد الملك بن قطن الفهري الذي سبق ذكره

(٣) هو عقبة بن الحجاج السلولى الذي تقدم ذكره أيضاً

(٤) «Dauphiné» مقاطعة في شمالي « بروفانس » وغربي « سافوا » وشرقي «ليون»

تقدم ذكرها

(٥) « Saint - Paul - Trois Chateaux et Donzere »

(٦) مدينة على نهر الرون «Valence»

(٧) «Vienne» مدينة على الرون أيضا

وكان المسلمون للاخذ بثأر جيشهم الذي قهره شارل مارتل في بلاط الشهداء قد احتلوا مدينة ليون من جديد ، وبثوا الغارات منها على بلاد «بورغونية» فأخذ شارل مارتل يتأهب لقتالهم ، وقد كان واقفه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت نائرة عليه ، فسرّح أخاه « شيلد براند ^(١) » بجيش إلى ليون ، وأرسل يستصرخ «لويتبراند ^(٢) » ملك «اللومباردين» في ايطالية ليوافيه بجيش لقتال المسلمين الذين كانوا البواحد مع موروند دوق مرسيلية وقد تمكنوا من جبال «دوفينه» و «بييمونت ^(٣) » . فجاء شيلد براند (أخو شارل مارتل) وحاصر المسلمين في آفينيون واستعمل في حصارها الآلات المعروفة لذلك العهد ، وتبعه شارل مارتل نفسه بجيش جديد ، وجاء لويت براند ملك اللومباردين بجيش آخر من ايطالية ، فاستولوا على آفينيون عنوة واستأصلوا من بها من المسلمين . وتقدم بعد ذلك شارل مارتل صوب أربونة وكان فيها أمير يقال له بحسب تلفظ المؤرخين القدماء أنبا ^(٤) وكانت مواصلات مسلمي الأندلس مع مسلمي سبتيانيا أكثرها من طريق البحر نظراً لكون أهالي جبال البيرانية المسيحيين حائلين بين الفريقين . فلما وصل الخبر إلى عقبة بأن شارل مارتل قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشاً في البحر لنجدة هذه البلدة ، تحت قيادة رجل يقال له عامر ^(٥) فلما عرف شارل مارتل بمجيء هذا الجيش الجديد جاءه بغتة قبل أن يتأهب للقتال فأخذ المسلمون على غرة وكانت هزيمتهم تامة . وقتل أميرهم ولم ينج منهم الا فل قليل خلصوا إلى مراكبهم وآخرون وصلوا إلى « أربونة » . ولكن برغم هذا كله لم يتمكن شارل مارتل من أخذ « أربونة » وصعرت له خدّها . وفي تلك الأيام جاء الخبر بأن الفريزون والسكسون أشعلوا الثورة من جديد ، فاضطر شارل أن يرحل عن « أربونة » ولكنه قبل رحيله خرب القلاع

Gildebrand (١)

Luitprand (٢)

Piemont (٣) هي اليوم اسم البلاد الواقعة في شمالى ايطالية

(٤) لعله الهيثم

(٥) روى ذلك ايزيدور الباجي

التي كانت في « يزيه ^(١) » و « أقد ^(٢) » ودمر أبواب مدينة « نيم ^(٣) » الشهيرة وقسم من الملهي الروماني الذي كان فيها خوفاً من أن يتحصن به العرب . وكذلك دمر مدينة « ماجلون ^(٤) » وأخذ المسلمين الذين فيها أسارى ومعهم أيضاً أناس من المسيحيين أبقاهم رهائن عنده

ولا يمكن أن يقال إن جميع أهالي جنوبي فرنسا كانوا يحبون شارل مارتل، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين، لأن هؤلاء الأهالي كانوا ينظرون إلى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدنية قديمة من زمان الرومانيين . ولا نزاع في أن المسلمين كانوا قد خربوا الكنائس والأديار وما يخصها من الأراضي، ولكن شارل مارتل عندما جاء ودفع عادية المسلمين عن تلك البلاد لم يرد تلك العقارات على الرهبان والأساقفة، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسي الأسقفية خالية . ويقال إن « فيليكاريوس ^(٥) » مطران « فين » بعد أن خرج المسلمون من البلاد لم يرجع إلى أسقفيته، لخلو الكرسي مما يقوم بأوده، فذهب إلى « فاله ^(٦) » حيث جعلوه رئيساً لدير « سين موريس ^(٧) » وكان الأبحار ورجال الدين يؤوّلون هذه المصائب بأنها عقاب صبه الله تعالى على هام

(١) Béziers مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب، ذات آثار قديمة، سكانها خمسون ألفاً

(٢) Agde مدينة على الضفة الشمالية من نهر هيرولده، كانت إحدى المدن السبع التي نسبت إليها

مقاطعة سيتمانية التي معنى اسمها السبجية

(٣) Nîmes مدينة مشهورة في جنوبي فرنسا ذات آثار رومانية عظيمة

(٤) Maguelon مدينة على البحر كانت ترفأ إليها سفن المساهين الواردة من الأندلس

وإفريقية

(٥) Wilicarius

(٦) Valais

(٧) Saint-Maurice في سويسرة . وسيأتي ذكر هذا الدير الذي أحرقه العرب

العباد تنبيهاً لهم للرجوع الى طريق الفضيلة^(١) . ولم يخل الأخبار ورجال الدين من أناس تعلقوا بشارل مارتيل الذى تولى كبر دفع المسلمين عن أوربة ، وأشهر هؤلاء «هيناروس» مطران «أو كسير»^(٢) الذى كان يحارب فى جيش شارل مارتيل بنفسه ويقاثل المسلمين فى البيرانه وهو فى ثوب الأسقفية

وكان موروند دوق مرسيلية قد فر هارباً من وجه شارل مارتل، وبقي متوارياً الى أن غادر شارل مارتل جنوبى فرنسا عائداً الى الشمال . فلما ذهب شارل مارتل شمالاً ظهر موروند من مخبأه، وجدد علاقاته مع المسلمين، وقاموا بعمل واحد، فبلغ الخبر شارل مارتل . وفى سنة ٧٣٩ زحف الى الجنوب ومعه أخوه شيلدربرند واستولى على مرسيلية . ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون فى أربونة لايجرؤون على عبور نهر الرون

ولست عندنا معلومات يوثق بها عن كيفية معاملة المسلمين لأهالى مقاطعة بروفانس، ويجوز أن يكون اتفاقهم مع موروند قد جعلهم أقل ضغطاً على بلاده مما كانوا فى غيرها . ولكن نزلت على بلاد بروفانس و «لانغدوق» مصيبة ثانية وهى غارات المسلمين البحرية التى كانت سواحل جنوبى فرنسا دائماً عرضة لها

وكان المسلمون فى أول الأمر لا يحبون ركوب البحر، ولكن بعد أن فتحوا سورية ومصر وأفريقية اضطروا الى استعمال الأساطيل البحرية . وبعد وفاة الرسول بخمس عشرة سنة غزا معاوية أمير الشام جزيرة قبرص . وفى سنة ٦٦٩ غزا العرب جزيرة صقلية . ومن ذلك الوقت لم تبرح سواحل سلطنة القسطنطينية عرضة للغارات البحرية الإسلامية . وكانت طوائف الأساطيل الإسلامية ، فى بادئ الأمر ، جمعاً مؤتسباً من الأفاقين ومن النصارى الذين أسلموا ومن الشذاذ من كل قوم ولكن المسلمين فيما بعد تعودوا ركوب البحر والغزو فيه طمعاً فى الغنائم . ومنهم من كان يغزو

(١) ذكر رينو شواهد بهذا المعنى من مجلتها مكتوب من القديس «بونيفاس» رئيس أساقفة «مايانس» الى ملك «مرسية» فى انكثرة سنة ٧٤٥ وهى مملكة كانت فى أواسط انكثرة . قاعدتها لنسكوكن

(٢) Auxerre مدينة على ١٧٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقى من باريس

في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب ، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول معناها الحث على الجهاد في البحر، حتى بلغت بهم الحماسة الى أن النساء صرن يغزون في البحر، ومنهن أم حرام امرأة أحد الصحابة التي ماتت في غزاة بحرية في قبرص . وقيل انه لما ذهب الأسطول الاسلامي يغزو القسطنطينية ، كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضراً، فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين، فأجابه الأمير بأن آثامهم معلقة في أعناقهم . فأجابه ابن عمر : والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطئ . وعزوا الى الرسول أنه قال : إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر

وكانت الغزوات الاسلامية البحرية ، صدر الاسلام ، موجهاً أكثرها الى مملكة الروم . ولما استولى العرب على مدينة قرطاجنة لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ، ولذلك بنو مدينة القيروان على مسافة بعيدة عن الشاطئ . ولما غزا موسى بن نصير الأندلس لم يكن عنده إلا أربع سفن لا غير ، كانت تذهب وتجيء لنقل الجنود من افريقية الى جبل طارق ^(١) . وعند ذلك فهم موسى ضرورة بناء الأساطيل وأنشأ دور الصناعة في كثير من مرافئ الأندلس . وكذلك كانت للعرب مرافئ كثيرة ممتدة من جبل طارق الى طرابلس الغرب . وسنة ٧٣٦ أنشأ العرب دار صنعة عظيمة في تونس . وكان لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء ^(٢) ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها . وذكر مؤلفو العرب أن موسى غزا جزيرة سرديانية سنة ٧١٢ وذكر مؤرخو المسيحيين غزاة للعرب في جزيرة كورسكا ^(٣) وكانت جزائر سرديانيا وكورسكا وصقلية تابعة للملك القسطنطينية . ففي البداية كان العرب يكتفون بانتقاصها من أطرافها ولكن أخذوا فيما بعد يتوغلون في الداخل .

(١) روى ذلك ابن القوطية

(٢) نقل رينو هذا عن النويري بحسب تأليف مخطوط في خزانة الكتب الملكية بفرنسة

(٣) ان أحد مؤرخي القرن الخامس عشر زعم أن المسلمين دخلوا جزيرة كورسكا في زمان

الرسول نفسه ولبثوا فيها الى زمان شارلمان ولكن هذه الرواية منقوضة

وكان أول نزول العرب، في سواحل فرنسة، هو في جزيرة « ليرين »^(١) بقرب عين الطيب^(٢). وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الذي يقال إن العرب غزوا فيه هذه الجزيرة، فقالوا إن ذلك وقع سنة ٧٢٨ وقالوا بل سنة ٧٣٩ وكان في هذه الجزيرة دير شهير تخرج منه آباء للكنيسة وأساقفة مشهورون. ويوم كبسه العرب كان فيه خمسمائة راهب آتين من فرنسة وإيطالية وسائر بلاد أوروبة. وكان رئيس هذا الدير القديس « پورسير »^(٣) فلما قرب المسلمون من الدير جمع القديس الرهبان بأجمعهم وقال لهم إنه يجب عليهم أن ينتظروا الموت. وإنما أرسل إلى البر الأحداث الذين كانوا يتعلمون في الدير. فلما نزل المسلمون في الجزيرة فتشوا عن غنائم يأخذونها فلم يجدوا شيئاً ذا بال، فعرضوا على الرهبان الاسلام، فلم يقبل أحد أن يترك دينه فذبحوهم جميعاً.

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بين القصير، واشتغل في توطيد ملكه في شمالي فرنسة وجنوبها، بحيث كان يمكن العرب أن يغتتموا هذه الفرصة ويمجدوا غاراتهم على جنوبي فرنسة ويبلغوا منها مرادهم. ولكن وقع الشقاق بين العرب أنفسهم فعاقبهم عن كل عمل من هذا القبيل. فان العرب لم يكونوا في هذه الغزوات وحدثهم بل كان معهم البربر، وكان القبيلان في نزاع دائم، كما أنه كان العرب أنفسهم منقسمين إلى يمانيين وهم أبناء قحطان، وإلى عدنانيين وهم أبناء اسماعيل بن إبراهيم. وكانت الحروب دائمة بين هذين الشعبين، لشدة ما عند العرب من العصبية، فبعد أن وقعت في بلاد العرب امتدت إلى مصر والشام ثم الأندلس وفرنسة.

وفي ذلك الوقت أعفى العرب الأقوام الذين خضعوا لهم وساروا معهم من الجزيرة التي كانوا ضربوها عليهم، ومنهم البربر، فاعتاد هؤلاء أن لا يؤدوا شيئاً. إلا أنه في سنة ٧٣٧ عاد أمير افريقية فتقاضى البربر الجزية فعصوا عليه. وكانوا أقواماً أشداء

Lerins (١)

Antibes (٢) بلدة على شاطئ البحر بقرب نيقية أونيس

Saint Porcaire (٣)

نشأوا على سهوات الخيول، فلم يقدر الأمير على تدوينهم، واضطر عقبة أمير الأندلس أن يجيز إلى بر العدو - أى إلى إفريقية - لادخال البربر فى الطاعة. وهكذا تمكن شارل مارتيل، فى غياب عقبة فى إفريقية لادخال البربر فى الطاعة، أن يخضع شوكة العرب فى جنوبى فرنسا (١). ثم اشتدت ثورة البربر فى إفريقية وظهروا على العرب ولجأ فريق من العرب إلى الأندلس. وكان العرب والبربر الذين فى الأندلس قد تقاسموا الأراضى فيما بينهم، سواء فى الأندلس أو فى جنوبى فرنسا، فخافوا من أن هذا الفريق الذى دخل الأندلس من العرب ينازعهم على الأراضى، ووقصدوا أن يجلوهم عن البلاد. وكان الأمير عبد الملك أمير الأندلس عدواً لهؤلاء العرب الذين دخلوا الأندلس، فقتلوه ونصبوا رأسه على جسر قرطبة. وكان فى أربونة أمير اسمه عبد الرحمن، من أنصار عبد الملك فرحف من أربونة بجيش يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل وكان يريد الأخذ بثأر عبد الملك، فوصل إلى قرطبة واقتتل الفريقان ورمى عبد الرحمن قائد جيش العدو بسهم فقتله وقفل إلى أربونة بعد أن أخذ بثأر صديقه (٢).

ولم يكن فى وسع الخلفاء فى دمشق أن يعيدوا السكون إلى نصابه فى بلاد بعيدة كبلاد الأندلس؛ لاسيما ان الثورات كانت تتوالى فى الولايات الشرقية فتشغلهم عن المغرب. وهكذا تغيرت الحالة فى جنوبى فرنسا، وخلال الجول للمسيحيين، برغم قصر باع بين القصير وقتور همتة. وكان المسلمون الذين فى أربونة قد استولوا على مدينة نيم والمدن المجاورة لها، ولكن الحاميات الإسلامية فى تلك المدن أخذت تخف شيئاً فشيئاً، فصار فى نيم وفى يزييه وفى ماغلون إدارة أهلية مستقلة بعض الشيء، وأصبح لكل من هذه البلدان أمير يدير أمورها لكنه معترف بسلطان المسلمين (٣). ومثل

(١) ظهر من هنا أنه لولا ثورة البربر على العرب ما كان أمكن شارل مارتيل أن يضم جنوبى فرنسا إلى مملكته ويخلص بروفانس ولاغندوق وسيتيانا من أيدي المسلمين

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن ابن القوطية. وقد جاء فى أخبار مجموعة

(٣) نقل رينو هذا الخبر عن تاريخ اللانغدوق تأليف « فيسيت » Vaissette وعن تاريخ

هذا حصل في شمالى إسبانية ، أى فى أستورية ونابار وغيرهما .

وفى سنة ٧٤٧ تولى قيادة الأندلس أمير اسمه يوسف ^(١) فأنفذ ابنه عبد الرحمن بجيش ، الى البيرانه ، لأجل تدويخ تلك البلاد ؛ ولكن المسيحيين قاوموه بالسلاح مقاومة شديدة . وكانت طرق الاتصال بين مسلمى أربونة وبين قرطبة ، تكاد تكون منقطعة ، بسبب جبال البيرانه ، ولذلك لم يطل الأمر حتى ابتداء المسيحيين فى السبتيانية ينتفضون على المسلمين . وكان يتنازع هذه البلاد ، أى المدن السبع ، فيفر ^(٢) بن أود دوق أكتانيا وبين بن شارل مارتل . وكان بين قد نال من البابا لقب ملك . وهو اللقب الذى لم ينله أبوه رغم جميع ما بلغه من الشهرة والمكانة .

وفى سنة ٧٥٢ سار بين بجيش الى اللانغدوق ، واستولى على نيم وأقت وماغلون . وبنييه ^(٣) . وبعد ذلك زحف لحصار أربونة وضيق عليها بجميع قوته . ولما وجد أن أمر حصارها يطول أبقى جانباً من عساكره حولها تحت قيادة أمير من أمراء القوط اسمه أنسماندوس ^(٤) إلا أن العرب قتلوا أنسماندوس هذا ، فى كمين عملوه له ، وصادف ذلك حصول مجاعة فى جنوبى فرنسة عطلت حركات الجيوش .

وكان بنو العباس فى الشرق قد تغلبوا على بنى أمية ، ونقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد واستأصلوا الأمويين ، وتعقبوهم فى كل مكان ، ففر منهم واحد الى افريقية ومنها أجاز الى مالقة فتلقيه عرب الأندلس كمنقذ لهم ، وكان اسم هذا الأمير عبد الرحمن ^(٥) وكانت هذه الواقعة سنة ٧٥٥ وقد قدر أن يكون على يد هذا الرجل

(١) يوسف بن عبد الرحمن الفهري

(٢) Vaifre

(٣) أورد رينو على ذلك نصاً من مجموعة مؤرخى فرنسة منسوباً الى مواساك الذى تقدم ذكره

فى إحدى الحواشى

(٤) Ansemundus

(٥) هو عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل . والافرنج يكتبون اسمه Ebn-Moavia وكان

الافرنج الأقدمون من كثرة تحريفهم لأسماء العرب يسمونه Benemauguis وأظنهم قد خلطوا

بينه وبين ابن مغيث الذى كان من أمراء دولته

وأعقابه أعظم مجد ممكن لسلوى اسبانية . وفي أيامهم تأثلت المدينة العربية في الأندلس تأثلاً لا تزال له آثار باهرة هناك الى اليوم . والى يوم مجيء عبد الرحمن لم يكن لأمرء المسلمين في الأندلس شغل الا بقتال بعضهم بعضاً فلم يؤثروا آثاراً خالدة

وقد لقي عبد الرحمن نفسه خطوباً وأهوالاً ، وبقي يسكن الثورات ويرتق الفتوق مدة طويلة . ولكنه تمكن أخيراً من توطيد سلطته وتمكين استقلاله ، واستوسق له أمر الأندلس بتمامها ، الا أنه لم يقدر أن يتجاوز الى غيرها ، فلذلك تحاشى أن يتلقب بلقب الخليفة واقتصر على لقب أمير . وبقي أعقابه الى القرن العاشر مكتفين بهذا اللقب ، وانما كانت عاصمتهم قرطبة مركزاً للعلوم والصنائع ومبعثاً لأشعة المعارف وبعد أن رسخت قدم عبد الرحمن الأموى في الأندلس ، فكر في مدينة أربونة وما يليها من جنوبي فرنسة ، وسرح جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان ، زحف الى البيرانه أملاً برفع الحصار عن أربونة ، ولكن المسيحيين كبسوهم في تلك الأوعار ، فانهزموا هزيمة تامة

ولما كان جمهور أهالى أربونة من المسيحيين ، وقد ضرسهم حصار أربونة بنابه ولم يعد لهم طاقة بتحمل تلك الحالة ، داخلوا الملك بين سراً على أن ينتقصوا على المسلمين وينضموا الى جيشه ، بشرط أنهم يكونون في المستقبل أحراراً في بلدتهم ، وتكون ادارة أمورهم بحسب عرف القوط . وهكذا تم الاتفاق بينهم وبين بين . فبينما كانت الحامية الاسلامية غافلة عما يصنعون كبسوها على غفلة منها ، ودبحوها بأجمعها ، وفتحوا أبواب البلدة للفرنسيين . وكان ذلك سنة ٧٥٩ فانقرضت حكومة الاسلام من أربونه ، وأبقى الملك بين جيشاً وافراً لأجل حراسة البلاد^(١) . اه ملخصاً من كلام رينو

(١) نقل رينو عن هذه الحادثة رواية الدون بوكيه Bouquet ذكر رينو في الحاشية نقلاً عن الدون بوكيه أن بعض مؤرخى الافرنجية يذهبون الى أن المسلمين لم ينقرضوا من جنوبي فرنسة تلك المرة بل بقيت منهم طوائف في مقاطعة دوفينييه وفي مقاطعة نيس أو نيقية وفي جبال الألب وأن

غارات العرب على فرنسا

من بعد جلائهم عن أربونة

الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ مسيحية

قال « رينو » : ان العهد الذى سنتكلم عنه الآن فى هذا القسم من تاريخنا مختلف عن العهد الذى تقدمه والذى سردنا وقائعہ . فقد ظهر لنا مما تقدم من الوقائع أن العرب فى تغلبهم فى فرنسا لم يكونوا مقتصرين على نية الاستيلاء على هذه المملكة فقط ، وإدخالها فى الاسلام ، بل كان هدف رميمهم الاستيلاء على سائر أوروبا وإضافة هذه القارة التى كادت فى زمان الرومانين تستولى على العالم ، الى سلطنة الاسلام كاحدى مقاطعاتها . ومما لا ينبغي أن ننساه أن قواد الجيش العربى الفاتح كان أكثرهم من الجزيرة العربية والشام والعراق ، فكان مركز ديارتهم ومبعث قوتهم فى الشرق ، ومن الشرق ، فكانت جميع أعراقهم تنزع بهم الى هناك . ولم يكن فى نظرهم عقبة كؤود بعد أن قاموا بتلك الفتوحات التى لانظير لها ، وكانوا كلما كانت مملكة أوسع رقعة وأكثر رجالا وجدوها أصلح للغارة وأجدر بالفتح وببيل المجد فى الدنيا والثواب فى الآخرة

أما العهد الذى سندخل فيه الآن فلا يماثل العهد السابق ؛ فان الأمير الذى بدأ يتولى الأندلس كان بقية عائلة مالكة قد ثلّ عرشها فى الشام وأيد رجالها بالسيف ، فقر شريداً وانسل وحيداً الى اسبانية ، وأصبح لا يرى فى افريقية وفى سائر أقسام السلطنة الاسلامية الا أعداء له ولأهله . ولم تكن الجزيرة الأندلسية بالقطر الذى يمكنه

هذه الطوائف بقيت متمكنة فى تلك الجهات طول مدة بين وولده شارلمان . وقد ورد فى بعض التواريخ المتعلقة بمقاطعة دوفينه أن المسلمين احتلوا مدينة غرينوبل Grenoble وذهب مؤرخ دير ليرين المسمى فنسان بارال الى أن المسلمين كانوا فى نيس وان شارلمان هو الذى طردهم منها . ومن هنا استدل بعض المؤرخين على أن المسلمين كانوا لا يزالون فى دوفينه من زمان شارل مرتيل الى أوائل القرن العاشر حيث جددوا غاراتهم على بروفانس وتقدموا الى بلاد الليمونت وسويسرة .

وحده أن يستقل بحملات عظيمة كفيلة بالاستيلاء على الأرض الكبيرة ، بل كان المسلمون في ذلك القطر قد دبّ في جوانبهم الوهن بسبب الفتن الداخلية المستمرة التي كانت بينهم ، والتي كانت قد أبادت خضراءهم ، وبما تأصل في طباع أهل الأندلس من غريزة حب الانتفاض على كل سلطة مما اهتبل به المسيحيون ، سكان المقاطعات الشمالية ، الغرة لأجل الكرة على العرب

وكانت فرنسا التي هي مرمى العرب في هذه الغارات تتأيد يوماً فيوماً ويغلظ أمرها ، فانها في عهد « بين » و « شرلمان » خضعت بأجمعها لسلطة واحدة ، وكان يمكنها لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة تأتيها من ألمانيا وبلجيكا وإيطالية ، فارتفع إذاً كل خوف من وجودها بعد ذلك عرضة لاعتداء المعتدين ، ولم يعد مساهو إسبانية هم المهاجمين لمسيحيي فرنسا ، بل أصبح مسيحيو فرنسا هم المهاجمين لمسلمي إسبانية ^(١) . وكان « بين » و « شرلمان » قد أخذوا يرسلان أهالي « كالتونيا » و « اراغون » و « نابار » ليوحدوا حركتهم مع الافرنج ، كما أنهما كانا دائماً يمدان أيدي التحريك الى أمراء العرب الثائرين على السلطان في قرطبة ، وكثيراً ما هم . ثم لم يلبث شرلمان وأولاده أن وطئوا بالفعل أرض إسبانية وأدخلوا بعضها في مملكتهم ، لأن الولايات التي تشرب من نهر الايبير ^(٢) بقيت مدة من الزمن تابعة لفرنسة ، ثم عندما أخذ المسيحيون سكان الشمال يكرون على العرب ويسترجعون بلاد آبائهم كان أهالي جنوبي فرنسا الذين أكثرهم والاسبان من أصل واحد يخفون لنجدتهم ويحييون لصريخهم

ومما يدل على بعد المدى الذي تصل اليه أهواء النفوس اذا استحكمت العداوة أن أمراء قرطبة كانوا في نزاع دائم مع خلفاء بغداد ، وكان وكد كل من الفريقين النكاية

(١) قدظهر من هنا أن سقوط الدولة الأموية في المشرق وصعد الوحدة العربية بانسلاخ الأندلس عن دولة الخلافة هما العاملان في تأخر العرب في قارة أوربة . ومما لا نزاع فيه أن القوة المتحدة التي كان وراءها الأندلس وأفريقية ومصر والشام والعراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان كانت أقوى على تجريد الجيوش وتسريب الأموال من القوة التي لم تكن تتجاوز جزيرة الأندلس وحدها

(٢) Ebre هو النهر الذي يمر بسرقسطة . والاسبانيول والعرب يقولون له ايبيره

بالآخر ، أكثر منه في الفتوحات في بلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يرسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الأندلس ، وكانت لذلك العهد العلاقات التجارية قد بدأت بين الشرق والغرب وسارت السفن تختلف بين « مرسيلية » و « فريجوس » ومرافئ سورية ومصر ، لأجل التجارة بالبهارات والطيوب والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الأخطار ، وذلك أن المسيحيين في الغرب كانوا في أثناء الحروب بينهم وبين المسلمين لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة في فلسطين

وفي سنة ٧٣٣ ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصرة وكانوا يجولون آمنين في فلسطين والشام وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ولم يعترضهم أحد ^(١) ولا خافوا ولا حزنوا

وكان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الافرنسية أحسن معاملة ، ويتبادلون وإياها التحف والألطاف وإن كان قد وجد من عمالهم في افريقية من يشن الغارات على سواحلكم في الأحيان ، فما ذاك إلا لتباعد المسافات بين أولئك العمال وبين مركز الخلافة العباسية

هذا ومنذ استرجع « بين » القصير « أربونة » وأجلى العرب عنها سكنت الأمور بين مسلمي الأندلس والفرنسيين . وكان « بين » يعد « البيرانه » هي التخم الطبيعي بين فرنسة وإسبانية . وكان عبد الرحمن مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه . ولم يكن « بين » يهمل شيئا من الوسائل لاثارة نيران الفتن بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أي بعد استرداد الفرنسيين لأربونة دخل أمير برشلونة المسمى

(١) نقل « رينو » هذا الخبر عن ترجمة حياة القديس « جيبو » Jubeau في مجموعة البولنديين

سليمان^(١) في علاقات مع « بين » وتعاهد معه^(٢) . ومؤرخو الفرنسيين يزعمون أنه انضوى تحت لواء « بين » ولكن الأصح أن يقال إنه ما قصد إلا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه . ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين في شمالي الأندلس ، فيوم يضغط عليهم السلطان في قرطبة يلجأون الى فرنسة ، ينشدون عندها التنفيس من خناقهم ، وإذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيين بحق بلادهم عادوا الى رئيسهم في قرطبة واعتصموا به ، وكانت تساعدهم على الاستقلال طبيعة البلاد التي كانوا فيها فانها بلاد جبلية كثيرة الأوعار صعبة المرتقى يسهل على المقاتلة بها ، ولو كان عددها قليلا ، أن تشاغل الجيوش الجرارة . وكان العرب يسمون « قشتالة » القديمة و « البية » بلاد « البيا » و « القلاع »^(٣) وكانوا يسمون النابار بلاد البشكنس . وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي وراء البيرانه الى جهة فرنسة ، لأن أصل الأهالي واحد سواء في السفح الجنوبي أو السفح الشمالي من البيرانه

وكان العرب يسمون البيرانه جبل البورتات وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة

(١) هوسليمان الاعرابي السكبي أمير برشلونة . وكانت بينه وبين شارلمان علاقات مذكورة كان أميراً بسرقسطة . انظر الى ما يقوله صاحب أخبار مجموعة : ثم ثار سليمان الاعرابي بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري ، من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير (يعني عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد في جيش ، فنزل أهل المدينة وقتلهم أياماً ، ثم ان الاعرابي طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلاً ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة فصار عنده أسيراً وانهزم بجيش . فبعث به الاعرابي إلى قارلة فلما صار عنده طمع قارلة في مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودفعوهم أشد الدفع فرجع إلى بلده . انتهى

قلت : إن العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارنل وسيأتي ذكر قصة الأمير سليمان هذا — الذي ملاً شارلمان على قومه — وكيف انتهى أمره

(٢) نقل «رينو» هذا الخبر عن مجموعة « الدون بوكيه »

(٣) يكثر في تواريخ العرب ذكر غزوات الجيوش الاسلامية لبلاد البيا والقلاع
Le Pays D'alaba et des Chateaux ويقال أحياناً « ألفا » ولكن تلفظ الاسبانيول للفاء هو كلفظ العرب للباء

اللاتينية Portus وبالسبانيولية Puerto ومعناها الممر ، وذلك لأنه من هناك كان الممر من الأندلس الى الارض الكبيرة . وكان يوجد في البيرانه أربعة أبواب معروفة عند العرب : الأول طريق برشلونة الى أربونة على مدينة « پرينيان ^(١) » الحاضرة . والثاني طريق « بويسردا » على « سردانة ^(٢) » . والثالث الطريق الذى يؤدى من « بنبلونة » الى « سان جان بيبه دوپور ^(٣) » والرابع طريق طولوزة الى بايـون ^(٤) . وكانت طرق البيرانه فى القرون الوسطى أوعر مما هى الآن بلا نكير

وكما كان بين ملك فرنسا كثير التضريب بين أمراء المسلمين ، لايفتأ يغرى بعضهم بالايقاع ببعض ، كان الخليفة العباسى المنصور بعد أن بنى بغداد مجتهداً أيضاً فى توحيد المملكة الاسلامية كما كانت لعهد بنى أمية ، ولذلك أرسل من سواحل أفريقيا أسطولا فيه عساكر لمقاتلة عبد الرحمن الأموى الملقب بالداخل ^(٥) ووجد

(١) Perpignan قاعدة ولاية روسيون أوالبيرانه الشرقية

(٢) Cerdagna

(٣) Saint - Jean - Pied - de - Port

(٤) Tolosa a Bayonne وطولوزة هذه هى غير طولوزة الإفريقية. والفرق بينهما أن

طولوزة الاسبانية تكتب بحرف O فقط وان طولوزة الإفريقية تكتب بحرفين OU

(٥) قال ابن خلدون : وفى سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصي من افريقية إلى الأندلس ، ونزل بياجة الأندلس ، داعياً لأبى جعفر المنصور ، واجتمع اليه خلق ، فسار عبد الرحمن اليه ولقيه بنواحي اشبيلية ، فقاتله أياماً ثم انهزم العلاء وقتل بسبعة آلاف من أصحابه . وبعث عبد الرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة ، فألقيت فى أسواقهما سرّاً ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك ، وقال : ما هذا إلا شيطان والحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر . أو كلاماً هذا معناه . انتهى

وجاء فى كتاب « أخبار مجموعة » الذى تقدم ذكره فى أخبار عبد الرحمن الداخل : ثار عليه العلاء بن مغيث اليحصي ، ويقال حضرمى وسود (يعنى دعا لبنى العباس الذين كان شعارهم السواد) ودعا إلى طاعة أبى جعفر وكان قد بعث اليه بلواء أسود فى سنن قناة ، قد أدخله فى اهليجة وطبع عليه ، فأخرجه العلاء فجعله فى رحبه وقام به فى جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائى وأميه بن قطن الفهري فأقبلت اليمانية حتى صاروا باشبيلية فاتهموا أميه بن قطن فأخذوه وكبلوه ، وخرج الأمير اليهم ، واجتمعت اليه الحشود ، وأقبل حتى نزل بقرية القوم بقلعة رعواق وأقبل

من أمراء المسلمين بالأندلس من ماله على عبد الرحمن . ولما كان بين لا يخشى عادة المنصور ، بمكانه من البعد عن فرنسة ، وكان يرجو نصرته لكون عدوها واحداً أسرع الى الدخول في العلاقات مع المنصور ، وأمّل منه الجذب بضبعه

وفي سنة ٧٦٥ أرسل رسلا الى بغداد لبشوا ثلاث سنوات حتى رجعوا الى فرنسة

ومعهم رسل الخليفة، فنزلوا في مرسيلية وصعدوا الى مقر بين فبالغ في الاحتفاء بهم وقضوا ذلك الشتاء في مدينة «متز» باللورين، ثم أمر بأقامتهم في قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ثم أعيدوا الى الشرق، عن طريق مرسيلية ، ومعهم الهدايا الى الخليفة هذا وقد اتبع شارلمان خطة أبيه « بين » في هذا المعنى فما استوسق له الأمر حتى أخذ يداخل أمراء الأندلس ، من مسلمين ومسيحيين ، فكان يقول لهذا الفريق إنه انما يريد ليحررهم من طاعة أمير قرطبة ويساعدهم على استقلالهم ويخفض جناح الرحمة لهم، ولذلك الفريق أنه هو حامى النصرانية الطبيعي الناصر للنصرانية الحافظ للكنيسة الأصلية القامع للبدع الخ

وكان العرب عند ما فتحوا الأندلس أبقوا للمسيحيين حريتهم الدينية ، فكان

غياث بن علقمة اللخمى من شذونة ممدأ لهم، فلما سمع بخبره الأمير بعث اليه بدرأ مولاه في قطع من عسكره فقطع به فنزل في الوجبة التي بين وادى إيريه والنهر الأعظم. ونال به بدر فتراسلا حتى انعقد بينهما صلح، ورجع غياث بن علقمة اللخمى إلى بلده ، ورجع بدر إلى الأمير ، فلما بلغ القوم الخبر قالوا ليس لنا الا مدينة قرمونة فعبوا على الخروج اليها ليلا. وجاء الخبر الى الأمير فبعث بدرأ ، وقال له : ابترد الى المدينة وارفع رأس قتلك على باب قرمونة واجمع اليك أهل الطاعة الى أن نوافيك غدوة . وركب الأمير من سحر طويل فأصبح على ظهر وتباطأ القوم فأصبح القوم في الشعراء تحت قرمونة . فلما نظر الى القبة مضروبة على باب المدينة علم أنهم قد بدروا اليها ، فاجوا وتطلعت عليهم خيل العسكر، فانهزموا وقتلوا قتلاً ذريعاً. وأصيب أمية بن قطن مكبلاً فن عليه الأمير وأطلقه وقطف من رؤوسهم سبعة آلاف رأس فيز رؤوس المعروفين ورأس الغلاء ومثله، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه ، ثم أجزل العطية لمن انتدب لحمل تلك الرؤوس الى افريقية فجمعها في أخرجة وركب فيها البحر حتى انتهى الى القيروان ، فطرحها ليلا في السوق ، فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتاباً مكتوباً بالخبر في الخرج ، فانتشر ذلك حتى بلغ أبا جعفر . انتهى

يوجد أساقفة في قرطبة وطليطلة والمدن التي من الدرجة الأولى ^(١) وكان لهم قسيسون في كل مكان وجدوا فيه ، إلا أنه لا يظهر أنه كان يوجد في المدن الثغرية التي كانت مترددة بين حكم المسلمين وحكم النصارى أساقفة ينظرون في شؤون المسيحيين الروحية وكان المسلمون في إحدى الحروب هدموا مدينة طرطوسة ^(٢) فلم يبق فيها مركز أسقف فصارَت أمور بلاد كتالونيا الروحية مربوطة برئيس أساقفة أربونة في فرنسة . وقد كان أيضا رئيس أساقفة أوش من مقاطعة جيرس Gers في فرنسة ينظر في شؤون مملكة أراغون الروحية . وكان شارلمان يفصل خصومات المسيحيين الاسبانيين فيما بينهم وكان يتوسط لهم عند البابا فيما اذا كانت لهم رغائب اليه أو قضايا عنده وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر إبرة ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه قاصدين شارلمان في وستفاليا Westphalie ^(٣) حيث كان منعقدًا مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين وهو المسمى سليمان ، أثناء وجوده أميراً على سرقسطة ، قد قاتل عساكر أمير قرطبة وأخذ قائدتها أسيراً وجاء به وقدمه كهدية الى شارلمان ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الامبراطور الإفرنسي ^(٤) .

(١) جاء في نفح الطيب عند ترجمة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الثالث ذكر وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيدالله بن قاسم مطران طليطلة . وجاء فيه عند ترجمة الناصر ذكر ربيع الأسقف الذي أرسله الخليفة الى ملك الصقالبة رسولا يرد بذلك زيارة رسول هذا الملك لبابه . ومن هذه الأسماء يعرف القارئ أن أهل الزمة في الأندلس كانوا قد استعربوا وتسموا بأسماء العرب وان كانوا بقوا على النصرانية . وكانوا في هذا أشبه بالمسيحيين من عرب الشرق

(٢) Tarragone مدينة في كتالونية على البحر المتوسط . قال ياقوت في معجم البلدان : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر منها نهر علان يصب مشرقاً الى نهر ابرة وهو نهر طرطوشة . وهي بين طرطوشة وبرشلونة بينهما وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخا . قال : وطرطوسة موضع آخر بالأندلس من أعمال بللة

(٣) وستفاليا هي اليوم من مقاطعات بروسية

(٤) استشهد « رينو » على ذلك بمجموعة الدون بوكيه وكذلك بتاريخ ابن القوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربي والآخرين

وكان شارلمان مترصداً فرصة كهذه حتى ينقضّ على إسبانية ويملك ولو جانباً منها ، فأمر بالنفير العام وتوافت إليه المقاتلة من المانية وفرنسة ولبارديه ، وزحف بهم قاصداً البيرانه . وكان ذلك سنة ٧٧٨ ولم يكن يشك في كون الأهلين سيهرعون من كل ناحية اليه، يجتمعون تحت لوائه ، ولكن أخطأ حدسه هذا، لأن المسلمين عند ما جاء بنفسه قاموه بالسيف وظهر انه لم يكن مقصد بعض أمراءهم من خطبة وده إلا الاستعانة به على استقلالهم . وأما المسيحيون في الجبال فقد آلوهم أنفسهم أيضاً أن لا يخضعوا لحكم الأجنبي أياً كان ، فما وصل شارلمان الى البيرانه حتى وجد نفسه محاطاً بالأعداء فضيق الحصار على بنبلونه ^(١) ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . وكذلك قامته مدينة سرقسطة . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه استولى عليها ذلك اليوم وانه أخذ أميرها أسيراً وأرسله مكبلاً إلى فرنسا . وأما مؤرخو العرب فينكرون ذلك ويقولون انه فشل في هجومه على سرقسطة فشلاً تاماً . ولكن بعد ذلك جرى ان قتل أمير سرقسطة غيلة فالتجأ ابنه الى فرنسا ^(٢) . أما أمراء برشلونة وجيرونة ووشقة فقد أرسلوا رهائن من قبلهم الى شارلمان

و بينا شارلمان يحارب في شمالى اسبانية إذ جاءه الصريخ بأن أمة الصكصون أبت بأن تترك ديارتها الوثنية وبأنها زحفت للقتال ، فاضطر شارلمان الى مغادرة إسبانية

يسمونه مطرف بن العربى . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الاعرابى الكلبى . وأما أسيره الذى أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذى أسره بحيلة كما تقدم

(١) من مملكة نابار وهى قلعة حصينة

(٢) جاء في أخبار مجموعته : ان حسين بن يحيى الأنصارى رفيق سليمان الكلبى ، الذى ثار بسرقسطة على الأمير عبد الرحمن الداخل ، كان قد عدا على سليمان يوم جمعة فقتله في المسجد الجامع وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير عبد الرحمن . وكان عيسون بن سليمان الاعرابى قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة وصار على جرف الوادى فاقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد فقتله ، ثم رجع إلى أمحابه . فسمى ذلك الموضع إلى اليوم « مخاضة عيسون » ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره وحارب سرقسطة معه

عائداً الى فرنسا ، وبينما هو في طريق رجوعه وعند وصوله الى وادى « رونسفو » Roncevaux انقض عليه المسيحيون الجليليون ، وساعدهم في ذلك المسلمون ، فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها . وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيين بينهم فيما يقال « رولان » Roland الفارس الشهير

وبالاختصار كانت الجهات الشمالية من إسبانية أشبه بالثغور لفرنسة كما كانت بلاداً ثغرية للعرب . وكان العرب يسمونها إفرنجة لكونها طالما ألحقت بمملكة أكتانيا . وكان شارلمان قد جعل أكتانيا لابنه لويس الذى جعل كرسى ملكه طلوze أو طولوز

فبعد أن قفل شارلمان من إسبانية عادت فعصت عليه المدن التى كانت أطاعته قبلاً ، وحنق المسلمون على المسيحيين وجعلوا ينتقمون منهم ، بحجة أنهم كانوا السبب فى محيى الفرنسيين . فلجأ عدد من المسيحيين الى الجبال وكانوا يتحملون شظف العيش ويلبسون جلود السباع ولا يبالون بسكنى البرارى . ولكن الترفين من المسيحيين الذين لم يكونوا يستطيعون السكنى فى الأوعار ، التجأوا الى شارلمان ، ووزع هذا عليهم أراضى فى بسائط أربونة ، ولم يفرض عليهم من الضرائب شيئاً إلا الخدمة العسكرية . وقيل انه كان بين هؤلاء المهاجرين أناس مسلمون ارتدوا الى النصرانية كما يظهر من أسمائهم^(١) وقد اشتهر أناس من هؤلاء المهاجرين ولا

(١) نقل «رينو» هذا الخبر عن «الدون بوكيه» ولم نعلم شيئاً من هذا القبيل أى من تنصر جماعة من المسلمين فى أوائل الفتح الاسلامى للاندلس سوى ما ذكره المؤرخون من العرب وهو أنه عند ما اشتدت الفتنة بين القيسية واليمانية اغتم الفرصة أهالى شمالى إسبانية وأخرجوا المسلمين من بلادهم وبق من هؤلاء بينهم بقايا تنصروا .

قال صاحب أخبار مجموعة : فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر عليج يقال له بلای قد ذكرناه فى أول كتابنا فخرج من الصخرة وغلّب على كورة وستورس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابه فلما كان فى سنة ١٣٣ هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخروج وقتل من قتل الخ. ولا مانع من أن يكون فى الذين هاجروا من شمالى إسبانية إلى فرنسا أناس أصلهم من المسلمين

يزال من بقاياهم عائلات نبيلة ينتسبون إليهم مثل عائلة فلنوف Villeneuve
ثم إن عبد الرحمن الأول أمير قرطبة توفى سنة ٧٨٨ وقد وصفه المؤرخون
الفرنسيون بالقسوة ، وقالوا انه كان سفاكاً للدماء جباراً عاتياً وأنه أوقع بكثير من
رعيته العرب والبربر . وزعم الدون بوكيه أن النصارى واليهود قاسوا العذاب ألواناً
في أيامه ، وأنهم اضطروا الى بيع أولادهم ليتمكنوا من المعيشة . وأما نحن فنعتقد أن
هذا الأمير الذي فتح بلاده فتحاً بقوة ساعده وبمجرد حسن تدبيره وكان في جدال
وجلاد دائمين لأجل توطيد سلطانه ، لم يكن ليستغنى أحياناً عن الإتيان بمثلات من
الشدة يرهب بها أعداءه . والحقيقة انه كان في نفسه حليماً عاقلاً محباً للعلوم والصنائع ،
وأنه هو أول مؤسس للمدينة العربية الزاهرة في الأندلس . ولا يظهر أنه كانت
له علاقات رأساً مع شارلمان ، وإن كان المقرئ يذكر ذلك ويقول انه أراد أن يخاطب
أحدى بناته ^(١) والأرجح أنه لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذى دخل في علاقات

(١) جاء في نفح الطيب (الجزء الأول صفحة ١٥٥) مايلي : وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج
وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمس به مدة فأصابه صلب المكسر ثم الرجولية قال معه إلى المدارة
ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابته للسلم ولم تتم المصاهرة . اه
قلت : وأما كون عبد الرحمن فتح البلاد بنفسه ودوخها بصرامته ولم يستغن في ذلك كما قال
« رينو » عن إرهاف الحد ، فلننقل في هذا الموضوع ماجاء في النفج عن ابن حيان : ولما ألقى
الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم
بالسيرة الملوكية وأخذهم بالأداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون
الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية ووجد الأجناد ورفع العماد وأوثق الأوتاد ، فأقام
لملك آتله وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبهم وتحاموا حوزته ،
ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها ، فلذلك ظل عدوه أبو جعفر المنصور
بصدق حسه وبعد غوره وسعة إحاطته يسترجع عبد الرحمن كثيراً ويعبد له بنفسه ويكثر ذكره
ويقول : لاعتجبوا لامتداد أمره مع طول مراسيه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذى
الغد في جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبهه وتسليه عن جميع ذلك يبعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى
قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده فاقترح جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصية الجند ضرب
بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيته بقضية سياسته حتى

كهنه مع قارله ، بل عبد الرحمن الثانى الذى كانت له علاقات مع شارل الأصغر
والذى كان عائشا فى عصر لم تكن فيه هذه المصاهرات وأمثالها مستنكرة اه

وقبل إكمال حديث « رينو » عن عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثانى رأينا
مناسباً أن نذكر خلاصة تاريخ عبد الرحمن الثانى نقلا عن نفح الطيب .

قال المقرئ : غزا عبد الرحمن بن الحكم لأول ولايته إلى جليقية وأبعد وأطال
الغيب وأنخن فى أمم النصرانية هنالك ، ورجع . وفى سنة ٢٠٨ أغزى حاجبه
عبد الكريم بن عبد الواحد إلى البة والقلاع ، فخرّب كثيراً من البلاد وانتسفها ،
وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف
ظافراً . وفى سنة ٢٤ بعث قريبه عبيد الله بن البلنسى فى العساكر ، لغزو ألبه والقلاع ،
فسار ولقى العدو فهزمهم وأكثرت القتل والسبي . ثم خرج لذريق ملك الجلائقة وأغار
على مدينة سالم بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى وقتله فهزمه وأكثرت القتل والسبي
فى العدو . ثم سار إلى الحصن الذى بناه أهل ألبه بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه .
ثم سار عبد الرحمن فى الجيوش إلى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال
فى أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم . وفى سنة ٢٦ بعث عبد الرحمن
العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهاوا إلى أرض برطانية^(١) وكان على مقدمة المسلمين
موسى بن موسى عامل ططيلة^(٢) ولقيهم العدو فصبى حتى هزم الله عدوه . وكان لموسى

انقاد له عصيهم وذلّ له أبيهم فاستولى فيها على أريكتيه ملكاً على قطيعته فاهراً لأعدائه حامياً لذماره .
مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه إن ذلك هو الفقى كل الفقى لا يكذب مادحه . انتهى
قلت : وكان المنصور يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش وسندكر فى الجزء التالى كلاماً آخر
للمنصور عنه فى هذا المعنى

(١) برطانية هنا لا يظهر أنها التى يقال لها برطانية Bretagne من شمالى فرنسا إلى الغرب بل
هى مقاطعة من كتالونية يقال لها اليوم امبردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها
« امبروطانية » وهى لفظة مشتقة من « امبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ثم يونانية عمرها أهل
صور وصيدا فى أرض كتالونية

(٢) Tudela من مدن شمالى الأندلس

في هذه الغزاة مقام محمود. وفي سنة ٢٩ بعث ابنه محمداً بالعساكر، فتقدم إلى بنبلونة، فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى إلى أن يقول: وفي سنة إحدى وثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون^(١) ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فثاموا فيه ثلثة ورجعوا. ثم أغزى عبدالرحمن حاجبه عبدالكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى « البرت » إلى بلاد الفرنجة، فدوخها قتلاً وأسرأوسياً، وحاصر مدينتها العظمى « جيروندة^(٢) » وعاث في نواحيها وقفل. وقد كان ملك القسطنطينية من ورأهم « توفيلس^(٣) » بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة ٢٥ بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالشرق من أجل ماضيق به عليه المأمون والمعتصم، حتى أنه ذكرهما له في كتابه إليه، وعبر عنهما بابني مراحل وماردة^(٤) فكافأه الأمير عبدالرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبدالرحمن ذكر عند مناغيه من بني العباس. ويعرف الأمير عبدالرحمن بالأوسط،

(١) Leon يريد بهامدينة ليون الإسبانية في شمالي إسبانية لامدينة ليون الإفريقية التي يكتب

اسمها هكذا : Lyon

(٢) Jironde يريد بمدينة جيروندة بوردو وكان العرب يقولون لها أيضاً بورديل وهي

مدينة بلاد جيروندة الإفريقية

(٣) هذا هو إمبراطور بيزانطية الذي قاتله المعتصم العباسي وفتح من بلاده عمورية. وورد

ذكره في قصيدة أبي تمام الطائي التي يذكر بها وقعة عمورية والتي مطلعها

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فانه يقول فيها :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة معنى من الحرب الخ

(٤) كانت أم الخليفة المأمون أم ولد اسمها مراحل ماتت في نقاسها به. وكانت أم المعتصم اسمها

ماردة وكانت أحظى النساء عند هارون الرشيد. ويظهر أن توفلوس إمبراطور الروم قصد أن يغري

بنى أمية أمراء الاندلس بغزو الشرق ليشغل بني العباس عن قتاله ويوهن قوتهم

لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر . ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من إمارته . ومولده بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون . وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لفضلها مصنعاً اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور . وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس . وزاد في جامع قرطبة وراقين . ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة وأحتجب عن العامة . قال : وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته « طروب » وكلف بها كلفاً شديداً وهى التى بنى عليها الباب بيدر المال حين تجنت عليه وأعطاهها حلياً قيمته مائة ألف دينار اه

وجاء فى النفح كلام طويل عن محبة هذا الأمير لطروب ولغيرها من الجوارى ولم يقل إنه خطب ابنة شارل الأصلع ملك فرنسا . ولم أذكر ان « دوزى » الذى استقصى فى الكلام عن عبد الرحمن الثانى وسيرته الشخصية ذكر شيئاً من هذا ونعود الى سياق حديث « رينو » عن أمراء بنى أمية ومغازيهم فى افرنجة ، فهو يقول : ان عبد الرحمن الداخل كان استخلف ابنه هشاماً من بعده وان هشاماً لأول حكمه وجد الفتن مشتعلة فى أكثر البلاد فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية ، بجهد العدو الخارجى ، لأنه أجمع شئ للكلمة . وكان يريد أن يتلافى مانقص من المملكة بغارات بين وشارلمان الأخيرة ويخضع شوكة مسيحي بلاد استوريش وشمالى الأندلس فأجمع على قتال المسيحيين فى كل مكان . وفى أيامه كثرت القالة بأن المسلمين لا يقدرّون الا على قتال بعضهم بعضاً ، وأفقى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لا يعرفون أن يقتالوا الا أمة محمد وحدها ، وكانوا يضرّون الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين كانوا يواصلون غزو مملكة القسطنطينية

فبناء على هذا كله تحمّس هشام وأعلن الجهاد ، وأمر الناس كافة بأن ينفروا قاصدين جبال البيرانه ، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه وجب أن يجاهد بماله . وقرىء

منشور الأمير في الجوامع ، وفيه الآي القرآنية التي تحض على الجهاد ^(١) فلما تلى هذا المنشور نفر الناس للجهاد من كل فج ، وانثالوا على الأمير من كل حذب ، ولكن رغم هذا كله لم يكن المجاهدون بالأعداد التي كانت تجتمع في الغزوات الاولى لأول الفتح عندما كان المجاهدون كحصى الدهناء ، ينفرون للجهاد في سبيل الله من افريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها فان هذه البلدان كلها كانت في أيام هشام موصدة الأبواب على من أراد الجهاد في الاندلس ، فأصبح الغزو في الاندلس منحصرا في أهلها . ولذلك لم يجتمع في هذا النفي سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل ، انقسمت الى شطرين : زحف منها شطر الى قتال مسيحي أستوريش ، فلم يظفروا بطائل يذكر ، وزحف الشطر الآخر تحت قيادة الوزير عبد الملك ^(٢) الى كتالونيا ، ومنها تأهب لاجتياح فرنسة .

وكان دخولهم الى فرنسة سنة ٧٩٣ وشارلمان يومئذ مشغول على ضفاف الدانوب ، بحرب الآفاريين ، ونجبة جنود مملكة ا كيتانيا غائبة في ايطالية بصحبة لويس بن شارلمان . فهدد المسلمون من فورهم الى أربونة ، ولما وجدوها محصنة بادر وابطأ حراق أرباضها ، وزحفوا الى قرقشونة ^(٣) وكان لويس ملك ا كيتانيا قد عهد بالوكالة في غيابه الى غليوم كونت طلويزة ، فاستنفر غليوم أمراء المملكة ورجالاتها ، وأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب ، وتلاقوا مع المسلمين على ضفاف نهر « اوريو » ^(٤) في المكان المسمى « فيلدانيا » ^(٥) بين قرقشونة وأربونة . وكانت المعركة من أحمى المعارك وطيسا ، وقاتل الكونت غليوم قتال الضواري ، ولكن

(١) نقل « رينو » صورة هذا المنشور وقال إنه وجد في مجموعة مطبوعة في القاهرة قال :
وليس بأكد أن يكون هو نفس المنشور الذي تلى باسم الأمير هشام ولكنه على كل حال لا يختلف عنه في المعنى

(٢) عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٣) نقل « رينو » هذا عن تاريخ « موساك » في مجموعة « الدون بوكيه »

Orbieux (٤)

Villedaigne (٥)

المسلمين ثبتوا كالآوتاد والفرنسيين انهزموا ذلك النهار وولوا الأكتاد وأصيبوا
 بخسائر فادحة . وغنم المسلمون غنائم فوق الاحصاء ، غير أنه لم يكمل سرورهم وقتل
 أحد كبار قوادهم ، فلم يتعقبوا المسيحيين في هزيمتهم ، واكتفوا بما أصابوه من السبي
 والمغنم ، وقفلوا الى الأندلس ظافرين . وكان لهذه الطائفة ، للمسلمين على المسيحيين ،
 فرح عظيم عند المسلمين لأنه كان قد طال عهدهم بالظفر ^(١) وأصاب الأمير خمس الغنائم
 فبلغ خمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب . فإذا حسبنا قيمة الذهب يومئذ بالنسبة إلى
 قيمته الحاضرة وجب أن نضرب هذا العدد بتسعة فيجتمع لنا سبعمائة ألف فرنك
 من معاملتنا الحاضرة ^(٢) فبنى هشام بهذا المال في جامع قرطبة الذي كان أبوه لم يتمه ^(٣)
 وكان عبد الرحمن الأول بدأ جامع قرطبة ، من غنائم الحرب ، فزاد ذلك في حرمة
 الجامع في نظر المسلمين . فلما باشر ابنه هشام بناء القسم الجديد من الجامع وجد
 المسلمين ملتزمين الصلاة في القسم القديم ، فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له : إن هذا
 من أجل كون هذا القسم بنى من غنائم الجهاد . فأجابهم هشام بأن القسم الجديد أيضاً
 بنى من غنائم الجهاد . واستدعى القاضي ونفراً من كبار القوم فأيّدوا كلامه ^(٤) .
 وقال بعضهم : إن أسس هذا الشطر الجديد من الجامع وضعت على تراب مجلوب من
 جليقية ومن جنوبى فرنسة ، أى من مسافة مائتى مرحلة ، حملة أسرى المسيحيين على
 ظهورهم . وقد تقدم هذا الخبر في الكلام على مدينة أربونة
 ولم يثبت أن المسلمين تمكنوا من أربونة في تلك الغزاة ، ولو كانوا فتحوها لكان

(١) نقل « رينو » ذلك عن مجموعة مؤرخى فرنسة وعن النويرى

(٢) يعنى بالمعاملة التى كانت سنة ١٨٣٦ أى منذ قرن تقريباً

(٣) ورد فى فتح الطيب أن من محاسن الأمير هشام إكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع
 فيه . وأما الغزاة التى ذكرها « رينو » فهى التى يقول عنها ان هشاماً بث وزيره عبد الملك
 ابن عبد الواحد بن مغيث فى العساكر سنة ١٧٧ إلى أربونة وجيرونده فأثنى فيها ووطى أرض
 برطانية وتوغل عبد الملك فى بلاد الكفار وهزمهم

(٤) استشهد « رينو » هنا بتاريخ العرب فى إسبانية ملحق بجغرافية أبى الفدا التى طبعها
 «رينك» فى « لايبسيك »

مؤرخو المسيحيين أشاروا إلى ذلك الحادث . واشتهر في تلك الحرب غليوم كونت
طلوزة ، من أمراء البلاد ومن أفرس فوارسها وأشدهم تحمسا بالدين المسيحي ، لأنه
بعد أن قضى حياته في الحروب ، وكان من جملة غزاة الفرنسيين الذين فتحوا برشلونة ،
أنهى حياته في دير جلون (Gellone) الذي بناه هو بنفسه في لوديف (Lodève) ومات
بذلك الدير منقطعاً للعبادة ، وصار معدوداً في مصاف القديسين . ترجمه أحد معاصريه
فقال : أنهم في القرن العاشر كانوا في الكنائس يرتلون دائماً الأناشيد بذكر أعماله الحميدة
ومواقفه في جهاد المسلمين . ولما أخذ شعراء الفرنسيين ينظمون القصائد على شارلمان
ومشاهير رجاله و يترنمون بذكر وقائع ، فيها ماهو صحيح وفيها ماهو خيالي ، كانوا
يجعلون من ذلك قسطاً كبيراً لغليوم ذى الأنف القصير ، وكانوا يصورون مدينة نيم
ومدينتي اورنج وآرل كأنها قد وقعت في أيدي المسلمين ولم يتم استخلاصها إلا على
يد ذلك البطل الذي لا يغالب . . . وكذلك وجدت كتابة لاتينية بقيت محفوظة
الى زمان الثورة الفرنسية في دير « مون ماجور » (Mont - major) تفيد ان
شارلمان جاء بنفسه الى آرل لطرد المسلمين منها

ومن المعلوم أن الشعراء لم يكن همهم التدقيق في المسائل التاريخية اذا أرادوا
التغنى بأحداث أبطالهم وهاموا في أودية خيالهم . فأما الكتابة التي في دير « مون
ماجور » فهي غير صحيحة ، لأنها تتضمن أن شارلمان بنى ذلك الدير تمجيداً لواقعة
طرد المسلمين من آرل ، والحال ان الدير قد بُنى بعد ذلك بمئة وخمسين سنة .

وكان هشام ملك قرطبة قد توفي سنة ٧٩٦ وخلفه ابنه الحكم ، فثار به عمه (١)

(١) جاء في فتح الطيب : أنه تولى بعد هشام ابنه الحكم بعهد منه إليه ، فاستكثر من الممالك
وارتبط الخيل واستفحل ملكه وبارش الأمور بنفسه . وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عمه اغتم العدو
الكافر الفرصة في بلاد المسلمين وقصد برشلونه فملكها سنة خمس وثمانين ومائة وتأخرت
عساكر المسلمين إلى مادونها . وقال أبو الفداء : ولما اشتغل الحكم بقتال عمه اغتمت الفرنج
الفرصة فقصدوا بلاد الاسلام وأخذوا مدينة برشلونة في سنة ١٨٥

فاضطر أن يقضى أوائل أيامه في قمع الثورة . وفي السنة التالية بينما كان شارلمان في مدينة اكسلاشابل - Aix - la - Chapelle جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم وعم الحكم أمير قرطبة ^(١) . وفي تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك ا كيتانيا عاقداً مجمعاً في طلوزة ، جاءه رسول من الاذفونش ملك جليقية واشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية وتجريدها لقتال العدو العام . ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم في ناحية وشقة (Huesca) يقال له « باهالوك » يريد أن يسالم المسيحيين ^(٢)

فظهر ان الغرة كانت لأئمة لأخذ الثأر من المسلمين وللدخول الى اسبانية ، وكان لويس ملك ا كيتانيا وأخوه شارل (او كارل) قد شنّا الغارات في أطراف المقاطعات التي تشرب من نهر ابره . ثم عاد لويس فأجاز البيرانه من جهة آراغون . وحاصر وشقة التي كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسيين لتسلم بلدته امتنع عليهم وليس لهم جلد النمر . وفي ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة قد استولى على طليطلة ، وعمه الآخر سليمان استقر في بلنسية ، فصرح جيشاً لقتال عمه عبد الله في طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانه ، فأدخل في الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التي كانت اشترطت نفسها للعصيان . ومن هناك قصد الجبال وأوقع بالمسيحيين وسبي منهم كثيراً نساء ورجالا ، واتخذ الحكم من أسراه حرساً خاصاً وهو أول أمراء قرطبة الذين اتخذوا حرساً خاصاً من الأسرى والأجانب . وقد رجع الحكم من تلك الغزاة مظفراً منصوراً ^(٣) ،

(١) نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكيه

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي بلاد الغال ولم نعلم أصل الأمير المسلم الذي ذكره وهم يحرفون الأسماء العربية تحريفاً يبعد بها عن الأصل بعداً كبيراً بحيث تتنكر على الباحث تماماً (٣) جاء في نفج الطيب : وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لدرريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وسار لحصار تراكونه فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه ففتح الله على المسلمين وعاد ظافراً . ولما كثر عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي وأثنى في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً . انتهى

قلت : لعل المقرئ يعني بلدرريق بن قارله لويس بن شارلمان

كما ان عمه سليمان قتل في إحدى المعارك التي دارت بينهما، وعمه عبد الله فر الى افريقية وعادت طليطالة الى الطاعة . ثم ان الاذفونش صاحب جليقية اغار في تلك الأيام على المسلمين في إشبونة، ووقع في يديه بعض أسرى منهم ، فأرسلهم راكبين على البغال إلى شارلمان اعتزازاً بالنصر . ثم ان لويس ملك اكيثانيا الذي هو ابن شارلمان اكتسح نواحي وشقة ^(١) ولم يكن شيء من هذه الغارات ، سواء من هذه الجهة أو من تلك الجهة ، ليؤدي الى نتيجة حاسمة يستفص منها أحد الفريقين ملكاً ، بل كانت النتيجة الوحيدة هي خراب تلك النواحي . وكان أهم مالقيه الفرنسيين في هذه الحرب هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهرها الطاعة لشارلمان ، عند ما جاءت جيوشه إلى بلادهم ، ابوا أن يقبلوها وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى والمعاقل المنيعه مثل برشلونة وطرطوشة وسرقسطة ، وكانت برشلونة بنوع خاص بمحصنة موقعها وبقرها من فرنسة ووجودها على سيف البحر ، من أشد البلاد نكايه بالفرنسيين . وكان الأمير الذي فيها والذي يسميه مؤرخونا « زاتون ^(٢) » قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول في طاعته ، ولكن عند ما حضر الفرنسيين أمام بلده امتنع من قبولهم وقلب لهم ظهر المجن فأجمع لويس ملك اكيثانيا بالاتفاق مع غليوم كونت طولوزة ، وبرأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد أن يستولى على برشلونة في أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ في رومة مشغولاً بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب . وكانت برشلونة كما قال الشاعر « ارملو لدوس نيجلوس » قد أصبحت للمسلمين معقلاً متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فتبث

(١) جاء في معجم البلدان لياقوت : وشقة بلدة في الأندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر له رحلة وابراهيم بن عجيس بن اسباط بن أسعد بن عدى الزياىد الوشقى كان حافظاً للفقهاء واختصر المدونة له رحلة سمع فيها يونس بن عبد الأعلى ومات سنة ٢٧٥ وابنه أحمد سمع من أبيه وتوفي سنة ٣٢٢

(٢) Zaton وهو من جملة تحريف الإفرنج للاعلام العربية ولا يدري ما أصل هذا الاسم

الغارات في بلاد النصارى وتعود أيديها ملأى بالغنائم . وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيين لبثوا سنتين يحصرونها ويضيقون عليها ، ويكتسحون نواحيها ، ولكنهم لم يقدرُوا على دخولها . وقد قسم الفرنج جيشهم الى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم برشلونة ، وقسم ثان يقوده غليوم كونت طلوزة كان يربط في الممر الذي تفيض منه جيوش المسلمين الآتية من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه ، وكان في أعالي جبال البيرانه ، يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة .

وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار ، فمنهم من كان مشغولا بوضع السلام ، ومنهم من كان يجلب الميرة والعدة ، ومنهم من كان موكولا اليه الحفر والنقب ، ومنهم من كان موكولا اليه غير ذلك . فاشتد الحصار شدة غير معهودة ، وجاءت جيوش المسلمين فلم تقدر على النفوذ الى برشلونة فتحولت الى بلاد اشتورية ، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، وخرج في إحدى المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة الحملة الأخيرة وفتحوها (١) .

وكان فتح الافرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ مسيحية بعد أن بقيت تسعين سنة في أيدي المسلمين . فلما دخلوها حولوا جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانباً من الغنائم ، فيها دروع وخوذ ، ومنها خيول مسرجة بأفخر السروج ، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان في شمالي اسبانية احدهما كتالونيا وقاعدتها برشلونة ، والثانية غشقونية ومن جملتها نابارده وأراغون

وفي تلك السنة جاء وفد من قبل هارون الرشيد الى شارلمان . وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهودياً اسمه اسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيين لأجل السلام من قبله على الخليفة العباسي ، وقد أمر شارلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد ، وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت المقدس ، ويتوسط لدى

(١) مؤرخو الاسلام ينسبون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله عما الحكم وشغلته عن انجاء تلك المدينة كما تقدم لك من كلام المقرئ في النسخ وكلام أبي الفداء

الخليفة في تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة . وكان الفرنسي من عهد انيال لم يروا في بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يتبرج برؤيته أهل فرنسا . فلما وصل الوفد الى بغداد استقبلهم الخليفة برأ وترحيباً ووعد بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس وترفيه مقامهم عند ما يردون اليه . ولم يكن في دار الوحوش التي عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد الى شارلمان ومعه هدايا أخر من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها في فرنسا ، ومن طيوب ومعطرات وأشياء أخر . وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار

ونزل الوفد في قدمته من الشرق ، في مدينة بيزة ، وحملت الهدايا بابتهاج عظيم إلى « اكس لاشابل » مركز الامبراطور شارلمان . ولما وصل الوفد قدموا للامبراطور تحايا الخليفة ، وأبلغوه ماقاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك^(١) وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شارلمان بأن يتوجه الى قرطجة ، في افريقية ، ويلتمس من ابراهيم الأغلبى (عامل الخليفة) الاذن بنقل رفات القديس فبريانس المدفون في قرطجة وغيره من القديسين المدفونين هناك ، فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضاً رسولا وراءهم الى الامبراطور يتودد إليه . وقد كان لذلك في هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظراً لانقطاع العلاقات تقريباً بين الاقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان^(٢) وأن الله أعطاه في ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب . وفي تلك الأيام لم تكن الحرب تسكن بين المسلمين والافرنج في بلاد اراغون وكتلونية

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة الدون بوكيه من رواية « اجينار » Eginard

(٢) ذكر رينو هذه الجملة نقلاً عن الدون بوكيه وقال : إن مؤرخى العرب لم يذكروا شيئاً من أخبار هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان وانما ذكروا تبادل رسائل بين بين القصر والمنصور العباسي وبين الملك لويس الحليم Le Debomiaire وبين المأمون . وأما المسيو بوكفيل « Pouqueville » فقد ذهب إلى كون هذه الأخبار كاهها غير صحيحة

وناباره ، وكانت سجلا بين الفريقين .

ولم يكن شارلمان ليقدر على النظر في جميع شؤون مملكته الواسعة . ففي سنة ٨٠٩ م مسيحية مات الكنت اوريول « Aureole » قائد الجيوش الافرنية في اراغون ، فجاء أمير سرقسطة المسلم ، وكان يقال له عمروس ، واستولى على الأماكن التي كانت في حوزة الكنت زاعماً انه عند ما يأتى شارلمان بنفسه يسلمها اليه ، ولكن لما جاءت العساكر الافرنية أبى إزاهم فيها ، فبقيت في يد المسلمين . هكذا روى مؤرخو الفرنسيس . وقد روى بعض مؤرخى العرب أن عمروس هذا كان أميراً في وشقة ، وكان أبوه مسلماً وأمه مسيحية . وكان مثل هذا الزواج كثير الوقوع في اسبانية لذلك العهد ، لاسيما في الأصقاع الشمالية ، وكان يقال لهؤلاء الذين هم من أب مسلم وأم مسيحية المولدون . وكان هذا الصنف من الناس لا يرجعون الى مبدأ ، ولا يتقيدون بدمام ، وانما يتبعون مصالحهم الخاصة . وكانوا كثيرين في مدينة طليطلة فتاروا على أمير قرطبة فرماهم برجل يقال له عمروس ، وكان داهية من الدواهي . فجاءهم عمروس وتظاهر لهم بالاخلاص لقضيتهم ، وأوهمهم انه في نفسه ممالئ لهم ينتظر أول فرصة للانتقاض معهم على السلطان ، وأقنعهم بذلك بمكره وحيلته وصدقوا كلامه واتفق معهم على بناء قلعة في أعلى البلدة تكون العقل الأمين بزعمه لهم ، بحيث لاتنالهم جيوش السلطان بسوء . فلما أكمل بناء هذه القلعة دعاهم فيها الى وليمة ، فكان كلما دخل منهم واحد قطع الجند رأسه ، فقليل انه قطع رؤوس أربعائة من أعيانهم ، وقيل انه بلغ عدد القتلى خمسة آلاف . وهكذا تمكن عمروس من إدخال طليطلة في الطاعة . انتهى

وقد ذكر دوزى الهولندى في « تاريخ الاسلام في إسبانية » ان عمروس هذا كان من الاسبانيول الذين اتخذوا الاسلام ديناً . والحقيقة انه لم يكن يهيمه لامذهب ولا مشرب ، وانما كانت تهيمه مطامعه الدنيوية ، فكاشفه الأمير الحكم بما في نفسه من أمر طليطلة التي كانت لاتنتهى من ثورة الا الى ثورة ، وكانت تأبى الخضوع

لوال عربي ، وقد أعيى الحكم أمرها ، فدبر عمروس هذه المكيده على أهالى طليطلة
بالاتفاق مع الحكم ، وكتب الحكم قبل ذلك اليهم قائلاً لهم : إن أعظم دليل على اعتنائنا
بشأنكم أننا مرسلون اليكم الآن والياً من أبناء جنسكم . وقد كان هذا القول صحيحاً
لان عمروس كان اسبانيولياً ، مهتدياً للإسلام . وذهب عمروس فخدع أهالى طليطلة
وتودد اليهم وزعم انه كاشفهم سرّاً بما في نفسه من الحميّة على جنسه ، والاستعداد
لخلع طاعة السلطان عند ماتلوح أول بارقة أمل ، وقال لهم : إن أكثر أسباب النزاع
بينكم وبين السلطان كانت من قبل الولاة الذين كانوا يتولون طليطلة ، فكانوا يضعون
الجند في بيوتكم فيسلبون راحتكم ، فلو بنينا في طرف من المدينة حصناً نتخذة ثكنة
للعساكر لانحسنت أسباب النزاع بينكم وبين السلطان . فوثق الأهالى بكلام
عمروس ، وبنوا الحصن واستقرّ به عمروس . وبعد ذلك أكمل عمروس المكيده
بأنه تواطأ مع السلطان على أن يرسل جيشاً الى طليطلة بحجة أن العدو تحرك في الثغر
فأرسل الحكم جيشاً تحت قيادة ولده عبدالرحمن - وكان في الرابعة عشرة من عمره -
فلما وصل الجيش الى طليطلة أشاعوا أن العدو انقبض الى بلاده ، وأن الجيش سيعود
أدراجه الى قرطبة . ولكن عمروس أشار على أعيان طليطلة بأن يأتوا للسلام على
الأمير عبد الرحمن ، قياماً بواجب الحرمة للسلطان ، فجاء منهم جمهور وسلموا عليه ،
واستقبلهم الأمير بالحفاوة والاكرام ، وهم دعوه أن يطيل الاقامة عندهم ، وتظاهر
الأمير بادىء ذى بدء بأنه مضطر لسرعة الأوبة ولكن أعيان البلدة ألحوا عليه بالترث
عندهم ، وأمّلوا فيه خيراً كثيراً ، وكانوا مسرورين بكون واليهم الجديد اسبانيولياً
من جنسهم ، وبعد ذلك تقرر إعداد ولية لأعيان طليطلة وجوارها ولكنها لم تكن
مرئية المأكلة . وفي اليوم التالى جاء المدعوون أفواجاً أفواجاً ونزلوا عن ركائبهم
وربطوها خارج الحصن ، وصاروا يدخلون زرافات ، وكان في ساحة الحصن خندق
وقف بجانبه جماعة من الجلادين ، فكانوا كلما أقبل جماعة يقطعون رؤوسهم ويرمون بها
في الخندق . وتمّ كل هذا وأهل البلدة لا يعلمون بشيء مما جرى داخل الحصن
وكان هناك طبيب من أهل طليطلة ، عظيم الفراسة ، لحظ عدم خروج أحد

من المدعويين . فسأل الأهالي هل رأيتم أحداً من المدعويين الى الحصن خرج منه ؟ فأجابوه : يجوز أن يكونوا دخلوا من هذا الباب وخرجوا من الباب الآخر . فقال لهم الطبيب : بل أظن أنهم لن يخرجوا أبداً وأنه أتى عليهم القتل . وقال ابن عذارى : ان عدد القتلى يوم الخندق هذا بلغ سبعةائة . وقال النويرى وابن القوطية : أنهم أكثر من خمسة آلاف ، ولكن من بعد هذه الواقعة سكنت الثورة في طليطلة مدة طويلة . انتهى كلام دوزى

فهذه كانت عقبي غرام أهل طليطلة بالانتفاض . وعمرس الاسبانيولى هذا الذى دبر هذه المكاييد هو الذى خدع أيضا قواد الفرنسيس وتسلم منهم المواقع التى كانوا فيها . ولا يبعد على رجل كهذا ، غدر ذلك الغدر بأهل وطنه ، أن يغدر بالفرنسيس ولننظر الآن الى رواية المؤرخ كوندى الاسبانيولى ، قال : إن الحكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطداً أطناها بتعبه وجهاده ، ففى سنة ٨٠١ مسيحية وفق ١٨٥ هجرية تحرك ملك اشتورية وأراد التجاوز على المسلمين . ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجدة مؤملا بذلك الاستيلاء على ولايات إسبانية الشمالية وضمها الى مملكته ، فجعلت أمداد شارلمان تنوب الى الاسبانيول تحت قيادة ولده لويس ملك اكيثانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة ، وجاء فناصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن مخلوق من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس الى طرطوشة ، فزحف الحكم بنفسه ومعه عمرس ومحمد بن مفرج قائد الخيالة الذى كان عظيم الاعتماد عليه نظراً لدهائه وإقدامه ولما وصل الى سرقسطة ثارت الثورة فى طليطلة بما أخرج الأهالى من عسف يوسف بن عمرس الذى كان قبض عليه الأهالى لسوء ملكته فيهم ، فاستدعى السلطان والده عمرس ، وعهد اليه نظراً لدربته ودهائه بولاية طليطلة ، وأرسل ولده يوسف قائداً على تطيلة

ثم أغار الحكم على نابارة وبنبلونة ودخل وشقة ، فخشى الاذفونش على بلاده وحشد عساكره ، وزحف اليه يوسف بن عمرس فأوقعه الاذفونش فى كمين وأخذه

أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه . وأما الحكم فكان يتوقد صدره
احنة على بهلول عامله الذى انحاز الى الفرنسيين ومشى بين يديهم ، ولما عرف انه فى
جوار طركونة عمده اليه من فوره ، ولم يزل فى اثره حتى ثقفه فى طرطوشة بعد أن
هزمه ، واحتز رأسه . ورجع الحكم الى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة وذلك
خوفاً من الفشل فى حصارها

أما حصار الافرنج برشلونة فقد أجمع المؤرخون انه كان من أندر ما عرف التاريخ
شدة وصبراً وان مسلمى برشلونة صبروا فى هذا الحصار الى الحد الذى تتحير فيه العقول .
ولكن الخلاف وقع بين المؤرخين فى الأطوار التى دخلت فيها تلك الحرب . فبعضهم
قالوا ، كما فى تاريخ متس وتاريخ ريجينيون وغيرهما ، انه فى سنة ٧٩٧ قدم أمير
برشلونة العربى على شارلمان ، وبعد ذلك فى سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته ، فأخذ أسيراً
ونفى . وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون » Zaton وطوراً « زادو » وأحياناً
« زاد » Zaddo , Zaad ولعل اسمه سعدون أو سعد . وفى تاريخ الملك لويس الحليم
ورد أن سعدون هذا وقع أسيراً فى سربونة ، وانه بعد أسره تولى امارة برشلونة ابن
عم له ، اسمه عامر ، فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين ، تحمل
فى أثناءها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أى قبيل عن تحمله

وذهب مؤرخون منهم مارمول « Marmol » الى ان الرواية الصحيحة هى أن
سعدون أو سعداً كان تابعاً لملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل الى شارلمان يعده
بالدخول فى طاعته ، وفى سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل فعلاً فى طاعة شارلمان ولكن
شارلمان بعد سنتين من هذا العهد شعر بأن أمير برشلونة نقض طاعته ، فسرح اليه
جيشاً تحت قيادة ولده لويس فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها ، فجاء
أمير سرقسطة واستردها ، ولكن لويس عاد ثانية سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها .
فالروايات تختلف فى كيفية استيلاء الفرنسيين على برشلونة ، ولكن خلاصتها واحدة
وهى أن العرب خسروا بلاد كتلونيه منذ ذلك الوقت ، وأنه تولى عليها فى البداية
أمرأء تابعون لفرنسة ثم لم يرحوا حتى استقلوا عنها وعن العرب معاً

وقد ذكر كوندى الاسبانيولى واقعة عمروس فى طليطلة ، وكيف غدر بأعيان تلك البلدة وكيف دعاهم الى وليمة فى القصر وقطع رؤوسهم غدرًا . ولكن رواية كوندى تختلف عن رواية دوزي بكون دوزي يؤهم ان تلك المكيدة وقعت بتواطؤ عمروس مع سيده الحكم ومع ابنه الأمير عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة عشرة من عمره ، وبأن كوندى يقول ان صاحب ذلك رأى انما كان عمروس ، وان الأمير عبد الرحمن مع صغر سنه أوضح له فظاعة ذلك العمل وما يبق بعده على الأعقاب من قبيح الذكر ولكنه تغلب عليه لحدائة سنه ، وراجعه الأمير كثيراً وأبدى وأعاد فلم يقنع عمروس الا بتنفيذ ما يئته لأهل طليطلة ، قائلاً للأمير : ان طليطلة قد ألفت العصيان من زمن طويل حتى صار لها خلقاً ملازماً وانه لابد لسكونها من قطف عدة مئات من رؤوس أعيانها . ثم ذكر كوندى زحف ملك ا كيتانية وحصاره لطرطوشة سنة ٨٠٧ وان الأمير عبد الرحمن كان فى سرقسطة فزحف لاجناد طرطوشة ووافاه اليها والى بلنسية فطردوا الفرنسيين عنها . ثم يقول : ان عبد الرحمن عاد فاستولى سنة ٨١٢ على جيرونية من كتلونيه ، وانه وصل بجيشه الى أربونة وعاد بغنائم وافرة . ثم ان الفرنسيين استولوا على طرطوشة بعد حصار شديد وسار ملكهم لويس منها قاصداً أخذ وشقة ^(١) فما كاد ينصرف عن طرطوشة حتى رجعت هذه البلدة الى حكم العرب

وقد علق « دومارليس » على روايات كوندى عن هذه الحرب حاشية معناها ان مؤرخى الفرنسيين يزعمون ان ملك قرطبة بعث الى شارلمان وفداً بطلب الصلح ، وأنهم وصلوا الى « اكسلاشابل » وتقرر الصلح على أن ينزل العرب لشارلمان عن جميع البلاد الواقعة بين نهر ابره والبيرانه ، وان هذه المعاهدة انعقدت سنة ٨١٠

فدومارليس يستبعد وقوع هذه المعاهدة بكون العرب لم يذكروا عنها شيئاً فى تواريخهم ثم بكون لويس بن شارلمان زحف الى كتلونيه عدة مرات من بعد هذا التاريخ فيرى دومارليس انه يجوز أن تكون حصلت مهادنة بين الفريقين الى حد سنة ٨٢٠

(١) Huesca وابن حوقل فى المسالك والممالك يسميها وسكة

أو الى ما بعد ذلك . وأما العرب الذين شوهدوا في أكسلاشابل فربما كانوا من بعض أولئك الولاة المسلمين الذين كانوا ينتقضون على ملك قرطبة ويستعينون عليه بالأجانب من قبيل بهلول بن مخلوق الذى تلقى جزاء خيانتة من يد الحكم نفسه

أساطيل الاسلام في الأندلس وافريقية

قال رينو : وفى تلك الأيام أخذت قوة الاسلام البحرية تزداد وتنشط فى البحر المتوسط بسبب رغبة المسلمين بإنشاء الأساطيل فى مرافئ الأندلس وافريقية . وقد كان لذلك تأثير عظيم فى اجتياح المسلمين لجنوى فرنسة . ولما اقتطع عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس عن خلافة بنى العباس وأرسل هؤلاء جيشاً فى البحر ، أجاز الى الأندلس لمطاردته ، علم عبد الرحمن بأنه لا بد له من قوة بحرية فى وجه قوتهم البحرية

ففى سنة ٧٩٣ اتخذ عبد الرحمن الأول دور الصناعة^(١) فى مراسى طرّ كونة وطرطوشة وقرطجنة واشبيلية والمرية وغيرها . وقبل ذلك كانت جزر الباليار - أى ميورقة ومينورقة ويابسة وجزيرتا سردانية وكورسيكة - عرضة لغزوات المسلمين ، بحيث ان أهالى هذه الجزائر وضعوا أنفسهم تحت حماية شارلمان . وورد فى مجموعة الدون بوكه ان هؤلاء كانوا تغلبوا على المسلمين فى بعض الوقائع وأخذوا منهم بضع رايات ، فأرسلوا بها اليه . وعلى أثر ذلك ازداد غزو المسلمين لهذه الجزائر ، فكانوا يغادونها القتال ويراحونها ، ويسبون من أهلها النساء والأطفال ويقتلون المقاتلين

(١) سعى العرب المعامل التى كانت تبني فيها المراكب البحرية بدور الصناعة وربما قالوا الصنعة ومشى كتابهم على هذا الاصطلاح ، فترى مؤرخينا يقولون : كانت الصنعة فى صور أو أسس الأمير فلان دار الصنعة فى تونس أو كانت صنعة الأندلس بالمرية وما أشبه ذلك . وأخذ الإفرنج جملة « دار صنعة » فلفظوها « دارسنا » بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كالأخفى ، ثم قلبوها إلى « آرسنا » وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم فى النسبة والمقامات الظرفية فصارت « آرسنال » ثم جاء الترك خرفوا « دار صنعة » أو « دار صنعة » إلى « ترسانة » فقالوا عن دار الصناعة التى فى خليج استانبول « ترسانة عامره »

ولم يكونوا يعفون إلا عن الشيوخ العاجزين والمرضى والمقعدين

وسنة ٨٠٦ اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكة^(١) وكان بين بن شارلمان ملكاً على ايطالية ، فأرسل أسطولاً لمطاردتهم ، فلما شعر المسلمون بدنو أسطول النصارى انسحبوا الى الورا ، فطمع فيهم آدمر Admer كونت جنوة وتعقبهم بأسطول فرجعوا اليه وقتلوه وهزموا أسطولهم وأسروا ستين راهباً وباعوهم في الأندلس . وبلغ ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بفضية أداها عنهم^(٢)

وسنة ٨٠٨ جاء قرصان من الأندلس ، فنزلوا بسرانية فاجتمع أهلها ودحروهم فنزلوا بكورسيكة (أو قرسقة) فصادمهم القائد بورشارد Burchard فخسروا ثلاثة عشر مركباً وانهزموا . ولكن المسلمين في السنة التالية جاؤا من افريقية ونزلوا في سرانية ، كما ان غزاة مسلمين آخرين جاءوا يوم عيد الفصح ونزلوا في كورسيكة وعاثوا فيها . وجاء في تاريخ كورسيكة لجاكوبى ان المسلمين خيموا في الجهة الشرقية من الجزيرة بين أطلال مدينة آليرية «Aleria» ولم يتمكن الفرنسيين من طردهم إلا بشق الأنفس ، ثم في سنة ٨١٣ رجعوا الى كورسيكة وأسروا وغنموا . وبينما هم راجعون أكن لهم كونت امبورياس Ampurias بقرب مدينة برينيان قوة بحرية غنمت منهم ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير ، فانتقم المسلمون عن ذلك باجتياح سواحل نيقه Nice وبروفنس وسيفيتة فكشيا Civita - Vecchia

(١) أو قورسقة

(٢) وقرأت في مدينة جنوة في تاريخ جمهورية جنوة لمؤلفه فريديشى دونافار أنه في سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية إسلامية من افريقية فحشرت جنوة حصاراً شديداً ، لكن الجنوبيين تمكنوا من دفعها عنهم ، فرجعت أدرابها وأصابها ضرر من زوينة بحرية . ثم بعد سنتين من تلك الواقعة جاء أسطول إسلامي آخر وهاجم جنوة واشتد القتال فتغلب المسلمون ودخلوا البلدة وأصابوا غنائم كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين وقتلوا . وكان أسطول جنوة في كورسيكا فلما جاء ورأى ما حصل بجنوة سار في أثر الأسطول الاسلامي فهزمه وفك الأسرى واسترجع الغنائم وصار الجنوبيون من ذلك الحين يمحسون بلدتهم

بقرب رومة (١)

ورأى الامبراطور شارلمان ان الخطر قد ازداد على بلاده ، وأن لا بد له من تدابير بالغة في الشدة لرد غارات المسلمين البحرية . وقد كانت امارة الأغالبة في افريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، فكان أمير القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحامي سواحل مملكة شارلمان حرمة للعهد الذي كان بين هارون والامبراطور ، ولكن عندما مات الرشيد سنة ٨٠٩ ووقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون تفصى الأمير الأغلبى من ذلك العهد ، وصارت مراسى تونس وسوسة بؤرة قرصان تنبث منها الغارات البحرية . وقيل ان أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الأغالبة عيث القرصان في سواحلهم ، فأجابه الرسول : نعم منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيداً يريدون أن يكونوا أحراراً والذين كانوا أحراراً ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحراراً أغنياء .

وكان القرصان أكثر ما يتعرضون للسفن التي تتردد بالبضائع بين فرنسة وإيطاليا من جهة ، ومصر والشام وآسيا الصغرى من أخرى . وكان قد انضم إلى قرصان المسلمين قرصان المنورماندين وأخذوا جميعاً يعيشون في السواحل الجنوبية ، فأمر شارلمان ببناء الابراج والحصون في السواحل وعند مصاب الأنهار ، وأنشأ الأساطيل لدفع عوادي القرصان . وجميع هذه الروايات جاءت في مجموعة الدون بوكه

ولما طالت هذه المساجلات البحرية وتعب منها الفريقان داخل بعضهم بعضاً في

(١) الذي عرفته في رومة من روايات بعض أدباء الطليان والمطالعين منهم على التواريخ أنه يوجد على مسافة ٤٠ كيلومتراً من رومة قرية يقال لها « سراسينشكو » Sarracinesco أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقعوا إلى تلك الأرض وأحاط بهم الأهالي فقتلوا جانباً واستسلم لهم الباقى وتنصروا وعمرها تلك القرية . ويقال إن سجنهم لا تزال تدل على أصلهم العربى وأن ما كلهم ومشاربهم وصنعة الغناء عندهم تدل على عروبته . وحتى هذا اليوم ترانى أقرب الفرصة لمشاهدة تلك القرية والتنقيب عن صحة ما سمعته . وقيل لى انه يوجد في ولاية « غاليارى » Gagliari من سردانية قرى أصل سكانها من العرب وأنه يوجد آثار عربية في « لوشيرة » بقرب نابلى . ولا يخفى أن الامبراطور فريدريك الثانى امبراطور ألمانيا وملك صقلية الذى عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحى كان عنده جيش من العرب هم عمدة قوته وكان متقناً للغة العربية

عقد معاهدة سلم تأمن بها السفن البحرية غوائل متلصصة البحر . ففي سنة ٨١٠ انعقدت أول متاركة ، ثم تجددت بعد سنتين ، وجاء رسول من الأندلس يرجح انه يحيى بن حكم أمير الماء ^(١) في الأندلس قاصداً أكسلاشابل وعقد مهادنة مع شارلمان لثلاث سنوات . ولكن المسلمين نقضوها هذه المرة لأنهم سنة ٨١٣ نزلوا في جزيرة كورسيكة وتقدم عبد الرحمن ابن أمير قرطبة الى حدود فرنسا بجيشه . وفي تلك الواقعة قتل القديس آفانتين « Saint Aventin » من أهالي بانيير دولوشون

Bagneres - De - Luchon في مقاطعة غارون العليا

ومات شارلمان سنة ٨١٤ وخلفه ابنه لويس الحليم ، وسار على أثره في السياسة ولكن في أيامه استفحلت غزوات المسلمين البحرية . وجرت لذلك العهد حادثة في قرطبة تفاقم بسببها هذا الأمر، وذلك ان أهالي ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار اليهم الحكم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف ، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً فاركبهم طبقاً عن طبق وأجازهم البحر إلى اسكندرية وهناك خاف عاديتههم والى الاسكندرية فأدى اليهم مبلغاً من المال واركبهم الى جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريت ^(٢)

(١) نقل رينو ذلك عن مجموعة مؤرخى فرنسا وعن تاريخ كوندى وحتى الآن لم أظفر بهذا الخبر في كتب العرب

(٢) جاء في نفح الطيب في ترجمة الحكم : وكانت له الوقعة الشيرة مع أهل الربض من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فثاروا به وخاعوه وباعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة وكان محلم متصل بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدو وبلاسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبدالله بن طلحة صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم إلى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة . انتهى .
وتال كوندى عن هذه الواقعة : ان الحكم سار إلى العصاة بنفسه برغم رجاؤه وكبار قواده أن لا يغامر بنفسه وأوقع بالثائرين حتى امتلأت الشوارع بحبث القتلى ولكن الذين لبثوا داخل البيوت لم يصيبهم سوء . وقبض الحكم على ثلاثمائة من الثوار وصلبهم على النهر . ثم أمر بدك

وفي سنة ٨١٦ توجه رسل من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان بدأ
يياشر الاشغال في حياة أبيه ، وذلك الى مدينة كومبيان Compiègne حيث كان

حارة الرض كلها بعد أن أمر بنهبها ولكنه أمر بعدم التعرض للنساء . وما زال السيف عاملاً في الشوار
إلى اليوم الثالث فعفا عمن بقى منهم في الحياة بشرط أن يخرجوا من قرطبة مع عائلاتهم ، فرحل جانب
من هؤلاء المساكين إلى طليطلة ، وأجاز نحو من ثمانية آلاف إلى برالعدوة حيث تقبلهم إدريس بن
إدريس في فاس وبنوا حارة فيها هي مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس . وسار منهم خمسة عشر ألفاً إلى
الاسكندرية ودخلوا البلدة واستولوا عليها ، فاجأ عامل الخليفة المأمون على مصر الى مصانعتهم وأدى
لهم جانباً من المال على أن يذهبوا ويستعمروا إحدى جزر بحر يونان ، فاختاروا اقريطش ، وكان
المعمور منها قليلاً فنزلوا بها وكان زعيمهم منذ برحوا قرطبة أبو حفص عمر بن شعيب فجعلوه أميراً
عليهم ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين وأخذوا يغزون في البحر ويغنمون ثم
كان بناؤهم مدينة « قنديا »

وروى السيو شينيه Chenier ان الذي بنى قنديا هو أحد قواد الأمير عبدالله بن عبد الرحمن
وكان اسمه « كندش » Candax فانه بعد موت سيده فارق الأندلس خشية انتقام الحكم منه
وقد ذكر كوندى رواة هذه الحادثة مثل الحميدى ومحمد بن هشام وغيرها . وأما دوزى فقال
ان عدد الذين نزلوا من الرضيين بالاسكندرية كان ١٥ ألفاً عدا النساء والأولاد . وكانت أمور
مصر يومئذ مختلة فلم يقدر العامل على منعهم من النزول . واتفقوا أولاً مع قبيلة من عرب الضواحي
الى أن تمكنوا ، فاقبضوا مع هؤلاء العرب وهزموهم واستولوا على الاسكندرية . فأرسل الخليفة
المأمون جيشاً قاتلهم فقاتلوه ووثبوا الى سنة ٨٢٦ مسيحية إلا أن عمال الخليفة تغلبوا أخيراً عليهم
فخرجوا الى جزيرة اقريطش التي كان منها جانب تابعاً للقسطنطينية فاستولوا عليها وأسس قائدهم
أبو حفص عمر البلوطى — من حفص البلوط — دولة استمرت في اقريطش (أو كريت) الى سنة ٩٦١
اذ عاد الروم فاقتنحو الجزيرة اه

وجاء في الانسيكلويديا الاسلامية باللغة الافرنسية ان المسلمين احتلوا جزيرة اقريطش سنة
٦٧٣ مسيحية . ولكن المعلومات قليلة عن هذا الدور الأول من احتلالهم . ثم انه في سنة ٨٢٥
استولى على هذه الجزيرة أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى وذلك على أثر وقعة الرض في قرطبة
واجلاء الحكم الأموى أهل الرض ومجيئهم الى الاسكندرية ، فجاءوا الى جزيرة اقريطش فاقتنحوها
كلها ماعدا أرض سفاكيا ، وأرسل ملوك بيزنطية مراراً بالجيوش لطرد المسلمين من هناك فلم
يتمكنوا من ذلك وبقيت هذه الامارة الاسلامية في كريت ١٣٥ سنة ثم بنى المسلمون عند رأس
« شاراكس » عاصمة لهم سموها قانديا وصار هذا الاسم عاملاً لاقريطش

وسنة ٩٦١ جاء القائد البيزنطى نيقفور فوكاس وحاصر قانديا واستفتحها بعد حصار عدة

يقيم الامبراطور ، ثم ذهبوا الى اكسلا شابل حيث كان سينعقد مجلس شورى . وكان
مراد رسل أمير الأندلس عقد متاركة ، وانعقدت ألا انها لم تطل . وفي سنة ٨٢٠

أشهر واستصفي الجزيرة وأخذ آخر امراء المسلمين على الجزيرة عبد العزيز أسيراً ، ومات في
القسطنطينية ، ودخل في خدمة ملك الروم ابنه انماس وفارق الاسلام هذه الجزيرة اذ جلا المسلمون
عنها ، ومن اختار البقاء تنصر

أما استيلاء الأتراك العثمانيين على كريت فبدأ سنة ١٦٤٥ وانتهى سنة ١٦٦٧ وبقيت
للبنادقة بعض مدن فسقطت في أيدي الترك سنة ١٧١٥ هـ

وقال ياقوت في معجم البلدان : اقريطش بفتح الهمزة وتكسر والقاف ساكنة والراء مكسورة
وياء ساكنة وطاء مكسورة وشين معجمة اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا
وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء . قال أحمد بن يحيى بن جابر
(يعني البلاذرى) : غزا جنادة ابن أبي أمية الأزدي جزيرة ارواد في سنة ٥٤ في أيام معاوية ثم غزا
اقريطش فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها ثم اغلق . وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة
الرشيد ففتح بعضها . ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف
بالاقريطشى فافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم
أحداً وخرب حصونهم وذلك في سنة ٢١٠ في أيام المأمون (هذه رواية البلاذرى في « فتوح
البلدان » عند ذكر فتح الجزائر البحرية)

وقال غير البلاذرى : فتحت اقريطش في أول أيام المأمون ، وقيل فتحت بعد ٢٥٠ على يد عمر
ابن شعيب المعروف بابن الغليظ ، وكان من أهل قرية بوطروح من عمل فحص البلوط من الأندلس
وتوارثها عقبه سنين كثيرة . وقال ابن يونس : كان أول من افتتحها شعيب بن عمر بن عيسى ،
وكان سمع يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر ، ثم ندب لفتحها فزار اليها حتى افتتحها . وكانت من
أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أناخ عليها تقفور بن القفاس الدمشقي في خلافة المطيع ،
وتملك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ في اثنين وسبعين ألفاً منهم خمسة
آلاف فارس ، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠
فقتل ونهب وسبي ، وأخذ صاحبها عبدالعزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي
وأمواله وبنى عمه ، وحمل ذلك كله الى القسطنطينية . وقيل انه حمل الى القسطنطينية من أموالها وسبي
أهلها نحواً من ثلاثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة والقوها في المينا الذي دخلت مراكبهم فيه ، لئلا
يدخل فيه بعدهم عدو ، وهي الى الآن بيد الإفرنج . ونسب اليها بعض الرواة منهم محمد بن عيسى
أبو بكر الاقريطشى حدث بدمشق عن محمد بن قاسم المالكي روى عنه عبد الله بن محمد النسائي
المؤدب قاله ابو القاسم انتهى

سار اسطول إسلامي من تركونة وغزا جزيرة سردانية فجاء أسطول مسيحي لأجل الدفاع عنها ، فتغلب الأسطول الاسلامي وأغرق المسلمون ثمانية مراكب للمسيحيين وأحرقوا أيضاً مراكب كثيرة .

وقال ابن عميرة في بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس : عمر بن شعيب ، أبوحفص ، المعروف بالغليظ البلوطي من أعمال فحص البلوط المجاور لقرطبة ذكره أبو محمد بن حزم وقال : إنه كان من فل الرضيين وانه الذي غزا اقريطش وافتتحها بعد الثلاثين ومائتين وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ وكان أكثر المفتحين لها معه أهل الأندلس . هكذا قال . وذكره سعيد بن يونس فقال : شعيب بن عمر ابن عيسى أبو عمر صاحب جزيرة اقريطش كان تولى فتحها بعد سنة ٢٢٠ وقد كان كتب شعيب هذا بالعراق وكتب عن جده يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر أيضاً . هذا آخر كلام ابن يونس فقد اختلفا في اسمه أولاً فقال أحدهما عمر بن شعيب وقال الآخر شعيب بن عمر ، ووصفاه بالفتح ، ولولا ذلك لقلنا ان أحدهما ابن الآخر ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح انتهى وجاء في صبح الأعشى أن عبدالله بن أبي سرح أمير مصر كان افتتح اقريطش وبقيت بأيدي المسلمين حتى تغلب عليها النصارى في سنة ٣٤٥

وقال ابن حوقل : وكانت اقريطش وقبرص للمسلمين وأبناء المجاهدين ، فداخل أهلها من الحسد والنكد ماداخل أهل الثغور الجزرية والشامية وأهل ذلك البلد من الفسق والفساد والشح والعناد والفيالة والسفاد فجعلوا عبدة للمعتبرين وموعظة للناظرين ، ولا يصلح الله عمل المفسدين ولا يضيع أجر المحسنين

وقال في محل آخر : وكان للمسلمين في بحر الروم غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة فاستولى العدو عليها مثل قبرص واقريطش ، وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، وكانوا يغزون بلاد النصرانية وينكون فيها النكاية الظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم بمساكنهم فصمدت النصارى صمدها ووكدت وكدها إلى أن ملكتها جميعاً . وكانت قبرص على غير ما كانت عليه اقريطش من موافقة كانت بينهم وبين المسلمين فيها ، وذلك انها قسمان ، فكانت نصفاً للمسلمين ونصفاً للنصرانية ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم . وجزيرة اقريطش حرة مذ كانت فتحت لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج الا على طريق الجهاد أو في حين الهدنة والسالة يدخلونها على شرائط بينهم انتهى

ثم انه قد ذكر المسعودي في مروج الذهب ان الخليفة المستعين بالله نفي احمد بن الخصيب الى اقريطش سنة ٢٤٨

وفي تلك السنة مات الحكم ، وتولى ابنه عبد الرحمن ، وكان الحكم موصوفاً بالقسوة جباراً وكان يلقب بأبي العاصي ومن هنا لقبه الافرنج بلفظة ابولاز Abulaz فلما مات الحكم جاء عمه عبد الله يطالب بالامارة كعادته ، وهو الذي كان داخل

ومما يتعلق بجزيرة اقريطش عبارة لابن جبير الأندلسي في كلامه على جزيرة صقلية فقد ذكر أنه صادف رجلاً مساماً في مدينة اطرابونش كان قد تحول الى النصرانية وذكر أنه قد يعرض للمسلمين هناك من الفتنة في دينهم ومن أسباب النكال ما يدعوهم الى فراق الاسلام قال : ففيها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء المدينة التي هي حضرة الطاغية ، ويعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانغماس في دين النصرانية ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله . ومع ذلك فأعلمنا انه يكتم ايمانه فلعلة داخل تحت الاستثناء في قوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)

قال ابن جبير : ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين الفائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت توارثوا السيادة كابراً عن كابر ، وهو مع ذلك من أهل العمل الصالح كثير الصنائع الأخروية من افتكك الاسرى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج فارتجت هذه المدينة لوصوله ، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه أحاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنة ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي بدون مال ، فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره اياه بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية . فنفذ لها نفوذ الملوك المغلوب على نفسه وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة منه في الاجتماع بنا فاجتمعنا به فآظف لنا من باطن حاله . ويواطن أحوال هذه الجزيرة ما يبكي العيون دماً . فمن ذلك أنه قال كنت أود لو اباع انا وأهل بيتي لعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدى بنا الى الحصون في بلاد المسلمين . فتأمل حالا يؤدى بهذا الرجل مع جلالة قدره الى ان يتمنى مثل هذا التمتع مع كونه مثقلاً عيالا بنين وبنات ، فسألنا الله عز وجل له حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وفارقناه باكياً مبكياً ، واستمال نفوسنا لشرف منزعه وخصوصية شمله وكنا أبصرنا له ولأخوته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة . وشأنهم بالجملة كبير . وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جملة مع فقراء الحجاج أصلحت أحوالهم ويمرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ويحازيه الجزاء الأوفى

شارلمان لأجل أن يساعده على ابن أخيه . فلما جاء هذه المرة واهرج الأندلس وامرجها اهتبل الفرنسيس الغرة ليزحفوا مجدداً الى كتلونيه وآرغون فعاثوا ودمروا وأحرقوا . وفي سنة ٨٢٠ اتهم بيره Bera أمير برشلونه من قبل فرنسة بمهالة المسلمين سرّاً ، وكان الواشى به أحد القوط ، وكان بيره نفسه قوطياً أيضاً ، وكان من عادة القوط أنه اذا تخاصم اثنان ولم يقدر احدهما أن يثبت دعواه بالبينة تبارزا بالسلاح فالمغلوب منهما يعد مذنباً . وفي ذلك اليوم كان المغلوب « بيره » فقرر حينئذ أنه كان خائناً للفرنسيس . وفي ذلك الوقت ثار نصارى ناباراه على الفرنسيس من شدة عسفهم وظلمهم ، واتفقوا مع المسلمين ، وسلموهم مدينة بنبلونه ، فأرسل الامبراطور الكنت أنار Asnar والكنت ابل Eble لأجل تسكين الثورة ، فانقض عليهما نصارى الجبال وشفقوهما . فأما أنار ففعلوا عنه لأنه كان من اصل غشقونى أى من أقارب الاسبانيول

قال ابن جبير : ومن أعظم مامنى به أهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المعضوب عليه أفنة تؤديه الى التطارح في الكنيسة ، فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب للابن سبيلا ولا الأم للبت سبيلا ، فتخيل حال من مئى يمثل هذا في أهله وولده يقطع عمره متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم مااتفق على أهل جزيرة اقريطش في المدة السالفة فانه لم تنزل بهم الملكة الطاغية بالاستدراج الشيء بعد الشيء حالا بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته . قال : ومن عظم هذا الرجل اليهودى المذكور ، في نفوس النصارى ، أنهم يزعمون انه لو تنصر لما بقى في صقلية مسلم . قال : ومن أعجب ماشهدناه من أحوالهم التي تذيب القلوب رافة وحنانا ان احد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راغباً في أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك فان رضىها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن يرضاه من أهل بلده وذلك طمعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين ، وطال عجبنا من حال تؤدى الى السماح بمثل هذه الودعة المعلقة واسلامها الى يد من يغريها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها ، كما انا استغرنا حال الصبية ورضاهها بفراق أهلها ورغبة في الاسلام واستمسكاً بعروته الوثقى ، وكان استشارها الاب في ما هم به فقالت : ان أمسكتى فانت مسؤول عني . انتهى باختصار . وقد اوردنا هذه الأمائيل ليعلم القارئ كيفية تلاشى الاسلام من اقريطش وصقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط وبعد ذلك من الأندلس ، وذلك بعد فقد المسلمين استقلالهم وسلطانهم السياسى ، والدين لا يمكن حفظه بلا دنيا كما قلنا ذلك مراراً

فأطّدت بهم رحم القراية نحوه . وأما الكنت إبل فلكونه افرنسياً صريحاً أرسلوه الى الأمير في قرطبة . روى ذلك الدون بوكه

وفي سنة ٨٢٦ ثارت مدينة ماردة ، على عبد الرحمن ، فكتب اليهم لويس بن شارلمان الكتاب الآتي نصه :

«باسم ربنا الاله وباسم مخلصنا يسوع المسيح ، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الالهية الى الاساقفة والشعب في ماردة . قد اتصل بنا ماتقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن الذي لا يزال يرهقكم عسراً متبعاً في ذلك طريقة ابيه أبولاز الذي كان يبتزكم أموالكم والذي كان جعل اصدقاءه أعداء وجعل الطائع عاصياً ، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتكم وان يثقلوا كواهلكم بالضرائب وان يمسوا كرامتكم ويهينوكم . وقد علمنا انكم ايتيم تحمل الالهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم في وجه طمعهم وغدرهم . وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة ، فأينا ان نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه ولتحريضكم على الثبات في خطتكم هذه . ولما كان هذا الملك البربري عدواً لنا ، كما هو عدولكم ، فاننا حاضرون للاشتراك معكم في قتاله . ومرادنا في هذا الصيف بعون الله تعالى أن نرسل جيشاً يجتاز اليربانه ويكون حاضراً للعمل باشارتكم ، فان كان عبد الرحمن سيزحف اليكم فيكون جيشنا بالمرصاد له ، وترانا نعلمكم من الآن انكم ان كنتم تخلعون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا فنحن حاضرون ان نعيد اليكم حريتكم الأولى ، بدون مساس بها وبدون ان نطالبكم بأدنى مال تؤدونه لنا ، وانتم تختارون القانون الذي تريدون ان تسيروا عليه ، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا في الدفاع عن سلطتنا ونسأل الله أن يسبغ عليكم أثواب العافية » انتهى

وفي ذلك الوقت عقد الامبراطور لويس ندوة عامة في اكسلاشابل ، حضرها ابنه يبين وسائر أمراء البلاد المجاورة لاسبانية ، وأعلن الامبراطور عزمه على غزو الأندلس للاخذ بالثار . وكان في اكسلاشابل قائد قوطي اسمه عيسون Aizon التجأ بزعمه الى الامبراطور ، فما شعروا به الاّ وقد انسلّ من هناك خفية ، وجاء وأثار

الأهالى فى كتلونىة وآراغون ، واستولى على مدينه أشونة Assuna واحتاح البلاد التى كانت تحت احتلال الفرنسىس ، وأرسل يستنجد أمير قرطبة ، ولما أبطأ عليه الامداد ذهب بنفسه الى قرطبة لأجل الاستعجال فى التعبئة والنجدة فسرّح عبد الرحمن جيشاً بقيادة عبيد الله أحد ابناء عمه ، وسار هذا الجيش ومعه عيسون ، وأغذّوا السير ، بينما الجيش الافرنسى يسير بطيئاً ، فوصلوا الى برشلونة وجيرونة واحتاحوها ، وتقدموا الى سردانة وملأوا البلاد عيثاً وتدميراً كما جاء فى مجموعة بوكه . وكان أهالى ماردة قد أعلنوا الحرب على عبد الرحمن ، وانتظروا نجدة الفرنسىس لهم ، ولكن عبد الرحمن ضيق عليهم الحصار وجرّهم أمر كئوسه ثلاث سنوات حتى دخلوا فى طاعته صاغرين ورجعوا داخرين بعد أن كانوا فآخرين . وفى تلك الأيام ازداد عيث قرصان النرمندانين فى سواحل فرنسة والمانيه وانكلترة واسبانية ، بينما قرصان افريقية والأندلس تجعل فى سواحل فرنسة وايطالية غدوها ورواحها ، فعيل صبر بونيفاس امير كورسيكة وأرسل مراكب الى افريقية فاحتاحت ساحل قرطجنة للأخذ بالثار . وقدذكروا انه كان للمسلمين لذلك العهد بارجة متناهية فى الكبر يظنها الرأى من بعيد سورا عالياً سائراً فى البحر غزت مرة جزيرة اوى Oye فى برىطانية عند مصب نهر لوار ولكن لم نعلم من آثارها شيئاً غير هذا

ولا يخفى ان هذه الوقائع كانت تتراكم كلها فى أيام الامبراطور لويس الحليم الذى كان هو بنفسه فائل الرأى ضعيف الغزيمة سىء الادارة فاقد الارادة ، قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، وسلم الى كل حصته ، ثم بداله أن يعيد القسمة وأن يجعل نصيباً لولده الرابع ، فثار أولاده عليه وقتلوه وخلعوه ، ورجع إلى العرش ، ولكن لم ترجع مهابته وامتلات أيامه بالفتوق والآفات بحيث أنه أصدر سنة ٨٢٨ منشوراً يقول فيه ان المجاعة والطاعون وسائر اصناف الآفات السماوية انتقضت على شعوب سلطنتنا ما يدل على غضب الله تعالى من أعمالنا غير المستقيمة . ثم أمر الامبراطور بصيام عام وواجتماع الاساقفة فى أربع حواضر ، منها مدينه طلوزة ، وذلك لأجل المذاكرة فى التدابير اللازمة لمعالجة هذه الحال

اما العلاقات التجارية ، بين مملكة شرلمان وبين مصر والشام ، فلم تنقطع في وقت من الأوقات . وفي سنة ٨٣١ تجددت المواصلات بين الخلافة العباسية والسلطنة الغربية ، وقد تقدم وفد من قبل الخليفة المأمون إلى فرنسا مؤلف من ثلاثة اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحي . وجاءوا الى الامبراطور بهدايا منها منسوجات فاخرة ومنها افافويه عاطرة

وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في جبال البيرانه ، بين جيوش أمير الأندلس وجيوش فرنسا ، فاجتاح الأمير عبید الله ابن عم الأمير عبد الرحمن في سنة ٨٣٨ البلاد التي كانت تحتلها جيوش الفرنسيين ، كما ان هؤلاء اجتاحوا من بلاد قشتالة ما كان تابعا لملوك قرطبة ، وسار أسطول للمسلمين من تركونة ومعه اسطول آخر من جزيرتي ميورقة ويايسة . وهاجم المسلمون مرسيلية وانزلوا العساكر في نواحيها واستولوا على ضواحيها وساقوا جميع الرجال حتى الرهبان اسرى . والمظنون انه في تلك الغزوة حصلت الحادثة المنسوبة الى القديسة اوزيبيا Gusebia رئيسة دير الراهبات في مرسيلية والأربعين راهبة اللائي كنَّ في ذلك الدير ، وذلك انهنَّ خشين من ان الغزاة يتجاوزون على اعراضهن ويلحقون بهن المعرات فشوهن خلقه انفسهن بجمع انوفهن حتى يكن بمأمن من تجاوز غزاة العرب

ومات الامبراطور لويس سنة ٨٤٠ فوقع الخلف بين أولاده ، واغتم المسلمون هذه الفرصة فدخلوا من مصب نهر الرون ، كما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسا للدون بوكه ، وعاثوا في مدينة آرل ونواحيها . وفي الوقت نفسه أغار موسى أمير تطيلة في بلاد نابار وأوغل حتى بلغ أرض سردانة ، واكتسح تلك البلاد ^(١) وكانت في تلك الأيام قد ساءت الأحوال في فرنسا الى الدرجة القصوى بسبب

(١) أشار رينو الى هذا الخبر تقلاعن المقرئ . وقد راجعنا كلام المقرئ في النفخ ، فرأيناه يقول : انه في سنة سبع وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة واتبهوا الى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود

الحروب الداخلية ، وأصبحت قد انتثر سلكها وتعطلت حلالها وتقاسم جنوبي فرنسا ثلاثة ملوك : الامبراطور لوثير Lothaire والملك شارل الأصلع والملك الشاب بين ابن بين الذي كان ملكاً على ا كيتانية . ثم ثار أمير اسمه فولكراد Folcrade على الامبراطور وسمى نفسه كنت آرل وبروفنس . وقد بلغ حب الشقاق وفساد الأخلاق ان الكثيرين من سلالة شارل مارتل وبين القصير وشارلمان كانوا يستنجدون بالأعداء الأجانب بعضهم على بعض

ولم تكن ايطالية بأحسن حالا من فرنسا لأن المسلمين كانوا استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من أمراء المسيحيين يتنازعان الامارة في بلاد بينيفنتي بقرب نابولي ، فاستجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا في صقلية ، فدخل المسلمون الى الأرض الكبيرة واستولوا على قسم كبير منها ^(١) .

(١) جاء في فتوح البلدان للبلاذري تحت عنوان « فتح جزائر في البحر » مايلي :
قالوا : غزا معاوية بن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان سقلية ، وكان أول من غزاها ، ولم تزل تغزى بعد ذلك فقد فتح آل الأغلب بن سالم الافريقي منها نيفاً وعشرين مدينة وهي في أيدي المسلمين (أي في القرن الثالث للهجرة) وفتح أحمد بن محمد بن الأغلب منها في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله قصر يانة وحصن غليانة . وقال الواقدي : سي عبد الله بن قيس بن مخلد الدرق سقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل الى الهند فباع هناك ليثمن بها . قالوا : وكان معاوية بن أبي سفيان يغزى براً وبحراً فبعث جنادة ابن أمية الأزدي الى رودس وجنادة احد من روى عنه الحديث ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ومات في سنة ٨٠ ففتح رودس عنوة وكانت غيضة في البحر وأمره معاوية فانزلها قوماً من المسلمين وكان ذلك في سنة ٥٢

قالوا : ورودس من أخصب الجزائر وهي نحو من ستين ميلا فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة . قال البلاذري : وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا اقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة يأمره بهدم الحصن والبقفل . وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقبياً بها يقرىء الناس القرآن . وفتح جنادة ابن أبي أمية في سنة ٥٤ أرواد وأسكنها معاوية المسلمين وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع ابن امرأة كعب الاحبار وبها اقرأ مجاهد تنبعا القرآن . ويقال انه اقرأه القرآن برودس . وارواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية (ان جزيرة ارواد هي قبالة طرطوس بالقرب من طرابلس الشام فاما أن يكون وقع خطأ من البلاذري في تعيين موقع أرواد واما أن يكون المقصود بارواد هذه جزيرة أخرى في

وفي سنة ٨٤٦ جاء غزاة العرب الى رومة وصعدوا في نهر الطير ونهبوا كنائس

الارخبيل الرومي كان العرب يسمونها ارواد) وغزا جنادة اقريطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق وغزاها حميد ابن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي وافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم انتهى. وهذه الرواية قد تقدمت بحرفها

ثم قال البلاذري : وبالمغرب أرض تعرف بالارض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً أو أقل من ذلك قليلاً أو أكثر قليلاً وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى باره وكان أهلها نصارى وليس بروم غزاها جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلفون البربري ويقال انه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصناً واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وانه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة الا بأن يعقد له الامام على ناحيته ويوليه اياها ليخرج من حد المغلبين وبني مسجداً جامعاً ، ثم ان أصحابه شغبوا عليه فقتلوه ، وقام بعده سوران فوجه رسوله الى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقداً وكتاب ولاية ، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله اليه ، وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر ، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب ، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين ، بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين ، فقعد له وأنفذه . انتهى .

قلت : إن الأرض الكبيرة هذه هي أرض ايطالية التي تقابل سقلية . ومدينة باره التي ذكرها البلاذري هي قاعدة مقاطعة اسمها باره وهي على بحر الادرياتيك والاطليان يقولون لها بارى Bari . وجاء في تاريخ ابن الأثير في الجزء السابع في حوادث سنة ٢٢٨ ما ملخصه : ان الفضل بن جعفر الهمداني سار في البحر فنزل مرسى مسيني وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وسنة ٢٢٩ خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ مدينة « شره » فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، ولكنهم انهزموا وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف . وفي سنة ٢٣٢ ضيق الفضل ابن جعفر الهمداني على مدينة مسيني وأمكن لهم في بعض الوقائع ، فوقعوا في الكمين ولم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وسلموا المدينة إلى المسلمين . وفي تلك السنة أقام المسلمون بمدينة طارنط من أرض انكبودة وسكنوها وسنة ٢٣٤ استولى المسلمون على مدينة راغوس وهدموها وأخذوا منها ما أمكن حملة وسنة ٢٣٥ غزا المسلمون مدينة قصر يانة .

وكان الأمير على سقلية محمد بن عبد الله بن أغلب وكان مقبياً بمدينة بلارم لا يخرج منها إلا للغزو وتوفي سنة ٢٣٦ وكانت امارته تسع عشرة سنة . ثم ذكر ابن الأثير فتح قصر يانة بعد ذلك ، وقاله

القديسين بطرس وبولس وغزوا أيضا جنوة وعطلو اسدود نهرها، فنفر الأهالي وقتلواهم

انه سنة ٢٤٤ فتح المسلمون قسريانة على يد العباس بن الفضل بن يعقوب الذى تولى امارة سقلية بعد محمد بن عبد الله بن الأغلب المتوفى سنة ٢٣٦ وان العباس هذا كان غزا نواحي قسريانة ونهب وأحرق ليخرج إليه البطريق فلم يفعل ، وأنه سنة ٢٣٨ خرج العباس في جمع عظيم وأتى قطنانية وسرقوسة ونوبطس وراغوس فغنم من جميع هذه البلاد وفي سنة ٢٤٢ سار العباس في جيش كثيف ففتح حصوناً جمة ، وسنة ثلاث وأربعين نزل على القصر الجديد وحصره وما زال يضيق عليه حتى تسلمه وأنه في سنة ٢٤٤ أرسل جيشاً في البحر فلقبهم أربعون شلنديا للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهمز الروم وأخذ منهم المسلمون عشرة شلنديات برجالها ثم غزا العباس قسريانة ووقع في يده رجل من هناك دله على أماكن من سور المدينة دخل منها ووضع السيف في الروم ففتحوا الأبواب وتسلم البلدة وغنم منها ما يفوق الوصف وكان ملك القسطنطينية أرسل ثلاثمائة شلندى ملأى بالعساكر فوصلت إلى سرقوسة (سيراكوزا Syracusa) فخرج إليهم العباس وقتلهم فنهزمهم وغنم منهم مائة شلندى .

قال: وفي سنة ٢٤٦ نكت كثير من قلاع سقلية وهى سطرwabاة وابلاطونو وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبى ثور فخرج العباس إليهم فاقتتل مع الروم فانهمز الروم ثم سار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة بلاطونو فحصرهما فجاءه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فزحف إليهم ، فتلاقوا بجفلودى ، وجرى بين الفريقين قتال شديد فانهمزت الروم وعادوا إلى سرقوسة . وسنة ٢٤٧ سار العباس إلى سرقوسة ، ثم إلى غيران قرقنة ، فاعتل ذلك اليوم ، ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدفن هناك فنبشه الروم وأحرقوا جسده وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفاً وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين انتهى .

قلت: ان مدينة طارنت التى مر ذكرها هى فى الأرض الكبيرة فى مقاطعة أوثرانتة وان أرض قلورية التى يشير إليها ابن الأثير وانكبردة هما الآن كالبرة Calabria وقد جاء ذكرها فى معجم البلدان لياقوت قال : قلورية بكسر أوله وتشديد اللام وفتحها وسكون الواو وكسر الراء والياء مفتوحة خفيفة وهى جزيرة فى شرقي صقلية (العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة) وأهلها افرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس الفلورى روى عن أنى اسحاق الحضرمى وغيره وحدث عنه أبو داود فى سننه . ومن مدن هذه الجزيرة قبوة ثم بيش ثم تامل ثم ملف ثم سلورى . قال ابن حوقل : وهى جزيرة داخلية فى البحر مستطيلة أولها طرف جبل الجلالفة وبلادها التى على الساحل قسانة وستانة وقطرونية وسبرسة واسلو حراحة وبطرقوة وبوه . ثم بعد ذلك على الساحل جون البناديقين وفيه جزائر كثيرة مسكونة وأمم كالشاغرة وألسنة مختلفة بين افرنجيين وألمانين وصقالبة وبرجان وغير ذلك . ثم أرض بلبونس واغلة فى البحر شكلها شكل قرعة مستطيلة

﴿ قلت يريد بيلبونس Pélaponése وهي شبه جزيرة المورة . وكان العرب يقولون لكلازرة قلفرة أيضاً ﴾

قال المسعودى فى مروج الذهب عند ذكرامة النوبرد ويريد بهم اللومبردين : ان المسلمين ممن جاورهم كانوا غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باره وطارينتو ثم قال : ان مدينة طارينتو ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ثم ان النوبرد انابوا ورجعوا على من كان فى تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى أيدى النوبرد انتهى

ومن هذا كله يعرف أن المسلمين لم يقتصرُوا على فتح جزيرة صقلية ، بل تجاوزوها الى الأرض الكبيرة ولبنوا فيها زمناً طويلاً إلى أيام فريديك الثانى امبراطور المانية وملك صقلية الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر للمسيح وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين وكان يعرف العربية معرفة جيدة انتهى وقال الاستاذ الشيخ محمد الخانجى البوسنوى من مدرسى المعهد العلمى الحسروى فى مدينة سراى بوسنة فى مقدمة كتابه « الجوهر الأسنى فى تراجم علماء بوسنة » فتحت جزيرة صقلية بتمامها سنة ٢١٣ على يد قاضى القيروان عالم زمانه أسد بن الفرات صاحب المدونة الأسدية وكان رجلاً صالحاً فقيهاً أدرك مالك بن أنس ورحل اليه . فبقيت صقلية بأيدي المسلمين مدة واهتدى أهلها فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع حتى أنه كان فى مدينة واحدة من مدنها وهى « بلرم » نيف وثلاثمائة مسجد ، قال ابن حوقل : رأيت فى بعض الشوارع من بلرم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد . ودام ملك المسلمين لصقلية الى سنة ٦٤٤ ؛ وبعد زوال ملكهم منها بقى فيها الاسلام مدة مديدة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية الى أرض قلورية من بلاد ايطاليا واستولى المسلمون على عدة بلاد منها كرىو وباره وطارنت وكانوا قرعوا أبواب رومية مقر البابا رئيس النصرانية . وبنى بمدينة « ريو » أبو الغنائم الحسن بن على ابن الحسين الكلبى مسجداً كبيراً فى وسطها وذلك سنة ٣٤٠ وكل هذه البلاد التى ذكرناها خلت بمرور الزمان من الاسلام والمسلمين وعفت فيها آثارهم واندرست معالمهم (وتلك الأيام نداولها بين الناس) انتهى .

وقد مر ابن جبير الأندلسى بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠ وكانت خرجت من ملك الاسلام ، ولكن كان المسلمون لا يزالون يسكنون فيها ، قال ابن جبير : خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفه مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معمورة بعبدة الصليبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى أكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد أحسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهم اناوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها والله عز وجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبى الجميلة ما لهم . قال : وليس فى سببى إلا نفر يسير من

وحمل الرهبان والقسيسون السلاح (١)

ولم تكن الأندلس بأسعد حالا في تلك الأيام لأن الفتن كانت تصطلمها . والآفات تنيخ عليها بكل كلفها فانضم الى الفتن المجاعة والقحط والجراد وغزو النورمنديين الذين

ذوى المهن وذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب . وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلرمة وفيها سكن الحضرين من المسلمين ولهم فيها المساجد وسائر المسامير بضائعها وجميع قرأها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها .

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وكلهم أو أكثرهم متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلنها به أحد خدمته (الحمد لله حق حمده) وكانت علامة أبيه (الحمد لله شكراً لأنعمه) .

وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الأفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسامة تعيدها الجوارى المذكورات ، وأعلننا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة دعر لها هذا المشرى فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكرة لله ولرسوله من نساءه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليندكر كل أحد منكم معبوده .

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً ويتصدق تقرباً الى الله ويفتك الأسرى ويربى الأصغر منهم ويزوجهم وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم بعد مقدمة رغبة منه إلينا في ذلك فاحتفل في كرامتنا وبرنا وأخرج إلينا عن سره المسكنون بعد مراقبة منه في مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهد المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرنا وهو يذوب شوقاً وتحرقاً واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة وقال لنا أتم مدلون باظهار الاسلام فانزون بما قصدتم له ونحن كاثمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً فغايقتنا التبرك بقاء أمثالكم من الحجاج والاعتباط بما تتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لتتخذها عدة للإيمان وذخيرة للاكفان فتعطرت قلوبنا له إسفاقاً ودعونا له بحسن الخاتمة .

(١) جاء ذلك في مجموعة البولنديين ، وفي تاريخ مدينة نيس للسيو لويس دورنت ، وفي مخطوط المؤلف اسمه أغيو فريدو محفوظ في مكتبة تورينو .

أخذوا ينزلون في أشبونة واشبيلية ويفسدون في أرضهما .

وفي سنة ٨٤٨ عاد المسلمون فغزوا مرسيلية وجميع الساحل الى جنوة ، كما جاء في مجموعة الدون بوكه ، وكان الملك بين شاباً وكان في حرب مع عمه شارل الاصلع ، فطلب بين مساعدة المسلمين له وأرسل إلى قرطبة غليوم كونت طلوزة حفيد البطل غليوم الذي اشتهر في حروب المسلمين وتلقب بالقدّيس ، كما سبق الكلام عليه ، فقال غليوم ما أرادته وأحببوه بعساكر تمكن بها بين من اخراج عمال شارل الأصلع من برشلونة ومن مدب أخرى من كتلونية . وكان قرصان المسلمين قد نزلوا في سواحل آرل ، واضطروا لمعاكسة الريح أن يتأخروا في الساحل ، فحمل الأهالي السلاح من كل جهة وذبّحوهم . ولكن في تلك المدة زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة وتقدم من جهة اورجل Urgel وريباغورسة Ribagorsa ولم يزل يشن في أرض الفرنسيس ويقتل ويسبي الى ان اضطر الملك شارل الأصلع أن يطلب من المسلمين الصلح ولم ينله الا بتقديم هدايا ثمينة كما جاء في مجموعة الدون بوكه

وفي سنة ٨٥٠ وقعت نكبة على مسيحي الأندلس ، وحصلت حوادث في قرطبة وصل خبرها الى فرنسة . وتحرير الخبر أن الشرع الاسلامي يطلق لأهل الذمة الحرية الدينية ولا يجبرهم الا على اداء الجزية ، ولكن اذا تزوج مسلم بمسيحية فالأولاد يجب أن ينشأوا على دين الأب ، كذلك اذا أسلم مسيحي أو مسيحية فأولاده معدودون من المسلمين اذا كانوا قاصرين ، فاذا بلغوا سن الرشد وأرادوا الرجوع عن الاسلام فلا يحق لهم ، وكذلك اذا قذف أحد المسيحيين نبي الاسلام فليس أمامه سوى الاسلام أو الموت

وقد كان الزواج المختلط كثير الوقوع في الأندلس ، فطلما تزوج مسلمون بمسيحيات . وقد كانت المرأة المسيحية المتزوجة بمسلم كثيراً ماتلقن بناتها قواعد النصرانية فيحصل بسبب ذلك نزاع شديد في العائلات . وفي ذلك الوقت كان في قرطبة قسيس متضلع في اللغة العربية اسمه بهارفكتس ، وكان قد شاع ان بهارفكتس في احدى المرات تلفظ بالشهادتين وأسلم ، فصادفه بعد ذلك أناس من المسلمين وسألوه عن رأيه في نبي الاسلام

(صلى الله عليه وسلم) فامتنع أولاً عن الجواب فألحوا عليه فى تبين رأيه ، فأجاب بجواب نال فيه من الرسول . وقيل ان المسلمين ذلك اليوم لم يتعرضوا له بسوء ، ولكنه بينما كان ماراً فيما بعد فى أحد الشوارع جاء أحد المسلمين واغرى العامة بالهجوم على القسيس قائلًا لهم : إن هذا هو الذى قذف بالنبي . فهجمت العامة عليه ، وذهبوا به إلى القاضى ، فسأله عما عزى اليه من القذف ، فلم ينكر كلامه ، بل أيده امام القاضى فاضطر القاضى أن يحكم عليه بالقتل ، وكان ذلك فى شهر رمضان فلم ينفذ فيه الحكم الى أن انسلخ الشهر وجاء العيد فقطعوا رأسه بمحضر من جم لا يحصى من الأهالى (١) .

فكان لهذه الحادثة صدى بعيد واثرت من أجلها الخواطر ، وكان المسيحيون كثيرى العدد فى الأندلس وفى نفس قرطبة مركز السلطنة وكان المسلمون تركوا لهم كثير امن كنائسهم وأديارهم ، وكانت لهم أديار للرهبان وأخرى للراهبات ، وكان من المسيحيين كثير من المستخدمين فى القصر الملكى لاسيما ان القصر كان يحتوى عدداً عظيماً من الصقالبة . فكثرت من أجل ذلك المنازعات الدينية وصارت تتقدم الشكايات على بعض المسيحيين بأنهم قذفوا بالرسول فيؤتى بهم إلى القاضى فيسألهم فلا ينكرون فيحكم القاضى عليهم بالقتل ، ولأجل أن لا يأخذ المسيحيون أجسادهم ويحفظوها ذخائر كان الحكم يحرقون أجساد المحكوم عليهم بالقتل ويرمون رمادها فى النهر وقيل انهم كانوا يطرحون بعضها للكلاب

وقد كان تأثير هذه الشدة بعكس ما أمل رجال الحكم فانه وجد من المسيحيين من كان يتهافت على القذف بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتلوه ويصير شهيداً . وقتل بهذا الشكل أناس كثيرون ومن جملتهم رجل اسمه « سانشو » من فرنسة كان مستخدماً فى القصر ، واثنتان من الخصيان فى القصر أيضا ، وأكثر من تهافت على القذف بالرسول لنيل الشهادة المتحمسات من النساء المسيحيات (٢)

(١) ان الكنيسة جعلت بهار فكتس هذا قديساً وله عيد كل سنة فى ١٨ ابريل .

(٢) سنذكر هذه الحوادث ونستوفى هذا الموضوع فى الأجزاء التالية إذ ليس له تعلق بما نحن بصدد الآن ، وإنما ذكرنا ما قاله رينو بطريق الاستطراد لأن فيه شيئاً ما يتعلق بملك فرنسة فى علاقته مع ملك الأندلس .

وأخيراً عقد اساقفة المسيحيين مجعاً قرروا فيه ان التحرش بهذا الموضوع أى القذف بنبي الاسلام عمداً ، حبا بالقتل ونيل الشهادة ، هو مخالف لروح الانجيل . ثم ان الملك شارل الأصلع تدخل فى هذه المسألة ، بناء على التماس المسيحيين منه ، لأنه قد أصابهم فى البلدان الشمالية من إسبانية ما أصابهم فى قرطبة

ولما تفاقم هذا الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثانى على المسيحيين ، وطرد من قصره جميع الذين كانوا مستخدمين فيه منهم . ثم مات عبد الرحمن سنة ٨٥٨ وخلفه ابنه محمد ، وفى أول أمره شدد أيضاً فى معاملة المسيحيين حتى فكر فى اخراجهم جميعاً من مملكته ، ولكنه عاد فعدل عن فكره بسبب توالى الثورات وعدم مؤاتاة الوقت له . وكانت الحرب لا تزال مشتعلة فى كتلونية ، وكان موسى أمير سرقسطة قد ظفر بالمسيحيين فى بعض الوقائع إلا أنه انكسر فى آخر الأمر وتغلب عليه ملك اشتورية فغزله الأمير محمد من إمارة سرقسطة ، فاستشاط غضباً وانحاز الى المسيحيين ، وزوج ابنته بغرسية ملك ناباره ، وثار فى أثناء ذلك مدينة طليطلة

ثم ان المسلمين غزوا أيضاً جزيرتى سردانىة وكورسيكة ، واشتدت الفوضى وانتشر الجبل فى بلاد فرنسة ، فكنت ترى الكنائس مهدمة والمدن خراباً واللصوص اسراباً والناس يتركون ديارهم ويضربون فى الأرض طلباً للامان ، ومنهم من فضل الموت على ترك أرضه ، ومن الأهالى من كان ينضم الى الغزاة طمعاً فى السلب .

وبينا الحال هكذا فى فرنسة لم تكن الاندلس بأسعد منها ، اذ ثار فيها رجل يقال له عمر بن حفصون - كان مسيحياً فأظهر الاسلام - واعصوب حوله جيش من اللصوص وقطاع الطرق ، فتار على الأمير محمد وجاذبه الجبل وصارت الاندلس فى أمر مريع ، واضطر الامير الى مسالة ملك فرنسة شارل الأصلع ليتفرغ لامر ابن حفصون ، وجاءت رسل شارل الى قرطبة وكان ذلك سنة ٨٦٦ وتقرر ان تبقى كتلونية بيد الفرنسيين ، وعاد رسل شارل بهدايا ثمينة من قرطبة ومعهم ابل بجذائج مزينة . وهكذا تقضى حوادث الزمن على الملوك بمصافاة ذوى الشحنة ومهاداة الاعداء

وفى سنة ٨٦٩ جاء غزاة العرب فزلوا فى بروفانس فى محل يقال له كامرغ

Camargua وهو جزيرة مشكلة من نهر الرون ، وفيها أملاك للمطران رولان رئيس اساقفة آرل . فلما نزل المسلمون في هذه الجزيرة صادفوا المطران هناك يتعهد مزارعه فقبضوا عليه وقتلوا ثلاثمائة من رجاله وساقوه الى أحد مراكبهم ، فجاء المسيحيون لأجل ان يفكوه بفدية ، فطلب المسلمون به مئة وخمسين ذهباً و ١٥٠ ثوباً و ١٥٠ سيفاً و ١٥٠ عبداً ، فرضى المسيحيون بتقديم هذه الفدية ، فجمعوها وقدموها لأجل انقاذ المطران ، وكان هذا في أثناء جمعها قد فارق الحياة بما أصابه من الرعب فكتم المسلمون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي اشترطوها أخرجوا جثة المطران إلى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عند ما كان حياً ، وانصرفوا وكان المسيحيون قد جاءوا جمعاً عظيماً لتهنئة المطران بالخلص ، فلم يجدوا سوى جثة هامة ، وتحول فرحهم مائماً .

ومات شارل الأصلع سنة ٨٧٦ وكان ناوياً أن يذهب بجيش الى ايطالية التي كان المسلمون قد استولوا على نواحيها الجنوبية وأصبح بسبب ذلك البابا في رومة تحت الخطر . وبرغم توالي غزوات المسلمين والزمندين كان الشقاق بين أمراء فرنسة لا يزال قائماً قاعداً ، حتى نهكت قوى البلاد بأجمعها ، ولم يبق إلا أمل ضعيف يمسك بحشاشتها . وبلغ اختلاف الكلمة وتشظى العصا أقصى ما يتصور العقل

القسم الثالث

نزول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك

على سافواى وببيسمونت وسويسرة

الى دور اجلائهم عن فرنسة

قال رينو : ان الدور الأخير الذى سنتكلم عنه يشابه الدور الذى تقدمه فى شدة المهاجمات وفى آثار السلب والعيث ، جد المشابهة . وانما الفرق هو فى كون الحوادث السابقة لم تصب الا سواحل فرنسة خاصة ، على حين أن الحوادث التى نحن بسبيلها الآن ستمتد إلى بلاد دوفيني ، إلى حدود ألمانية ، وان الحوادث السابقة كانت عبور سبيل ، على حين أن هذه كانت راجعة إلى مركز ثابت مستقر ، وكانت تُتدرب أن تستمر

وقد بدأ هذا الدور فى سنة ٨٨٩ إذ كان متولياً على بروفنس ودوفيني رجل يقال له بوزون Boson وقد سعى نفسه ملك أرل . ولما كان بوزون المذكور غير منتسب إلى بيت شارلمان الامبراطورى ثقلت امارته على الناس ، وشملهم القنوط ، فكان المكان والزمان مساعدين على نزول غزاة العرب فى تلك الديار

واليك تحرير خبر نزولهم واستقرارهم فى بروفنس بحسب تاريخ ليوتبراند Liutprand فى مجموعة موراتورى وبحسب تاريخ دير نوفاليز Novalise وبحسب مجموعة الدون بوكه وتاريخ بروفنس تأليف بوش Bouche قالوا :

ان عشرين ملاحاً عربياً ركبوا مركباً خفيف القلع من سواحل اسبانية ، قاصدين سواحل بروفنس ، فأخذتهم الريح العاصفة وألقت بهم فى خليج غريمو Grimad الذى يقال له أيضاً خليج سانترويز Sant-Tropes فصعدوا الى البر ، لم يصرهم أحد ، وكان حول هذا الخليج أجمة أشبه بلغم من اشتباك سرحها أن الانسان لم يكن يجرو أن يدخل فيها . وإلى الشمال من الخليج كانت سلسلة جبال ، بعضها أعلى من

بعض ، فاذا وصل الانسان إلى قمتها أشرف على قسم كبير من بروفنس السفلى .
فأغار العرب على أقرب قرية من البحر وذبحوا أهلها ، وأخذوا يرودون في الجوار .
ولما وصلوا إلى القمم التي كانت تشرف من جهة على البحر وتناوح من جهة أخرى
جبال الألب ، فهموا حالاً ملائمة هذا المكان لاستقرارهم فيه ، بصورة دائمة ، فالبهر
كان لهم باباً لتلقى الامدادات التي قد يحتاجون إليها في بعض الأحيان ، والبر كان لهم
منفذاً إلى النواحي التي يرومون الغارة عليها ، والغابة المشتبكة التي ذكرناها تصلح
لهم معقلاً يلجأون إليه عند الاضطراب .

فلم يظأ هؤلاء القرصان تلك الأرض حتى أرسلوا إلى اسبانية وافريقية ، يستمدون
من إخوانهم الانضمام إليهم ، وبدأوا هم بالعمل في مكائهم . فما مضت عدة سنوات حتى
امتلاَّت تلك الأرض بالحصون والمعقل . وكان أهم تلك الحصون المسمى فركسيناتوم^(١)

(١) اختلف المؤرخون في موقع فركسيناتوم التي شغلها المسلمون مدة طويلة ، فمؤرخو الفرنسيين
يضعون فركسيناتوم في خليج سانترويز Saint-Tropez وهو مكان فيه معبر بين فرنسا وإيطاليا
وبقربه جبل يقال له جبل المورو . ومؤرخو الطليان يخالفونهم في تعيين هذا الموقع ، فالؤرخ بونينو
Bonino يضع فركسيناتوم في بروفنس بقرب آرل وهناك مؤرخ آخر اسمه مونبريزيو Monbrizio
يضع فركسيناتوم وراء جبال الألب البحرية . ومنهم من جعل هذا المكان بقرب آرل وقالوا ان
العرب نزلوا هناك وفي فريجيوس وأنطيب (التي جعلها العرب عين الطيب) وامتدوا إلى قصر نيسة
(التي يقول لها العرب نيفة والفرنسيين يسمونها نيس) إلى مدينة سانريمو التي قرأت في دليلها منذ بضع
سنوات ان العرب احتلوا . ومن هناك امتدوا إلى مدينة البنفة Albenga .

هذه كانت رحلتهم الأولى . وأما الثانية فهي أنهم ذهبوا من انبرون إلى جيوفني ديمورتانة
Jiovanni Di Mortana ومنها تقدموا إلى الداخل ونهبوا وأحرقوا دير نوافاليز Novalesa
ودير سأموريس في فاليزية .

والمؤرخون الطليان الذين تكلموا عن نزول العرب في تلك السواحل وهم : بينغوني Pingone
وودي بيني Debene ودلا شيزا Dellachiesa ودورندي Durandi وسيغبرتو Sigeberto
يقولون في أصل مجيء المسلمين إلى هناك انه سنة ٨٩١ جاء قرصان من اسبانية فسأغتهم زوبعة إلى
سواحل بروفنس فنزلوا إلى البر ووجدوا غابة اسمها فراسينيتو وهو اسم مشتق من أسماء النبات

Fraxinetum الذى يشتق من اسم شجر الدردار الكثير فى تلك الجهات . والمظنون أن فرسيناتوم كانت فى القرية الحاضرة التى يقال لها غارد فرينه Garde-Frainet الواقعة

الغالب على تلك الأرض ، ثم قاموا هناك وتحصنوا فى جبل تسمى باسمهم فيقال له اليوم جبل «مورو» ثم التحق بهم آخرون وتكاثروا وصاروا قوة مذكورة وصار أمراء البلاد يستعينون بهم فى قتال بعضهم بعضاً ، وانتشر المسلمون فى السفواى ودالقينيو وقاليزيا وليغورية الى جنوة . ومن حكم الطليان الذين دعوا المسلمين لمساعدتهم ووعدوهم بالمغانم لمبرتوديسنو ليتو وادالبرتو مركزى طوسكانة . اطلعت على ذلك فى خزانة كتب عمومية بمدينة جنوة .

ومن أغرب الأمور أن جميع المؤرخين تكلموا عن نزول العرب فى فرسينيت عدا مؤرخى العرب أنفسهم ، فتوجد عن هذه الحادثة تواريخ بالأفرنسية والألمانية والايطالية ولكنه لا يوجد تقريباً شىء بالعربية وانما جاء فى المسالك والممالك لأبى القاسم بن حوقل الذى كتب رحلته على أثر سفره من بغداد سنة ٣٣١ للهجرة وذلك قوله : وجبل القلال جبل قديم على مر الزمان فيه مياه وأراض وعماره وحرث يقوت من نجا إليه فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه ، وصاروا فى وجوه الأفرنج لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره فى الطول نحو ميلين .

ذكر ابن حوقل هذا فى كلامه على بحر الروم . وذكر فى محل آخر جزيرة ميورقة وقال . وميورقة جزيرة لصاحب الأندلس وكذلك جبل القلال يضاف إلى ذلك العمل .

وورد ذكر جبل القلال فى معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على انكبردة قال : بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذة جبل القلال ، وتمر على محاذة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلورية .

قلت : يعنى بها بلاد إيطاليا اليوم التى تبتدىء من محاذة جبال الألب وتنتهى بشبه جزيرة كلابرة وفى صبح الأعشى يقول : قلورية تقلا عن تقويم البلدان قال : ويقال لها قلورية بأبدال الفاء واوا قلت : وكنت أفكر أن جبل القلال هذا بالأوصاف التى وصفه بها ابن حوقل ويقوت لاتنطبق إلا على الجبل المشرف فى سواحل فرنسة على حدود إيطاليا ولكنى لم أكن أرضى بمجرد التخمين وكنت أود لو وقفت على كلام مستشرق الافرنج فى هذا الموضوع وكنت تحدث فى هذه المسألة مع الشاب الأجل الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى من آل الجدل الفهريين بفاس ومن جالية الأندلس ، وتقدمت إليه فى أن يبحث لى فى المكتبة الوطنية فى باريس لعله يهتدى إلى نص أو نصوص تكشف لنا الغامض وتقدر أن نعين بها ما يريد كتاب العرب بقولهم جبل القلال فأجابنى حفظه الله بالكتاب الآتى نصه بتاريخ ٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ قال : أخذت كتاب الخزانة العربية الصقلية تأليف آمارى Amari وهى كما لا يخفى مجموعة نصوص تتعلق بصقلية منقولة عما يقرب من مئة كتاب عربى فوجدته ينقل كلام بن حوقل الوارد فى جبل القلال فأخذت ترجمة الخزانة الصقلية إلى الايطالية وهى

في ذيل الجبل إلى جهة الألب . ومما لاجدال فيه أن مركز هذه القرية كان بغاية الأهمية ، لأنها الطريق الوحيد من الخليج إلى الشمال . وإلى الآن يجد الناس في أعلى

مفيدة جدا بالتعليق التي جعلها عليها آمارى ويوجد فيها طبعتان كلتاهما في سنة ١٨٨٠ واحدة في جزئين من الحجم الصغير والأخرى في جزء واحد من الحجم الكبير وجبل القلال ورد في الصفحة السابعة من الطبعة الكبيرة أما في الترجمة فان آمارى اكتفى بكتابة جبل القلال بالحروف اللاتينية وجعل بين هلالين ترجمة للفظه قلال بمعنى رؤوس الجبال جمع قلة وذكرها بالأفرنسية هكذا Gimes وجعل على هذا تعليقا مضمونه تلخيص كلام المستشرق رينو الذى سأقله لك بالحرف ، وأحال عليه : نشر المستشرق جوين بول كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والباقع في ثلاثة أجزاء مع أجزاء ثلاثة أخرى للتعاليق باللاتينية وقد ورد فيه جبل القلال في صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول وعلق جوين بول في صفحة ٢٥ من الجزء الخامس قائلا انه كتب إلى رينو الشهير في هذا الباب فأجابه بما يلي سماحه بنشره . وقد نقل لى ولدنا السيد محمد القاسى كتابه رينو بنصها الافرنسى فأثرت ترجمتها بالعربى وهى هذه :

« في تأليف نشرته سنة ألف وثمانمائة وستة وثلاثين تحت عنوان غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سفواى وييمونت وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى قد ذكرت انه في سنة ٨٨٩ دخل بعض قرصان من الأندلس في أرض فرنسة في خليج غريمونو الذى يقال له سانترويز وأنشأوا لأنفسهم في آخر الخليج على قلة جبل معقلا هائلا وهذا المعقل يسميه المعاصرون لذلك الوقت فركسيناتوم والآن تسمى القرية المبنية على سفح الجبل غاردفرينه Gadre Frainet والغابة التي تحيط بالجبل اسمها الآن غابة الموراى العرب . كلما استقر هؤلاء القرصان في ذلك الموقع المتناهى في المناعة استدعوا اليهم أفاقين آخرين جاءوهم من سواحل الأندلس وافريقية ثم انضم اليهم بعض الجياع من أهل البلاد . وساعدتهم القوضى التي كانت ضاربة أطناها فيها فتقدموا في البلاد وقطعوا جبال الالب وانتشروا في الشواى وشمالى ايطالية وسويسرة . وعندما نشرت هذا الكتاب لم تكن النسخة المخطوطة من كتاب الاصطخرى قد نشرت وكنت أظن أن وجود هذا المعقل الاسلامى في قلب النصرانية كان لم يزل مجهولا عند كتاب المسلمين في الأندلس وأفريقية وآسية فأما الآن فقد تحقق عندى ان الاصطخرى وابن حوقل قد سمعا في أثناء اسفارهما بنجر فركسيناتوم من سواحل بروفس وان كلا منهما لم يهمل ذكر ذلك في كتابه

وأعظم من هذا ان خبر هذا المعقل الاسلامى في قلب اوربة وصل الى أقاصى بلاد العجم فالاصطخرى في صفحة ٣٩ من طبعة كتابه المخطوط يذكر بعض الجزائر مثل صقلية واقريطش وقبرص ثم يذكر جبل القلال ، فقد يظن القارىء أن مراده به احدى الجزر التي

الجبل آثار خراب وبقايا عمران : جدراناً متهدمة ، وبنياً منحتاً في الصخر وبشراً منحتة في الصخر أيضاً

يحيط بها البحر وفي الاطلس الذي تحت نمرة ١١ مذكور هذا الجبل وموضوع في وسط البحر الى الغرب من صيقلية يقابله المهديّة وتونس من جهة وطرطوشة من الاخرى وكذلك الحال في الحارطة التي تحت نمرة ه ولا فرق بينهما سوى ان الجبل في الحارطة الثانية موضوع على مسافة أبعد الى الغرب على علو مائة والجزائر ومن المعلوم أن الخرائط الملحقة بكتاب الاصطخرى هي ناقصة جداً وفيها خطأ كثير نظير الاطلس العربية على وجه الاجمال

ولا يجوز أن ننسى أن اسم جزيرة وشبه جزيرة هو واحد عند العرب كما عند اليونان وترى الاصطخرى يقول عن جبل القلال ما يطابق موقع فرسيناتوم واليك كلامه : وأما جبل القلال فانه كان جبلاً خراباً وفيه ماء وأرض فوق اليه قوم من المساهين فعمروه وثاروا في وجوه الافرنجية لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول يومان . ثم أتى على ترجمة هذا الفصل بالفارسية : جبل القلال كوهى بوده است خراب ودر انجا اب وزمين بسيار قومی از مسلمانان انجا مقام گرفتند وآبادان کردندك وقر فرنگ است وفرنگ برایشان دست نیايدودرازى اين كوه دو روزه راه باشد

ومن عادة ابن حوقل في رحلته أن يعلق بعض الشرح على كلام الاصطخرى الا أنه في هذا المقام كانت عبارته مختصرة جداً والملاحظة المهمة التي يلاحظها القارىء في كلامه ان جبل القلال هذا تابع للأندلس وذلك ان علماء العرب يطلقون لفظة الأندلس على جميع بلدان الجنوب الغربى من اوربة التي دخلت في طاعة المسلمين (انظر الى ترجمتنا لجغرافية أبى الفداء صفحة ٢٣٤ وصفحة ٣٠٨) وهكذا كانت بلاد بروفنس في القرن الثامن وفيما بعده في القرن الذى نحن الآن بصده معدودة من الأندلس

وهكذا أمكنهم أن يجعلوا جبل القلال من الأندلس وفيه كان المسلمون واقفين في وجه الافرنج . فالمكان الذى وصفوه لا ينطبق الا على فرسيناتوم اذ لو أردنا أن نقول ان ابن حوقل والاصطخرى أرادا بجبل القلال جزيرة صغيرة غفلا من الاسم واقعة بازاء سواحل تونس أو سواحل طرابلس لكان الوصف الذى وصفه هذان الرحلتان لهذا المكان خالياً من كل معنى (ثم ذكر رينو كلام ابن حوقل بنصه)

بقى علينا أن نفسر كلمة قلال التي أضيف لها ذلك الجبل فهذه اللفظة تحتل تأويلات مختلفة ففي الاطلس التي وجدناها في مخطوط الخزانة الامبراطورية الحاوى للرواية الفارسية من كتاب الاصطخرى نجد لهذا الجبل شكلاً هرمياً وأما في الاطلس التي في المخطوط العربي فاننا نجد هذا الجبل يرتفع تدريجاً فيكون اسم جبل القلال مطابقاً له

ولم يبق شيء من شجر الدردار إلى هذا الوقت ، ولكن الميسو جرمون Germond كاتب العدل الحالي في ساترويز الذي بحث بحثاً دقيقاً في هذه المسألة

أقول ان أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذا الجبل قد رنت في أنفاس آسية فكتاب العجم سموه كولاقلال كلمة تفيد معنى جبل القلال وانا نجد تحت نمرة ٣٨٤ من المخطوطات الفارسية من الخزانة الامبراطورية هذه الكلمات :

كولا قلل جزيرة است ودر كوهي است ودر روزكار قديم خراب بوده است ونامسكون جون اسلام قوت گرفت ازن مسلمانان انجا افادند انجا مقام ساختند وساكن شدند واكنون در روى فرنك باشند وميان ايشان وكافران پيوسته جنگ باشند

ومعناه جبل القلال جزيرة اوشبه جزيرة واقعة في وسط سلسلة جبال كان هذا الجبل في الماضي مهملًا غير مسكون فلما انتشر الاسلام جاء بعض المهاجرين الى هذا المحل واستوطنوه وهم الآن هناك واقفون في وجه الافرنجة الذين يحيطون بهم ولا يزالون معهم في جلال مستمر

ثم قد وجد في كتاب فارسي من قبل عجائب المخلوقات للقزويني واسمه كاسمه وموضوعه كموضوعه الجملة الآتية : قلل كوهي است ميان دريان روم خراب بودا بادان كردند ودر وجه مصالح افرنجه نهادند واكران كولا نبودی اسلام برنج امدی

أى جبل القلال جبل واقع في وسط بحر الروم وكان خراباً ولقد سكن فيه اناس وأووا الى هذا الجبل في جهادهم للافرنج ولولا هذا الجبل لسكان على الاسلام خطر عظيم

هذا كلام رينو بنصه ويتخلص منه ان جبل القلال ليس بجزيرة بل شبه جزيرة واذا رجعنا الى جزيرة مقاطعة الفار Le Var على حدود ايطالية وجدنا أن المحل الذى يجعل فيه هذا العالم جبل القلال شبه جزيرة . ثم انى قد راجعت مقاله رينو في كتابه فتوح المساهين بفرنسة من صفحة ١٥٧ الى صفحة ٢١٠ فرأيت ان وصف جبل القلال في كتاب ابن حوقل من حيث امتناعه ينطبق تماماً على فركسيناتوم وأما قوله ان العرب بجعلون هذا الجبل من ضمن الاندلس لانهم يسمون بهذا الاسم كل البلاد الواقعة في جنوبى اورية الى الغرب فأظن انه غير مصيب بل السبب في ذلك هو ان جبل القلال كان تحت حماية خفاء قرطبة وقد ذكر هذا رينو نفسه في كتابه الأنف الذكر صفحة ١٨٧ فقال : ان أوتون كان أنشأ علاقات مع أعظم ملوك عصره لاسيما خليفة قرطبة الذى كان هو الحامي للمستعمرة العربية في فركسيناتوم ويظهر من كتاب رينو ان فركسينة كانت عاصمة الممتلكات الاسلامية في فرنسة وسويسرة وايطالية الشمالية . وهذه الأهمية التي أشار اليها ابن حوقل والاصطخري لم تكن لجزيرة سردانة وعلى كل حال فاني أظن الآن ان جبل القلال هو فركسيناتوم ويبق مع هذا مجال للبحث للوصول الى الاقتناع العلمى المبني على الحجج القاطعة . انتهى كتاب محمد الفاسي رئيس جمعية طلبة شمالى افرقية في باريز .

يظن أنه كان توجد غابة دردار في قعر الخليج على شاطئ البحر ، وأنه كان توجد قرية رومانية اسمها فركسينيتو احتلها العرب ثم هدموها واختاروا قمة من الجبل لإنشاء معقل لهم سموه فركسينيت Fraxinet ومن رأي المسيو جرمون أن ذلك المعقل كان أشبه بمخفر يقصدون منه الإشراف على سهول بروفنس السفلى وذلك لأن المكان لا يزيد محيطه على ثلاثمائة قدم ولا يتسع لأكثر من مائة رجل لا غير . ويظن المسيو جرمون أن المعقل الأصلي الذي كان العرب يعملون عليه هو على نصف فرسخ من هناك ، بقرب البحر ، فوق جبل يقال له اليوم « سيدة ميرمار » Notre Dame de Miremar حيث توجد آثار مهمة وخنادق عميقة . وأما المسيو بوش صاحب تاريخ بروفنس فيظن أن العرب قد أطلقوا اسم فركسينيت على حصون كثيرة شادوها في دوفيني وسافواي وبييمونت . وانا نرى رأي بوش هذا صواباً لكثرة وجود هذا الاسم في هذه النواحي

ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في النواحي القريبة منهم وصادف ذلك تلك المحاربات الداخلية التي كان حامياً وطيسها بين زعماء البلاد فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم الى نفسها ، ثم عند ما نمت شوكتهم عدوا أنفسهم سادة لتلك الأرض واستولى الرعب على قلوب الجميع من عاديته وأصبح لا يرتفع في وجههم رأس ولا ترتق الى مصارعته هممة . ومن جملة الأدلة على ذلك أنه وجدت في قبر القديسة مادلينه في فيزلاي Vezelay من بورغونية كتابة تفيد أن جسد القديسة نقل من مدينة اكس في بروفنس الى هناك ، خوفاً من العرب . وكان وجود هذه الكتابة قد انكشف سنة ١٢٧٩ . راجع في ذلك تاريخ هينو Hainut تأليف جاك دوغويز DeGuyse وتاريخ بروفنس تأليف بوش

وكان العرب يتقدمون يوماً فيوماً نحو جبال الألب تعلقاً وتسلياً حتى وقفوا في أعلاها . وكانت مملكة آرل خاضعة للويس بن بوزون المتقدم الذكر . وكان لويس هذا سار بجيش الى ايطالية لمقاتلة بيرانجه ملك لونباردية فترك بلاده بدون حامية تقريباً وصارت ثغوره عورة وكان النرمنديون يعيشون في قلب فرنسة وكادوا احدي المرار

يستولون على باريز . وجاءت فرقة من البرابرة الوثنيين من الشرق وهم المجر فعاشت وخربت جانباً من ألمانيا ثم من ايطالية وأوشكت أن تدخل إلى فرنسا

وفي سنة ٩٠٦ اجتاز العرب مضائق دوفيني Dauphiné وقطعوا جبل سنيس Mont Cenis حتى انتهوا الى دير نوفاليز على حدود بيمونت ، في وادي سوزة . وكان رهبان الدير قد تمكنوا من الفرار الى مدينة توزينو ومعهم ذخائر القديسين وما في الدير من أشياء ثمينة ، ومن جملتها خزانة كتب نفيسة فلما وصل العرب لم يجدوا في الدير الا راهبين بقيا كحراس فيه ، فنهب العرب الدير والقرية ، واحرقوا الكنائس جاء ذلك في تاريخ دير نوفاليز الوارد في مجموعة موراثوري : وفيه أنه كانت هناك كنيسة صغيرة باسم القديس هلدراذ Helderad من رجال اوائل القرن التاسع فأحرقوها وفر كثير من الاهالي الى الجبال بين سوزة و بريانسون Briançon واعتصموا بدير أولكس Oulx فاقصص العرب آثارهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً حتى سمي ذلك المكان بساحة الشهداء (راجع مجموعة دير أولكس التي نشرها ريفانتلا في تورينو سنة ٧٥٣) وكان الاهالي قد اجتمعوا وثاروا بالعرب، وقبضوا على أناس منهم وساقوهم الى تورينو، واعتقلوهم في دير القديس اندراوس . ولكن هؤلاء الاسرى حطموهم الأصفاذ التي كانوا مقيدين بها واحرقوا الدير وافتتوا وكادوا يحرقون جانبا من المدينة . ثم ان العرب قطعوا المواصلات بين فرنسا وايطالية ، واحتلوا جميع مضائق جبال الالب ، فصار مرور الناس عائداً الى اذنههم . وسنة ٩١١ كان رئيس اساقفة اربونة يريد السفر الى رومة لمهم مستعجل فلم يقدر على السفر خوفاً من العرب . وكانوا لا يسمحون لاحد ان يمر بدون ان يأخذوا منه رسماً معلوماً . ثم شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومونفerrat Montferrat . وفي سنة ٩٠٨ نزل بعض قرصان العرب في سواحل لنغدوق بقرب ايعمورط ونهبوا دير التريل الذي كانوا هدموه في زمان شارل مارتل ثم اعيد بناؤه

وكان صعد على عرش قرطبة سنة ٩١٢ عبد الرحمن الثالث الملقب بالكبير والذي تولى الملك خمسين سنة وجمع تحت حكمه بلاد الاندلس قاطبة وكان من ايمن ملوك الدهر

نقية اوصل الاندلس الى اعلى ذرى الهناء والسعادة والمجد ، وهو اول من تلقب من امرائها بالخليفة امير المؤمنين

وكان حنشو غرسية ملك نابار واوردونة ملك ليون تحالفا مع ابن حفصون الثائر على المسلمين ، وبالاتحاد مع مقاتلة الفرنسيين وقفوا في وجه جيوش عبد الرحمن . الا ان عبد الرحمن سنة ٩٢٠ ارسل عمه المسمى ايضاً عبد الرحمن ، والملقب بالمظفر ، فهزم جيوش الاعداء وقطع جبال البيرانة واكتسح جانباً عظيماً من غشقونية ووصل الى ابواب مدينة طلوزة ثم اصيب في رجوعه بفشل اذهجم عليه غرسية بن حنشو أو سانجه كما يقول العرب واسترجع منه جميع الغنائم التي غنمها^(١)

(١) جاء في نفع الطيب : وأخبار الناصر طويلة جداً وقد منح الظفر على الثوار واستنزهم من معاقلم حتى صفا له الوقت وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء فن غزواته أن غزا سنة ثمان وثلاثمائة الى جليقية وملكها اوردون ابن اذفونش فاستجبد بالبشكنس فهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة اثنتي عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمارت وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشيء ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد بالتصاري فقتل الناصر من كان مع الثائر من التصاري أهل ألبه وفتح ثلاثين من حصونهم وبلغه انتفاض طولة (ملكة الباشكنس) فغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة . ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون . وقعد بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد . وبعث جيوشه الى المغرب ، فلك سبتة وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره

ولما هلك سانجه بن فرويلة ملك الباشكنس قامت بأمرهم بعده أمه « طولة » وكفلت ولده ، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بنبلونة ورد عليها الغزوات وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين غزا الى خشمة ثم رحل الى بنبلونة ، فجاءته طولة بطاعتها ، وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبه وبسائطها فدوخها وخرب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردهير بن اردون فتحامى عن لقاءه ودخل خشمة فنازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيراً من معاقلم وهزمهم مراراً ورجع الخ .

وجاء في كتاب أخبار مجموعة : وأما عبد الرحمن بن محمد الأمير فانه ولي الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد ، لم يقابل به أحداً ممن خلفه

فامتد الصريح في بروفنس ودوفيني وبلاد الالب ، من اعمال غزاة العرب ، وحاول بعضهم ان يقاوموهم بالسلاح فهلكوا لعدم اجتماع كلمتهم . وكانت مرسيلية أيضاً قد نالها عيشهم ، وخرب العرب كنيستها العظمى ، وكذلك أغاروا على اكس . وروى بوش في تاريخ بروفنس وغويز في تاريخ هيمو ان العرب سلخوا جلود بعض من وقعوا في ايديهم احياء ^(١) ، وفر مطران اسمه « اودول ريكوس » الى مدينة « رنس » في الشمال . وكان العرب يسبون نساء البلاد ويبنون بهن بما نشر سلاتهم فيها ، ولا شك أنه قد انضم اليهم أناس من ابناء البلاد ممن لا يبالون على اي جنبيه وقع الامر

وبلغ من شدة الذعر أن الاغنياء صاروا يجلبون الى جهة الشمال فرارا من بطش العرب وجاء في سيرة القديس ميول Mayeul في مجموعة البولنديين ان القديس الذي كان أهله اغنياء من ابنيون فر من وجه العرب الى برغونية . واحرق العرب كنائس سيسترون Sisteron وغاب Gap وقتلوا في انبرون Enbrun القديس ينديكنوس رئيس الاساقفة ومطران آخر معه . وجاء في تاريخ خطط الالب العليا تأليف المسيو

أو خرج عليه الاغلبه ، واستولى على ماني يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حاتها واستذل رجالها وهدم معاقليها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استبق من أهلها ، وأذلهم بعسف العمال غابة الاذلال ، حتى دانت له البلاد واقاد له أهل العناد ، فمات ابن حفصون في حصاره ، وقتل سليمان ابنه محارباً له ، واستنزل سائر بنيهم وأهلهم وأمنهم ، وساروا في جنده

وملك « ببشتر » وبنائها ، وحصنها ، وهدم كل حصن غيرها . وذكر أنه إنما استبقاها عدة لنفسه ولولده ، ليلج اليها ، لما كانوا يحدثون في الآثار من أن فتناً تهيج في الاندلس بخوارج يخرجون على أهلها يخرجون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأولاد حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها الا من اعتصم بالمعاقل أو لجأ الى البحور ، وهو عندهم الفساد المتصل بالبلاء الأعظم الذي لاصلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم . وهو المستعان . واتصل ملك عبد الرحمن حمسين سنة في عز منيع وسلطان فاهر . وافتتاح البلدان شرقاً وغرباً الخ .

قلت : وسنأتى بخبر الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي على أتم وجه ان شاء الله في الأجزاء التالية التي فيها الكلام عن نفس الاندلس

(١) نحن ننقل روايات مؤرخي الافرنج في القرون الوسطى على علاتها وان كنا نعلم ما فيها من المبالغات ولا سيما ما كان منها مكتوباً بأقلام القسيسين الذين يخلطون التاريخ بالدعاية

لادوسيت Ladoucete خبر ثلاثة أبراج محصنة في انبرون كان العرب نزولوا بها وبواسطتها ملأوا تلك الناحية خوفاً وكان القديس ليبرال قد انتخب خلفاً للقديس بندكتس فاراد ان يدخل انبرون ولكنه لم يجرؤ على ذلك بسبب وجود العرب هناك ورجع من حيث أتى

وكان من عادة اهالى فرنسا واسبانية وانكلترا ان يذهبوا الى رومة ، ولو مرة في العمر ، لزيارة قبور الرسل . ولم يكن بدمن علاقات الاساقفة والقسيسين برومة كما لا يخفى ، ولكن معابر الالب صارت كلها الى ايدي العرب ، وصار هؤلاء يعتدون على السابليين . وبرغم ان الناس كانت تجتمع قوافل وتسير بالاسلحة لم تكن تمضى سنة بدون ان تحصل في تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء في مجموعة مؤرخى فرنسا

وفي تلك الايام وصل المجرار الى فرنسا ، وملأوا البلاد عيشاً وتدميراً ، ورأى الاهالى فيهم تصديق نبوة حزقيال عن ياجوج وماجوج . ولما كانت سنة الالف للمسيح ظن الناس انها قد اذفت الساعة ، وسأل مطران فردن Verdin احد القسيسين عن صحة هذه المسألة وهل المجرار هم ياجوج وماجوج أم لا ؟ فطمأن القسيس خاطر المطران قائلاً له : إن من اشراط الساعة أن يأتى ياجوج وماجوج ومعهم شعوب اخرى ، والحال ان المجرار جاءوا وحدهم ، فلا تنطبق هذه النبوة عليهم ، على انه من المحقق انهم في العيث والتدمير بذوا الاولين والآخرين

ثم ان بلاد بيمونت ومونفرات كانت ميدانا لغارات العرب . روى مؤرخ دير نوفاليزه أن أحد أعمامه ، وكان من قواد الجند ، ذهب من « مويين » الى « فارس » فداهمته عصابة عربية في احدى الحراج بقرب البلدة فتقاتل الفريقان وجرح عدد منهما ووقع بعض المسيحيين أسرى فاخلى العرب سبيل بعضهم واستبقوا القادرين منهم على الفدية ، وبقي عم الراوى وخدامه في ايديهم . وكان والد الاسير المذكور مارا من هناك فعلم بالخبر والتزم ان يجول في المدينة وان يقترض مبلغا من المال ليفك به ابنه مع خادمه . وروى هذا المؤرخ ان العرب كانوا وصلوا الى حدود ليغورية (على خليج

جنوة) وذكر المؤرخ الشهير ليوتبراند^(١) الذى عاش فى الثلث الاول من القرن العاشر ان العرب اغاروا على مدينة آكى Aquì احدى مدن مونتفرات المشهورة بمحاربتها المعدنية ولكنهم انهزموا فى تلك الواقعة ، ويقول المؤرخ نفسه ان بعض قرصان العرب دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرا من النساء والاولاد

وكان الاساقفة الذين فروا من وجه العرب فى بروفنس والرهبان وغيرهم قد لجأوا الى بلاد فاله Valais من سويسرة فجااء العرب ودخلوا هذا الوادى واكتسحوه وكان هناك دير على اسم الشهيد القديس موريس^(٢) كان الامبراطور شارلمان وغيره من الملوك اولوه مزيد العناية فجعله العرب دكا، على ما فى تاريخ غالية كرسثيانية Gallia Christiana وذهب بعض المؤرخين الى ان المسلمين كانوا هدموا هذا الدير سنة ٩٠٠

وجاء فى مجموعة الدون بوكه ان العرب استولوا على ناحية تارنتيس وان قافلة كانت ذاهبة من فرنسا الى ايطالية ، فوقعت فى يدهم واضطرت الى الرجوع بعد ان قتل عدد منها

ولما استولى العرب على فاله تقدموا الى أواسط كورة غريزون^(٣) وكان هناك دير شهير اسمه دير دى زانتيس Disentis بناه احد تلاميذ القديس كولومبان فنهبه

(١) ليوتبراند Liutprand مؤرخ المانى من أشهر المؤرخين ولد سنة ٩٢٢ وهو من أسرة شريفة فى لوبناردية نشأ فى معية الملك هوغ فى بافية وسنة ٩٤٥ بعد خلع الملك هوغ دخل فى خدمة خلفه برنغار وتوفى سنة ٩٧٠ وكتب كتابين باللاتينية أولهما يسمى معالى الامبراطور اوثنون الكبير

(٢) سان موريس بلدة فى وادى الفاله على السكة الحديدية المؤدية الى نفق السيملون الى ايطالية تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية نحواً من ساعتين. تنسب هذه القصة الى دير القديس موريس الذى فيها وهذا الدير قد بناه سجيسموند دوق بورغونية فى القرن السادس للمسيح حسبما روى لى القسيس القيم على مكتبة الدير وذلك عندما زرت هذا الدير مؤخراً متنبأ عن آثار العرب هناك كما سيأتى الكلام عليه

(٣) Grisons من مقاطعات سويسرة مركزها كوار

العرب وجردوه من كل حلاه . وكذلك فعلوا بكنيسة « كوار » . روى ذلك المؤرخ اشبريخer . وقيل ان الطران فالدو Wualdo شكاً سنة ٩٤٠ من غارات العرب المتواصلة وان آثار تلك الغارات كانت باقية الى سنة ٩٥٢ وان الامبراطور اوتون اقطع المطران المذكور املاً كاعلى سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ في سنة ٩٥٦ . ورد ذلك في مجموعة تاريخية المانية طبعت في كوار . وكانت سويسرة يومئذ تابعة لمملكة بورغونية

وكانت الحرب في تلك الايام مشتتة بين ملوك استورية وناباره من جهة ، وخليفة قرطبة من جهة اخرى ، وتواقف الفريقان عند زمورة ، فانهمز المسلمون في تلك الواقعة وقتل منهم نحو من مائة الف^(١) ولكن عبد الرحمن الناصر كان يقدر أن

(١) هذه الواقعة شهيرة ويقول ابن خلدون ان عبد الرحمن الناصر كان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الخندق سنة ٣٢٣ وأما ابن الاثير فيجعل هذه الواقعة سنة ٣٢٧ ويقول انه في تلك السنة عصى أمية بن اسحق بمدينة شتري على عبد الرحمن الأموي لأنه قتل أخاه فالتجأ الى رودمير ملك الجلالة وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالة فانهمزت الجلالة وقتل منهم خلق كثير ثم خرج الجلالة وظفروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأراد رودمير اتباعهم فمنعه أمية . وخوفه ورغبة في الغنيمة وعاد عبد الرحمن فجهز الجيوش الى بلاد الجلالة فألحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين . انتهى

أما في أخبار مجموعة فانه يقول : ان عبد الرحمن الناصر في آخر أمره مال الى اللهو واستولى عليه العجب واستمد بغير الكفاة وغاز الأحرار باقامة الأندال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلبه عسكره وفوض اليه جليل أموره والجا أكبر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزمهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أقبح هزيمة واتبعهم العدو أياماً يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكده ينجو منهم الا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتحلصوا الى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه اه . وذكر السعدي في مروج الذهب هذه الغزاة فقال : وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين رودمير ملك الجلالة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا واولجوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق

يجمع جميع قوى المسلمين في الاندلس فلم تكن هزيمة كهذه لتكسر من شوكته ، وكان في استطاعته وقتئذ ان يفحش النكاية بالمسيحيين لولا اشتغاله بالفتوحات في افريقية ولولا ظهور الدولة الفاطمية التي اخذت تجاذب الدولة الاموية الجبل ، فكان هذا من حسن حظ المسيحيين

وكانت مدينة فريجيوس في مقاطعة الفاربلدة عامرة ومرسى عظيما للسفن ، فأغار عليها العرب واجتاحوها اجتياحاً شديداً حتى لاذأهلها بالفرار وتركوها كجوف حمار ، واخذ المسيحيون الذين في السواحل كلها ينسحبون الى الجبال ، وكان في ذلك الوقت الكنت هوغ Hugues ملكا على بروفنس فأعلن عزمه على طرد المسلمين من تلك الاطراف ، ولما كان اعم معقل لهم هناك هو حصن فراسينت الذي منه كانت تنبعث غاراتهم الى داخل البلاد ، اجمع هوغ ان يهاجم هذا الحصن . ولما كان مصاهراً لامبراطور القسطنطينية أرسل اليه يطالب منه انجاده . باسطوله ، وكان الروم يملكون نفاطات يقال لها النار الاغريقية ، فكانت تحرق المراكب بمجرد ما تصيبها . ففي سنة ٩٤٢ زحف هوغ على حصن فركسينت بجيش جرار من البر . وجاء الاسطول الرومي من البحر فاحرق مراكب العرب التي في الخليج كما ان جيش هوغ تمكن من الحصن والتجأ العرب الى الجبال المجاورة ولكن جاء الخبر الى هوغ وهو في هذه الحرب مع العرب بان بيرانجة Berenger الذي كان ينازعه مملكة ايطالية ، وكان قد فر الى المانية ، رجع الى ايطالية يحاول ان يتنسم ريح الدولة ثانية فنسى هوغ الخطر الواقع على بلاده

خسین ألفا وقيل ان الذي منع رودمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق فقد خوفه الكمين ورغبه في ما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ثم ان أمية بعد ذلك استأمن الى عبد الرحمن وتخلص من رودمير فقبله عبد الرحمن أحسن قبول وقد كان عبد الرحمن بعده هذه الواقعة جهز عساكر مع عدة من قواده الى الجلالة وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالة ضعف ما قتل من المسلمين في الواقعة الأولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية وردمير ملك الجلالة الى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة انتهى كلام المسعودي المعاصر لتلك الوقائم .

من العرب وأسرع الى مهادنتهم بشرطان يقطعوا الطريق في معبر سان برنار وسائر معابر الالب على بيرانجة . روى ذلك المؤرخ ليوتبراند الذى بهذه المناسبة أخش الطعن في هوغ وقال انه جاء بها صلعاء لاسبيل للعذر فيها، وبلغ من حدته أنه أخذ يخاطب معبر سان برنار فيقول له شعراً معناه : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصناً واقياً للطغاة الذين يقال لهم المورو افلاتنجعل ايها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشرى ويعيشون من قطع الطريق ؟ وماذا أقول لك ، لعمرى جدير بك أن تنقض عليك صاعقة أو أن تكسر تكسيراً أو أن تفنى فناء أبدياً ! الخ

ومن بعد هذه الحادثة ازدادت جرأة العرب ونفحوا عرفهم واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون أبدياً في قلب أوربة فأخذوا يتزوجون من أنفس الاهالى ويحرقون ويزرعون كسائر الفلاحين وكان امرأ النواحي يكتفون بأن يأخذوا منهم إتاوة خفيفة ، وربما اعتضدوا بهم في بعض الأحيان . أما الذين كانوا في أعالي الجبال فقد كانوا يتقاضون المارين الاموال الفادحة ، ويقتلون من يمتنع عن دفع ما يطلب منه ، وأما معبر سان برنار الكبير الذى كان يسمى من قبل بجبل المشتري فقد كان من قديم الدهر بموقعه بين فاله Valais ووادى أوسط Aoste هو واسطة الاتصال بين سويسرة وإيطالية . ولما استولى عليه العرب وعلى غيره من المعابر تمكنوا من سائر النواحي المجاورة

وكانت مدينة نيس (أونيقة) تابعة لملكة آرل وكانت أيضاً تحت طائلة العرب ويظهر أن جماعة من المسلمين كانوا يسكنون في نيس ، لأن دورانت يذكر في تاريخ نيس أنه كان فيها ناحية للمسلمين Canton Des Sarrazins

وقد احتل العرب أيضاً مدينة غرانوبل Grenoble مع الوادى المربع المسمى وادى غرايفودان Graisivaudan وذهب مطران غرانوبل ومعه ذخائر القديسين وكنوز الكنيسة والتجأ الى دير دونات Donat في فلانس الى الشمال . ولا يعلم تماماً في اية سنة دخلوا

عرانوبل وانما من المحقق أن العرب في سنة ٩٥٤ كانوا استولوا على هذه البلدة لأنه وجدت كتابة منقوشة على حجر تاريخها سنة ٩٥٤ تدل على وجود المسلمين في غرانوبل . والغالب على الظن ان مسلمي بيمونت كانوا قد اتخذوا لانفسهم عدة معقل كانوا يعتصمون بها عند الحاجة . وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليزة حصنا من هذا النمط كان يحتله العرب باسم فراسنيدلوم Frascenedellum وهو مكان بقرب كازال على نهر البو Po وكان هذا المحل يسمى أيضاً فركسيناتوم ، وقيل بل هذا الحصن هو الذي يسمى الآن فنستراى Fenestralle

وعلى كل حال فليُنظر القارئ الى مؤرخ معاصر شاهد الحوادث بعينه وهو مؤرخ دير نوفاليزه، فقد قال . ان العرب كانوا يسبون النساء والاولاد والحيث وغير ذلك وكان قد دخل معهم أفاق من أهل البلاد اسمه ايمون Aymon طمعاً في الغنائم ف وقعت في أيديهم مرة امرأة بارعة في الجمال فاستأثر بها ايمون لنفسه فجاء أحد زعماء العصابة العربية وانزع تلك الحسنة من يد ايمون بالقوة فغلت مراجل الغضب في صدر ايمون وثار للانتقام فذهب الى الكنت روتبلدس ^(١) الذي كان صاحب السيادة في بروفنس العليا وكلله بالسر الخفي في قضية طرد العرب من البلاد . وكان للعرب سعاة وجواسيس في كل محل فاجتهد ايمون أن يكتسب مسعاه بكل ما أمكنه حتى تمكنوا من استنفار الناس بدون أن يشعر العرب ، واجتمع الامراء والزعماء وقادوا الأهالي وهاجموا العرب وأخذوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن اعناق الاهلين . قال هذا المؤرخ وإن عائلة ايمون هذا كان لا يزال منها بقايا الى زمانه

وفي سنة ٩٥٢ كان المجرار قد اكتسحوا الازراس ، وصارت جميع بلاد جبل جوراه Jura تحت خطر احتلالهم ، ففكر كوزاد الذي كان اميرا على بورغونية وسويسرة وفرنشكونتي ودوفيني في تدبير حيلة للتخلص من المجرار والعرب معا ، فكتب الى العرب كتابا يقول لهم فيه ان لصوص المجرار قد سمعوا بنخشب الاراضي التي في أيديكم وهم

(١) Rotbaldus يقول رينو انه قد يكون روتبلدس الثاني كونت فوركالسية الذي كان

يعيش في نواحي سنة ٩٤٥ على ما في تاريخ بروفنس للمسيو بوش .

عالمون الى انتراعها منكم ، فتعالوا الى لنزحف اليهم معا ونبيدهم . وفي الوقت نفسه كتب الى الجار قائلا لهم : لماذا ينازع بعضنا بعضا ؟ ان المسلمين هم الذين بايدهم أخصب البقاع ، فتعالوا الى لنزحف اليهم ونطردهم وحيثنا أنا اجعلكم في مكانهم . قال هذا وعين للفريقين مكانا للقاء فحضر الفريقان وألتحمت الحرب بينهما من نفسها وكان السكت قد حشد عساكره وكن لهم جميعا فلما اشتبكوا في الملحمة انقض عليهم بجيشه فذبحهم ولم ينج منهم الا القليل فارسل بقية السيف الى آرل وبيعوا في أسواقها ارقاء

جاء هذا الخبر في مجموعة الدون بوكه ولم نعلم تماما في أى مكان حصلت هذه المعركة . وكان مركز العرب الاصلى في بروفنس وكان الجار في الازراس وفرنشكونتى فالظنون ان هذه الواقعة حصلت في نقطة متوسطة كائن تكون مثلا في السفواى وقد ثبت ان العرب أقاموا طويلا في السفواى وكانت تسمى موريين Maurienne حتى ذهب بعضهم الى أن هذه اللفظة مشتقة من لفظة المورو التى تطلق على المسلمين الغاربة . ولكن هذا الزعم هو خطأ لأن هذه اللفظة معروفة منذ القرن السادس للمسيح . وكيف كان الحال فقد أقام العرب طويلا بسفواى . وقد علمنا أن المطران بيليه Billiet أسقف سان جان دومورين قام بمباحث دقيقة فيما يتعلق بتاريخ بلاد سفواى فعثر على أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك لا سيما في جوار مودان Modane اذ يوجد واد يقال له وادى السرازين وقرية اسمها فريناي Freney وقد ذكر بوش مؤرخ بروفنس ما يؤيد هذا القول .

وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرة بلا معارض كأنهم في دياراتهم وقد تقدموا الى أن صاروا على أبواب مدينة سانغال وعلى ضفاف بحيرة كونستنز وكانوا يعتمدون على الرهبان الذين كانوا هناك فلا يخرج منهم أحدا إلا رشقوه بسهم ، وكانوا قد ألفوا سكنى الجبال والسير في الأوعار ، حتى قال أحد الكتاب المعاصرين انهم صاروا أشبه بالمعزى في خفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال . وكانوا قد بنوا أبراجا في أماكن متعددة يقال ان آثارها لا تزال موجودة . وكانوا قد ألحقوا أضرارا لا تحصى

بالمسيحيين. وذكر مؤرخ دير سان غال Saint - Gall في كتاب داخل في مجموعة برتر أنه كان يوجد رئيس للدير المذكور اسمه «فالتون» قد جمع عصاة من الرجال الأشداء وسلاحهم بالحرب والفؤوس وهاجم هؤلاء البرابرة بغتة ، فقتل أكثرهم ومن نجا منهم قبض عليه ، وساقوا الاسرى الى الدير ، فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا ، فماتوا جوعاً !

وفي أثناء ذلك تغلب الألمان على المجار ، وكسروا شرهم ، فنشقت سويسرة نسيم الفرج . ولكن البروفانس والدوفيني وجانباً من جبال الالب بقيت تحت طائلة العرب الذين كانت ترد اليهم الامدادات من البحر . وكانت هذه البلدان لا تستريح ماداموا فيها . وكان الرجل العامل المدير اذ ذاك ، بين ملوك أوربة ، أوتون ملك جرمانية الذي لقب فيما بعد بالامبراطور والذي استحققت له خلاله المجيدة لقب «الكبير» فدخل أوتون في علاقات مع خليفة قرطبة الذي كان أشبه بالحامي لمستعمرة فرا كسينيه العربية ، فعزم أوتون لأجل الدفاع عن حقوق النصرانية أن يبعث بسفارة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان قد جاء الى أوتون كتاب من عبد الرحمن لا يخلو من عبارات فيها غرض من الدين المسيحي ، بحيث اعتمد أوتون بخاصة أن يجعل في سفارته الى قرطبة عالماً لهوتياً يمكنه الاعتماد عليه في الأخذ والرد مع علماء المسلمين ، فوقع الاختيار على راهب من دير غورز Gorse بقرب متس كان يقال له جان وكان بلغ من تضلعه في علم اللاهوت أن حاول اقناع الخليفة عبد الرحمن بالتنصر .

وقد كانت هذه السفارة في سنة ٩٥٦ والمؤرخون من المسلمين ومن النصارى متفقون على ما بلغته قرطبة لذلك العهد من العظمة والمجد فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون والسياسة ، والكياسة قد أدركت الأمد الأقصى في وقتها ، وكانت أوربة المسيحية مدهوشة بعظمة قرطبة وكان عبد الرحمن مقصداً لجميع ملوك العصر ، وكان يرسله البابا وامبراطور القسطنطينية وملوك اسبانية وفرنسة والمانية وبلاد الصقالبة ، وكان ملوك المسيحيين - بحسب قول مؤرخي العرب - يبسطون

أيدى الخضوع للخليفة ، ويعدون شرفاً عظيماً لهم أن يرسل الخليفة يده لسفرائهم ليقبلوها وذلك لجلالة قدره في أعينهم ولطف منزلته في أنفسهم وكان عبد الرحمن الناصر عندما تقدم عليه وفود هؤلاء الملوك لاسيما وفد ملك الروم ، يبالغ في الاحتفال ويتكلف الكلف الثقيل ويأمر باستقبالهم بالعساكر والأعوان وبإظهار جميع عظمة الخلافة فكانوا يفرشون لهم الشوارع التي يمرون بها بفخر البسط والديباج وكانت الألوف من حرس الخليفة الخاص وأمامهم الأمراء وعظماء الدولة يصطفون على الجانبين ومنهم بطانة تحيط بعرش الخليفة وبعد ذلك يقوم الأمّة ويخطبون في هذا الحفل بما يناسب المقام من وصف عز الاسلام وإظهار مناقب الامام ثم يتلوهم الشعراء بالقصائد الطنانة التي تزيد من ابتهاج الحاضرين وحماسة السامعين (١)

(١) وصف ابن خلدون كيفية استقبال عبد الرحمن لرسول صاحب القسطنطينية ، قال : ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكة وزين الفصر بأنواع الزينة وأصناف الستور وحمل سرير الخلافة بين مقاعد الاء والاخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم ، ودخل الرسل فهاهم مارأوه وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس فوجوا وشرعوا في القول فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو علي القالى وافد العراق كان في جملة الحكم ولّى العهد ونذبه لذلك استشاراً فعبز .

فلما وجوا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطى ، من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجلى في ذلك القصد ، وأنشد شعراً طويلاً ارتجله في الغرض . ففاض بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقم ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجالات المعالم . وأخباره مشهورة . وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره .

ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الاجابة . ورجع بعد سنتين ، وقد أحكم من ذلك ماشاء ، وجاءت معه رسل قسطنطين . ثم جاء رسول من ملك الصقالية ، وهو يومئذ دفوه ، ورسول آخر من ملك الامان ورسول آخر من ملك الافرنجة وراء البرت ، وهو يومئذ أوفوه ، ورسول آخر من ملك الافرنجة بقاصية المشرق ، وهو يومئذ ككدة ، واحتفل الناصر بقدومهم وبعث مع رسول الصقالية ربيعاً الأسقف الى ملكهم

أما سفارة الراهب غورز من قبل ملك فرنسا ، فأنها وإن لم تكن مخفوفة بجميع تلك الاهمية فلم تكن خالية من الاحتفاء والاحتفال . ولقد بقى لنا عنها رحلة بقلم أحد تلاميذ الراهب المذكور يمكننا أن نلخص منها مايلي :

سافر الراهب جان ومعه راهب ثان لاغير . وكانت الهدايا التي لا بد من استصحابها هي من مال الدير الذي ينتسب اليه الراهب . فسار الراهب ماشياً على قدميه الى «فيين» Vienne على نهر الرون ، ومنها ركب في النهر الى البحر ، وركب فيه الى برشلونة التي كانت اذ ذاك تابعة لمملكة فرنسا . وانما كانت أول مدينة تخص الخليفة من الثغور هي طرطوشة ^(١) فلما وصل سفراء ملك افرنجة الى طرطوشة وأذن لهم عاملها بالمسير الى قرطبة تقدموا في البلاد ، وقطعوا جانباً عظيماً من جزيرة

دوفوه ، ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة جاء رسول أوردون ، يطلب السلم ، فعقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردلند قومس قشتالية في عهده فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ، ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتالية فردلند المذكور ومال الى أوردون بن رودمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكينس ، فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رودمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه . وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه ، وخلع الجلافة طاعة أوردون ، وبعث الى الناصر شكره على فعلته وكتب الى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند (قومس قشتالية) في نكته ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعانته الى أن هلك . ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالشرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راجعاً في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب . انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار . وسنستوفي ان شاء الله وصف الناصر وأهله خلافته وعظمة قرطبة في ايامه في الاجزاء التالية المتعلقة بالاندلس فان محل ذلك هناك لاهنا وانما نقلنا هذا الفصل عن ابن خلدون تأييداً لما ذكره المستشرق رينو من هذا الباب

(١) وهكذا ذكر المسعودي في مروج الذهب وكان المسعودي من معاصري أيام الناصر عبد

الرحمن .

الأندلس ، وهم في ضيافة العرب بالمعهود من كرمهم . فوصلوا الى قرطبة لم يتكلموا
انفاق درهم واحد . وهناك استقبلوا برأ وترحيباً وانزلوا في محل على مسافة ميلين
من قصر الخلافة

ثم ان الخليفة علم بمهمة الراهب ، وما هو مكلف بتليغه من قبل ملك فرنسا ،
فأراد أن يتجنب المباحثات الدينية . وقال انه لم يكن لائقاً بمقام اثنين مثل الخليفة
والملك أن يدخلوا في مجادلات كهذه وانه لايسع الخليفة أن يسمع كلاماً فيه نيل من
الرسول (ﷺ) ولا يجوز له ذلك بحسب الشريعة ^(١) واقترح الخليفة أن يعد كتابه
الى الملك أوتون كأنه لم يكن . ولكن جميع هذه الملاحظات لم يقبلها ذلك الراهب ،
وأصر على رأيه ، وجاء مطران قرطبة ينصحه بترك هذا العناد ، فأحشن له الجواب
وأخذ يقرعه على هوادته وتساھله وتساھل جماعته في أمر الدين المسيحي ، وكيف انهم
قد رضوا بختان أولادهم وبلا متناع عن أكل الخنزير مسaire للمسلمين . ولما علم
الخليفة بتصلب هذا الراهب وانه راكب رأسه لا يثنى عن عزمه أبى أن يقبله وأرسل
اليه قائلاً انه كان قد بعث الى الملك أوتون أحد الأساقفة سفيرا عنه فانظره ثلاث
سنوات ولذلك هو يريد أن يمسك سفير أوتون لديه لا ثلاث سنوات فقط بل تسع
سنوات لأنه يرى نفسه أكبر من أوتون بثلاث مرات . فأجاب الراهب بأنه لا يقدر
أن يخرج عن الأوامر التي في يده من أوتون وتقرر عند ذلك أن يرسل الخليفة رسولا
آخر يسأله عما اذا كان لا يزال مصمماً على رأيه في كيفية سفارة الراهب وأخذ
الخليفة ينتدب للرسالة الى أوتون من عنده ممن يصلح لذلك ، فكان المسلمون يستعفون
من تلك السفارة لأنه من المعلوم أن على المسلمين واجبات دينية يصعب عليهم القيام
بها في بلاد النصرى ومن أجل ذلك كان أكثر سفراء ملوك الاسلام الى ملوك
النصارى مسيحيين ، وكثيرا ما كانوا أساقفة أو قسيسين ، ففي تلك النوبة انتدب
لهذه السفارة رجل مسيحي اسمه «رسيموندس» كوفي فيما بعد على المهمة التي قام بها

(١) قال رينو تحت هذه الجملة انه ورد في قانون الدولة العثمانية أن كل من يقذف بالله وصفاته أو
بنبيه الكريم أو بكتابه العزيز يعاقب بالقتل ولا يستتاب ولا يجهل

بجعله اسقفًا وكان يحسن الاتينية والعربية معاً. ويظن بعضهم أن الأسقف رسيموندس هذا هو نفس رمندس الذي كانا مطراناً اسبانيولياً وكانت بينه وبين المؤرخ ليوتبرند علاقة ومودة وقد جعل هذا تاريخه باسمه

وفي تلك المدة كان أوتون مشغولاً باطفاء فتنة أثارها عليه ابنه وصهره فلما وصل السفير الاسبانيولى من قبل الخليفة أجابه الملك الى كل ما اقترحه ، وقفل الرسول الى قرطبة وقد دبر الأمور كما شاء الخليفة . ورضى الخليفة من بعدها أن يستقبل الراهب ، وكان الخليفة يعلم تقشف الراهب ومذهبه في لبس الخشن وبعده عن مظاهر الأبهة ، فبعث اليه بأنه يريد أن يستقبله كسفير من قبل الملك ، وأنه لا بد له اجلالاً لقدر مرسله من قبول حالة السفارة وأنه ينبغي له أن يدخل على الخليفة بملابس لائقة فأجابه الراهب بأنه لا يجد لبساً أبهى ولا أخف من ثوب رهبانيته ، فظن الخليفة أنه قد يكون الراهب عاجزاً عن شراء الملابس اللازمة ، فبعث اليه بعشر أقات فضة ، وكانت الأقة اثنتى عشرة أوقية ، ولكن الراهب تصدق بهذه الفضة على الفقراء . فأرسل الخليفة اليه قائلاً انه يقبله ويحتفل به ولو جاءه فى كيس خيش

وفي اليوم المعين للاستقبال اصطفت العساكر على الجانبين ، ووقف العبيد الصقالبة قابضين على الحراب ، ووقف آخرون بالقسى . وكانت هناك الفرسان تلعب فى الميدان وفى هذه الحالة دخل الراهب السفير ، وقد فرشت أمانه مداخل القصر بالبط والديباج ، فما زال يتقدم الى أن وصل الى البهو الذى فيه الخليفة ، فوجد الخليفة جالساً على سرير الخلافة متربعا على عادة الشرقيين . فعند وصوله اليه أعطاه باطن يده تمييزاً له عن غيره فقبلها الراهب ، ثم أمر له بالجلوس وبعد المراسم المعتادة فى الجملة شرع الخليفة يتكلم عن الملك اتون وما بلغه من المقام السامى بين الملوك وأثنى عليه مزيد الثناء . ثم انه لما كان عبد الرحمن قد بلغه كون ابن الملك أوتون ثار على أبيه أنهى بشيء من اللاتمة على الملك قائلاً : انه لا ينبغي للملوك أن تقبل أقل انتقاص من سلطتها ولا ترعى فى ذلك عاطفة اشارة الى شىء كان وقع مع عبد الرحمن نفسه ، فانه عصى عليه أحد أولاده فانتهى الأمر بأن أمر بقتله

ثم دار الكلام على موضوع الرسالة التى جاء بها الراهب سفيراً ؛ فمؤرخو العرب أو بالأقل المؤرخون الذين عرفناهم ، لم يكونوا يذكرون شيئاً عن قضية احتلال العرب لسواحل بروفنس وبثهم الغارات الى الداخل ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يأبهون لهذه الحادثة ^(١) على أن المؤرخ ليوتبرند الذى عاش فى ذلك العصر يؤكّد أن تلك المستعمرة العربية فى جبال الألب كانت تحت حماية الخليفة نفسه ، وصاحب الرسالة التى نحن بصددھا عن رحلة الراهب سفيراً من قبل الملك اوتون الى الخليفة عبدالرحمن هو نفسه يقول ان موضوع تلك السفارة لم يكن سوى التوسط لدى الخليفة لوضع حد لغارات العرب فى فرنسا وإيطاليا . ومن المؤسف أن الرسالة ناقصة والكلام منقطع فى أهم نقطه من الموضوع ولم يعثر الى الآن على نسخة تامة لتلك الرسالة .

هذا وفى سنة ٩٦٠ تم طرد العرب من جبل سانبينار وليس عندنا معلومات عن تفاصيل الواقعة . ويظهر أن القديس برنار دومنتون Dementhone الذى بنى ملجأ فى أعلى هذا الجبل ، حتى نسبت الى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها ، كان هو نفسه فى هذه المعركة .

ومات عبد الرحمن الثالث (أى الناصر) سنة ٩٦١ فخلفه ابنه الحكم الثانى ، وكان ملكاً محباً للعلوم والمعارف جانحاً الى السلم ، فى أيامه ازداد عكوف الناس فى الأندلس على العلوم والصناعات وبلغوا منها شأواً مدهشاً وغلبت الكياسة والرقّة ودماثة المدينة على أولئك الأقوام الذين كانوا فى مبدأ أمرهم على جانب عظيم من الخشونة والجفاء فأما فى زمن الحكم فقد صارت الدولة للعلم وترقى به حتى النساء اللاتى كان منهن العالمات والفاضلات وصاحبات المسكنة فى دار الخلافة . وكان الحكم فى أوائل أيامه ، استجلاباً لثقة المسلمين به ، قد غزا جليقية واشتورية

(١) قد تقدم لنا فى حواشى هذا الكتاب ترجمة رسالة من قلم رينو يقول فيها : انه لما حرر هذا التأليف لم يكن اطالع على رحلتى الاصطخرى وابن حوقل فلما اطلع عليهما علم أن العرب لم يغفلوا هذه الحادثة بل كانت عندهم ذات بال

وكتلونية ودوخها ولكن المسيحيين طلبوا منه الصلح فأجابهم اليه ، ولما أخذ وزرائه وقواده يحثونه على نقض هذا الصلح لما عند المسلمين من حب الجهاد ، أجابهم بهذه الآية البديعة من القرآن : (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً) نعم انه اشترط على كنت برشلونة وسائر أمراء الكتلان دك حصونهم القريبة من ثغوره وأخذ منهم موثقاً بأنهم لن يمالئوا أحداً من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب (١)

(١) قال ابن خلدون : ولاول وفاة الناصر طمع الجلائقة في الثغور فغزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردند وبن غنتشاب فنال شنت اشتاين San Estevan وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا إلى عقد السلم معه واتقضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاة بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلائقة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم ، واطأ العساكر بلد فردند ودوخها . وكان شانجة بن رومير ملك البشكنس قد انتقض فأغراه الحكم التجبي صاحب سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلائقة لنصره فهزمهم ، وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها ، وقفل . ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجبي إلى بلاد برشلونة ، فعانت العساكر في نواحيها . وأغزى هذيل بن هاشم ومولاة غالباً إلى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية . وكان من أعظمها فتح قلموية من بلاد البشكنس ، على يد غالب ، فعمرها الحكم واعتنى بها . ثم فتح قطوية على يد قائد وشته وغنم فيها من الأموال والسلاح والاقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي مالا يحصى .

قال : وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبه ، ومعه يحيى بن محمد التجبي وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن عرماج ودوخ بلادهم وانصرف . وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير وأفسدوا بسائط اشبونة ، وناشبهم الناس القتال ، فرجعوا إلى مراكزهم . وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل . ثم كانت وفاة اردون بن اذفونش ملك الجلائقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير ، وهو ابن عمه ، وهو المالك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره ابوه الناصر ، فبادر إلى الوفاة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدمه وعى العساكر ليوم وفادته وكان يوماً مشهوداً ، وصفه ابن

وكان العرب لا يزال منهم جماعات محتلة لبروفنس ودوفيني ولا تزال الناس هناك تخشى عاديهم ، وكان الملوك في منازلهم يستعينون بهم فيكون الترجيح بواسطتهم .

حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل الى الحكم وأجلسه ووعد بال نصر من عدوه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه وعاقده على موالاة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ، ودفعت الصلات والجملات له ولأصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الزمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته وبقبضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شائجة بن ردمير ببيعته وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثم بعث ملكا برشلونة وطوكونية وغيرها يسألان تجديد الصلح واقرارها على ما كانا عليه وبعثا بهدية وهى عشرون صديقاً من الحصيان الصقالية وعشرون قطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذرع صقلية ومائتاسيف فرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن يندروا بما يكون من النصارى فى الاجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسل غرسية ابن شائجة ملك البشكنس فى جماعة من الأساقفة والقوامس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فعقد لهم الحكم . فاغتبطوا ورجعوا . ثم وفدت على الحكم أم لذريق القومس بالقرب من جليقية ، وهوالقومس الأكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته واحتفل لقدومها فى يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسعفت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها دون ماوصلت به هى وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرض العدو، من المغرب الأقصى والوسط، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبشوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم . ووفد عليه من بنى الحرز وبنى ابى العافية ، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعودة فى ناحية الريف وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية . وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جامعاً للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . قال أبو محمد بن حزم أخبرنى تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان ، أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة واربعون فهرسة وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لاغير . وأقام للعلم والعماء سوقةً ناقلاً جلبت اليه بضائعه من كل قطر

وكان أوتون ملك الألمان بعد أن قهر المجار واستصفي جميع ألمانيا اجبر البابا على تنويجه بتاج الامبراطورية وتغلب على برانجة ملك لومباردية ، وخرج هذان من مملكته شريدا فقام ابنه ادالبرت للمطالبة بملك أبيه . وروى بعض المؤرخين مثل البريك المنقول تاريخه في مجموعة لاينبتز أن ادالبرت استعان بمسلمي فركسينت .

وفي سنة ٩٥٦ تم اجلاء العرب عن غرينوبل . وقد تقدم أن أساقفة هذه المدينة كانوا هجروها الى ساندونات من جهة فالانس ، فقام أحدهم ايزاردن وجمع أكبر البلاد وقوادها واستنفرهم لقتال المسلمين . وكان هؤلاء يملكون اخصب النواحي وأجود الأراضي فتقرر أن كل انسان يكون نصيبه من هذه الأراضي بقدر بسالته واقدامه . فلما تمكن الأهالي من اجلاء العرب عن غرينوبل ووادي غرازيفودان تقاسم المقاتلون للعرب تلك البقاع التي كانت ييدهم بحسب درجة انغماسهم في الحرب . ومن ذلك جاءت ثروة بعض العائلات القديمة في مقاطعة دوفيني ومن جملتها عائلة اينارد Aynard التي يقال ان أصل ثروتها من تلك الحرب الصليبية . وبعد أن استصفي الأسقف يزورن تلك البلاد ومحا آثار العرب فيها أعلن عن نفسه أميراً على

قال أبو محمد بن خلدون : ولما وفد على أبيه أبو علي الفالي ، صاحب كتاب الأملی ، من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده ، واورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الأموال بشرائها حتى جلب منها الى الأندلس مالم يعهدوه . وبعث في كتاب الأغاني الى مصنفه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسبة في بني أمية ، وأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرج الى العراق . وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الابهری المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك .

وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، الا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء . ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور ابن أبي عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوه .

انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

غرينوبل وعلى الوادى . وحفظ خلفاؤه تلك الامارة مدة طويلة وبقى جانب من امتيازاتهم الى زمن الثورة الافرنسية .

فالقارى يرى أن أمور المسلمين فى تلك الاصقاع كانت قد أخذت تتراجع الى الوواء ، وأن ذلك التقهقر كان يزيد طمع الأهالى فى التخلص منهم تماماً ، وفى سنة ٩٦٨ نادى الامبراطور أوتون بهذه العزيمة وأجمع أن يستأصل شأفتهم من هذه النواحي ، الا انه مات قبل أن يحقق وعده . وكان فى ذلك العصر رجل لا يذكّر اسمه الا مقروناً بالتجلة والاكرام سواء عند الملوك أو بين الشعوب وهو القديس مايول Mayeul الذى كان قسيساً فى بلدة كلونى Cluny فى بورغونية ، وكان قد بلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمقام البابوية ، وكان هذا القديس ذهب الى رومة لزيارة كنائسها وفى اياها من رومة جاءت طريقه على بلاد البييمونت قاصداً الرجوع الى ديره من جهة جبل جنيفر Genevre وأودية دوفينى ، وكان المسلمون اذ ذاك محتلين البلاد الواقعة بين غاب Gap وامبرون Embrun ومركزهم فى الأعلى المشرفة على وادى دراك Drac بازاء جسر أورسيير (ولا يزال هذا المكان معروفا الى اليوم) فلما وصل القديس مايول الى ذيل الالب وجد هناك عدداً كبيراً من الزوار القافلين من رومة والمسافرين قد علموا بمجيئه فانتظروه ليسيروا معه اذ لم يكونوا يرجون أن تنتدح لهم فرصة خير من هذه لاجتياز جبال الالب . فتقدمت قافلة القديس . وفيها هذا الجمل الغفير . وما وصلوا الى ضفاف الوادى سائرين فى طريق منحصرة بين الجبل والنهر ، حتى انهال عليهم العرب برشق من السهام من عل . وكان العرب نحواً من الف مقاتل ولم يكن للمسيحيين مفر ، فأحيط بهم ووقع أكثرهم فى الاسر . وكان من جملة الاسرى القديس مايول ، وقد جرح فى يده وهو يذب عن أحد رفاقه ؛ فسيق الاسرى الى مكان على حدة ، وكان أكثرهم فقراء لا يطمع الانسان من ورأهم فى مغنم فذنا العرب من القديس وسألوه عن درجة يساره فأجابهم القديس بأنه من قوم أغنياء ولكنه خرج من جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة ربه وهو الآن راهب فى دير ذى أملاك وأراض واسعة فتساوموا معه على

فدية تبلغ مائساوى ألف ليرة من الفضة أو ثمانين ألف فرنك من الماملة الحاضرة وطلب العرب من القديس أن ينفذ رفيقه الى دير كلونى ليحمل اليهم المال وضربوا له موعداً قالوا له ان فات هذا الموعد ولم يروا المال فانهم يقتلون القديس وسائر الأسرى فكتب القديس الى الدير قائلاً : الى آباء كلونى والاخوان الذين فيه مايول المسكين أسير مكبل بالقيود الخ . فلما وصل هذا الكتاب ارتفع البكاء والعويل من كل جانب وأسرعوا بجمع الأموال واستجادوا أ كف ذوي الحمية وجردوا الكنيسة من زخرفها ، وأرسلوا كل ما وقع فى أيديهم من المال لفكالك القديس ومن معه من الأسرى . فوصل المال قبل انقضاء الأجل وأطلق المسلمون سراحهم وكان القديس فى أثناء وقوعه فى الاسر قد حاول أن يرشد المسلمين قائلاً لهم : ان الذى يعتقدون به لا يقدر أن يخلصهم من العذاب ولا ينفعهم بشيء . فعند مسمعوا منه هذا الكلام هاجت حفيظتهم وشدوا وثاقه وصاروا به الى أحد الكهوف وحبسوه فيه ثم انهم عادوا فسكنوا ورجعوا الى معاملته بالحسنى . وكان اذا اشتهى الطعام جاء أحدهم وغسل يديه وأصاح له طعاماً شهياً ووضع بين يديه بكل أدب . وكان مع القديس نسخة من التوراة ، فجاء أحد المسلمين ومد يده اليها بدون احترام ، فلأمله رفاقه وقالوا له : ان هذا كتاب مقدس ونحن معاشر المسلمين نقدر جميع الكتب السماوية . وبهذه المناسبة قال أحد كتاب ذلك العصر : ان المسلمين يحترمون مثلنا انبياء العهد القديم ويرون المسيح نبياً كبيراً وانما يجعلونه على كل حال أصغر من محمد بقولهم ان محمداً كان خاتم الرسل وهم يقولون ان محمداً هو من سلالة اسماعيل ابن ابراهيم . وقد وقعت حادثة القديس مايول هذه فى سنة ٩٧٢ فصار لها دوى عظيم فى الاقطار وضح لها المسيحيون الصغار والكبار وهبوا طالبين الأخذ بالثار وكان فى نواحي سيسترون Sisteron فى قرية يقال لها نويه Noyers رجل نبيل يقال له بوبون Behon كان قد استنفر الناس مراراً لتخليص هذه البلاد من العرب فانتهز هذه الفرصة التى كان فيها الناس غضاباً من أجل حادثة مايول فجمع كلمة الفلاحين والأعيان وسكان البوادرى والحواضر ممن يغضبون للدين والوطن ثم بنى حصناً فى نواحي

سيسترون بازاء حصن كان ينزله المسلمون يريد بذلك مراقبة حركاتهم حتى ينقض عليهم في أول غرة و يتقحم أول ثلثة . وحاول المسلمون أن يعرقلوا مساعى بوبون هذا فلم يفلحوا وكان الحصن الذى فيه المسلمون على رأس جبل يقال له « بيترة انبيه » Petra - Empia و بينا الفريقان يداور كل منهما الآخر اذ اغتصب قائد حصن العرب امرأة الحرسى الموكول اليه باب الحصن فانتقم البواب المذكور عن هذه الفعلة بان عرض على بوبون أن يفتح له الباب على حين غرة فيدخل الى الحصن و يفتك بمن فيه . وهكذا تم وجاء بوبون ومعه رجاله فوجدوا الباب مفتوحاً فدخلوا وذبجوا المسلمين وهم غارون ومنهم من عرض على المسيحيين ان يتنصر فهُؤلاء عفوا عنهم واستحيوهم ومن جملتهم القائد وقد جعلت الكنيسة بوبون هذا في مصاف القديسين كما يستفاد من المجموعة البولندية (١)

وفي الوقت نفسه كان أهالى غاب (٢) قد ثاروا بالعرب ووثبوا عليهم واستأصلوهم . وجاء في كتاب قديم يتعلق بهذه البلدة أن الذى جمع كلمة الالهيين وثار بهم على العرب هو رجل يقال له غليوم فكبسوا العرب بياتا في جميع المواقع التى كانوا يحتلونها ، واستأصلوا عرقاتهم وكانت مكافأة الذين قاموا بهذه الحرب أن أخذوا نصف البلدة ونصف الأراضى وتركوا النصف الآخر للمطران والكنائس . وهكذا تحررت بلاد الدوفينى وأصبح خلاص مملكة بروفنس بعد ذلك قريبا .

وان من المؤسف أن لاتكون لدينا على هذا الحادث المهم معلومات مفصلة ، وغاية ما علمناه أن غليوم كونت بروفنس هو الذى تولى كبر تلك الحرب . ومن يدرى فقد يكون هو نفسه غليوم الذى عفى آثار العرب في « غاب » فان غاب كانت من توابع بروفنس . وكان غليوم كونت بروفنس محبا للعدل محافظا على الديانة برأى برعيته فأجبه رعاياه حباً جمّاً . ولما استنفر أهالى بروفنس ودوفينى السفلى ونيس لقتال العرب لبوا

(١) هى مجموعة حياة القديسين منسوبة الى راهب يسوعى اسمه بولاند . وقد بدأ هو بها وأكملها غيره فصارت تسمى مجموعة البولنديين .

(٢) قصبة هى مركز مقاطعة الألب العليا كان العرب استولوا عليها طويلا .

نداءه ، فلما اجتمع اليه الجلم الغفير منهم قصد أن ينهد الى العرب في فرسينت ، وعند ما علم العرب أن أهالى البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم صفاً وأول معركة وقعت معهم وقعت في نواحي دراغينمان Dragengman في مكان يقال له تور تور Tourtour حيث يوجد الى الآن برج مبنى منذ ذلك اليوم ، تذكرنا لتلك المعركة ، فلنهمز المسلمون والتجأوا الى حصن منيع . ولكن المسيحيين أخذوا بمخنفهم حتى اضطروهم أن يغادروا الحصن ليلاً ويلجأوا الى الحراج المجاورة ، فتأثرهم أهالى البلاد وتغلبوا عليهم ، فقتل أكثرهم ، وأخذ الباقون أسرى^(١) وجميع من وقع في الاسر أو استسلم من المسلمين عفوا عنه كما أنهم لم

(١) نقلرينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي فرنسة وقال من الجائز أن يكون بعض المسلمين فروا الى البحر وذهبوا الى الأندلس أو الى صقلية أو الى سواحل افريقية . وقد قال دربلو D'Herbelot في « المكتبة الشرقية » تحت اسم المعز وكذلك كاردون Cardonne في تاريخ مغاربة افريقية انه في ذلك الوقت أى نواحي سنة ٩٧٠ كان المسلمون مالكين لجزيرة سرادانية وأن الخليفة المعز قبل أن فتح مصر كان أقام بسرادانية مدة سنة وقد وافق على هذه الرواية ميمو Mimaut صاحب تاريخ سرادانية وزعم « دلبين » Delbene أن المسلمين كانوا استولوا على كورسكة أيضا وهى التى يقول لها العرب قرسقة .

ويقول دلبين انه كان لهم أمير يقال له « موجة » Mugat جرد عليه كونت بروئنس جيشاً انضم اليه الجنوبيون . ولا شك أن دلبين يريد أن يتكلم عن الأمير مجاهد الذى كان أغار على سرادانية وكان البيزانبيون أو البيازنة (كما يقول العرب) ولكن قصة مجاهد هذا وغارته على سرادانية متأخرة عن هذا التاريخ بنحو من ثلاثين سنة . انتهى كلام رينو .

قلت مجاهد العامرى من ممالك الملك الغازى الشهير المنصور بن أبى عامر ، كان بعد ذهاب دولة المنصور قد تقلبت به الأحوال ، فاستولى على دانية وشن الغارة على سرادانية . ترجمه ابن عميرة فى بقية الملتبس فقال : مجاهد بن عبد الله العامرى . أبو الجيش الموفق ، مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد . كان من أهل الأدب والشجاعة والعلوم وأهلها . نشأ بقرطبة وكانت له همة وجلادة وجراءة ، فلما جاءت أيام الفتنة وتغلبت العساكر على النواحي بذهب دولة ابن أبى عامر قصد هو فى من تبعه الجزائر التى فى شرقى الاندلس ، وهى جزائر خصب واسعة ، فغلب عليها وحماها (يريد بهذه الجزائر ميورقة ومينورقة وياسة) ثم قصد منها فى المراكب الى سرادانية (جزيرة من جزائر الروم كبيرة) فى سنة ست أو سبع واربعمائة فغلب على أكثرها وافتتح معاقلا .

يقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين وادعين في القرى المجاورة . ومن هؤلاء من تنصر
واندمج في الأهالي ، ومنهم من بقى مسلماً ولكنه أصبح رقيقاً مستخدماً إما في

ثم اختلفت عليه أهواء الجند وجاءت امداد الروم ، وقد عزم على الخروج منها طمعاً في تفرق من
يشغب عليه ، فعاجلته الروم وغلبت على أكثر مراكبه ، فأخبرني أبو الحسن نجبة بن يحيى قال :
أبناؤنا شريح بن محمد عن أبي محمد بن حزم قال ان أبا الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني قال : كنت مع
أبي الجيش مجاهد في سردانى فدخل بالمراكب في المرسى نهاه عنه أبو خروب رئيس البحرين ، فلم
يسمع كلامه ، فهبت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركباً مركباً الى الريف ، والروم وقوف
لاشغل لهم الا القتل والاسر للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى
صوته ، لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك ، لارتجاج البحر وزيادة الريح
الى أن يقول : قد كنت حذرته من الدخول ههنا فلم يقبل ، قال فبجريعة الذقن ماتنا هنا في
يسير من المراكب . هذا آخر خبر ثابت بن محمد .

ثم عاد مجاهد الى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته واختلفت به الأحوال حتى غلب على دانية
ومايلها ، واستقرت اقامته فيها . وكان من الكرماء على العلماء ، باذلاً للرغائب في استمالة الأدباء ،
وهو الذى بذل لأبي غالب اللغوى تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب الذى
ألفه في اللغة مما ألفه لأبي الجيش مجاهد على ما ذكرنا في باب التناء . وفيه يقول أبو العلاء صاعد
ابن الحسن اللغوى وقد استماله على البعد بخريطة مال ومركب أهدهما اليه قصيدة أولها :

أتنتى الخريطة والمركب كما اقترن السعد والكوكب
وحط بمينائه قلعة كما وضعت حملها المقرب
على ساعة قام فيها الثناء على هامة المشتري يخطب

الى أن قال

مجاهد رضت إباء الشمس فأصبح مالم يكن يصحب
فقل واحتكم فسمع الزمان مصيخ اليك بما ترغب

وقد ألف في العروض كتاباً يدل على قوته فيه . ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس
أحمد بن رشيق وتحويله عليه ، وبسط يده في العدل وحسن السياسة . وكان موته بدانية في
سنة ٤٣٦ .

وجاء في معجم البلدان لياقوت ان المسلمين غزوا سردانى في سنة ٩٢ في عسكر موسى بن نصير
والذى قرأته في التواريخ أن عبد الله بن موسى بن نصير هو الذى فتح ميورقة واخواتها ولعله
غزا سردانى .

أراضى الأديار أوفى أراضى الرعاء . وقد بقيت لهذه الأمة بقايا معروفة مدة طويلة كما سيأتى الكلام عليه .

أما سقوط حصن فر كسينت فقد وقع فى سنة ٩٧٥ وكانت مدة بقاء هذا الحصن فى أيدي المسلمين أكثر من ثمانين سنة . ولما كان هو المركز الأصلى لجميع العرب المنتشرين فى داخل فرنسا وشمالى ايطالية وفى سويسرة ، فلا بد من أن ذلك الحصن كان ملائ بالأموال والنفائس ، فوزع الكونت غليوم صاحب بروفنس تلك الأموال على الذين امتازوا بقتال العرب ؛ وأشهرهم « جيلين غريما لدى » الذى كان من أهل جنوة فانه كوفى على اقدامه بالاراضى التى كانت فى منتهى خليج سان ترويز . ومن يذكرون المشاهير الذين جالدوا حق الجلال بهذه الحرب مسيحي آلت اليه السيادة على مدينة كاستلان Castallane فى مقاطعة الالب السفلى . وربما

وجاء فى تاريخ ابن عذارى المراكشى المسمى بالبيان المغرب ، أن المسلمين غزوا سرديانية فى سنة ٢٠٦ وعليهم محمد بن عبد الله التميمى فأصابوا وأصيب منهم ثم قتلوا .

وقد اطلعت فى مدينة جنوة على تاريخ الطليانى لجمهورية جنوة لمؤلف يقال له « فريدريسي دونافر » De Naver جاء فيه انه فى سنة ١٠١٦ ذهب أسطول جنوى إلى سرديانية وتغلب على قوة مجاهد الأمير العربى الذى كان استولى عليها ، وانه فى سنة ١٠٣٤ وصل الأسطول الجنوى الى افريقية واحتل الجنوبية عنابة . وانه فى سنة ١٠٨٧ ذهب الأساطيل الجنوبية والبيزانية ، ومعها اسطول امالى (بقرب نابولى) بأمر البابا فكتور الثالث ، واجتاحت سواحل تونس وطرابلس واضطر أمير افريقية أن يدفعهم عنها بفدية تبلغ نصف مليون بحسب المعاملة فى زمن صاحب التاريخ وسلم اليهم الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده .

ومما جاء فى تاريخ جنوة هذا أنه فى مدة ١٣ سنة غزا الجنوبية ثمانى غزوات فى بلاد الاسلام ، وان فتح الصليبيين لطرابلس الشام كان على أيدي الجنوبية فى ١٣ تموز سنة ١١٠٩ وان أمير ياتشى قائد الجنوبية تولى مدينة جيل ثم انه فى سنة ١١١٠ كانت له اليد الطولى فى حصار بيروت وفتح الصليبيين لها . قال : واشترك الجنويون مع غودفروا دو بويون فى فتح القدس وفتحوا صور وقيسارية .

هذا وجاء فى تاريخ الخلفاء للإمام السيوطى أن الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة فى شوال سنة ست وثمانين وانه فى سنة ٨٧ فتح سرديانية من جملة فتوحات عدها وانه فى سنة ٨٩ فتح جزيرتى ميورقة ومينورقة .

كانت ثروة آل كاستلان الحاضرة راشحة عن تلك الفتوحات . ولا ينبغي أن ننسى أن العرب كانوا أيضاً قد أجلاوا عن مدينة ريبز في (الألب السفلى) فانه في كل سنة يحتفل أهالى هذه البلدة بعيد خلاصهم منهم الذي يصادف يوم العنصرة .

وقد استولت الكنيسة أيضاً على كثير من الأراضى التى كانت بأيدي المسلمين . وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد أصيبوا أكثر من سواهم بهذه الغارات العربية وتهدم كثير من أديارهم فلذلك كانوا همداً في طليعة الحركة لاجلاء العرب ، فبالأساقفة فريخس ونيس نصيباً كبيراً من الأراضى التى كانت بأيدي المسلمين . وفي طولون وقع نزاع بين الأهالى على الأراضى التى كانت للمسلمين لأنه كان قد طال حكم العرب لتلك البلدة فدفرت آثار التملك القديم واصبحت الحدود مجحولة . فجاء الكونت غليوم من آرل وأجرى التقسيم بين الأديار والأهالى والامراء ، وأرضى الجميع . ولذلك بقى لغليوم هذا اسم كبير في التاريخ ، وأطلقوا عليه لقب أبى الوطن .

فقد تقرر اذاً أن سقوط حصن فركسينت في أيدي المسيحيين وقع في سنة ٩٧٥ وانه من ذلك الوقت لم يبق للمسلمين شئ في أرض فرنسة . نعم ان بعض المؤرخين ومنهم دالين المار الذكر يزعم بقاء المسلمين في جبال الالب مستمراً الى ما بعد سنة ٩٨٠ بل الى ما بعد سنة الألف ، ولكننا لا نثق بهذه الرواية ، ونظن أنه ان كانت قد بقيت عصابات عربية في جبال الالب من بعد تاريخ سقوط فركسينت فلا تكون عصابات محاربة بل تكون عصابات مستسلمة وقد اردت عن الاسلام الى النصرانية أو صار رجالها في حكم الرقيق . وبالاختصار فمن بعد ذلك العهد لم يبق على أتباع الانجيل خطر من أتباع القرآن الا ان كان من قبيل وقائع قرصانية كان لا بد لأجل التخلص منها من مطاردة البرابرة الى نفس بلادهم .

وفي سنة ٩٧٦ مات الخليفة الحكم الثانى في قرطبة وكان ابنه بليداً فتقلد الامور الحاجب الملقب بالنصور وكان آية باهرة في البسالة والاقدام وحسن التدبير بل منه النصرارى بياقة لا نظير لها فاعاد للاسلام رونقه الأول وبث الغارات في أطراف بلاد

النصرانية حتى أوقع الذعر في جميعها وعادت النصرانية على شفا خطر عظيم . وكان المنصور عندما تسلم الزمام قد بدأ بترتيب أمور الولايات الافريقية ، حيث أدخل في الطاعة جميع أهلها وجند منهم الجيوش الجرارة واستنفر أيضا أهل الأندلس منتخبا منهم أشجع الشبان وأخذ يشوقهم الى القتال ويمرهم عليه . وكانت غزوات المنصور كلها في فصل الصيف ، ما عدا غزاة واحدة ، وذلك لأن رجال افريقية كانوا لا يتحملون برد الاصقاع الشمالية . وبلغ عدد غزواته في مدة سبع وعشرين سنة ستا وخمسين غزوة ، لم تهزم له فيها راية ولا ولى جيشه مدبرا (١)

وكان المسلمون في الغالب فرسانا فاذا قصدوا الى بلاد النصرارى وهزموا لهم جيشا ذبحوا الرجال وسبوا النساء والأولاد وباعوهم رقيقا ، فكنت ترى بعد كل غزاة من غزوات المنصور أسواق قرطبة واشبيلية واشبونة وغرناطة مكتظة بالرقيق من ذكور وإناث ، وكان تجار الرقيق يأتون بهذه الخلائق الى افريقية ومصر وسائر بلاد الاسلام فتنتشر فيها . وكان المنصور يرى جهاده في بلاد النصرانية أفضل قرباته الى الله تعالى ، وكان يستصحب في جميع اسفاره التابوت الذى يريد أن يوضع فيه عند موته . وكان من عادته أن ينفذ الغبار الذى يعلق بشيابه في أثناء غزواته ويجعله في ذلك التابوت ، ليصنع منه لبنة يضعها تحت رأسه عند الموت . فجال غزاة المسلمين تحت راياته المنصورة في قشتالة وليون وناباره وآراغون وكتلونيه الى أن وصلوا الى غاشقونية وجنوبي فرنسا

وجاست خيل المنصور في أماكن لم يكن خفق فيها علم اسلامي من قبل ، وسقطت مدينة شانتياق من جليقية وهى أقدم معهد مسيحي في اسبانية في أيدي المسلمين ، واحرقت تلك المدينة . وأخذت اجراس الكنيسة الكبرى المعروفة بكنيسة

(١) لى من قصيدتى الأندلسية التى نظمتها بعد وصولى الى قرطبة :

وسائل عن المنصور نجل ابن عامر يجاوبك عنه كل قوس موتر

غزا فى العدى ستاً وخمسين غزوة فأب بها طراً بنصر مؤزر

(م - ١٣)

القدّيس يعقوب الى قرطبة حيث عمل منها قناديل وعلقت في الجامع الأعظم . ولأجل أن يزيد المنصور من اذلال المسيحيين أجبرهم على حمل الاجراس المذكورة على ظهورهم من شانتياقب الى قرطبة وهي مسافة ثمانمائة كيلو متر ولا ينكر أن المسيحيين عادوا عند ما دخلوا قرطبة فاسترجعوا هذه الاجراس وحملوها على ظهورهم من قرطبة الى شانتياقب ، وتلك الايام نداولها بين الناس .

وفي أيام المنصور ^(١) كاد الأمل ينقطع من بقاء النصرانية في اسبانية ، فاتحد

(١) سنأتى في الأجزاء التالية على كل مايتصل بنا من أخبار المنصور بن أبي عامر الذى يقدر أن يضعه المؤرخون في الصف الأول من رجال العالم ، لأن محل هذه الترجمة هو في تاريخ الاندلس لافي تاريخ فرنسة ، ولكن من حيث ان المستشرق رينو أشار الى غزوات المنصور الشهيرة لم نشأ أن نخلي هذا الجزء أيضاً من شىء من ترجمته ، فنقول :

جاء في فتح الطيب مايلى : ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصرى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا « وللكعبة المثل الأعلى » فيها يحلفون واليها يجمعون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب أحد الحواريين الاثنى عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ، ثم عاد الى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة ، في رجالهم وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المساهين وركبوا في المغاورة سبيلهم ، وكان المنصور تقدم في انشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبى وانس من ساحل غرب الاندلس وجهره برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة استظهاراً على تفوذ الغزيمة ، الى أن خرج بموضع يرتقال على نهر دويرة فدخل في النهر الى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه ، ففقد هنالك من هذه الاسطول جسراً يقرب الحصن الذى هنالك ، ووجه المنصور

ملوك النصارى بأجمع أصحاب ليون و نابار وقشتالة وسائر المقاطعات المسيحية ، ونبذوا كل ما كان بينهم من خلاف . وصاروا عصبة واحدة ، وتسليح الأساقفة والقسيسون

ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شانت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلصان يمدّها البحر الاخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليّة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لأمسلك فيه ولا طريق لم يهتد الادلاء الى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبروا بعده وادى منية وانبط المسامون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مغيرتهم الى دير قشان وبسيط يلنبو على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فبسوا من فيها ممن لجأ اليها . وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسامون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء اليهما ثم نهر ابلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها فغادره المسامون قاعاً ، وكان النزول بعد على مدينة شانت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء اللينين خلتا من شعبان ، فوجدها المسامون خالية من أهلها فحاز المسامون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ووكّل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه . وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشياً كأن لم تكن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط . وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطنها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل في طريقه الفصد على عمل برمند بن اردون يستقره عائناً ومفسداً حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بمجملتهم على أقدارهم ، وكسام وكسارجلهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية

وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه للملك الروم ولبن حسن غنائمه من المسلمين الفين ومائتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر وكسائين عنبريين وأحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مريضاً وسبعة أتماط ديباج وثوبى ديباج رومى وفروى فنك ،

وساروا في مقدمة الجيوش بحسب رواية مؤرخي النصارى على ما في مجموعة الدون بوكه . واجتمعت جيوش جرارة من المسيحيين على حدود قشتالة القديمة ، وحشد المنصور جميع ما عنده من قوة وكانت الوقعة هي التي ستكون الفاصلة بين الفريقين ، وتلاقى الجمعان على نهر دويره فكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل وقيمت طول النهار وسالت الدماء كالأنهار ولم ترجح فئة على الاخرى ، ولكن المسيحيين كان أكثرهم في زرد الحديد فكان التلف منهم أقل . ولما خيم الظلام رجعت كل فئة الى مخيمها وانتظر المنصور مجيء قواده وأعوانه للتشاور معهم فلم يحضر منهم أحد فسأل عن سبب تأخرهم ف قيل له انهم سقطوا صرعى في المصاف ، فعلم المنصور أن العاقبة وبيلة والثالث جسمه وامتنع عن أخذ أى علاج ، ومات بعد أيام قلائل ، فدفنوه في الثياب التي كانت عليه يوم المعركة وفي التابوت الذي كان يحمله معه ليدفن فيه . ولا يزال قبره معروفاً في مدينة سالم (١)

ووافى جميع العسكر قرطبة غانماً وعظمت النعمة والمنة على المسامين ولم يجد بشتن ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأله عن مقامه ، فقال : اونس يعقوب . فأمر بالكف عنه . قال : وحدث شعلة قال : قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : ياشعلة الملك لا ينام اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة . انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور

(١) جاء في فتح الطيب تقياً عن ابن سعيد أن المنصور رحمه الله توفي في غزاته للأفرنج سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى أن وصل الى مدينة سالم انتهى

وجاء في الفتح من جملة مناقبه أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ، ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الحدم يأخذونه عنه بالناديل في كل منزل من منازلهم حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويرها في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أ كفانه ، توقفاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الاكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك انتهى .

قلت : وقبره معروف في مدينة سالم والاسبانيول يلفظونها مدينة سالى أو ثالى بالناء

وكان المنصور طول استيلائه على الدولة جامعاً بين مجد السيف ومجد القلم ، فازدهرت في أيامه العلوم والصنائع وتقدمت الزراعة وازداد العمران وبلغت الاندلس لعهد من السعادة مبلغاً لم تعرفه من قبل . وفي أيام المنصور انتشرت مبادئ الفروسية «Chevalerie» والمبالغة في حفظ الشرف والرفق بالمرأة وبأى ضعيف ونجدة الملهوف اياً كان . وهذا أمر لا نزاع فيه الا ان المسيو فياردو Veiredot في كتابه المسمى « مشاهد الاخلاق العربية في اسبانية في القرن العاشر » قد تجاوز الحد في زعمه أن العرب لعهد المنصور ، هم الذين قرروا نظام الفروسية كما كان معروفاً عند فرسان المسيحيين فيما بعد ، وقد كان واجباً على المسيو فياردو أن يأتي بالبرهان على مقاله لأن الذي بأيدينا من تواريخ الذين عاشوا في ذلك العصر ليس فيه شيء مما قرره المسيو فياردو (١)

وكانت وفاة المنصور سنة ١٠٠٢ فقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك ولكنه مات سنة ١٠٠٨ وبموته انقضت أيام الاسلام الزاهرة في اسبانية (٢)

ثم نشبت الحرب الداخلية في قرطبة وأخذت الحكومات تهدم بعضها بعضاً وفترت الحمية الاولى وبدأ الاسلام يتقهقر ويستسرّ بדרه منذ ذلك الوقت . وقد كان في استطاعة المسيحيين من شمالي الاندلس أن يسترجعوا بلاد آبائهم وأجدادهم من ذلك الحين الا انهم هم أنفسهم أيضاً كانوا منقسمين وكانت العداوة بين ناباروغا ليلية كما كانت بينهم وبين المسلمين ، وكان المسيحيون يدخلون في حروب المسلمين بعضهم

(١) ذهب كثير من المؤرخين الى أن نظام الفروسية الذي كان معروفاً في اوربة في القرون الوسطى رشح الى الاوربيين من عرب الاندلس ولنجيب بك غالى من أفاضل المصريين الأقباط كتاب نفيس في هذا الموضوع معزز بالأدلة والشواهد

(٢) جاء في النفح : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشيهاً بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفراً الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في الحرم واثارت الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلائقة لاسترجاع معاقلم وحصونهم انتهى

مع بعض منحازين الى احدى الفئتين المتقاتلتين حسب مقتضى مصالحتهم ، وربما كان مع كل من الفئتين فئة من المسيحيين ؛ وكان الاساقفة بأنفسهم يخوضون غمرات هذه الحروب . وفي سنة ١٠٠٩ انضم المسيحيون في الفتنة التي وقعت في قرطبة الى احدى الفئتين ونصروها على الفئة الأخرى فاستعانت الفئة التي دارت عليها الدائرة بمسيحي كتلونية الذين زحفوا الى قلب الاندلس ، ولكنهم فقدوا في أثناء الحرب ثلاثة من اساقفتهم ورجلا من أبطالهم اسمه ارمانجو كونت إيرجل^(١)

(١) بعد وفاة عبد الملك المظفر بن المنصور قام بالأمر أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه ، في الجبر على الخليفة هشام الأموي والاستبداد والاستقلال بالملك دونه ، ثم بدله الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام أن يوليّه عهده ، ولما لم يكن لهشام أدنى ارادة معه أجابه الى ما طلب وأحضرهوا لذلك الملاء من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى عبد الرحمن بن المنصور بولي العهد

وكانت هذه هي الغلظة الكبرى التي بدأ بها انقراض دولة المنصور ودولة بني أمية ودولة الاسلام كلها في الأندلس لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين ، وبدأت به الحرب الأهلية التي شغلت المسلمين بعضهم ببعض وتركت الثغور عورة ، ووجدت ملوك الطوائف يقتتلون ليلاً ونهاراً بمشهد من عدو الامة .

وجاء في النفع ان أهل الدولة تقموا على عبد الرحمن (ولي العهد) ما فعله مما كان فيه حتفه وانقراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والقرشيون ، فغصوا بأمره وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرة الى اليمينية ، فاجتمعوا لشأنهم وتمشّت من بعض الى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ، في غزاة من صوائمه ببلاد الجلائقة ، ووثبوا بصاحب الشرطة بقرطبة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة ، وخلعوا هشاماً المؤيد الذي ولي عهده عبد الرحمن بن المنصور ، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدي بالله ، وطار الخبر الى عبد الرحمن بمكانه من الثغر فانقض جمعه وقتل الى الحضرة وقد تسلل عنه جنده ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي وأغروه بعد الرحمن لسوء سيرته فاعترضه من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدي . وذهبت دولة العامين كان لم تكن

والحاصل أن مسلمي أسبانية كانوا قد أخذوا ينكصون وتنحصر أجنحتهم ولم يبق أدنى خطر منهم على فرنسة ، وأخذت هذه المملكة تتقوى وتتقدم الى الأمام .

قال : وكان رؤساء البربر وزناتة قد لحقوا بالمهدى الخليفة الجديد لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن ، إلا أن الامويين كانوا حاقدين عليهم لما كان من مظاهرتهم للعامريين ، فلم يلبثوا أن سخطتهم القلوب وخزرتهم العيون ونهبت العامة دورهم وشكوا أمرهم الى المهدى فلم تنفع شكواهم ، فتمشت رجالاتهم وأسروا نحوهم ، وبايعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك وثار بهم السواد الأعظم وأزعجهم عن المدينة ، وتقصبوا على هشام وأخيه أبي بكر وأحضر وهما بين يدي المهدى ، وضربت أعناقهما

وفر سليمان ابن أخيهم واجتمع في البربر في ظاهر قرطبة ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى طليطلة فاستجاشوا بالنصارى ، وزحف ابن اذفونش في جيش انضم الى البربر ووصلوا الى قرطبة وهزموا المهدى ومن معه ، وقتل في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفاً . ودخل المستعين قرطبة ختام سنة أربعمائة ، ولحق المهدى بطليطلة واستجاش هو أيضاً بابن اذفونش فزحف معه الى قرطبة وهزموا المستعين والبربر أصحابهم ، ودخل المهدى قرطبة وملكها ثانية وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدى ومعه ابن اذفونش لقتالهم فكروا عليهم وانهزم المهدى وابن اذفونش ومن معهما من المسلمين والنصارى ، ودخل المستعين قرطبة ثانية مرة ، ولكنه لم يدخلها هذه المرة خليفة بل اخرج هشاماً الخليفة القديم وبايع له وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك يحسم الفتنة ، وقام أهل قرطبة وأغروا أهل القصر بالمهدى وقتلوه ، ظناً بأن قتله يحسم النزاع ، وصار هشام هو الخليفة ، وقام واضح العامري بحجابته . فعند ذلك بعث المستعين الى النصارى يستعديهم لمظاهرتهم فبعث اليهم الخليفة هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن يسلموا اليهم الحصون والقلاع التي كان المنصور قد افتتحها من بلادهم وهكذا وقف الاذفونش عن مساعدة المستعين . ولكن المستعين والبربر تغلبوا على أهل قرطبة ودخلوها عنوة ونهبوها وأنزلوا المرات في أهلها ، وتولى البربر الأعمال واستقلوا بالبلاد مثل باديس بن حيوس في غرناطة ، والبرزلى في قرمونة والغرنى في روندة ، وهزرون في شريش .

وافترق شمل الجماعة بالأندلس وسقطت هيئة الخلافة وبدأ دور الانحطاط بخمس دول صغيرة كبنى عباد باشبيلية ، وبنى الافطس ببطليوس . وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى هود بسرقسطة ، وابن أنى عامر ببلنسية ، ومجاهد العامري بدانية والجزائر . انتهى نقلا عن نفع الطيب

وسنة ٩٨٧ انتقل الملك الى آل كابت Gabet فكانوا أجدر به من التأخيرين من سلالة شارلمان ، ثم تنصر النورمنديون وصاروا عاملاً عظيماً من عوامل

وقال ابن عذارى في كتابه « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » ان عبد الملك المظفر بن المنصور عند وفاة أبيه كتب الى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة ، فاستوثق له الأمر ولم يرد أحد طاعته ، واجتمع الناس على حبه . وكان مع غلبة النبذ عليه واستغراقه في لذاته مراقباً لربه باكياً على ذنبه . وكان من فرط الحياء مع الشجاعة في غاية بعيدة . وله في بلاد الروم آثار عظيمة ، غزا سبع غزوات في مدته وفي السابعة توفي ، قيل مات مسموماً وقيل مات من علة الذبحة . وكان موته بمنزل أم هاني بمقربة من أرملاط لاربع خلون من صفر سنة ٣٩٩ فكانت مدته في الملك ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكانت أول غزواته الى بلاد الافرنج سنة ٣٩٣ ودوخ بسائط برشلونة وفتح حصن ممصر عنوة وأسكنه المسلمين

وقال ابن عذارى انه لما ذهب عبد الملك الى مدينة سالم وإفاه هنالك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومئذ اذفونش بن اردن المعروف بابن البربرية ، ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجة بن غرسية زعيم الجلائقة وصاحب قشتالة وألبه ، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك على ماتضمنه شرط سلمهم المتعقد صدر هذه الدولة ، وافين بالعهد حافظين للحرمة ، فأحسن عبد الملك قبولهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الشفير الاعلى . قال تقلا عن حيان بن خلف انه في غزاته لأرض برشلونة افتتح ستة حصون . ولكن الحصون التي دمرها للعدو خمسة وثمانون حصناً .

قال : وفي سنة ٣٩٥ غزا جليقية ، وكان مظفراً ، وسنة ٣٩٦ غزا بنبلونة وسار الى سرقسطة ثم الى وشقة ثم الى بربشتر ، ومنها دخل أرض العدو ودمرها تدميراً ، وسنة ٣٩٧ غزا بلاد قشتالة من عمل الطاغية شانجة بن غرسية بن فرلند ، وهى غزاة قلوينة الخامسة من غزواته المعروفة بغزاة النصر التي لقي فيها شانجة بجميع النصارية على اختلافها ، فهزمه عبد الملك هزيمة عظيمة ، رزق الله المسلمين فيها النصر المبين . وعلى أثرها تسمى عبد الملك بالمظفر ، وصدر له بذلك منشور من الخليفة هشام ، وأضاف الى لقب المظفر لقب سيف الدولة . وسنة ٣٩٨ غزا عبد الملك بالشانية ، وهى السادسة من غزواته ، واحتل شنت مرتين . ثم غزا غزاته السابعة سنة ٣٩٨ وقال فيها تقلا عن ابن حيان : ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الاسلام ومؤذنتها بما جرى عليه بعد من الاثلام ، علته الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه اليها سنة ثمان وتسعين ، محتفلاً لقصدهو الله شانجة بن غرسية بن فرلند ، فصدته عن الدخول اليه بجموع المسلمين واشتدت به

القوة النصرانية وسكنوا وركنوا وتركوا العيث والدعارة . وكذلك تنصر البحار وأصبحت أوربة كلها مسيحية . وفي ذلك الوقت بدأت الناس تطالب الملوك بحقوقها وتنبهت الجماعات وناقشت السلطة الحساب وتأسس ما يسمى بالحرية البلدية مما أدى في آخر الأمر تدريجاً الى الحالة الاجتماعية التي جعلت أوربة في مقدمة العالم المتمدن ، واورق من ذلك الوقت غصنها واخضر رعيها وأفلح سعيها . على أن سواحل فرنسا لم تسلم من غارات المسلمين الى ما بعد ذلك بمدة طويلة ففي سنة ١٠٠٣ نزل مسلمون اندلسيون في أرض أنطيب أو عين الطيب Antibes وأخذوا بعض رهبان أسرى وفي سنة ١٠١٩ غزا منهم أناس مدينة أربونة فاجتمع عليهم الأهالي وكشفوهم ثم قتلوهم وأسروا منهم عشرين رجلاً كانوا في غاية الطول والعظم ، فأسلوهم الى دير سان

مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الاسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده . ونقصت من حفيل عدده ، ورام مع ذلك كله الاتحام على أعداء الله في حل تقووه طمعاً في اتمام غزوه فكانت آخر صائفة نفذت من الحضرة ، اذ هلك عبد الملك والقت بركها الفتنة

قال : لما دفن المظفر رحمه الله تأهب أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول (اسم غلب عليه من قبل امه بنت شانجة النصراني الملك تذكر أنها لاسم أبيها فكانت تدعوه في صغره بشنجول وكان أشبه الناس بجده شانجه) فنظر في الأمور نظراً غير سديد وأنفق الأموال في غير وجهها ، ثم لما مضى لوقته شهر ونصف فصنع للخليفة هشام بن الحكم ، وطلب منه أن يوليئه العهد من بعده ، وأن يتسمى بولي عهد المسلمين . ففعل ذلك هشام لضعفه وسوء نظره وتقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان ذلك سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن ، لما تبين لهم من سخف عقله وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه دون غزاة ولا نصره في حرب

وقد شرح ابن عذارى فتنة قرطبة التي أدت الى انهيار الاسلام في الاندلس مع أسبابها وتفصيلها بما لم يشرحه مؤرخ قبله ولا بعده . وسنأتى على ذلك في الأجزاء التالية . وقد ذكر في عرض كلامه على استجاشة مسلمي قرطبة بالاسبانيول بعضهم على بعض أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال قولاً نال منه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكلمه أحد بكلمة ، فقال رجل من المسلمين غيره للنبي : ألا تتكبرون ما تسمعون أما أنتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة : امض لشغلك . وكان الافرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة قالوا قولاً لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء انتهى

مارسيل في ليوج ، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين و فرق الباقين على أحجابه . وجاء في مجموعة الدون بوكه خبر يفيد أن هؤلاء لم تكن لغتهم عربية .

وفي سنة ١٠٤٧ نزل مسلمون أندلسيون في جزيرة لارين ^(١) Lerins واستاقوا عدداً من الرهبان أسرى فذهب رئيس دير سان فكتور في مرسيلية الى الأندلس لافتكاكهم . وكان بعض امراء الأندلس شرعوا يشنون الغارات البحرية على بلدان المسيحيين واشهر هؤلاء مجاهد العامرى الذى استولى على دانية وجزر الباليار والافرنج يسمونه موجيت Mujet أو موزكتوس Musectus وكان اسمه يلقى الرعب في سكان كورسكة وسردانية ويزة وجنوه . وبقيت غارات المسلمين على سواحل فرنسة تتوالى ولا تغيب طويلا الى أن اشتدت قوة فرنسة البحرية ولم تنته تماماً الا بفتح فرنسة لجزائر الغرب ^(٢) وكانت مدينة ماغلون مقصداً لغزاة المسلمين حتى أطلق عليها لقب بورسارازين Port - Sarrazin ومن هذا القيل مدينة مارتيج عند مصاب نهر الرون التى فيها ابنية يقال انها من أيام العرب ومثلها جزر هييار Hyeres التى قبالة ساحل الفار وقد جاء في احصاء لمقاطعة مصاب الرون بقلم المسيو تولوزان انه وجدت أوراق قديمة في مارتيج تتعلق باقامة المسلمين في تلك البلاد وكذلك وجدت أوراق قديمة في فوس يظهر منها أن المسلمين سكنوا في جزائر هييار المارة الذكر . على أن المسلمين بدأوا بالتقهقر البحرى في أواسط القرن الحادى عشر ، ففي سنة ٩٦١ كان الروم استردوا جزيرة اقريطش ، وفي سنة ١٠٥٠ أجلى المسلمون عن جنوبي ايطالية وفقدوا ملكهم في صقلية ، وتجاوز المسيحيون البحر ونزلوا في بعض سواحل افريقية حيث خفقت لهم أعلام مدة طويلة ، ثم لم يلبث الاسبانيول أن استرجعوا طليطلة وقرطبة واشبيلية وغيرها . ثم زحف من أوربة الى آسيا الصليبيون بجيوش لاتحصى فوقفوا المسلمين عند حدودهم بل غزؤهم في عقر دارهم وفقد المسلمون كل أمل في

(١) أمام سواحل فرنسة الجنوبية عدة جزر بهذا الاسم أشهرها سانت مارغريت وسان اونورا

(٢) ان هذا الفتح وقع قبل نشر رينو كتابه بخمس سنوات

التجاوز على فرنسا والجنوب الغربى من أوربة . وفى سنة ٩٦٠ كان الكاتب العربى ابن حوقل يصف مسلمى الأندلس بالجن والطيش وقصد الصلابة والحزم . وكذلك ابن سعيد الذى كان يكتب فى القرن الثانى عشر قد تعجب كيف أن المسيحيين لم يطردوا مسلمى الأندلس تماماً فى ذلك الوقت ^(١)

(١) قال ابن حوقل فى المسالك والممالك : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والتمر والرخص والسعة فى الاحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، الى أسباب التملك الفاشية فى أكثرهم ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك أهل منهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم بقلة شغلهم وسقوط تكلفه بشىء يحذرهم وحال يخافه ، اذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقيل منه على كثرته ان سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضربيتها فى كل سنة مائتا الف دينار ، يكون عن صرف سبعة عشر دينار ثلاثة آلاف الف درهم وأربعمائة الف درهم . هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجه وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق

ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم وتقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال انتهى

وجاء فى المسالك والممالك لابن حوقل عند الكلام على بحر الروم ما يؤيد قول رينو من ادبار أمر المسلمين منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، وذهاب ما كان فيهم من حماسة فى القرون الثلاثة الاولى ، واستيلاء الرخاوة عليهم حتى أصبحوا لا يمنعون ذمارهم ولا يقدر أن يحموا جارهم

قال ابن حوقل : وليس فى البحار أعمر حاشية من هذا البحر ، لأن العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة ولا ممتنعة وسائر البحار تعترض فى شطوطها المفاوز والمقاطع . وقد ألح الروم فى وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحلها بالغارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غياث لهم ولا ناصر ، والمملك فيهم حقير ذليل وهو جامم مانع والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتى بالتأويل على ما يختار ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والتاجر فاجر لا يعاف حراماً ولا مطمعاً ، والزاهد ذئب أدرع فى كل بلية يشرع وبكل ريح يقلع ، فالتغور والجزائر الى الأعداء مسلمة ، والأرض الى الله من أربابها مظلمة انتهى

ومما يدل على ما وقع في نفوس المسلمين من هذه الجهة الشاهدان الآتيان : روى مؤرخو العرب أنه لما قتل موسى بن نصير إلى الشام بعد فتحه الأندلس ، سألته الخليفة عن الشعوب المختلفة التي مارسها ، فأجابه ان الافرنج فيهم العدد والشدة والاقدام والثبات . ويستغرب أن يكون موسى بن نصير وصف الافرنج بهذا الوصف وهو لم يباشر معهم حرباً . وعلى فرض أنه وصل إلى جنوبي فرنسة كما يزعم مؤرخو العرب ، فانه لم يكن قد لقي الافرنج بل لقي القوط الذين كانوا أصحاب الحكم في البلاد الجنوبية من فرنسة ولكن مسلمي الاندلس عندما تلاقوا مع رجال شارل مارتل وشارلمان علموا من هم الافرنج في صلابة العود وعلموا من هم الفرنسيين في حب المجد والاقدام على الأخطار . وقد روى المؤرخ الاسبانيون كوندى كلام موسى ابن نصير هذا وأضاف إليه بزعمه قول موسى ان الافرنج اذا انهزموا فليسوا بشيء^(١)

قلت : كان هذا كلام ابن حوقل في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة مما يدل على ان المرض قديم . وانه لاعجب اذا آلت الحال إلى ما آلت إليه فيما بعد . لكن المسلمين هبت لهم ريح في القرن التاسع للهجرة وعاد بحر الروم كما بدا تحت سلطتهم وذلك في أيام السلطان سليمان العثماني وخير الدين بربروس وعمال السلطان على جزائر الغرب وبقيت لهم تلك الصولة مدة طويلة إلى أن انتهكت حبلها في القرون الأخيرة . وما زالت الأيام مداً وجزراً منذ خلق الله العالم

(١) قلت : ان كلام مؤرخي العرب عن الافرنج هو أنهم مع شجاعتهم أقل صبراً في الحروب من الجلائقة ، أي من الاسبانيون سكان شمالي اسبانية ، قال ابن حوقل : وتغور الجلائقة ماردة ونقزها ووادي الحجارة وطليطلة ومدينة الجلائقة مما يلي تغور الاندلس يقال لها سمورة وعظيم الجلائقة بمدينة يقال لها ليون فيها سلطانهم وعدتهم بعد سمورة ومدينة لهم يقال لها أوبيط (Oviedo) وهي بعيدة عن بلد الاسلام وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنج ، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم قليلة ، وفيهم اذا ملكوا طاعة وحسن نصيحة ومحاسن كثيرة ، واليهي يرغب أهل الأندلس عن الجلائقة ، والجلائقة أصدق محاسن وأقل طاعة وأشد قوة وأكثر بأساً وبسالة ، وفيهم غدر ، وهم في عرض طريق الافرنج انتهي وجاء في صبح الأعشى عن الجلائقة انهم امة يغلب عليهم الجهل والجفاء ، ومن زبهم أنهم لا يغسلون ثيابهم بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى ، ويدخل أحدهم دار غيره بغير اذن . وهم أشد من الفرنج

والشاهد الآخر هو ما يرويه العرب من وجود كتابة منقوشة على تمثال في مدينة أربونة معناها : يا أولاد اسماعيل لا تتجاوزوا هذا المكان فانكم ان تجاوزتموه ولم ترجعوا على أعقابكم هلكتم . هكذا روى المقرئ في نفح الطيب في النسخة الخطية التي في المكتبة الملوكية ^(١)

ثم ذكر القلقشندي مدينة سموره وقال انها قاعدة جليقية وقال : ان المسلمين كانوا ملكوها ثم استرجعها الجلائقة زمن الفتنة ، أى زمن فتنة شنجول العامري الذي باعتدائه على الخلافة مع عدم أهليته الشخصية جر على الاسلام من الفرقة ما انتهى أخيراً بضباع الأندلس (١) الذي وجدناه في نفح الطيب للمقرئ هو هذا : وقيل انه أوغل (يعنى موسى بن نصير) في أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هي : يا بني اسماعيل انتهيت فارجعوا . فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعني كبير فشاور أصحابه في الاعراض عنه ، وجوازه إلى ما وراءه . فاختلفوا عليه فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية انتهى قلت : وقد تقدم هذا الخبر وهو أشبه بالاساطير

القسم الرابع

الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التي ترتبت عليها

مرادنا أن ننظر الى هذه الغارات العربية من حيث المجموع وأن نشير الى بعض حقائق لم يتسن لنا حتى الآن ان نتبسط فيها .
وكذلك نريد أن نذكر الشعوب المختلفة التي ضربت بأسهم مذكورة في هذه الغارات . ولا نزاع في أن النهضة الأولى قد كانت للعرب ، وأن جميع الغزوات الكبرى كان يرأسها قواد من هذه الأمة ، وان الاسم العربي هو الذي كان غالباً فيها ، وانه كان بمنزلة القطب من الرمح ، وان المراد بلفظة « سارازين » عند كتاب الاوربيين هو العرب لاغير .

فمن أين جاءت لفظة سارازين هذه ؟ الجواب جاءت من اللفظة اللاتينية « ساراسنوس » التي أصلها اللفظة اليونانية « سرا كنوس » وهذه اللفظة معروفة منذ القرون الأولى من التاريخ المسيحي ، والناس تقصد بها العرب الرحل الذين في جزيرة العرب وبين دجلة والفرات وسورية وبلاد العجم . قد ذهب الناس مذاهب شتى في مأخذ هذه اللفظة ، واكثر الآراء اتفقت على انها مشتقة من « شرقى » لاسيما ان بطليموس الجغرافى الفلكى اليونانى الذى كان بمصر يتكلم في جغرافيته عن شعب يقطن في بلاد جزائر الغرب يقال له مغاربة Machurebe فمن هنا ظهر انه أريد بكلمة « شرقيين » التي جاءت منها كلمة « سارا كينو » العرب الذين بقوا في آسية ، كما ان الذين جلوا منهم الى افريقية تسموا مغاربة وذلك كما هي الحال اليوم .

وقد ذهب بعض علماء المسيحيين في القرون الوسطى الى ان « سرازين » مشتقة من « سارة » بنت ابراهيم الخليل . وهذا غير وارد ، لأن سارة هي ام اسحق لا أم اسماعيل جد العرب .

ومن الأسماء التي يطلقها المسيحيون على العرب في القرون الوسطى الاسماعيلية (١)

(١) من الغريب أن لفظة اسماعيلية لم تتناول العرب وحدهم بل صارت تطلق فيما بعد على جميع المسلمين . وقد كان في بلاد المجر طائفة من المسلمين في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح انقرضت الآن وكان يقال لها الاسماعيلية ، وهذه الطائفة معروفة في تاريخ المجر ويظهر انه لقلة عددها أخذت تذوب تدريجاً في سواد الامة المجرية ، كما ان بعض ملوك المجر القدماء ضيقوا على هؤلاء المسلمين مراراً ليحملوهم على النصرانية وهكذا تلاشوا من هناك .

وقد ذكر ياقوت الحموي هذه الطائفة في معجم البلدان تحت لفظة باشغرت فقال : وأما أنا فاني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغوردية شقر الشعور والوجوه جداً يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه فسألت رجلاً منهم استعقلته ، عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج . يقال لهم الهنكر ، ونحن مسلمون رعية للملكهم في طرف من بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نعصى عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة وقبلينا بلاد البابا وفي غربيها الأندلس وفي شرقيها بلاد الروم قسطنطينية وأعمالها . قال : ولساننا لسان الافرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ونغزو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاتلون الا مخالفي الاسلام . فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلفقوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدورنا للايمان ، ونحن تقدم الى هذه البلاد ونتفقه ، فاذا رجعنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألته لم تخلقون لحاكم كما تفعل الافرنج ؟ فقال : يخلقها منا المتجددون ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج أما غيرهم فلا . قلت : فكيف مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك انتهى .

قلت : ان قوله الافرنج مبنى على كون الشرقيين يسمون جميع نصارى اوربة افرنجية ، والا فالمجار ليسوا من الافرنج في شيء . ثم اتى قد سأل علماء التاريخ من المجر عن قضية هؤلاء المسلمين

اي ابناء اسماعيل ، وهذه هي نسبة موافقة للواقع ، لأن قسماً كبيراً من قبائل العرب متسلسل من اسماعيل ، ومحمد من هذه السلالة ولكن العرب لا يعترفون بأن اسماعيل كان ابن أمة وان اسحق يمتاز عليه ، وهم ينسبون الى اسماعيل كل ماورد في التوراة عن اسحق . ومما استعملوه في القرون الوسطى من الأسماء التي كانت تطلق على العرب لفظة « هجارنة » أى سلالة هاجر . وهذا الاصطلاح ، أى هجارنة ، مجهول عند العرب . ثم ان أعظم شعب اشترك مع العرب في هذه الغزوات هو الشعب

الذين وجدوا في بلادهم في القرن السابع للهجرة ، فأجابني الجنرال « تيودور كلوك » معلم التاريخ في جامعة بودابست بما خلاصته : انه كان يوجد مسلمون أصلهم من البغار في بلاد المجار عاشوا في أيام الملوك المجار من عائلة اربارد من سنة ٨٩٦ للمسيح الى سنة ١٣٠١ وكان يقال لهم الاسماعيلية . وكانوا في القرن الحادى عشر يعيشون جماعات في جنوبى بلاد المجار ، وكان منهم حراس لقلعة بست ، وكان منهم في القرن الثالث عشر لافي مدينة بست فقط بل في جميع هكاريما ، وكان أكثرهم من طبقة التجار . وفي سنة ١٠٧٧ صدر أمر الملك « لاديسلاوس » بتنصير الاسماعيلية ، ولكن بقى منهم كثيرون في الباطن على دين آبائهم . وفي سنة ١٠٩٥ صدر أمر الملك « كولومان » بأن لا يكون في القرية من الاسماعيلية أكثر من النصف ، وبأن يزوجوا بناتهم من المسيحيين . وفي أيام الملوك الذين بعده كان الاسماعيلية يؤثرون الخدمة العسكرية . وكان الملك غيزه الرابع أرسل الى الامبراطور الالماني « فردريك بربروسة » سنة ١١٦١ جيشاً لمعونه فيه خمسمائة من الاسماعيلية المذكورين . وفي سنة ١٢٢٦ للمسيح كان اجتماع ياقوت الحموى بأناس من هؤلاء الاسماعيلية في مدينة حلب . وفي سنة ١٢٢٢ وقع اضطهاد على الاسماعيلية واليهود . وفي المدة التي بين سنة ١٢٣٥ وسنة ١٢٧٠ كان الاسماعيلية صيارف يقرضون ملك المجار أموالاً . وما زالوا الى سنة ١٢٤٢ معروفين كمسلمين . ومن ذاك الوقت أخذوا يندمجون في الشعب المجرى . وفي سنة ١٢٦٦ كان لايزال منهم قرية اسمها تمركني Temerkeny وفي زمان لورفيك الكبير كان لايزال بعض عائلات مسلمة من بقايا الاسماعيلية

وسنذكر شيئاً أوسع من هذا عن الاسماعيلية (أى مسلمى المجار) في رحلتنا الى بلاد المجر وبوسنة . وانما كان مرادنا هنا أن نذكر كون الافرنج لا يقتصرون على العرب بلقب اسماعيلية بل قد يعنون بذلك كل المسلمين من عرب وعجم فانه مما لاشك فيه أن المسلمين الذين كانوا في بلاد المجار لم يكونوا عرباً بل كانوا من المجار أو الباشقرد وعلى كل حال من أصل تتارى

السكان في جبل الأطلس ونواحيه المنتشر من مصر الى الأوقيانوس الاطلنطيكي .
ومن البحر المتوسط الى السودان ، والذي يقال له البربر . يعرفهم الانسان بلونهم
النحاسي وانوفهم الحادة وشفاهم الرقيقة ووجوههم المستديرة . والمظنون ان هذه الأقسام
التي يقال لها البرابر قد وجدت في افريقية قبل أن وجد الفينيقيون في قرطجنة . وهم
من قديم الزمان معتصمون بجبالهم لا يخضعون لسلطة أجنبية . وكان اليونان
والرومان يقولون عنهم البرابرة فبقى عليهم اسم بربر الى الآن . وقد اندمج هؤلاء
البربر مع غيرهم من الافريقيين ومع بقايا الشعب القرطجني وبقايا الرومان والفاندال ،
وتألف منهم شعب واحد يقال له الشعب المغربي Maure أو الشعب الافريقي
Afri ou Afrecaia

وقد كان بين الأقسام الذين اشتركوا مع العرب في غزو فرنسة من هم من سلالة
جرمانية أو صقلبية . وذلك أنه في القرنين الرابع والخامس للمسيح تقدم أسلاف الذين
كانوا ساكنين في شمالي البحر الأسود ونهر الدانوب ، زاحفين الى قلب أوربة وإلى
جنوبها ، بأسماء مختلفة ، كصقالبة وخرواطيين وسريين ومورافيين وبوهيميين وتديروا
بولونية وبوهيمية وسربية ودالماسية ، وقسما من بلاد اليونان . وكانوا في أثناء زحفهم
يقتتلون مع الأمم السكسونية والأمم الهونية التي منها المجر . وكان الفريقان في حروب
دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ، لأن ممالك هؤلاء كانت دائما عرضة لغارات
هؤلاء البرابرة . ولم تنقطع هذه الحروب المصطامة الا بعد أن دخل الجرمانيون
والسلاف في النصرانية . وقد كان البرابرة المذكورون يستعملون الأسرى الذين
يقعون في أيديهم كالحیوانات بلا فرق ، وكان أهالي هولندة يبيعون أسراهم كالعبيد ،
وانتشرت هذه العادة في فرنسة والبلاد المجاورة لها ، ولم تنقطع الا بعد أن دخل
هؤلاء البرابرة في النصرانية ^(١) وتهذبوا

(١) استشهد رينو على مسألة الرقيق وبيعه في أوربة بمجموعة الدون بوكه وبجغرافية ابن حوقل
وبالمقرى . وقد رأينا أن نقل عبارة ابن حوقل عن « المسالك والممالك » قال : وبالأندلس سلاع

ومن المعلوم أن تجارة الرقيق امتدت جداً بعد أن افتتح المسلمون الشام ومصر
وافريقية والأندلس ، لأن العرب كانوا يعرفون الرق ويحملون عبيدهم على جميع
الأشغال اليدوية وعلى الحرث والزرع ، أما في الشرع الاسلامي فالرقيق لا يهان أصلاً ،
وكل عبد تظهر كفايته في شغل من الأشغال يقدر أن يرقى إلى ما يرقى اليه الحر بدون فرق
وكان التجار يذهبون الى بلاد الجرمانيين والسلاف وأحياناً الى نواحي بحر الادرياتيک
والبحر الأسود ويأتون بأصناف الرقيق . ولم يزل أهالي القوقاس يبيعون من أولادهم
الى اليوم ، فكانت هذه الشعوب تتبع من أولادها الى التجار ، وكان يأتي منهم قسم
الى فرنسا لا بالبيع والشراء بل بواسطة السبي في الحروب .

ولما كان المسلمون غيراً في قضية الحريم صاروا يخصون هؤلاء العبيد ليكنهم
استخدامهم في داخل الأحاريم بدون خوف فتنة . وهكذا تولدت في فرنسا مهنة

كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبي افرنجية وجليقية
والخدم الصقلية وجميع من على وجه الأرض من الصقلية الحصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها
يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسبي الى خراسان من الصقلية
باق على حالته ومقر على صورته ، وذلك ان بلد الصقلية طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر
الروم ممتداً على القسطنطينية وأترا بزونده يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه
الخراسانيون والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وافرنجية وانكبيردة (لونبارديه
وتوابعا) وقلورية (كالابره) وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله انتهى

وأما في نقح الطيب فيقول عن الاسبانيول انهم : يحاربون بالافق الشرقي امة يقال لهم الفرنجة ،
هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه ، اذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد واسعة جليلة متصلة العارة أهلة
تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين وأشد بأساً وأعظم امداداً يحاربون أمة
الصقلية المتصلين بأرضهم لخالفتهم اياهم في الديانة ، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلم
هنالك كثرة وتخصيصهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل
خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد . وقد تعلم الحصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون
ويستحلون المثلة . انتهى

قلت : والحصاء ممنوع شرعاً

جديدة هي مهنة الخصى ، وتأسس لذلك معمل كبير في فاردون Verdun في بلاد اللورين .

وكان الصبيان الذين ينجون من خطر هذه العملية القاسية يباعون في أسواق الأندلس بآثمان عالية . وكانوا يتهادون الحصيان من الصقالبة كما يتهادون الخيل أو الحلي الثمينة .

وقد روى أحد كتاب العرب أنه في سنة ٩٦٦ أراد أمراء كتلونية من الافرنج أن يتزلفوا الى خليفة قرطبة فقدموا له هدايا من جملتها عشرون خصياً صقلياً . والعرب يصفون جميع الرقيق الجرمانى والصقلى والسلافي بلفظة صقلى Saclabi ونظن أنه من هذه اللفظة جاءت كلمة اسكلاف Esclaf بمعنى عبد . وكان أكثر حرس خلفاء قرطبة وأمراء الأندلس من الصقالبة . وكان منهم كثير في صقلية ، ولهم في مدينة بلرم حارة منسوبة اليهم . وكان منهم عدد كبير في افريقية . وقد يصل الصقالبة الى أعلى المناصب ، ولذلك لا يمكنك أن تقرأ تاريخاً لدولة عربية ليس فيه ذكر للصقالبة ، اذ بدون ذلك يكون التاريخ مغلقاً لا يتحصل فهمه . (١)

ولم يكن بين العرب والبربر أناس من شمالى أوربة ومن أصل وثنى فقط ، بل وجد لهم أنصار ويا للخجل قد ولدوا في حجر النصرانية ، من أهل ايطالية وأهل فرنسة . وقد كان اليهود يستثمرون بؤس الأهالي ويشترون الأولاد من ذكور وإناث ويأتون بهم الى مراسى البحر حيث كانت ترد سفن اليونان والبنادقة وتحملهم الى بلاد الاسلام . وكانت هذه التجارة القبيحة قد وصلت الى قلب عاصمة النصرانية . وقد جاء في مجموعة موارد ثورى أنه في سنة ٧٥٠ اضطر البابا زخريا أن يشتري بماله من أيدي البنادقة عدداً كبيراً من الأولاد ذكورا وإناثا كانوا يريدون الخروج بهم من رومة ثم ان البابا الذي خلف زخريا اضطر أن يحرق مراكب كثيرة لليونان آتية لحمل

(١) لو اردنا التعرض لموضوع الصقالبة ومن نبغ منهم في الاسلام ومن وصلوا الى الدرجات العلى لطال الأمر جداً وقد يستحق ذلك تاريخاً مستقلاً

الرقيق . وقد جاء في تاريخ الصليبيين للمسيو ميشو أن هذه التجارة كانت جارية في أوربة حتى القرن الثالث عشر ، ولكن بشيء من الاحتياط . وكان أسارى المسيحيين والسبي منهم يستخدمون في جيوش المسلمين . وكان السبي من أعظم مقاصد هؤلاء في الغزو ، فكلما حصلت معركة رأيت أسواق الأندلس وافريقية غاصة بالأسرى المسيحيين ، فأما الأطفال والاولاد فكانوا يربون في الاسلام وفي اللغة العربية ، وكانوا لا يقدرّون أن يرتدوا عن الاسلام اذا بلغوا . وأما الأرقاء الذين بلغوا سن الرشد فلم يكونوا يجبرون على الاسلام لانه جاء في القرآن « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » على أن كثيراً من المسيحيين البالغين كانوا يخدمون في جيوش المسلمين عن طيب خاطر

وأضف الى هؤلاء قسماً من أهالي البلاد التي افتتحها المسلمون ، فان العرب والبربر عندما افتتحوا الاندلس وجدوا أعواناً لا يحصى عددهم من المسيحيين واليهود ، ولما لم يكن جيش العرب كافياً لحفظ جميع هذه الفتوحات كانوا كلما دخلوا بلدة عهدوا إلى اليهود بمحاربتها^(١) ولما دخل العرب إلى أرض فرنسة وما جاورها من البلاد لم يخل الامر من أنهم وجدوا من أهل البلاد رجلاً ممن لا يعرفون الحمية الدينية ولا الوطنية، وممن دأبهم أن يستفيدوا من المصائب العامة ، فمشوا بين أيدي العرب في غزواتهم وفتوحهم وخطبوا في جبالهم . ولقد رأينا كيف أن « مورونت » دوق مرسيلية وغيره من سادة البلاد تماثلوا مع العرب على أبناء بلادهم . فاذا كان هذا شأن الكبار فما ظنك بالصغار ؟ ولا شك أن العرب في فتوحاتهم في مقاطعات دوفيني وببيمونت وسفواى وسويسرة كانوا قد وجدوا من الاهالي أعضاء دأبهم سرراً وعلناً، وكان مؤرخو

(١) جاء في نقح الطيب ان مغيثاً مولى الوليد بن عبد الملك جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وقال : انهم لما فتحوا غرناطة ضموا اليهود الى قصبها وصار ذلك لهم شحنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويمضى معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين الخلفين لحفظ ما فتح . انتهى

ذلك العصر لا يصرحون بذلك حياء ، ويجترئون بالاشارة الى خيانة بعض المسيحيين . ولكن الحقيقة أنه لولا تلك الخيانة لم يكن المسلمون ليستقروا في تلك البلاد القاصية المنقطعة عن أوطانهم الاصلية ، وهم في قلة من العدد ، في زمن كانت فيه المواصلات غير ما هي الآن .

نعم ان العرب كانوا يجدون من أهالي البلاد رداءً لهم ، وقد رأينا في تاريخ دير نوفاليس كيف أن المسلمين قاتلوا الاهالي بقرب فرسل Verceil وتغلبوا عليهم وساقوا عدداً منهم أسرى ثم دخلوا المدينة وعرضوا الاسرى للبيع ، كما تعرض السلع ، وصار كل من أراد يدفع في الاسير ثمناً الى آخر القصة .

أما من جهة اليهود وسياستهم في جنوبي فرنسة ، لذلك العهد ، فقد قرأنا في سيرة القديس تيودار Theodard رئيس أساقفة اربونة انه لما دخل المسلمون بلاد اللانغدوق انحاز اليهود اليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طلوze ، وان شارلمان - تأدياً لليهود على خيانتهم - أمر بأنه كل سنة في الأعياد الكبرى الثلاثة يؤتي يهودى ويصفع على باب الكنيسة العظمى . وقد بقيت هذه العادة مدة طويلة ثم تبدلوا بها دفع مبلغ من الدراهم . ولنا اعتراض على هذه الرواية من جهة أن العرب لم يدخلوا طلوze فعلاً فلعل هذه الحادثة وقعت في فتح مدينة أخرى . واذا تركنا قضية أنساب الغزاة ورجعنا الى لغاتهم فاننا نجد أنهم لم يكونوا بأجمعهم يتكلمون بالعربية ، فقد روى ابن القوطية أن بعضهم كان يتكلم بالبربرية ، وانه سنة ١٠١٩ عندما غزا المسلمون اربونة كان الغزاة ذلك اليوم من الذين لا يعرفون العربية ، وكذلك لم يكن جميع الغزاة مسلمين ، بل كان فيهم يهود ووثنيون وأحياناً مسيحيون . وقد كان في البربر عبدة أوثان ومجوس ، ولم يدخلوا جميعاً في الاسلام الا بعد فتح افريقية بمدة طويلة ^(١) . ومن الغريب أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يسمون غزاة العرب بالوثنيين ، مع

(١) ومن الغريب أنه في أخريات هذه الأيام قام أناس من الفرنسيس يريدون أن يثبتوا كون البربر ليسوا جميعاً بمسلمين . تقصد هذه الفتنة أن تأفك البربر عن الاسلام . فاللورخ المستشرق رينو يشهد كما ترى بأن البربر أسلموا قاطبة وان كانت هذه القضية لا تنفقر الى شهود

انه لا يوجد أبعد عن الوثنية من المسلمين ، ومن شدة توحيدهم للبارى تعالى يكرهون جميع شعائر الوثنية ويحرمون تصوير المخلوقات الحية ، نظير اليهود ، ولكن شدة حرمة المسلمين لمؤسس ديانتهم جعلت العوام في أوربة يعتقدون أن المسلمين يعبدونه ، كما أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يطلقون لقب وثني على كل من ليس مسيحياً وقد جاء في التاريخ المنسوب إلى المطران توربين Turbin أنه يوجد في اسبانية على شاطئ البحر تمثال من نحاس صنعه محمد نفسه وان المسلمين يسجدون له . وكذلك فيلومين Philomane في تاريخه لفتح شارلمان بلاد لانغدوق يتكلم عن تمثال لمحمد من الفضة المذهبة كان المسلمون في أربونة في أثناء استيلائهم عليها يعتقدون أنه ملجأ لهم . وكذلك جاء في رواية تمثيلية اسمها لعب القديس نقولا كان لها شهرة في القرون الوسطى أن أحد أمراء المسلمين في افريقية كان يعبد صنما اسمه ترفاغنت Tervagant وانه عند ما كان يحصل على مراده كان يغطي خدود الوثن بأوراق الذهب . ثم ان في قصيدة افرنسية تذكر وقائع رولان الشهير أن مسلمي سرقسطة كان عندهم مغارة جعلوها هيكلآ لآلهتهم ، وكان فيها تماثيل من ذهب كل تمثال في يده صولجان وعلى رأسه تاج ، وان المسلمين كانوا يجتمعون في تلك المغارة للعبادة ^(١)

وكان اسم « ترفاغنت » ينقلب أحياناً إلى ترماغنت وكان يرد معه اسم ابولين Apolin وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فتدور في أقاصيصنا القديمة ، مثل قصة

(١) بمثل هذه الخرافات خدع رجال الكنيسة أهل أوربة مدة تزيد على ألف سنة . ولم يكن العوام في القرون الوسطى وحدهم يصدقونهم بل كان أسيراً لهذه الأوهام أو لبعضها كثير من الخواص . ولا تزال الى ساعتنا هذه في أوربة برغم ترقيتها وانتشار المعارف فيها أوهام وأفكار مخلوطة عن المسلمين تضحك الشكلى نسمع منها وتقرأ كل يوم بل كل ساعة

وقد نقلنا عن المسيو درمنغهم الافرنسي في السيرة النبوية في الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامي هذه الأقوال المضحكة التي يهزأ بها رينو هنا . وقد شدد درمنغهم نفسه عليها التكثير ولكن رجال الكنائس لا يزالون الى يوم الناس هذا ينشئون أبناء ملهم في مثل هذه الترهات البسباس ويقلبون هم حقائق الاسلام عمداً تنفيراً لهم منه كما فعل سلفهم في القرون الوسطى

لا فيوكت (البنفسجة) التي نشرها فرنسيسك ميشال ، وزعموا أن هذه الأسماء هي أسماء آلهة اسلامية !

وقد بلغ من تعصب أجدادنا وتحاملهم على المسلمين أنه في الرواية المسماة بلعب القديس نيقولا كان يوجد تمثال لذلك القديس كانوا يسمونه محمداً باعتبار أن لمحمد تمثالا ، وأنهم كانوا يسمون هيكل الأوثان محمدياً Mohamarie فانظر الى غرابة تصاريف الأقدار ، وقابل بين هذه الخرافات وبين الحقيقة ، وتأمل كيف صنع محمود الفزنوى عندما غزا الهند سنة ١٠٢٥ م ، واستولى على صنم أصر على كسره ، وعرض عليه الهنود مقدار وزنه ذهباً فأبى إلا أن يكسره وأن يضعه على أسكفة باب المسجد في عاصمته ، حتى تدوسه الأقدام ^(١) . وليست هذه الحادثة فذة في بابها ، فتأمل في كتابنا المسمى « خلاصة التواريخ العربية عن الحروب الصليبية » تجد من أمثالها كثيراً ماذا كان السبب ياترى في ذهاب آبائنا في الوهم والخطأ الى هذا الحد ؟ الجواب ان بعض العلماء ذهبوا الى كون أسماء ترفاغت وابلين وما أشبه ذلك كانت آتية من بلاد النورماندين أهالي شمالي أوربة الذين كانوا يعبدون الأصنام ، فالعامة في أوربة خلطوهم بالمسلمين بزعمهم أن كل من ليسوا مسيحيين وثنيون ! وكذلك كان البربر الذين جاءوا مع العرب متمسكين ببعض شعائر وثنية كانوا يمارسونها ظنت العامة أن هذه الشعائر كان يمارسها العرب أيضاً . ولا يجوز أن ننسى انه في هذه الكتب التي تهم المسلمين بالوثنية وترغم هذا الزعم الغريب أنهم ينحتون تماثيل من حجر أو خشب أو معدن ويعبدونها وقد ورد أن المسلمين اذا وجدوا تلك التماثيل لم تنفعهم انقضوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذاً

على أن الاسم العربي والدين الاسلامي كانا هما السائدان في هذه الفتوحات الاسلامية في أوربة ، فليس عندنا شيء من الآثار عن البربر أو الصقالبة الذين كانوا مع العرب في مغازيهم . وكل ما عندنا عن هذه الفتوحات انما هو من رشحات أقلام العرب المسلمين .

(١) الصنم المذكور هو صنم سومانات وقصته شهيرة

أما أسباب هذه الفتوحات العربية ، والعلل الأصلية في اقتحام هذه الغمرات ، فهي متعددة ، فمنها ما يرجع الى حب الغنائم وكسب الأموال ، ومنها ذوق خاص بالضرب في الآفاق ، ومنها ما هو محض تجرد لنشر الدين الاسلامي ورجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله فان القرآن يحث على الجهاد في سبيل الله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) فالمسلمون الذين كانوا يقدرّون على حمل السلاح كانوا يجاهدون بأنفسهم ، والذين لم يكونوا قادرين على القتال كانوا يجاهدون بأموالهم . جاء في القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وكل مسلم يموت وهو يقاتل في سبيل الله فانه يموت شهيداً (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالمسلمون يسمون شهيداً كل من بذل دمه في سبيل الاسلام ، كما أن المسيحيين يسمون شهيداً كل من مات لأجل النصرانية .

ثم ان الشرع الاسلامي يفرض على المسلمين أن يدعوا غير المسلمين الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية ، وذلك قبل اعلان الجهاد ومباشرة الحرب ويجوز أن يكون قد حصل هذا الاعلان عند دخول العساكر الاسلامية الى فرنسة ولكن الأهالي لم يجيبوا دعوة الاسلام فاضطر أمراء المسلمين الى تجريد الحسام . وكان المسلمون في أوائل الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتنكبون القسي ، وكانوا كلهم متعممين ، ثم انهم بتغير الأوقات صاروا يتشبهون بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم ، ويلبسون الدروع ويعوضون في الزرد وطلما كانوا يقتنون سيوف مدينة « بوردو » لشهرتها في ذلك الوقت ، وتركت عساكرهم العمام و صاروا يلبسون على رءوسهم الكبة الهندية . وكان أمراء الفرنسيين في كتلونية أهدوا الخليفة عشر أذراع سلافية ومائة سيف افرنسي ، وأنعم الخليفة على حاجبه يوم توليته اياه الوزارة بمائة فارس افرنجي متقلدين السيوف والحارب غائصين في الحديد على رءوسهم الكمم الهندية . وبالاختصار كان المسلمون قد اقتدوا في شكّتهم وأعلامهم وسروج خيولهم بأوربة المسيحية . ولكن بدون شك

كانوا يسترجعون في التسليح جانب الخفة ، ويتجنبون السلاح الثقيل الذي كان يعول عليه الأوروبيون (١) .

أما الغنائم فكانت عبارة عن الحجارة النفيسة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات والأسرى والسبي . وكان السبي أفضل جزء من الغنائم . وكان الأمير يستأثر بالخمس بحسب الشريعة ، وينفقه في إعانة الفقراء وأبناء السبيل ، وكان الباقي يوزع على الجند . وللفارس ضعفاً مال للرجل . وكان يوجد دائماً في ساقة الجيش تجار يشترون كل ما يقع في أيديهم من صامت وناطق

أما الأسرى فليسوا كأسرى هذه الأيام ، فكان المسيحي إذا وقع أسيراً كبلوه وإذا انتهت قسمة الغنائم عرف الأسير ذلك الرجل المسلم الذي خرج هو في نصيبه فيصير

(١) جاء في الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب كاتب الأندلس الأكبر في وصف ملابس أهل الأندلس وأسلحتهم مايلي : وجندهم صنفان أندلسي وبربري والأندلسي منهم يقوده رئيس من القرابة (أى قرابة السلطان) أو حصي (الحصى الرجل العاقل) من شيوخ الممالك وزبهم في القديم شبه زى أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج من اسباغ الدروع وتعليق الترسه واتخاذ عراض الأسنة وقرابيس السروج واستركاب حملة الرايات كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهره يعرف بها ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا الى الجواشن المختصرة والبيض المرهفة والدرق العربية والسهام اللطيفة والاسل العظمية . (ثم قال) : والعائم ثقل في زى أهل هذه الحضرة الا ماشد في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربى منهم . انتهى . ولا يخفى أن لسان الدين كان يصف الأزياء في حضرة غرناطة في زمانه وهو القرن الثامن للهجرة

وجاء في نفح الطيب نقلا عن ابن سعيد في المغرب : وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمام لاسيما في شرق الأندلس فان أهل غربها لاتكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمدرسية حضرة السلطان في ذلك الأوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشبهه قد غلب على سواد شعره وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمه في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيت في جميع أحواله بيلاد الأندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الاندلس الآن في يده وكثيراً مايتري سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وأقيبتهم كأقيبتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم انتهى

له مملوكا يتصرف به كيف شاء ، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكاً لسيده ، ويتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويعود أولاده أيضاً أرقاء نظير والدهم . وإذا كان سيده غيوراً على الاسلام عرض على ذلك الأسير المسيحي اتخاذ الاسلام ديناً فإذا أسلم فقد يعتقه وان لم يعتقه افتكه بعض الصالحين ومحبي الخير من المسلمين ، لأن تحرير الرقاب هو من أفضل القربات عند المسلمين . وهو بعد تحريره يصير في المجتمع الاسلامي نظير سائر الأحرار ويبلغ من درجات العلاء ما يقسم له حظه ونصيبه ويطلق عليه اسم مولى وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معاً ، وهناك طبقة أخرى وهى طبقة العبيد الذين يعتقهم سادتهم ولكن على شرط أن يؤدوا الى سادتهم شيئاً معلوماً كل سنة (١) .

وان كان الأسير المستعبد أبى أن يتحول عن دينه الى الاسلام فقد كانوا يستعملونه فى حرت الأرض أو فى حمل الأثقال . وقد وجد مسيحيون كثيرون قبلوا الاسلام ، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم ، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة وكان يعول عليهم فى الحروب وقد كان منهم كثير فى الحرس الخاص للخلفاء والملوك لاسيما فى قرطبة . ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيداً بدون أمل فى

(١) الولاء هو حالة العبد بعد عتقه بالنسبة الى سيده ومن العبيد من يتفق مع سيده على أنه يعتقه ثم يأخذ العبد بدفع ثمنه نقسيماً ، ويسمى هذا العبد مكاتباً ، قال ابن الاثير : الكتابة أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجماً فإذا أداه صار حراً قال وسميت كتابة بمصدر كتب لانه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب مولاه له عليه العتق . وقد كاتبه مكاتبه والعبد مكاتب . قال : وانما خص العبد بالمفعول لان أصل المكاتبه من المولى وهو الذى يكتب عبده . قال ابن سيده : كاتبت العبد أعطاني ثمنه على أن أعتقه ، وفى التنزيل العزيز « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم ان علمتم فيهم خيراً » معنى الكتاب والمكاتبه أن يكتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه أنه اذا أدى نجومه فى كل نجم كذا فهو حر ، فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه

الحرية ، بل كان أمراء المسلمين وأغنيائهم ممن يصير اليهم بعض هؤلاء الأسرى اذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقا أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فحرروا من عندهم من الأسرى سنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر في واقعة كبيرة في افريقية فشكراً لله تعالى أسرع الى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور واثاث^(١) . وكان المسيحيون يجمعون أموالا ويذهبون الى

(١) قال الاستاذ العلامة حجة الاسلام السيد رشيد رضا في كتابه الذى صدر جديداً باسم « الوحي المحمدى » ان العلماء اتفقوا على شرعية عتق الكافر وأنه قرينة ولكنهم اختلفوا فى عتقه فى الكفارة

ولقد رأينا أن ننقل الى هذا الكتاب خلاصة ما أورده الاستاذ المشار اليه فى كتاب « الوحي المحمدى » بشأن الرقيق فى الاسلام فان الناشئة العصرية لاسيما المتخرجين فى المدارس الاوربية لايعلمون عن الرق فى الاسلام مايلزم أن يعلموه واذا سألوا الفقهاء الجامدين عن هذا الباب زادهم خبالا فلهذا اخترنا أن نتفهم على حكم الاسلام فى قضية الرقيق محرراً بقلم الاستاذ الحجة . قال لله دره : كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه فى أشق الاعمال ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرقيق مشروعاً عند الافرنج الى أن حررت الولايات الاميركية المتحدة رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنع من العالم كله فى أواخر القرن التاسع عشر ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر وجنوحاً للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربى المتغلب على الجنس الأحمر الوطنى الاصلى بما يقرب من الاستعباد السياسى المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما أن انكلترة تحتقر الهنود وتستندهم ولكن النهضة الهندية فى هذا العهد قد خفضت من غلواء الانكليز

فلما ظهر الاسلام كان مما أصلحه من فساد الامم ابطال ظلم الرقيق ووراهاه ووضع الأحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، اذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً فى نظام الاجتماع البشرى من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء . فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب فى الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيجور الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان . وكذلك جرى فى السودان المصرى فقد جرب الانكليز أن يجبدوا الارقاء رزقاً بعمل يعملونه مستقلين فيه ، فلم يمكن ، فاضطروا الى الاذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا يكون مسموحاً للمخدومين ببيع الأرقاء والاتجار بهم . وقد شرع الله تعالى لأبطال

اسبانية وافريقية لافتكك الأسارى ، هذا يفتك أباه وهذا أخاه وهذا صديقه وهلم جراً . ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون في أوربة لم يكن لها عمل الاافتكك الأسارى من بلاد المسلمين . وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية

الرق طريقتين : عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل ، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا ضرر ولا ضرار فيه

الطريقة الأولى : منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء الا استرقاق الأسرى والسبايا في الحرب التى اشترط فيها دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة ، وهى شروط لم تكن قبل الاسلام مشروعة عند المليين ولا عند أهل الحضارة ، فضلاً عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون . ولست أعنى بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولى الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو ابطاله ، بأن خيرهم فى أسرى الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم . وهو نوعان : فداء المال ، وفداء النفس اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم . وذلك قوله تعالى الذى أوردناه فى قواعد الحرب « فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء » ولما كنا نخيرين فيهم ، بين اطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم ، جاز أن يعد هذا أصلاً شرعياً لا بطلان استثناء الاسترقاق فى الاسلام . فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذى هو الاسترقاق غير جائز لولم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الامم فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرارنا ونطلق أسرارهم ونحن أرحم بهم وأعدل ، كما يعلم مما يأتى ، ولكن الآية ليست نصاً فى الحصر ولا صريحة فى النهى عن الاصل فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية ، فبقى حكمه محل اجتهد أولى الامر ، إذا وجدوا المصلحة فى ابقائه أبقوه . واذا وجدوا المصلحة فى ترجيح المن عليهم أو الفداء بهم عملوا به

واما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين — أى المن على الأسرى والفداء بهم — فى حالات قليلة لا تدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوماً قليلي العدد ، كعص قبائل البدو ، يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لانفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال فى حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكفهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجرى عليهم أحكام الطريقة الثانية فى تحريرهم . وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الاقل . وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم لأمة ترجيح المن على الأسارى والسبايا بالعتق ، قولاً وعملاً ، فى غزوة بنى المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل فى كتب السيرة النبوية وغيرها ، اذ لم يكونوا أسروا

ما هو فوق الوصف . ومن ذلك عمل ايزان رئيس دير القديس فيكتور في مرسلية الذي ذهب في سنة ١٠٤٧ الى الأندلس برغم ضعف جسمه وكثرة أمراضه ، وافتك عدداً من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصداً فرنسة ، فبينما هم في البحر هاجمهم قرصان

من المسلمين أحداً ، لأن المسلمين قد أثنوهم وظهروا عليهم . فعلم منها أن روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالجزة بلا مقابل حاضر ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

الطريقة الثانية مآشره لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع :

النوع الأول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل :

١ — الحرية في الاسلام هي الأصل في الانسان ، كما كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطي) : يا عمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لا يثبت باقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه فيكلف اثباته

٢ — ان الاسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى : ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وفي حديث الثلاثة الذى لا يقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتبد محرراً » أى جعله كالعبد فى استخدامه كرهاً وأنكر عتقه أو كتمه وهو فى سنن أبى داود وابن ماجه

٣ — شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من ماله بمال يدفعه ولو أقساطاً . ويسمى هذا فى الشرع الكتاب والمكاتبة ، وأصله قوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » أمر بمكاتبتهم ان علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم وأمر باعانة المالك لمكاتبة على أداء ما باعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه وجعل فى مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة ونذب غير المالك لذلك أيضاً

ذهب بعض العلماء الى أن الأمرين فى الآية للوجوب : الأمر بالمكاتبة والأمر بالاعانة عليها . والأكثر على أن الأول للنذب والثانى للوجوب . وفى صحيح البخارى بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : واجب على اذا علمت ان له (أى للمملوك) مالا أن أكتبه ؟ قال : ما أراه الا واجباً . وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء : أثأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم

فأخذوهم ووقعوا ثانية في الأسر ، ورجع ايزان يسعى من جديد سعيًا حثيثًا ويذهب ويجيء حتى افتكهم مرة ثانية وعندما جاء بهم الى مرسيلى كان الضنى قد بلغ منه مبلغه فما وطىء أرض مرسيلى حتى مات دفنًا .

أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المسكينة — وكان كثير المال — فأبى ، فانطلق سيرين الى عمر فدعاه عمر فقال له : كاتبه . فأبى . فضربه بالدرّة وتلا (فكتبوهم ان علمتم فيهم خيرًا) فكتابه

٤ — اذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف

٥ — ان من اعتق حصّة له في عبد عتق كله عليه من ماله ، ان كان له مال ، وان كان لغيره حصّة فيه فله أحكام . وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما ، منها حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق نصيباً أو شقيصاً في مملوك فخلاصه عليه في ماله ان كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه » وحديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً « من أعتق نصيباً له في مملوك أو شركا له في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتيق » والشقيص كالنصيب وزناً ومعنى

٦ — من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عتق عليه ، فقد روى الامام أحمد أن زنباعاً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجذع أنفه وجبه فشكاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعترف وذكر ذنبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الجب والحصاء حرام وموجب لعتق العبد وينفذه الحاكم فكل ما كان يتخذ من الحصيان المماليك ففيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

وفي رواية له (الامام أحمد) أخرجه أبو داود وابن ماجه جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم صارخاً فقال له مالك ؟ قال : سيدي رآني أقبل جارية له فجب مذاكيري . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « على بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » وفي جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مثل بعده عتق عليه »

٧ — إزاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ، ولا كفارة لذنبه الا عتقه ، فقد روي أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه . وللشيخين والترمذي عن سويد بن مقرن قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا الا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي فقال : أعتقوها . وقيل له انه ليس لبني مقرن خادم غيرها . فرخص لهم باستخدامها

وأما الرقيق من النساء فكن يشتغلن في قصور الأمراء وحرم الأغنياء ويساعدن زوجات الرجل الذي يملكهن ، وإذا امتازت احداهن بجمال أو قسام كانت تعلم وتهذب وتباع بثمان غال أو يتزوج بها مالكةا وكثيراً ما كن يرسلن

مادامت الحاجة واطلاقها اذا زالت . وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال : فلما دنا مني اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول : اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود . فألقيت السوط من يدي . وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيئته ، فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام (وفي رواية عليه) فقلت يارسول الله هو حر لوجه الله فقال : اما لو لم تفعل للفتحت النار أو لمستك النار

٨ — التدبير عتق لازم وينعقد بقول السيد لعبده أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أى بعد أن أدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتى اذا قصد به التدبير فان اطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذى هو من مقاصد الشرع الأساسية . ومنهم من يرجح جانب الوصية . ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية وأنه لا يجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبى حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

٩ — عتق أمهات الأولاد . وهو أن الجارية التى تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته ، فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف ، وأولهم عمر وعثمان ، ففي حديث عمر عند الامام مالك : أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهي حرة

١٠ — ان من ملك أحداً من أولى القرية عتق عليه وأعم مافيه حديث سمرة بن جندب مرفوعاً :

من ملك ذا رحم محرم فهو حر

النوع الثانى من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات والمراد بها القربات التى تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهى ثلاثة أقسام أحدها واجب حتماً على القادر على العتق ككفارة قتل النفس خطأ وكفارة الظهار ، وهو تشبيه الرجل وزوجه في أمه ، وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة افساد الصيام عمداً . ثانيها واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة . ثالثها مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

هدايا الى الخلفاء والكبراء . وذلك كما حصل للأميرة « لمبيحية » ابنة أود دوق
الكتانية التي صارت الى الخليفة في دمشق واذا تزوج المسلم بأمة صارت بذلك حرة
وكان أولادها أيضاً أحراراً ، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التي هي حرة من
الأصل . وان كان ولد للرجل من جاريته أولاد ، ولو لم يكن عقد نكاح ، ورضى
بأن يعترف بهم فأنهم يصيرون أحراراً وتصير أمهم حرة أيضاً لكن مع بقائها تحت
سلطة زوجها . ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تماماً ويقال لها عندهم أم
ولد . وكانت قصور خلفاء دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بالنساء اللائي يقال لهن أم ولد .
وكان أولاد هارون الرشيد ، ماعدا واحداً فقط ، كلهم أبناء جوار يقال للواحدة منهن
أم ولد . أما اذا كان الأب ولد له أولاد من جاريته ولم يرد أن يعترف بهم فأنهم يبقون
هم وأمهم عبيداً

النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود . جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة
(في الرقاب) بنص القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه . ومن المعلوم ان
زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الألوف وألوف الألوف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام
الاسلام فيها وحدها لتمكن تحرير الرقيق في دار الاسلام

النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى . قد ورد في الكتاب والسنة من الترغيب في
العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ومما يدل على انه من أعظم العبادات آية البر من سورة البقرة .
ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله صلى الله عليه وسلم : أيما رجل اعتق امرءاً مسلماً استغفر
الله بكل عضو منه عضواً من النار . وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله أي العمل أفضل قال :
إيمان بالله وجهاد في سبيله . قلت : فأى الرقاب أفضل قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها .
ومن أشهرها حديث أبي موسى الأشعري : أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعامها
فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك . ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في
العقوبات نصف حد الحر وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ونهى النبي صلى
الله عليه وسلم عن قول السيد « عدى أو أمتى » وأمره أن يقول « فتاى وفتاى وغلامي » وأمر
بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون . انتهى ببعض اختصار ، ومنه نفهم معنى الشرع
الاسلامى وما فيه من المبادئ الانسانية والرحمة بالضعفاء والعمل لتحرير الرقاب بكل وسيلة ممكنة ،

ولنضرب لك مثلاً على ما كان يعانيه الأسرى المسيحيون ، في بلاد الاسلام ،
بالحادثة الآتية :

في أواخر القرن العاشر وقع رجل من احلاس الحرب ، من بلدة طلوزة ، أسيراً
في أثناء ذهابه لزيارة بيت المقدس فصار الى بيت رجل من الأغنياء استخدمه في
حرث الأرض ، فقال لهم انه لا يحسن هذا العمل وانه لا يحسن غير القتال ،
فجعلوه جندياً ، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب في البلاد الى أن حضر حرب
قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية ، وهناك امتاز بالبسالة ونبه أمره . ولما كان
« شنجو » كونت قشتالة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ماشاهده من إقدام
هذا الرجل أمر باطلاق سبيله .

أما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون في أيدي الافرنج فلم يكن يختلف كثيراً عن
مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى في بلاد الاسلام . ولقد كان الرق معروفاً
بفرنسة ، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانين وسلاف وغيرهم من شمالي اوروبا ،
فاذا كان يستعبد فيها الأوربيون فبديهي أن يستعبد فيها الاسرى من المسلمين . ولم
يكن فرق بين الاسرى في الاسلام والاسرى في بلاد الافرنج ، سوى أن الرقيق في
الاسلام اذا تحرر أصبحت له جميع حقوق الأحرار ، بخلاف القاعدة في اوروبا فإن
طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحلة عن طبقة النبلاء وتبقى بينهما فواصل . وكان
المسامون يبدلون أيضاً الأموال في افتكاك أسراهم ، فمنهم من يفكه أهله ، ومنهم
من يفكه أصحابه ، ومنهم من يفكه سلطانه . وقد تأسست عند المسلمين جمعيات
لفداء الاسرى كما عند المسيحيين ، وذلك أن فك العاني معدود من أفضل الأعمال في
الاسلام وقد سأل محمد (صلى الله عليه وسلم) سائل عما يجب أن يعمل لينال أفضل الثواب
وتعلم أنه ليس من ضرب تحرير الرق عند الافرنج الذي فيه من الرياء ومن تسلط الأقوياء على
الضعفاء ومن استعباد الشعوب القوية للشعوب المهضومة ومن جعل الأجناس البشرية نازلاً بعضها
عن بعض ما كل أحد يحكم به ان كان منصفاً

فأوصاه النبي بتحرير الرقاب . وقد روى النويرى ولوذريق شيميناس أنه في زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الاسلام انهم بحثوا عن أسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيراً مسلماً يفكونه

وكان يؤتى بأسرى المسلمين الى آردل ومرسيلية وأربونة ، ويباعون فيها ، ويأتى أناس من أبناء ملتهم إلى هذه المدن فيفقدونهم فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون الى العبودية ، فيشتغل الواحد منهم في خدمة مالكة . وأكثر ما كانوا يستعملونهم في الحرث . وكان يحق للمالك العبد أن يبيعه أو أن يضربه أو أن يعذبه ، وكثيراً ما كانوا يكبلونهم بالحديد لئلا يفروا . ولم يكن للعبيد من المسلمين ، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين ، حق أن يتزوجوا بالمسيحيات ولو كن من الخوادم . ومن كانت منهن متزوجة بغير مسيحي كان لا يؤذن بدفنها في مقابر النصرى بل هناك ماهو أكثر من ذلك وهو أنه لم يكن يؤذن في زواج العبد من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ، وانما كان للمالك أن يأذن في مساكنة العبد للأمة في مكان واحد ، ولكن على شرط أن الأولاد الذين يولدون لها يكونون ملكاً للمالك المذكور . ولقد تلاشى الرق من اوربة في نواحي القرن الثانى عشر إلا أنه بقى جائزاً بحق غير المسيحيين لاسيما المسلمين ، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثانى عشر والقرون التالية ، ومن جملتها نصوص واردة في مجموعة القوانين البحرية القديمة تأليف المسيو بارديسو ، غير أن ذوى التقوى كانوا اذا أرادوا أن يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم أعتقوا عبيدهم ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب أن يتعمد أى أن يتنصر يصير حراً . وهكذا اندمج العبيد في سائر الأمة

وكان العبيد من المسلمين يشتغلون في المزارع من أملاك الممولين أو أوقاف الأديار والكنائس . وقد مر بنا أن أسارى المسلمين الذين وقعوا في اليد سنة ١٠١٩ أمام أربونة قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الزعماء . وهكذا وقع للمسلمين الذين كانوا في فرنسا بعد سقوطهم في معركة سنة ٩٧٥ ولجميع عساكر المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيشهم في أثناء غزواتهم للبلاد الافرنسية .

وكانت هناك أسباب أخرى لزيادة عدد الرقيق المسلم في فرنسا ، منها الحروب الصليبية في الشرق ، ومنها الحروب التي كانت تقع بين الافرنج وبين مسلمي الأندلس . وقد ذكر المسيو بارديسو في كتابه المار الذكر أن منها ما كان آتيا أيضا بطريق التجارة . وما لانزع فيه أنه قد بقي استعباد أسرى المسلمين في فرنسا عادة متبعة دهرًا طويلا ، وفي سنة ١١٤٩ أوصى ارنود مطران أربونة بعيده المسلمين لمطران بيزيه Beziers وفي سنة ١٢٥٠ أوصى روميو فيلنوف Romeo de Villeneuve الذي كان وزيراً عند كونت بروفنس ، قبل موته ، ببيع العبيد المسلمين الذين كانوا في أراضيه . وكانوا من الذكور والاناث . ذكر هذا المسيو بوش في تاريخ بروفنس . وبعد ذلك بمئتي سنة ورد ذكر شراء الملك رينه ^(١) René لثلاثة عبيد من المسلمين . وقد اطلعنا على قرارات لمجمع الاساقفة في طرا كونية في اسبانية المنعقد سنة ١٢٣٩ من جملتها أن يجبر المسلمون الذين بفرنسة على اتخاذ لبس خاص بهم ، وكذلك اليهود ، وقد جاء مثل هذا الاقتراح في قانون لأسقف بيزيه سنة ١٨٦٣

وكان المتحمسون بالنصرانية يغضبون للسماح بزواج الارقاء في فرنسا بحيث وجد في قانون رهبانية جيتو Jéteau مادة تمنع أديار هذه الرهبانية أن يجتمع فيها مسلمون ومسلمات في محل واحد ، بل كان هناك معاهد دينية ترفض استخدام العبيد المسلمين في أشغالها

لقد مرّ بنا أن المسلمين الذين كانوا يطلبون المعمودية يصيرون أحرارا وكان هذا حقاً لهم ، ولما كان كثير من هذا الطلب لا يقع عن اخلاص أو عقيدة ، وكان بعض هؤلاء المتعمدين اذا حصلوا على حريتهم يعودون الى ضلالهم ، فكان لسادة هؤلاء العبيد الحق في امتحانهم مدة من الزمن . وعند ذلك صار كثير من المسيحيين الذين لا وجدان لهم يمتحنون عبيدهم من المسلمين امتحانات يقصدون بها منعهم من الدخول في النصرانية . ومنهم من كانوا وقد تنصر عبيدهم ، يرفضون الموافقة على تحريرهم ويستمرون على ارهاقهم بأشد ما يمكن . ولقد أصدر البابا كليمنفوس الرابع سنة ١٢٦٦

(١) كان يقال له الملك رينه الصالح وكان من ألقابه دوق أنجو وكان كوتنا على بروفنس توفي

منشوراً أنزل به صواعق الغضب على رئيس دير القديس بندكتس في ميرنده ،
لكونه عذب رجلاً مسلماً غنياً كان قد تنصر ، وزعم هذا الرئيس أن تنصره كان غير
حقيقى وضبط له أملاكه وحرم منها اولاده

فأنت ترى أنه كان من المسلمين المستعبدين في فرنسة أشخاص ذوو أملاك ،
وكانوا مثل اليهود يقرضون الأموال بالربا ، وكان اذا غضب الشعب على المرايين من
اليهود أدخلوا المسلمين أيضاً في دائرة غضبهم . وقد قلنا انه لم يكن للمسلمين حق في
التزوج بمسيحيات ، وان كل مسيحية كانت ترضى بأن يتزوجها مسلم كانت تحرم
من حق الدفن في المقابر المسيحية ، وكان هؤلاء المسلمون يعطلون أشغالهم في الأعياد
المسيحية قسراً

وبالاجمال فعدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسة كان كبيراً^(١) وهذه نتيجة

(١) في فرنسة ولا سيما في المقاطعات الجنوبية منها ، عائلات كثيرة معروفة بأنها من سلالة
السرازين . أى المسلمين ، ومنها ماتدل سحناؤها الى اليوم على العروبة . وفي نفس سويسرة
عائلات ملقبة بالسرازين ، في جنيف وفي بازيل . ومن أشهر من انتسب الى أصل عربى في جنيف
العالم العلامة الفيلسوف « ابن أبى زيد » وكان أهل سويسرة يقولون له أبو زيت Abou Zit
وأصله عربى من سكان طولوز . وكان أهله من العرب الذين تنصروا ثم اتخذوا مذهب البروتستانت ،
فلما صدر أمر لويس الرابع عشر باخراج كل البروتستانتين من فرنسة ، خرج أبو زيد هذا مع
من خرجوا الى جنيف ، ثم نشأ فيها ونبغ في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة
والتاريخ وغيرها . وكان معاصراً لفولتير وروسو ونيوطن في انكثرة ، وصديقاً لهم جميعاً ، وكانت
له عندهم المكانة العليا وربما استفتوه في عويص المسائل العامة . وقد ذكرت جريدة جورنال
ده جنيف احدى المراسل أن فولتير استفتاه في مسائل غاب عنه علمها . ومر بفولتير صاحب له قاصداً الى
جنيف ، فسأله فولتير : ماشغلك في تلك البلدة ؟ وكان فولتير ساكناً في ضواحي جنيف كلالينخى
بقرية فرنائى . فقال له صاحبه : أريد الاجتماع بعالم كبير . فقال له . اذن تريد أن تجتمع بصاحبنا
العربى . وأما جان جاك روسو فبينه وبين أبى زيد مراسلات مجموعة في كتاب . وكان هذا العلامة
العربى زاهداً عظيم التواضع معرضاً عن الدنيا ، عرضوا عليه في جنيف أعلى المناصب فرفضها ،
واقصر على وظيفة قيم لخزانة الكتب العمومية . وفي جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع
أبى زيد . وكان سلف أبى زيد هذا أطباء في طولوز . وقد كتب محرر هذه السطور عن أبى زيد
العربى الجنيفى منذ بضع سنوات مقالة في الجرائد العربية لخصناها عن الجرائد السويسرية وربما
نعود الى موضوعه بعد التوسع في معرفة حياته

طبيعية للحالة التي كانت يومئذ ولكن الفرنسيين الذين مع الأسف اتخذوا الاسلام ديناً كان عددهم أكبر ، فان الغزوات الاسلامية الأولى لفرنسة وسبي المسلمين للندارى من أهلها وما كان التجار يتجرون به من الرقيق ، كل هذا قد أدخل في الاسلام عدداً لا يحصى من الافرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون المسيحيين الداخلين في دينهم بمزيد التساهل ويعتنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم وبهذا كثر عدد النصارى الذين صباؤا عن دينهم ودخلوا في الاسلام .

ولنتكلم الآن عن كيفية حكم المسلمين في فرنسة أيام كانوا سائدين فيها وعن طرز معاملتهم لرعايهم وعن سياستهم المدنية والدينية والخراجية ، فانهم قد استقروا بعد غزواتهم الاولى في بروفنس ودوفيني وبييمونت وسفواى وسويسرة ، ولكن استقرارهم الحقيقى لم يكن إلا في بعض المعازل الحصينة وفي ضواحيها ، ولم يتفق لهم أن استولوا في فرنسة على بلاد بأسرها . نعم كانت في أيديهم معابر الجبال والأنهار ، فكانوا يأخذون من السابلة رسوماً على المرور ، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وربما أدوا الضرائب عن محصولاتهم الى أمير البلاد التي كانوا فيها . أما بلاد بروفنس التي كانت تجاور حصن فركسنت فقد كانت دائماً عرضة لعبث عصاباتهم . وفي أوائل فتحهم لجنوبى فرنسة أيام شارل مارتل وابنه بين القصير لم يطل الأمر أن وقعت بينهم الحروب التي أدت الى التنفيس من خناق المسيحيين . فكان للقوط في اللانغدوق امراؤهم وقوامسهم يلون أمورهم وانما لم يكن المسلمون يعطون هؤلاء الأمراء سلطة عسكرية واسعة فكأنهم كانوا يحفظون حق السيطرة لأنفسهم على الحكومات المسيحية المحلية . وقد ذكرنا يزيدور الباجى المؤرخ المسيحي الذى عاش في ذلك العصر أن عقبة أمير الأندلس في سنة ٧٣٤ كان يلتزم سياسة ترك الشعوب التي تخضع لحكم المسلمين على قوانينها الأصلية ، وقد وقع في يدنا منشور من الوالى المسلم لمدينة قويمرة في البرتغال يظهر منه أنه كانت للمسيحيين ادارة خاصة بهم ، ونص هذا المنشور هو مايلي : يكون على مسيحي قويمرة كونت يلى أمورهم ويحكم فيهم بالسداد ، وكما كانت عادة المسيحيين في الأحكام وله أن يفصل الخصومات

التي تقع بينهم ، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضى المسلمين وذلك بأن الجاني يؤتى به أمام القاضى ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية ، فاذا وافق القاضى أمكن تنفيذ الحكم بالقتل والا فلا . ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات ، وإن أهان مسيحى مسلماً عومل بشرع المسلمين ، وإن سطا مسيحى على عرض مسلمة أجبر على الاسلام وعلى الزوج بالمرأة التي اعتدى على عرضها ، والا فالقتل ، وإن كانت المرأة محصناً فإن المعتدى على عرضها يقتل بلا مراجعة ^(١) وقد وجد نص هذا المنشور فى دير لوربان Lorban وطبع فى اشبونة سنة ١٦٠٩

أما من جهة سياسة المسلمين الدينية فى فرنسا فليست عندنا عنها معلومات شافية للغليل ، وكل مانعلم أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية ، وأن السواد الأعظم من أهل أربونة مثلاً بقوا مسيحيين ، وكان عددهم كبيراً . وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم ويبيعهم مع القسيسين والوفرة الذين يخدمونها . على أنه لم يسمع أن المسلمين فى أربونة وما جاورها من فرنسا مثلاً متعوا المسيحيين بالحقوق التي أمتعوا بها فى قرطبة والمدن التي فى قلب المملكة . نعم إن المسلمين فى قرطبة استولوا على كنائسها الكبرى ، ولكنهم أبقوا للمسيحيين سائر كنائسهم وتركوا لهم أديارهم التي للرهبان والتي للراهبات على السواء ، وتساحوا معهم فى أمر لم يتسامح فيه المسلمون لا فى افريقية ولا فى آسية وهوقرع المسيحيين للأجراس ^(٢) فى مواعيد صلاتهم أما فى أربونة وما جاورها من المدن فلم يكن للمسيحيين أساقفة كما فى قرطبة ، ولا كانت لهم أديار ولم يكن السبب فى ذلك كله من المسلمين بل كانت هناك فوضى كنسية كما

(١) كان يجب على المسيو رينو وهو مستشرق عليم بأمور المسلمين أن ينبه على كون المعتدى على عرض المسلمة المتزوجة يجازى بالقتل بحسب الشرع سواء كان مسيحياً أو مسلماً أى إن هذا الجزاء ليس خاصاً بالمسيحيين

(٢) ذكر رينو فى حاشية هذه الجملة أن المسيحيين فى جبل لبنان هم وحدهم الذين فى الشرق يسمح لهم المسلمون بقرع الأجراس

يستدل عليه من كتاب بعث به القديس بونيفاس الى البابا زخريا سنة ٧٤٢ وهذه
الفوضى كانت ناشئة عن الانقلابات التي أحدثتها حروب أولاد كلوفيس فيما بينهم .
أما في شمالى اسبانية فقد وقعت الفوضى الكنسية لدى وصول المسلمين الى البلاد . ففي
أراغون مثلاً ، عندما جاء المسلمون واستولوا على هذه المملكة ، فر الأسقف الى جبال
البيراية ولم تعد الأسقفية الى أراغون الا بعد ذلك بثلاثمائة سنة أي عند ما أحل
المسلمون عن البلاد . ولا يظهر أنه كان في برشلونة أسقفية لعهد وجود المسلمين فيها ،
بل يظهر أن أمراء المسلمين تحاشوا قبول الاسقفيات في المدن الواقعة في الثغور . وقد
كان المسلمون يتركون للمسيحيين كنائسهم على شريطة أن يكتفوا بالقديم منها ، وأن
لا يؤسسوا كنائس جديدة ، وان بنوا شيئاً جديداً منها فلا يكون الا مكان القديم .
وذهب بعض فقهاء الاسلام الى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة الجديدة الا بأحجار
الكنيسة القديمة . ولم يكن للمسيحيين حق في الطواف في الأسواق بالصلبان والأعلام
المسيحية ولم يكن أيضاً للمسيحيين أن يعارضوا نصرانياً يريد الدخول في الاسلام .
وقد تبين من الأمر المتعلق بنصارى قويمرة في البرتغال أنه كان على كل كنيسة دفع ضريبة
لبيت المال ، مقدارها خمس وعشرون قطعة فضية ، وكان على كل دير دفع خمسين قطعة
أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة

وقد تقدم أن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى ، كما أن
النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير .
ومع هذا فقد وجدت كتابات للمسيحيين من القرن التاسع تدل على أن مراجل
البغضاء كانت تغلي أحياناً بين الفريقين ، وأنه كان محظوراً على المسيحيين إقامة شعائر
دينهم علناً بالاحتفال اللازم ، وأن المسلمين كانوا اذا سمعوا قرع النواقيس اشمازوا
ونفروا وربما قذفوا وشتموا . ولكن لا ينكر أن المسيحيين أيضاً كانوا اذا سمعوا
الأذان تعوذوا بالله ورسوموا اشارة الصليب على صدورهم . وقد أقر بذلك القديس
اولوج Euloge الذي كان من المضطهدين سنة ٨٥٠

أما من جهة الخراج فقد تقدم أن السمع (ابن مالك الخولاني) أمير الأندلس كان

هو البادئ بتنظيم الجبايات واستخراج الارتفاعات سواء في اسبانية أو في جنوبي
فرنسة ، وقبل ذلك كانت أمور الجباية فوضى والجل منتشراً وقد وزع السمع قسماً
من الأراضى المأخوذة من المسيحيين على غزاة المسلمين وعلى العائلات الفقيرة ، بعد
أن كان بعض ذوى السلطة قد استأثروا بها لأنفسهم من دون الفقراء ، وقد ضم السمع
بقية الأراضى الى بيت المال . وكان الخراج المفروض على أراضى المسلمين هو عشرين
المحصول بخلاف المسيحيين فقد كانوا يدفعون الخمس ، أى ضعف خراج المسلمين وكان
المسيحيون عدا الخمس يدفعون الجزية وهى إتاوة شخصية كان يتقاضاها المسلمون من
المسيحيين فى مقابلة محافظتهم على دماءهم وأموالهم وامتاعهم بحريتهم الدينية . أما من
أسلم من المسيحيين فكان معنى من الجزية . وكان ملوك الأندلس يضربون رسماً على
البضائع والسلع ، فالسلم كان يؤدى اثنين ونصفاً فى المئة ، والمسيحي كان يؤدى خمسة
فى المائة ، وكانوا يسمونها زكاة وكانت تنفق فى إعانة الفقراء وافتكاك الاسرى

وكان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية المعاهدين
أو أهل الذمة ، أى الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية والمحافظة . أما المسيحيون الذين
لم يكونوا خاضعين للإسلام فكانوا يسمونهم أغلجا واحدها عالج ، وكانوا يقولون
عجمى لكل من ليس بعربى ، ويسمون مشركا كل من يقول بأن الله ثلاثة أقانيم
لأن المسلمين لا يرون فى الثلاثة الأقانيم الا ثلاثة أشخاص .

ويحق للإنسان أن يسأل : بأى لسان كان العرب يكلمون الأمم التى تغلبوا عليها ؟
فان من عادة العرب أن لا يحفلوا بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من
الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون فى تعلم العربية . ولم يذكر التاريخ رجلاً
مسيحياً لأوائل أيام الفتح الاسلامى أتقن العربية غير هارتموت Hertmote رئيس دير
سانفال الذى كان يعرف العربية واليونانية والعبرية ، وكان من رجال أواخر القرن
التاسع . ولم يبدأ أباًؤنا بتعلم العربية إلا فى أيام الحروب الصليبية ، إذ لم يجدوا غنى
عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم ، فكانوا يذهبون الى اسبانية
حيث كانت العربية واللاتينية تعلمان جنباً الى جنب ويقرأون العربية على أهلها . وفى

سنة ١١٤٢ أكمل بطرس رئيس دير كلوني Gluny أول ترجمة لاتينية للقرآن ، وبدأ يكتب الردود على دين الاسلام ، وتبعه في ذلك مؤلفون كثيرون من النصارى .
على أننا لا نشك في أنه في أول دخول العرب الى فرنسة كانت اللغة العربية معروفة فيها ، وكان كثير من الافرنج يحسنون التكلم بها ، وذلك لأن العرب كانوا يأخذون أبناء البيوتات النبيلة رهائن على طاعة أهلهم لهم ، ويرسلون هذه الرهائن الى قلب مملكتهم ، فكان لابد لهم هنالك من أن يتعلموا العربية . وكذلك كان بديهيًا أن الأسرى والعبيد من المسيحيين يتعلمون العربية ، فاذا عادوا الى بلادهم كانوا من جملة الافرنج الذين يعرفون هذه اللغة . وأضيف الى ذلك المسلمين المستعبدين الذين كانوا في أرض فرنسة فقد كانوا كلهم يتكلمون بالعربية ، ولا تنس التجار وزوار بيت المقدس الذين رغم جميع تلك الحروب الهائلة لم ينقطعوا عن التجارة ولا عن الزيارة ، وكانوا يختلطون الى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاسلام ، ومن جملة هؤلاء الانكليزي القديس غيلبود Geillebaud الذي ذهب الى الشرق ووصل الى الشام سنة ٧٣٤ للمسيح ، وقيل انه عند وصوله الى دمشق قبض عليه على ظن أنه جاسوس ، فلما علموا أنه قادم لزيارة بيت المقدس خلوا سبيله ، فطاف في سورية وفلسطين بدون معارضة ؛ ولكن لم يقع في أيدينا شيء من المعلومات عما دار من الأحاديث بين الخليفة في دمشق وبين القديس المذكور

وكان المسيحيون في ذلك العصر مستسلمين للاقدار يعتقدون أن غزوات العرب لبلادهم انما هي عقاب من الله تعالى للبشر على خطاياهم فكانوا راضين بما قدره الله عليهم لا يحاولون دفع منازلهم ولم ينهضوا في أوربة لاستعمال الوسائل البشرية الكفيلة بدفع الأذى عنهم الا في أيام الحروب الصليبية

وكان المسلمون في غاراتهم يستعملون السبي فيربون الصبيان الى أن يبلغوا رشدهم ، ويجعلونهم جنودًا ، ويربون الصبيات الى أن يبلغن رشدهن فيتخذوهن حلالل . وكانوا في أى مكان شنوا فيه الغارة وضعوا ذلك نصب أعينهم . تأمل في كيفية حلولهم بجزيرة اقريطش . فقد تقدم أن خمسة عشر ألفًا من ربض قرطبة أجلوا عن الأندلس

على أثر فتنة الربض المشهورة، فجاءوا الى الاسكندرية ، ومن هناك عزموا على النزول في اقريطش نظراً لحسن هوائها وجودة تربتها ، ولما وصلوا الى تلك الجزيرة أمرهم قائدهم بأن يبدأوا بالعمارة ، وأحرق السفن التي جاءوا بها ، فصاح رفاقه به قائلين له : كيف يمكننا بعد الآن أن نرسل نساءنا وأولادنا ؟ فأجابهم : اننى أعطيتكم وطناً جديداً وهذا الوطن هو الذي يكفل لكم ايجاد نساء تتزوجون بهن ، وبعد ذلك عليكم أنتم أن تنسلوا الأولاد . ولما جاء المسلمون ودخلوا أرض فرنسة فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الاسلام واخضاع فرنسة وكل اوربة لأحكام القرآن . ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد أخرى ، كحب النهب أو الأخذ بالثأر . ومن هذا القبيل نزول العرب في أواخر القرن التاسع في أرض بروفنس

وقد ذكر المؤرخ ليو تيرند كيفية فتح العرب لصقلية فقال : ان أمير صقلية من قبل امبراطور القسطنطينية كان قد خرج من طاعته ، فأرسل يستنجد أمير العرب في القيروان ، فشاور هذا أعوانه فيما يفعل ، فأشاروا عليه باصراخه ، ولكن على شرط أن العسكر الاسلامى يأخذ ما يمكنه من الغنائم ويقفل بدون استقرار في تلك الجزيرة . وذلك لأنهم لمعرفتهم بشدة قرب صقلية من الأرض الكبيرة كانوا يعتقدون أن مقام أمة تخالف أهل تلك الديار في اللغة والعقيدة لا يمكن أن يكون هناك لا طويلاً ولا وطيداً ، وأنه لا مناص من أن يكر اليونان والافرنج فيسترجعوا تلك الجزيرة ولو بعد حين . قيل ان أحدهم سأل يوم عقد تلك الشورى بشأن غزو صقلية ما مقدار المسافة التي تفصل بين الجزيرة والأرض الكبيرة ؟ فأجابوه بأن الانسان يقدر أن يأتى ويرجع مرتين أو ثلاثاً في النهار . فسأل وكم المسافة بين صقلية وافريقية ؟ فقيل له مسافة يوم وليلة . فقال : لو كنت طيراً ما رضيت أن أجعل مقامى بهذه الجزيرة والحال هي هذه من جهة المسافة . ذكر ذلك النويرى . والحقيقة أن المسلمين لم يعولوا على البقاء في صقلية الا بعد أن رأوا أمورها فوضى ، وبعد أن وجدوا أمراء تلك البلاد يستعينون بهم بعضهم على بعض ، لا تجمعهم جامعة قومية ولا تضمهم صارخة وطنية

أما الآثار الحجرية التي تركها المسلمون في فرنسة على أثر غزواتهم فيها فهي قليلة جداً في أربونة مثلاً حيث بقى العرب نحواً من أربعين سنة ، لم نجد لهم بناءً خاصاً بهم ، وغاية ما عملوا أنهم زادوا في تحكيم القلاع التي فيها حتى جعلوها من مناعتها لا تؤخذ . ولكن لم يجد المؤرخون هناك كتابات عربية ولا آثاراً يتحققون كونها عربية . وقد قيل عن بناء في مدينة سردانية التي بجوار جبل لويس انه من عمل المسلمين ، ولكن ذلك القول لم يثبت لأنه بناء لا يشابه أبنيتهم المعهودة . نعم يوجد في جنوبي فرنسة كثير من المسكوكات العربية وأكثرها ليس عليه ذكر الملوك الذين ضربت في أيامهم ، ولا ينكر أنه في أواخر القرن التاسع للميلاد كان المسلمون قد قطعوا مراحل بعيدة في المعارف والفنون وأخذوا يتقدمون يوماً فيوماً في المدنية ، وفي ذلك الوقت كان نزولهم في بلاد بروفنس ودوفني وسافواي وسويسرة . ولا نزاع في أن مسلمي اسبانية وصقلية بل مسلمي افريقية نفسها كانوا في ذلك العصر أرقى من مسيحيي فرنسة والبلاد المجاورة لها التي كانت غائصة في فتن كقطع الليل المظلم . ولسنا الآن في صدد المدنية الباهرة التي أثلها العرب في الأندلس فمن ذا الذي لا يسمع بعظمة جامع قرطبة الأعظم ، ومن لا يعلم ماشاه العرب من الجسور والمعابر وشقوه من الأنهر والجداول لرى الأراضى ، وما بنوه من القصور المنيفة الشاخخة ولعمري لم ينحصر فضلهم في الصناعة والفن بل كانت لهم القدم الراسخة في العلوم العقلية والفلسفة وكانوا ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وأبيقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطولياووس وغيرهم ، وكشفوا من العلم أسراراً جديدة أضافوها إلى ماتلقوه عن غيرهم . فكان تفوق العرب على المسيحيين في ذلك العصر حقيقة ثابتة لا مرأى فيها وكان المسيحيون يفتقرون اليهم في العلم ويردون حياضهم فيه . وقد روى المؤرخون أن شانجه ملك ليون كان في سنة ٩٦٠ جاء إلى قرطبة ملتمساً الاستشفاء ، لدى أطباء العرب ، من مرض كان قد أعياه شفاؤه ، فوجد عند أطباء العرب الراحة التي كان ينشدها وبقي طول حياته يذكر الحفاوة التي استقبل بها والاعتناء الذي رآه في قرطبة بشأنه . وفي تلك الأيام كان راهب اسمه جربرت انتجع اسبانية ،

طلبا للعلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ من العلم مبلغا خيل لعامة فرنسة اذ ذاك أنه
ساحر (١)

أما العرب الذين جاءت عصائبهم ونزلت في أرض فرنسة وتدرجت الى جبال
الألب فلم يكونوا من النمط الأول أى من الذين يريدون أن ينشروا ثقافة أو يؤثروا
مدينة ، وانما كانت غاراتهم كلها منبعثة عن طمع في النهب وغرام بالكسب .
فالفهضة الحقيقية في أوربة لم تبدأ الا منذ القرن الثانى عشر أى منذ زحف أهل الغرب
لقتال أهل الشرق ، ووجدت النصرانية والاسلام فى الصراع وجها لوجه ، فوقع
الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين ، وأفاق الفرنسيين والانكليز والالمان من رقتهم
ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة المشاطرة فى المدينة الاسلامية . وكان
علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليونانى غير معروف الا عند العرب ، فأخذ

(١) فى موضوع آثار العرب فى فرنسة يحسن أن نذكر شهادة طبيب كبير اسمه البروفسور
دالماس هو أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب فى مدينة مونييليه فى جنوبى فرنسة الذى ألقى فى فضل
العرب على جامعة مونييليه محاضرة قيمة حضرها جم من الشبان الشرقيين ، من مصريين وعراقيين
وسوريين ، ونشروا عن ذلك مقالة فى حريدة الاهرام وقد بدأ البروفسور دالماس بذكر فتوحات
العرب لعهد الحلفاء الأولين ، وقال انهم كانوا يحملون مدينتهم حيثما ذهبوا واين ما حلوا ، وقال :
ان مدينة العرب لم تنحصر فى فن البناء ونشر الخزف العربى وتشبيد الجوامع فقط بل كانت تتناول
الكثير من العلوم والمعارف التى هى أساس العلوم الحديثة ، وخص بالذكر علمى النبات والطب ،
وذكر أنه الى العرب يعود الفضل فى تعريف الغرب بالمدينة اليونانية . ثم قال : ان العرب نزلوا
ببلدة ماجلون ، ضاحية مونييليه ، وأقاموا بها مدة من الزمن الى أن أجلاهم عنها شارل مارتل
وأحرقها حتى لا يعودوا اليها وكانوا فى اثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية ، ثم جاء
منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطيب ، ثم ذكر من الأطباء أسماء بعض اليهود الذين تلقوا
الطب العربى مثل صموئيل بن طييون وناتان بن زكريا وأسماءها منقوشة على لوحة الاستاذية بمدخل
كلية الطب ، وقال : ان بعض الرهبان الذين ترقوا الى درجة البابوية كانوا قد طلبوا العلم بجامعة
مونييليه على أساتيد من العرب وقال : ان ملك نابار عندما مرض بصدره التجأ الى أطباء العرب ، وقال :
انه يوجد فى متحف الجامعة بعض آثار وجدت فى ماجلون عليها بعض الآيات القرآنية والاشعار العربية
وكنت سمعت من المرحوم الاخ أحمد بك شوق أمير الشعراء الذى درس علم الحقوق فى جامعة
مونييليه هذا الخبر بعينه رواه لى لأول تعارفنا فى باريز سنة ١٨٩٣

المسيحيون من فرنسة وجوارها يؤمنون اسبانية لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان ، وذلك الى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة الكتابة والعلم في أوربة . وقد بقيت هذه التراجم الى القرن الخامس عشر هي عمدة الجامعات والمدارس في معرفة علوم يونان

ولا مندوحة لنا عن أن نقول كلمتين عن آثار هؤلاء العرب الذين نزلوا في فركسنت ، فان الأثر الذي أثروه هناك من الآبار المحفورة والأسراب المكفورة والحجارة المنحوتة والأبنية المحكمة لا تزال بقاياها بارزة للعيان ، دالة على صبر عجيب وهمة بعيدة ، ولكن لم يوجد على شيء من ذلك الحصن كتابات عربية كما وجد في الحصون التي من بناء العرب في الأندلس .

وقد ذكروا أن حصوناً كثيرة على قن الجبال هي من بناء العرب المذكورين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة منتظمة بلبه الساحل الافرنسي والايطالي ، اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ليلا على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذه النيران ايذاناً بوقوع الحرب وطلباً للمدد وجمعاً للقوة . وقد ذكر ذلك المسيو انفونس دى نيس Denys في كتابه الزهرة البديعة في مقاطعة الفار . وكذلك جاء في كتب العرب كلام على الأربطة والمراقب التي شادها الأمير عقبة بن الحجاج السلولى ، أمير الأندلس في جنوبي فرنسة ، في نواحى سنة ٧٣٤ وقد ذكر ايزيدور الباجى أن السمع ابن مالك الخولانى الذى تولى قبل عقبة امارة الأندلس ، قد بنى هو جانباً من هذه الابراج ، ولكننا لانعلم لماذا ينسبون بناء هذه الابراج كلها الى العرب ولماذا لا يجوز أن يكون أهل البلاد أنفسهم هم الذين بنوها ، أو بنوا بعضها ، احتياطاً لانفسهم ومراقبة لاعدائهم^(١) . هذا ومما وجد من آثار العرب في فرنسة الاطالس الحيرية والاسقاط

(١) تقول انه يجوز أن يكون الافرنج قد بنوا شيئاً من هذه الابراج في سواحلهم ولكن ممالا مشاحة فيه أن الابراج التي في جميع سواحل الاندلس مطردة متسقة على طول تلك السواحل كانت من بناء العرب وان عادة ايقاد النيران في الابراج ايذاناً بالحرب ومبدأ للصربخ إنما هي عادة في الغالب عربية . وكان العرب في أوائل الفتح الاسلامى نشروا هذا النمط من الابراج النارية من

الثينة من العاج والفضة والكؤوس البلورية والاسلحة النفيسة ، ولا يزال منها جانب في خزائن الكنائس وفي مخادع الغواة؛ والناس تقومها بأثمان غالية مما يدل على مكانة الصنعة العربية في الانفس. ولكن من المحقق أن أكثر هذه المصنوعات العربية هي من عصر متأخر عن القرن الثامن . ولم يكن مقام العرب بفرنسة خالياً من تأثير في طرق الزراعة فان هؤلاء القوم لم يحلوا في مكان الا طبقوا الأراضي بالعمل ، وجروا الاقنية ، ونسقوا من تحتها الجنان شاهدك على ذلك تلك البساتين المنقطعة النظير ، في مرسية وبلنسية وغرناطة ، ويقال ان العرب الذين نزلوا في بروفنس هم الذين بدأوا في استثمار شجر البلوط ، ولا يزال هناك غابة منه يقال لها غابة المغاربة . وكذلك العرب هم الذين كانوا يستخرجون القطران من أشجار الصنوبر والارز ، ويقلفطون به المراكب . ولهذا تجد أهالي بروفنس لا يقولون للقطران غودرون Goudron كما يقول سائر الفرنسيين ، بل يقولون قطران Quitrان (١)

وقالوا ان العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل في فرنسة . وذلك انهم كانوا يأتون على سفنهم بالحياد العرب ليتسنى لهم عليها بث الغارات في داخل البلاد ، فبقى جنسها في فرنسة من ذلك الوقت والآل يوجد صنف من الخيل في مقاطعة كامرغ Camergue متولد من ازدواج الخيل الاندلسية بخيول تلك المقاطعة

ومما يظنه الناس من بقايا عادات العرب نوع الرقص الذي يطلع عليه الانسان في جنوبي فرنسة وهو يختلف باختلاف الأماكن ، فمنه زفن يقع في الليالي يرقص فيه

الاسكندرية الى طنجة ، فكانت اذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج الى برج حتى يبلغ ذلك الاسكندرية ، في الليلة الواحدة .

ولما سرت من مالقة الى الجزيرة الخضراء سنة ١٩٣٠ التي ذهبت فيها الى الاندلس اجتازت بنا السيارة هذه المسافة في ست ساعات ، فكنت كلما قطعت مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ متر حاذيت برجاً مخروطي الشكل شاهقاً في الفضاء ، وعلمت أن هذه الأبراج كلها عربية

(١) القطران : عرفه العرب بأنه دهن يخرج من شجر الابل والارز ، وهو بلفظ بالفتح وبالكسر . ونحن في سورية نلفظه بالفتح (قطران) ويظهر أن العرب الذين نزلوا سواحل بروفانس كانوا يلفظونه بالكسر (قطران) ولذلك قال الفرنسيين Quitrان

الشاب بين فتاتين ، وفي أثناء رقصه يقدم فأكهة تارة الى هذه وطوراً الى تلك . ومنه ما يقف فيه الراقصون خطأ ، بازاء الراقصات خطأ ، ثم يشتبك الخطان أحدهما بالآخر والشخص الذى يكون على رأس كل من الخطين يعمل اشارات يقتدى بها الآخرون وهناك رقص عسكري يرقص فيه اثنان كل منهما متقلد سيفا يحاول أن يصيب به الآخر أشبه بالأقران فى ساحة القتال اذا أرادوا أن يهاجما أو يدافعا

أما وجود أناس فى فرنسة نقدر أن نحكم عليهم حكماً باتاً بأنهم من أصل عربى فغير محقق . قيل لنا ان قوماً يسكنون على ضفاف نهر الصاوون ، بين ماصون وليون ، لاسيما على الضفة الشمالية انهم من بقايا شردمة من العسكر العربى انقطعت عن مجموع الجيش فى أيام شارل مارتل وقالوا ان لهؤلاء عادات خاصة وألفاظا خاصة قد تكون باقية من اللغة العربية ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق ، لاسيما أن تلك الألفاظ هى فى الحقيقة مشتقة من اللاتينية ، أو باقية من الافرنسى القديم وأن البلاد الواقعة بقرب ماصون لم ينزل بها عرب بل كانت ملجأ لمن فروا من وجه العرب وكذلك قيل ان جماعة من سكان البلاد المجاورة لجبال البيرانه ، يقال لهم كاغوت ، هم من أصل عربى . ولكن لم يثبت شئ من هذا ، بل الأرجح أن هذا الجيل من الناس هو من جملة الأجيال الغربية المنتشرة فى بريطانيا واورفنيه باسم كاكو وكابوت وما أشبه ذلك

ثم انه كما لا يخفى فى زمن الملك هنرى الرابع هاجر من اسبانية الى فرنسة عدد كبير ، نحو من مائة وخمسين ألف نسمة من مسلمى الأندلس ، فراراً من تضيق فليب الثالث ملك إسبانية الذى منع أن يجتمع فى جزيرة الأندلس دينان ، وأجبر بقية المسلمين فيها على التنصر بالنار والسيف . ولما وجد أن الكثيرين منهم لا يزالون مسلمين باطناء ، وأن لهم علاقات بالدولة العثمانية التى كانت فى ذلك العصر ذات صولة عظيمة ، أجمع أخيراً على طردهم من بلاده ، فجاءوا الى فرنسة ولكنهم لم يكونوا فى فرنسة الا عابري سبيل ، لأنهم أبحروا من سواحل فرنسة الى افريقية والبلاد العثمانية ومن بقى منهم

في فرنسا تنصر واندمج في مجموع الأمة كما أشار الى ذلك شينيه Chenier في كتابه
المباحث التاريخية عن المغاربة (١)

أما تأثير الأدب العربي في آداب لغات الامم الساكنة في جنوبي أوربة ، فقد

(١) عند ما اشتد التضييق الى الدرجة القصوى على بقايا مسلمي الأندلس، تحريقاً بالنار ، وتبليصاً
من المال ، واستعباداً للذكور والاناث ، وتعذيباً بمختلف الأشكال ، بحجة أنهم وان كانوا قد
تنصروا ظاهراً فلا يبرحون مسلمين باطناً أرسل هؤلاء سرّاً يستغيثون بالدولة العثمانية . وذهب منهم
خلسة من الأندلس وفد أدرك مدينة بلغراد ، حيث كان الصدر الأعظم على رأس العساكر العثمانية
الزاحفة يومئذ الى تلك الأقطار ، فبث الوفد الى الصدر الأعظم كل ما يعاينه المسلمون من العذاب
تحت حكم الاسبانيول ، وأنهم مع ذلك لا يسمحون لهم بالخروج من البلاد ، وأن منهم مئة وخمسين
ألفاً خرجوا الى فرنسا ، وهم يلتصقون من الدولة العثمانية أن تتوسط لدى ملك فرنسا وملك اسبانية
في أمر السماح لبقايا المسلمين المذكورين بالرحيل الى بلاد الاسلام . فعرض الصدر الأعظم ماسمعه من
الوفد الأندلسي على السلطان أحمد خان الأول رحمه الله وفي الحال لبى السلطان العثماني نداءهم ، وكتب
الى ملك فرنسا هنري الرابع يرغب اليه في تسفير المسلمين الذين التجأوا الى مملكته على مراكب
تبعث بها الدولة العثمانية فتحملهم الى بلاد الاسلام ، أو على مراكب افرنسية تتعهد الدولة العثمانية
بدفع كرائها

وكان هنري الرابع قد سمح بدخول هؤلاء المسلمين الى فرنسا على شريطة أن يقبلوا المذهب
الكاثوليكي ، فلما جاءه هذا الكتاب من السلطان أحمد وكان يهيمه عدم اغضابه ، أجاب طلبه
وأمر بتسفير المسلمين المذكورين الى افريقية وغيرها من بلاد الاسلام ، فخرج منهم فئات لحقوا
بالمغرب ، وآخرون بالجزائر وتونس ، وآخرون وصلوا الى مصر والشام ، ومنهم من قصد الى
القسطنطينية . وقد بقيت منهم فئة قليلة في فرنسا انتهى الأمر بأن سلاتها صارت الى النصرانية واندجمت
في الفرنسيس . أما الذين كانوا لا يزالون في اسبانية ، فبقى «فلب الثالث» يمنع خروجهم منها ،
إلى أن بلغه الخبر عما فعله هنري الرابع من النزول على ارادة السلطان العثماني ، فحسب لتدخل الدولة
العثمانية حساباً كبيراً ، وأمر فجمع عظماء مملكته ، وتشاوروا في قضية بقايا المسلمين في تلك
المملكة ، فأشار بعضهم بمنع خروجهم مهما وقع وعول الجمهور ومنهم الملك على اخراجهم جميعاً ،
تخلصاً من غوائل بقاءهم في اسبانية ، اذ قد ثبت للدولة الاسبانية أنه مع وجود هذه العلاقات السرية
بين المسلمين الأندلسيين وبين الدولة العثمانية لم يأت أحد منهم برغم تنصرهم في ظاهر الأمر ، ليخبر
الحكومة الاسبانية بشيء من تلك الحركات . فاستدلوا من هذا على أن هؤلاء لا يزالون
مسلمين ، وان أظهروا التنصر ، وأنه يدون من الحزم اجلاؤهم . أجمعهم عن اسبانية حتى لاتعرض هذه
«المملكة بسببهم لحرب مع الدولة العثمانية لاتعلم عاقبتها . فأخرجوهم جميعاً على مراكب الحكومة

قيل فيه انه وقع في لغة الاوك Oc التي كان يتكلم بها أهالي جنوبي فرنسا وكتلونية ، اذ هناك أقام العرب طويلا . وقد دخل في اللغة الافرنسية كلمات كثيرة من العربية لامراء فيها وهذا الاختلاط في اللغات لم يقع بخاصة أيام وجود العرب بفرنسا ، بل قد وقع أكثره بعد جلائهم عنها ، لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين العرب والفرنسيين في يوم من الايام . وبالأجمال فتأثير العرب في فرنسا كان أقل مما يتوهم الناس ، وان ما أجروه فيها من العيث والتدمير ليتضاءل في جانب ما خربه النورمانديون والمجار ، بل نقدر أن نقول انه بقيت للعرب مكانة عظيمة في نفوس الناس ، حتى أصبحت لفظة سرازين ولفظة رومانى كأنهما واحدة ، وحتى تعود العامة أن ينسبوا إلى السرازين أى العرب كل ما يروونه كبارا أو جبارا .

ومن الغريب أنه لم يبق من غارات النورمنديين والمجار الا تذكارات في بطون التواريخ ، والحال أن تذكار غزو العرب لفرنسا لا يزال في جميع الأذهان كأنه حديث العهد . وقد وقعت غزوات العرب قبل غزوات النورمنديين والمجار ، واستمر وجودهم في البلاد الى ما بعد جلاء المجار واندماج النورمنديين في مجموع الأمة ، الا أن غزوات العرب الأولى كان فيها من العظمة والأبهة مالا يمكن أن يقرأه الانسان الا وتعرؤه الدهشة والحيرة . وكان العرب يمتازون عن النورمنديين والمجار بكونهم أمة بقيت

الاسبانية ، وكانوا نحواً من ستمائة ألف نسمة ، فذهب أكثرهم الى المغرب ، وابثوا في الريف ، وعمرروا تطوان والرباط وسلا وجانبا من فاس . وذهب كثيرون فسكنوا تلمسان والجزائر وتونس ، ووصل آخرون الى الشرق . وكان ذلك في سنة ١٦١٢ مسيحية

وقد استوفينا تاريخ هذا الجلاء الأخير لاسمى الأندلس في الطبعة الجديدة من « حاضر العالم الاسلامى » واعتمدنا في كثير من المعلومات التي كانت مجهولة عند الجمهور على كتاب ابن عبدالرفيع الأندلسى الذى روى عنه ابن جندار صاحب تاريخ رباط الفتح فن شاء عن هذه المسألة بحثاً شافياً للغليل فليراجع تاريخ رباط الفتح أو حاضر العالم الاسلامى الطبعة الجديدة . ولسكننا سنخصص بهذا الموضوع ان شاء الله جزءا بتمامه من أجزاء هذا الكتاب ، فيه جميع تاريخ مسيحية الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة ولبثوا مسلمين في الباطن أكثر من مائة سنة ، وكان الاسبان يقولون لهم « المورييسك » وقد أجمع المنصفون على أنه لم تعذب في الدنيا أمة ما عذبه المورييسك هؤلاء ، حتى انفك عقلمهم وخرجوا من اسبانية .

مدة طويلة تسير على رأس المدينة العامة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسة لم تزل تحت الرعدة من احتمال غاراتهم . ثم ان الحروب العظيمة التي تولوا كبرها ، سواء في الأندلس أو في افريقية أو في آسية في وجه الصليبيين ، قدأضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق المعان الذي كان من قبل . وكل هذا لم يكن كافياً في تفسير مكانة العرب المكيّنة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسة وجوارها ، خلفا عن سلف . فقد كانت هذه القصص تكاد تكون الأسمار الوحيدة للأمرء والنبلاء ، بل الأسمار الوحيدة لعامة الشعب . وانما كان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية وحساً نجيباً . وقد تضاءل كل تاريخ بجانبها وهزل كل أدب ما عداها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، يذهبون من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية ، فينشدونها الجمهير التي تترنح لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع أولئك الرواة في انشاد تلك القصائد عن سير أبطال الوطن . وكانت أكثر هذه السير تدور على حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيين في دفع غاراتهم . ولما كان في هذه القصص وتلك القصائد من المبالغة ما هو جدير بكل القصاص الذين يترنمون بوقائع الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي تجسما لفضل أولئك الذين تولوا كبر تلك الوقائع ، حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة من فرنسة وإيطالية أمير عربي أو بطل عربي ييارزه أمير افرنسي أو بطل افرنسي وبعد أن يشتد البراز ويطول العراك وتظهر فيه خوارق الاقدار ، ينتهي بالبدهة بتغلب البطل الافرنسي على البطل العربي

وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا والاقيسة البعيدة ، في الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الاخلاق والعفو عند المقدرة وقرى الضيف تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة ، منها مارواه بعض مؤرخي الاسبانيول من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك اشتورية ، اذفونش الكبير ، أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة ، حرصاً على تهذيبه ، اذ لم يجد في المسيحيين إذ

ذاك كفؤاً لهذه المهمة .

ومن الغريب أنه في قصة من قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان الكبير يروون أنه في صغره ذهب واقتبس من أنوار العرب ، وأنه من تأثير ذلك تمكن من إدارة تلك السلطنة العظيمة التي جدد بها مجد العالم الغربي . وقد بقيت هذه الأقاويص هي المعول عليها في الاندية والمجامع ، وهي الفكاهة المستطرفة في المواسم والمخاف إلى عهد غير بعيد . ولم يدخل التحيص التاريخي عندنا إلا منذ مائة وخمسين سنة ، إذ أخذ الناس يبنون ما هو من عمل الخيال إلى ما هو من لباب الوقائع الراهنة .

وختم القول أنه لو نشر موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، ورأوا ما هي عليه الحالة في زماننا هذا ، لوجدوا اختلافاً كثيراً في بيئتي المسيحيين والمسلمين ، عما كانتا عليه في الأعصر السالفة . ولكن مما لا شك فيه أنهم بعد الوهلة الأولى كانوا يبتهجون بالمكانة العليا التي جعلها القصاص والزجالون من آباءنا لأعمالهم الكبيرة ، وكانت نفوسهم المشغوفة بمعالى الأمور تقابل بمزيد الاكبار ذلك الشعور النبيل الذي كان يحتاج عند من نسميهم البرابرة من آباءنا والذي لا يزال يتلاشى يوماً فيوماً . انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف

كتاب غارة العرب على سويسرة

في أواسط القرن العاشر

تأليف

الدكتور فرديناند كالر

Der einfall der Sarazenenen in die Schweiz
um die mitte des X Jahremderts
Von dr Ferdinand Keller
mittheilungen der antiquarischen
Gesellschaft in Zurich

وهو كتاب بالالمانية ، نشرته شركة « الآثار العتيقة » في زوريخ ، في سنة ١٨٥٦
وقد أطلعنا عليه العلامة الأستاذ « البروفسور هس » مدرس التاريخ والألسن
الشرقية في جامعة زوريخ من سويسرة . وذلك في سنة ١٩١٩ وهو أول كتاب اطلعنا
عليه في هذا الموضوع ، فلخصناه يومئذ ، ونشرنا خلاصته في مجلة النار لصاحبها
الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا . ثم اننا رأينا نقل هذا الكتاب برمته الى العربية
في كتابنا هذا ، ولم نختصر منه الا في المظان التي ليس فيها طائل

قال فرديناند كالر في كتابه :

قال ليوبراند (Liupran) : انه بحسب ارادة الله التي لا يدرك سرها ، قد
جرى في سنة ٨٩١ انه جاء عشرون عربياً في مركب صغير من سواحل اسبانية ،
قذف بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس ترويز St Tropez في بروفانس
Provence . فنزلوا الى البر هناك ، على عادة لصوص البحر ، وكان نزولهم في جوف
الليل فتسللوا الى قرية « ترويز » وفتكوا بأهلها المسيحيين ، وملكوا الناحية .
ثم اتخذوا معقلاً الجبل المسمى موريوس Maurus ليكونوا في حرز حريز من عادية

الأمم المجاورة . وكان ذلك الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها ، ولم يجعلوا فيها سوى شعب واحد لأنفسهم يعمرون فيه . وهذا المكان يسمى فرا كسينيتوم Fraxinétum ^(١) يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتسبة مشتبكة الأغصان ، من نشب فيها نفذت فيه أشواك أحد من الحراب فلا يقدر أن يتقدم ولا أن يعود . فأمنوا في هذا المكان المنيع وصار لهم سربا وصاروا يجولون في الجهات المجاورة بدون وجل ، واثقين بمكنهم هذا . ثم أنفذوا رسولا الى اسبانية لأجل أن يندب الناس من قومهم ، ليلتحقوا بهم ، فمدح الرسول المكان وأطعم الناس فيه ، وقال ان أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية فلم يلبث الا قليلا حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب ، جاءوا ليلتحقوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نبعته

وقد أسعف غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس ، من الشقاق البعيد ، وقيام بعضهم ضد بعض ، فكان بعضهم لأجل أن يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المكارين فكان من اختلاف أهالي تلك البلاد ومن توالى النجدات الى العرب من اسبانية ، أن أصبح هؤلاء آمنين في سربهم ، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاءوا ، وكيفما لاح لهم الصيد ، واجتاحوا تلك البلاد الخصبية اجتياحاً تاماً وأصابوا فيها مغنم كثيرة

هذه هي الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر ^(٢) عن نزول المسلمين في سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل « فرا كسيناتوم » وكيفية تحصينهم له ، بحيث بقى مدة سنين طوال مركزاً لقوتهم في هذا الجانب من أوربة وصيصية يمتنعون بها ويبيعون منها شراذم كثيرة أو قليلة ، الى الجنوب ، والى الشرق من جبال الألب البحرية . وما عتموا

(١) وفي الحاشية مذكور أنه يقال له أيضاً : Garde - Frainet في خليج سان ترويز

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية اسم هذا المؤرخ وهو Antapold وأشار الى أن هذه الرواية جاءت في صفحة ٢٧٥ من كتابه الذي ترجمه البارون فون دراوستن زا كين Von der Osten Sacken

أن صارت لهم شوكة يتحدث الناس بها ، برعب الناس منهم ، وباعتمادهم هم على أنفسهم . وكانت لهم غزوات بعيدة المغار ، لأجل الغنائم ، فإذا لم يجدوا أمامهم من يقرع النبع بالنبع نهبوا تلك الاديار الغنية والمدن المحصنة والمعقل التي كان يسكنها أشراف البلاد ، وتركوها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالامس

والذى يظهر جلياً من روايات مؤرخى ذلك العصر أن هذه الغارة لم تكن ذات مغزى سياسى كغيرها من الغارات ، ولا كان لهاغرض راجع الى توسيع ممالك الدولة الاسلامية الاندلسية . ولم يكن مقصد هذه العصابة اخضاع أهالى هاتيك البلدان لسلطانها . وذلك لان عددها لم يكن كافيا لتحقيق دعوى كهذه . وقصارى ما كانت ترى اليه أن تحوز الذهب والكنوز التي تعثر عليها ، وتعود بها الى معقلها في جبل فرا كسيناتوم ، وأنها اذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها في السفن الراسية في خليج فر كسيناتوم وتطير بها بجناح الريح قافلة الى اسبانية . وكذلك يظهر أن خليفة اسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التي تطوحت في ذلك الفج السحيق ولا أتاها أدنى مدد من جهته (١)

وأما السؤال عن الوقت الذى اجتاز فيه المسلمون جبال الالب ، وتوغلوا في أرض ايطالية ، فانه لايجد جواباً مستندا على معلومات دقيقة ويجب أن يكون هذا الحادث قد وقع على كل حال في أوائل القرن العاشر . فقد دلنا محرر المذكرات اليومية لدير «نوفاليز» Novalese الذى على مقربة من «سوزا» Susa بجذاء جبل «سنيس» Senis على أن غارة المسلمين كانت في نواحي سنة ٩٠٦ . فمنذ تلك السنة كانوا في «بروفانس» و«بورغوند» Burgund و «شيمله» Cimella حول «نيسه» nizza

(١) على أن رينو ينقل ان اوتون امبراطور المانية كان أرسل وفداً الى الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة من جملة مطالبه كف عادية العرب الذين نزلوا في فرا كسينيت وتقدموا الى جبال الالب . وقد تقدم ذلك في ترجمة تاريخ رينو

يحولون ويقتلون ويحرقون . ومن المحقق أنهم في هذه السنة كانوا يتوقلون في جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواى وسويسرة . وفي أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزه الذى كان من أعظم الأديار وأغناها . فلما سمع الرهبان بلصوصية هؤلاء القوم وبقسوتهم ، وكانوا يعرفون جيداً ما وراءهم حزموا ما في الدير من الأشياء الثمينة ومن جملتها خزانة الكتب النفيسة وذهبوا بها الى تورين لتكون بأمن . فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون واكتسحوا كل شئ وأحرقوا الكنيسة والبناء كله . وكان راهبان طاعنان في السن قد بقيا في الدير لأجل حراسته فقبضوا عليهما وأهانوهما (١)

وفي ذلك العهد أصبحت البلاد الواقعة بين نهري « بو » Po و « الرون » مجالا للغارات والعيث ، فالبيمون وبروفانس وبلاد « دوفيني » Dauphiné و « مونتفرات » Montferrat وبلاد « تارنتزة » Tarentaise كانت كل سنة عرضة للدمار والنار . وقد حدث مدونو الوقائع اليومية في ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص ، مما فعله هؤلاء العرب ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابري السبيل ، ويسلبونهم مامعهم واذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يقتلونهم (٢) . وكان أكبر القوم لاسيا الرؤساء الروحيون الذين يؤمون رومة واقعين تحت الخطر الشديد من غارات العرب ، بسبب ما يحملون

(١) هذه الرواية جاءت في كتاب رينو كما تقدم

(٢) لانريد أن تنفي عن هذه الفئة من مغيرة العرب حب النهب والكسب ولكننا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هي من وضع أولئك المؤرخين المتعصبين الذين كان جلهم أو كلهم رهباناً وقسيسين . وناهيك بعداوة الدين وحسبك دليلا على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هي التي بقيت مدة قرون في أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون وأنهم يعبدون مجداً وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيل من ذهب وفضة وما أشبه ذلك من الخرافات التي كانت تلك الشعوب تصدقها وتقبلها في كتبها فكيف تقدر بعد هذا أن تتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكسبيين عن وقائع عصائب العرب ؟

من الذخائر وما يستصحبون من الأعلاق النفيسة . وأما في القرى فلم يكونوا يقتصرون في النهب على الخيل والمواشي ، بل كانوا ينهبون كل ماله قيمة ، ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم في سوق الرقيق . وكانوا إذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم أناس في المعركة ، انتقموا لأنفسهم باحراق هاتيك المدن حتى يصيروها رماداً . وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات أحيانا بين البلاد بسبب غارات العرب وكان أهالي الأماكن التي يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون الى الجبال والغابات ، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم ، الا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نفي عام ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون . وأشنع شيء كان هو عدم الوثام بين أهالي البلاد ، بسبب عداوة الأبراء بعضهم لبعض ، واستنجادهم في حروبهم الداخلية بهؤلاء الأعداء . وكان من الطبيعي أن يوجه العرب كل همتهم الى الاستيلاء على الطرق العامة ، وبنوع خاص على معابر جبال الألب ، لأنهم كانوا يرون في ذلك أحسن طريقة للكسب والسلب ، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف الثام وكان المسافرون الأغنياء يأخذون معهم في أسفارهم كل ما يلزم لهم ، فكان في ذلك مطمع عظيم للمسلمين . وكانوا في تلك الطرق الجبلية يتمكنون من استقبال السابليين بالسهام والحجارة ، ومن القائهم في الأودية والمهاوى بحيث أنهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على مالا تقدر عليه الجيوش الكبيرة

وروى «فلودوارد» Flodoard في تعليقاته السنوية أن المسلمين سنة ٩٢١ أتوا على قافلة من حجاج الانكليز كانت ذاهبة الى رومة ، فلقوها في بعض أودية الألب ، واستأصلوها . وبعد ذلك بسنتين لقوا قافلة انكليزية أخرى وفتكوا بها . ثم انهم في سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج أخرى أيضاً ، فاضطر هؤلاء الى الرجوع قبل أن يقعوا في أيديهم . ولما كان غير ممكن تعيين أماكن هذه الوقائع فلا نقدر أن نحكم في أي محل حصلت ، أفي ضمن حدود ايطالية الى جهة سويسرة ، أم في حدود فرنسا ؟

واذا فكرنا أنه كان من عادة المسافرين الانكليز الذين يقصدون رومة أن يجتازوا من معبر سان برنار ^(١) لزم أن نرجح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود ايطالية . ولقد اطلعنا على تاريخ ثبت أن كنوت «Knut» ملك انكلترا والدانمرك الذى كان يلقب بالكبير كان قد طلب من رودولف «Rudolf» الثالث ملك برغوند Burgond أن يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق أو من جهة الاعفاء من الرسوم للقسوس والتجار والحجاج الذين من ممالكه يؤمنون رومة ^(٢)

في أى حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنار الذى كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس «Mont Jovis» وفي أية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة ؟ هذا شيء لا نقدر أن نحده . نعم توجد كتابات ، من ذلك الوقت ، متعلقة بهذه الحوادث ، إلا أنها لا تحتوى على تواريخ يمكن الاعتماد عليها . والذى يظهر من كلام رينو ^(٣) أنه يميل للقول بأن هذه الحوادث جرت في سنة ٩٣٩ لكننا سنرى فيما يأتى أنها جرت قبل هذا التاريخ ^(٤) . ومن المحقق أن العرب نزلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنار العالية الى وادى الرون الخصب ، حيث كان مبنياً دير اغاؤونوم «Agaunum» العظيم ، المؤسس على اسم سان «موريتيوس Mauritus» وأصحابه ، والذى كان فيه ذخائر كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، المهداة اليه من الملوك

(١) St - Bernard وهو من أشهر معابر جبال الالب

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية نص الكتابة اللاتينية التى يستفاد منها أن الملك كنوت الكبير طلب اجراء هذه التسهيلات بحق قصاد رومة من رعاياه . ونقل هذا النص من الصفحة ١٦٤ من تاريخ أصل الغويلفيين وهم شعب ألماني كان جاراً للسكسونيين

(٣) هو المستشرق الافرنسي رينو Reinaud الذي ترجمنا كتابه

(٤) يذكر المؤرخ كيلر كتاب رينو الذى لخصناه وهو « غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى والبيامون وسويسرة » المطبوع بباريز سنة ١٨٣٦ وكتاباً آخر عظيم القيمة على مملكة البورغوند تأليف فون غينغينس Von Gingins

الكارلوفنجيين والبورغونيين ، وكانت محفوظة ضمن حيطانه . ففي السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رماداً . ولم يمض الا قليل حتى جاء القديس « أولريك » Ulrich أسقف « أوغسبورغ » Augsburg في أثناء سفرته الى برغوند ، وزار هذا المكان لأجل نقل عظام الشهداء التي أذن له كونراد ملك نورغوند في دفنها في أوغسبورغ . ولم يكن باقيا هناك سوى خادم واحد يحرس البناء الذي صار طعمة للنار (١)

وما جاء في تاريخ « فلودوارد » أنه في سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج انكليز وغاليين ، كانوا قاصدين رومة ، فبعد أن فقدت بعض رجالها رجعت من حيث أتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور وقد ذكر مؤرخو الفرنسيين كتابا محفوظا موجه من راهب من دير سان « موريس » St - Maurice اسمه رودولف الى ملك فرنسة لويس الرابع المسمى « أوترمير » Outremer يقول له فيه : كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسة من « كلوفيس » و « داغوبرت » الى كارل الكبير (٢) لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه . وهو يلتمس منه أن ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دفنوا فيه

وفي ذلك الوقت كانت العصابة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم في جبال

(١) نقل المؤرخ كيلر هذا عن كتاب غرهاردى Gerhardi المسمى « حياة القديس أولريك »

وهذا هو اسم « أولريك » او « أولريخ » باللاتيني Vita S. Oudalrici . كذلك استشهد

كيلر بتاريخ مؤرخ آخر اسمه « فلودوارد »

(٢) الفرنسيين يقولون له كلوفيس والالمان كلوديفغ وأما كارل الكبير فهو الذي يقول له

الفرنسيين شارلمان Charlemagne

الألب المعروفة بالألب البونينية Pöninische قد بدأت تشالغارات على بحيرة جنيف وبلاد «فاد»^(١) كما ذكر المؤرخون المعاصرون. ويظهر أنها كانت استولت على معاير جبال الألب الشرقية . فإذا كان ينقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب الى جبال الألب الغربية ، وجوسهم الاودية التي تتخللها ، فان عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرقي سويسرة ، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور» Chur الاسقفية. فان فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦ : « أن العرب شنوا الغارة على سويسرة الالمانية وقتلوا كثيراً من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة »

وما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك أن جانباً من سويسرة الألمانية وهو القسم الذي من «كور» الى وادي «الرين» كان المسلمون قد اكتسحوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الالمانية Ratische العليا فان ثبت هذا الرأي فقد ترتب عليه اما أن تكون غارة العرب على مقاطعة «فالس» Wallis قبل سنة ٩٣٩ أو أن يكون احتلالهم لجبال الألب الالمانية سبق احتلالهم لجبال الألب البونينية . وليس من المحقق ماذهب اليه فلودوارد من أن احتلال العرب لمعاير الألب سنة ٩٣٦ أو سنة ٩٣٣ يعنى به احتلالهم جبال الألب الالمانية ، وانما المحقق كون «كور» ونواحيها قد اجتاحتها العرب قبل سنة ٩٤٠ وانه ليكون ذا بال أن تتمكن من معرفة الطريق التي سلكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد . هل جاءوا من اليامون منقسمين شطرين ، شطر منهم اتبع جبال الألب الشرقية ، والشرط الآخر اتبع جبال الألب الغربية من سويسرة ؟! الجواب: ليس بمستحيل أن يكونوا قصدوا ناحية «راتين» وبلغوها برغم قلة عددهم ، معتمدين على بساتهم والعرب الذي وقع في قلوب الناس منهم ،

(١) الألمان يقولون Waadt والفرنسيين يقولون Vaud وهي البلاد التي قاعدتها لوزان

ففتحوا طريقاً لأنفسهم على ضفاف بحيرات لانغن « Langen » وكومر « Comer » وعرفوا مسالك الألب^(١). ان تاريخ ايطالية العليا لا يذكر هذه الحوادث ولكن قد افترضنا أن العرب تقدموا من مارتيناخ « Martinach » خارجاً عن مجرى نهر الرون وتتبعوا ناحية فوركا « Furka » والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادي أورزيرن « Urseren » وساروا على الطرق القديمة المؤدية الى منابع الرين وأبواب معبر الألب الراحية . وهذا الافتراض لا يستند على رواية مكتوبة وليس فيما وجد في دير ديستنتيس « Dissentis » الواقع أمام وادي الرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك . إلا أن المؤرخين لا يزالون يعتقدون أن العرب كما عاثوا بنواحي « كور » ونهبوا ديرها قد اجتاحتها أيضاً دير « ديستنتيس »

وأما السند الذي ثبت به حضور العرب في وادي الرين فهو أن هرمان أمير سويسرة الألمانية قد التمس من أوتو الكبير في المجلس الذي عقده الامبراطور في كويد لنبورغ Quedlinburg في شهر ابريل سنة ٩٤٠ أن يهب فالتو « WaItto » أسقف كور تعويضاً عما لحقه من اجتياح العرب لديره ، وأن الامبراطور قد أجاب رجاء فعهد إلى الاسقف المذكور بإدارة كنيسة احدى كنيسة « بلودنس » Pludenz في وادي « دروس » Drusthale والثانية كنيسة سان مارتين في وادي شامزر Schamserthale على شرط أن ريع الأولى يعود الى أساقفة كور وأن ريع الثانية يعود الى دير الراهبات في « كازيس »

وظاهر أن العيث الذي عاثه العرب قد كان طويل الأمد ، وأنه وقع منذ سنة ٩٣٩

(١) نقل كيلر في الحاشية عبارة عن الأب « سيراسه » من رهبان دير « جورا » Gura
وهي هذه: مما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحيها نجد بقايا الأسماء
العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذاك إلا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق التي لم يكن غيرها في
البلاد منذ سقوط السلطنة الرومانية اه

وأن احتلالهم للالب الراتية كان في زمن احتلالهم للالب البونينية ، وأن هذا الحادث تقدم احراق العرب لدير سان موريس الذى يذهب رينو الى أنه وقع عند عبور العرب من سان برنار

ولكن في قولنا أنهم عاثوا واكتسحوا تلك البلاد ، لا نعنى أنهم أقاموا بها مستقرين في مكان ، بل كانوا يكمنون في الجبال وينقضون من مكائهم لدى الفرصة فلم تكن لهم قدم ثابتة في محل . وكانت حياتهم حياة عصابة تتجمع في كل يوم جبلا متى لاحت أمامها بارقة أمل في الكسب أقدمت ، والا أحجمت . فكان مطمح نظرهم كله قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر . ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة ، واتخذوها لهم مركزاً ، وكانت لهم أنزال ياجأون اليها وأبراج يضعون فيها مغائهم . وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل في الأودية العميقة وفي المضائق التي لا يمكن فيها الدفاع . وكانوا متى أعوزهم القوات صالوا على الاماكن غير الحصينة وعلى الأديار المملوءة بالأعلاق الكنسية

وبقيت حالتهم على ما وصفناه مدة مديدة ، الا أنه بعد دخولهم الى البلاد باثنتى عشرة سنة طراً حادث فجائى وافق مصلحتهم ، ومكئهم من معابر جبال الالب ، فازدادت بهم جرأتهم وتضاعف طمعهم

وهو أن « هوغو » Hugo كونت « بروفانس » كان في سنة ٩٢٦ قد أحرز تاج مملكة « لومبارديا » Lombardie ودخل في حرب عوان مع صهره « البريكوس » Albericus بطريق رومة . فاهتبل العرب من هذه الحرب الغرة ، واستفادوا من غياب الامير المذكور عن بلاده ، فتمكنوا من سلسلة جبال الألب ، سواء من الشمال أو من الغرب ، ونهبوا البلدان التي بمجذائها . ولما وصل صريخ رعايا الكونت هوغو مما لقوه من عيى العرب ، صحت عزيمته على مصالحة صهره والرجوع الى ايطالية

العليا ، ثم على مهاجمة المسلمين في معقلهم الأول « فرا كسينيتوم » . ولأجل أن يستوثق من الانتصار سعى في استمداد سلطنة القسطنطينية ، لتجده بمقدار من النار الاغريقية يحرق بها سفن العرب الراسية في ميناء فرا كسينيتوم ، ويقطع عن هؤلاء كل مدد من البحر . وكان في نيته مهاجمة العدو من جهة البر بينما يكون أسطول القسطنطينية ممسكا عليهم البحر . فبعد أن اتفق هوغو مع امبراطور القسطنطينية وقبل شروطه جاءت السفن البيزنطية الى مرسى « سان ترويز » بينما كان الجيش البرى يزحف من جهة « بافيا » Pavia فلم يكد الأسطول البيزنطى يصل الى المرسى حتى أحرق سفن العرب كلها . وتقدم الملك هوغو من جانب البر فضيق عليهم الخناق حتى انهزموا معتمسين بجبل « موريوس » وكاد يستأصلهم ويأخذهم جميعاً أسرى ، لولا أن حدث حادث غير منتظر وذلك أن « برنغار » Berengar كونت « ايفريا » Ivrea حفيد الامبراطور « برنغار » المتوفى سنة ٩٢٦ ووارثه كان قد أخذ يسعى سراً للحصول على تاج مملكة لومبارديا . فبلغ هوغو خبر هذه المؤامرة فعزم أن يقبض على المتآمرين وأن يقتلهم أو يسمل أعينهم . ولكن برنغار كان على حذر شديد فأنسل من لومبارديا بغتة والتجأ الى هرمان أمير الشغاب Schuvaben وسار اليه عن طريق سان برنار . فتلقاه الأمير هرمان براً وترحيباً ، وقدمه للامبراطور أوتو وهذا أكرمه وخلع عليه . فما كان أسرع هوغو عندما عرف بالقضية الى ارسال الهدايا من الذهب والفضة الى أوتو

وكان هوغو قد خلص ممالكه من العرب ، وخضد شوكتهم ، وتحول فكره الى جهة الامبراطور وأوجس خيفة أن يحشد هذا عليه وينزع منه تاج لومبارديا . فعدل هوغو مع العرب عن العداوة الى المسالمة ، وبعث اليهم في جبل مورو يعرض عليهم السلم على شرط أن يجوسوا خلال ديار برنغار ويمنعوه بجميع الوسائل من أن يحتاز جبال الالب بحيشه ^(١) فاشتراط العرب حينئذ على هوغو أن

(١) نقل كيلر عن المؤرخ ليود براند نص روايته باللاتينية ومعناها ان هوغو عقد مع المسلمين معاهدة يبجحهم فيها جميع معابر جبال الالب حتى يمنعوا برنغار من المرور بجيوشه الى ايطالية

يعترف لهم بحق احتلالهم معابر الالب الراتية والبونينية ، كما أن هوغو اشترط على العرب أن يخلوا المدن والقرى التابعة له . ولكن لم يكن هذا الشرط الاخير مصرحاً به في المعاهدة . فالسلمون قاموا بأحكام المعاهدة حق القيام واحتلوا جميع معابر الالب المذكورة ، يستدل على ذلك من كون برنغار عاد الى ايطالية مع جند قليل من أصحابه عن طريق جبال التيرول Tyrol

فأما العرب فقد تلقوا هذا العقد ، مع الملك هوغو ، بفرح عظيم ، وأصبحوا يرون أنفسهم السادة الشرعيين لهذه المعابر ، وصاروا يأخذون رسوماً من السابلين . ومن لم يؤد الرسم أخذوه أسيراً ثم اضطر أن يفك رقبتهم بمبلغ عظيم من الذهب ^(١) . وتقدم العرب من سان برنار وجاسوا في بلاد « فاتلانند » ^(٢) الى « أفانشس » Avanchez ونيوشاتل Niochatel في جبال « جورا » Jura وكانوا حيث مروا يعيشون وينهبون . ولقد كانت غاراتهم في شمالي الألب الراتية من « كور » ^(٣) الى بحيرة « كونستانس » ^(٤) في وادي الرين هائلة جداً ، فقد وجد في خزانة كتب دير « كور » كتابة تفيد أن الامبراطور أوتو الكبير عندما مر في ٢٤ فبراير سنة ٩٥٣ بقصر « ارنشتاين » Ehrenstein ترجاه الأسقف « هاربرت » مطران « كور » في تعويضهم من الرزايا التي ألحقها بهم العرب ، فأقطعهم أوقافاً في « الالزاس » وأخرى في « كونيغسكهايم » Konigsheim وكنيسة « موخنهايم » Mauchenheim وما يتبعها

-
- (١) نقل كيلر هنا نص رواية فلودوارد باللاتينية وهي التي يقول فيها ان العرب كانوا يأخذون الرسوم من القوافل القاصدة الى رومة فاذا أدت الرسم خلوا سبيلها
- (٢) هي مقاطعة « فو » Vaud الحاضرة التي قاعدتها لوزان
- (٣) تقدم ذكرها وهي التي فيها الدير الشهير Chur
- (٤) الالمان يقولون لبحيرة كونستانس بحيرة « بون » Bodensee

وقد وجدت كتابة ثالثة فى « دورنبورغ » Dornburg تاريخها ٢٨ ديسمبر سنة ٩٥٥
مآ لها أن الامبراطور « أوتو » كان منصرفا من ايطالية فشهد بعينه آثار عيث العرب
وبناء على التماس أخيه رئيس أساقفة « برونو » أنعم على دير كور بتلك التعويضات .
وقيل ان جزالة هذا العطاء الذى أعطاه الامبراطور كان من قبيل نذر نذره لأجل
عودته موقفا من ايطالية على طريق الألب ، فانه أنعم على الأسقف بالدار التى كانت تخصه
فى « زيرس » وأمر باعفاء سفن الأساقفة فى بحيرة « فالترى » من المكوس . وقد
أتبع ذلك أعطيات أخرى ، مثل اعطائه اياهم كنيسة « نتسينغن » فى وادى « دروس »
مع العقارات التابعة لها ، وانعامه بمجاية الأملاك التى كانت تخصه فى كور ، وبمكوسها
التى كان يؤديها سابلة الجبال من الالمان . وأخيراً أعطاهم فى سنة ٩٥٨ كنائس عدة
مثل « سان لورنز » و « سان هيلاريوس » و « سان مرتينوس » وكنيسة
« كاربوفوروس » ومنحهم حق ضرب السكة . وكذلك أعطى دير « ديسنتيس »
فى سنة ٩٦٥ الدار التى كانت له فى « فافيكون » على بحيرة زوريخ ، وأقطع فيكتور
رئيس رهبان كور سنة ٩٦٧ قطائع فى « فينشغاو » و « انغاين Engadin »
وفى ذلك الوقت أوصل العرب غاراتهم الى « زارغانس Sargans » و « توغنبورغ
Togenburg » و « ابنسيل Appenzell » وصلوا على أهالى تلك الجبال ، فقتلوا
الرجال ونهبوا المواشى وأحرقوا المساكن . وقد روى الراهب « ايكهارد ^(١) »
الذى حرر تاريخ دير « سانت غالن » ما يلى .

« كان العرب يبعدون جدا مغارهم فى جبال الألب لاسيما فى زمان « فالتو »
ويفتكون بأهلها بجرأة غريبة ، حتى انهم فى ذات يوم رشقوا بالنبال من أعالى جبل
واقع شرقى الدير جماعة كانوا قائمين بطواف دينى يتقدمهم الصليب مرفوعاً . ولكن

« فالتو ^(١) » كان شديد البأس فأمر قومه بأن يتعقبوا العرب الى مكائهم ، وسلحهم بالحرب والمناجل والفؤوس . وفي الليلة الثانية كبسهم بياتا ، فقتل منهم وأسر بعضهم ^(٢) وفر الباقون . ولم يقدروا أن يدركوهم لأنهم كانوا أقدر على التوغل ، وأبصر بالتوقل في الجبال . أما الذين وقعوا أسرى فسيقوا الى الدير في الأغلال ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يأكلوا ويشربوا ، وما زالوا حتى هلكوا جوعاً . وقال « اكهارد » ان الرزيئة التي رزى بها الدير من عيث العرب كانت من الجسامة بحيث يستلزم وصفها كتاباً ^(٣)

ولا يقدر أحد أن يعلم بالتام كم كانت مدة اقامة العرب بشرقي سويسرة ، فان الأوراق والوثائق التي وجدت في دير « كور » ودير « سان غالني » ودير فافرس « Pfafers » لم يوجد فيها ما يحدد هذه المدة ، ولا يظهر أن رحيلهم من هناك تأخر عن العقد السادس من القرن العاشر

وفي سنة ٩٥٤ نفسها ، وهي التي وصل فيها العرب الى سان غالني ، وقع الحادث المهم الذي هو هزيمة العرب والمجار معاً . فقد تمكن كونزاد ملك بورغوندا أو البرجان ، بيسالته الشخصية وبخدعة حربية دبرها ، من استئصال طائفة مهمة من هؤلاء العرب ^(٤) وتطهير أودية بلاده منهم . إلا أنه برغم هذه الهزيمة كان العرب لا يزالون مستولين على معاير الألب الغربية

وليس بمحقق وجود عرب الألب الغربية في هذه الواقعة ، فان « اكهارد » الرابع ، راهب دير سان غالني الذي روى خبر هزيمة العرب في هذه الواقعة يقول :

(١) Walto كان رئيساً للدير في سنة ٩٥٤

(٢) سبقت هذه الرواية في كتاب رينو

(٣) وقد أيد كيلر هذه الرواية في الحاشية برواية أخرى لمؤرخ اسمه فون اركس Von Arx كتب تاريخ مقاطعة « سان غالني » وقد نقلها من ٢٢٦ من الجزء الأول من كتابه

(٤) تقدمت هذه الرواية ايضا في كتاب رينو

ان العرب كانوا متمكنين جيداً في قلب الجنوب من أوربة حتى انهم لم يكونوا يحدثون أنفسهم بإمكان خروجهم منها . وكانوا يتزوجون ، بحسب قوله ، من بنات أهل البلاد ، ويسكنون أودية خصيبة ، ويؤدون للملك ضرائب . وعلى كل حال فما لا شك فيه أن قسماً من العرب الذين كانوا يصلون هذه الحروب قد أقاموا في الآخر وأوطنوا ، ونووا أن يؤسسوا لأنفسهم مستعمرة ويتعاطوا الفلاحة والزراعة . ولكنه غير ممكن تعيين المكان الذي نووا أن يستعمروه ، هل هو في « فاله » أو في « سافواي » أم في غيرها ، فان المؤرخين لم يعينوه . وفي سنة ٩٥٤ التي اشتهرت بغارة العرب من جهة ، وغارة المجار من جهة أخرى على سويسرة وقعت حادثة فرار الملكة برتا « Bertha » مع عمها المطران « أولريك » أسقف « أوغسبورغ » والتجأهما إلى البرج الذي كانت بنته هي في « نوشاتل » والمظنون أن هذا الحادث كان مبدأ لعمران مقاطعة « فو »^(١)

ولم ترد قصة العرب هذه في التواريخ العالمية فقط بل جاءت في سيرة بعض القديسين . وبالأجمال قد كانت اشتدت وطأتهم ، وعم الرعب منهم ، إلى أن أصبح الجميع في حنق شديد عليهم . ومما زاد حنق الناس عليهم أنهم كانوا تعرضوا لرجل من أكبر رجال عصره ، وهو القديس مايولوس « Majolus » راهب دير كلوني « Gluny » قبضوا عليه وهو عائد من « بافيا » إلى بورغوند ، وذلك سنة ٩٧٢ وقد روى هذه القصة خلفه في رئاسة دير كلوني كما يأتي :

عبر القديس مايولوس ورفاقه في ٢٢ يوليو سنة ٩٧٣ قنن جبال الألب ، ووصلوا إلى قرية واقعة إلى الشمال من معبرسان برنار على ضفة نهر درانس « Drance » كان يقال لها لذلك العهد « بونس أورزاري Pons Ursarii » وتسمى اليوم « أورزير »^(٢)

(١) لوزان وتوابها

(٢) ان المستشرق رينو يذهب إلى أن القديس مايولوس سار من اليامون على طريق جبل جنيف ووادي الدوفيني وأنه قد جرت معه هذه الحادثة في أعلى وادي « دراك » بقرب قرية « بون دوزير » وان العرب الذين سطوا عليه كانوا من المتوطنين بين « غاب » و « امبرون » وأما المؤرخ كيلر فانه يخطئ رينو في هذا الرأي ويقول انه وهم في ظنه وقوع حادثة القديس مايولوس في

وقد كان انضم اليه عدد من الحجاج من أقطار مختلفة أملا بأن يكونوا بجمعيته في مأمن . فلما وصلت هذه القافلة الى هذه القرية ومرت هناك من معبر ضيق ، انقضت عليها عصابة من العرب فأوقعت بها ، ولم يكن من سبيل في ذلك المكان للدفاع ، فأركنت الى الفرار لا تلوى على شيء ، فتأثرها العرب وقبضوا على من أدركوه منها وأوثقوه بالقيود . وكان أحد العرب يحاول طعن أحد خدمة القديس بمزراقه اذ تقدم القديس وابقى الطعنة بكفه ، فنفذت الطعنة منها ، وكانت جراحة شديدة بقي أثرها في يده طول حياته . وأما الخادم ففر ناحيا . ثم جردت هذه العصابة العربية الحجاج من كل ما معهم ، وساقتهم الى كهف من الصخر حبستهم فيه ، ولم تستثن من الحبس القديس مايولوس . فلحظ العرب رجلا جالسا على حجر لا يلوح على وجهه علامة الاهتمام بالخلاص ، وبينما كانوا يهينونه كان هو مهتما بدعوتهم الى الديانة المسيحية ، فازداد بذلك غضبهم منه ، فقيدوا رجله بالحديد ، وأدخلوه الكهف مع الآخرين . وفي الليلة التالية رأى مايولوس رؤيا أنه سيخلص من أيدي العرب ، بواسطة الرسل الحواريين ، فقد رأى أسقف رومة بالاثواب الجبرية وفي يده المبخرة . ثم رأى رؤيا ثانية أيدت أمله في أنه سيحتفل هو ورفاقه بعيد صعود السيدة مريم . ولما أصبح الصباح وجاء وقت الطعام عرض العرب عليه أن يطعم من طعامهم ، وكانوا يأكلون لحمًا وخبزًا يابسًا ، فأجابهم مايوليوس أنه ليس بأكل من هذا الطعام الذي لم يألفه حينئذ عجنوا له بسرعة وخبزوا خزا نظيفا طريا ، وقدموه له فتناوله منهم وأكل الخبز بعد أن بارك عليه بحسب عادته وعادت اليه قوته . وكان أحد المسلمين قد أراد قطع عصا من شجرة واحتاج الى أن يتسلق عليها ، فوضع رجله على التوراة التي كان القديس يحملها دائما معه في أسفاره ، فأخذ القديس يتنفس الصعداء . ولحظ ذلك المسلمون فوبخوا أخاهم على عمله هذا ، وقالوا له لا يليق أن تفعل هذا بكتاب يتضمن كلام الأنبياء . وذلك أن المسلمين يعظمون الأنبياء ويقولون ان ما قاله الأنبياء عن عيسى قد

الوقت الذي ذكره ، فهي متأخرة عن الوقت الذي ظنه رينو لأنها وقعت سنة ٩٧٣ ورينو يحسب انها وقعت في العقد الخامس من القرن العاشر

تم بشخص محمد (صلى الله عليه وسلم)

ثم ان العصابة العربية دخلت مع القديس في قضية فدائه وفداء بقية الأسرى ، لا سيما بعد أن رأوا منه ما استوجب حرمتهم له . وقد سألوه أهو من ذوى اليسار ، أم معدم ؟ فأجابهم بأنه لا يملك شيئاً ولكن للدير أصحاب يقدرون أن يفكوا الأسرى بأموالهم . فأرسل مايولوس ، بالاتفاق مع العرب ، راهباً كان معه ، وأحبه بكتاب الى دير « كلوني » يقول فيه : « إلى السادة والاخوان في دير كلوني ، من مايولوس المسكين المقيد بالحديد ، اننى محاط بالهلاك من كل ناحية فأسرعوا بانقاذى وانقاذ رفاقى وبارسال المال اللازم للفداء » فلما قرىء هذا الكتاب فى مجتمع الرهبان ، وكانوا يحبونه جميعاً ويحترمونه احتراماً زائداً ، بلغ منهم الحزن مبلغه وسارعوا الى جمع المال لساعتهم ، ولم يضنوا بشئ ولا ادخروا منفساً حتى أنهم بذلوا الأشياء الضرورية فضلاً عن الكمالية وعن الذخائر والاعلاق التى كانت عندهم . وفى اليوم المعين كان أحد الرهبان المبجلين فى قرية « أورزير » ومعه جميع المال المطلوب . فتخلص مايولوس هو ومن معه ، وتمتعوا بفرح الاحتفال بعيد صعود مريم الى السماء كما كان رأى القديس فى المنام

ومما يهم الاطلاع عليه هو أن العرب تقاضوا فى فداء القديس مايوليوس الف دينار فضة ، ولم يتقاضوا على الآخرين الا ديناراً واحداً عن كل رقبة ثم انه من هذه الحالة تتجلى القوة التى تمكن بها العرب فى ذلك الوقت من الاستيلاء على جميع معار الألب . ومن الغريب أنهم لم يكونوا يتقاضون مكوساً على البضائع التى تحمل على هذه الطرق كما كانوا يتقاضونها فى الأزمنة الأولى . ولم يطلبوا فى البداية شيئاً منها من مايولوس نفسه ، وذلك حتى يطعموه فى التقدم فيقطع أعالى الجبال ويصير فى الجهة الأخرى ، حينئذ ينقضون عليه ويسلبونه على حين يتعذر عليه الفرار . وهكذا حصل

وكان الملك هوغو قد اشترط عليهم أن لا يتعرضوا للحجاج ولا يأخذوا منهم شيئاً ، فرعوا ذلك العهد إلا أنه لما مات هوغو رأوا أنهم أصبحوا غير مقيدين بعهد

وقد قال « رينو » ان حادثة مايولوس كان لها صدى عظيم في كل الأقطار ،
وارتفع الصراخ من كل الجهات لأخذ الثأر ، وفي ذلك الوقت كان في جوار
سيسترون « Sisteron » رجل نبيل يقال له « بونو » أو « بوفو » (Bobo أو Beuoo)
مشهور بالحمية والنجدة ، عظيم الهم في تحرير وطنه ، فاستنهض الناس المعروفين
بالحمية على دينهم ووطنهم ، وقرروا بناء قلعة مناوئة لحصن العرب ، ليتمكنوا
من استئصالهم . فبوبو هذا الذي أصبح فيما بعد معدودا من القديسين هو الذي بدأ
بتخليص نواحي سيسترون من العرب وأخرجهم من جميع بلاد « دوفينه »
Dauphiné ثم انهم أخرجوا من « بروفانس » Provence لأن غيليوم أحد
أكناد^(١) بروفانس هاجمهم رجال أشداء من صناديد تلك البلاد ومن رجال دوفينه
السفلى وامارة نيقه^(٢) وذلك في قلعته فراكسينيتوم المشهورة ، فبعد دفاع شديد
استولى الافرنج على القلعة وفر بعض حماة العرب الى الغاب الذي بقربها وطلب
آخرون النجاة في الجبال وانتهى الأمر بأن فريقا منهم هلك وفريقا تنصر ، فاستحياهم
الافرنج واختلطوا بالأهلين

ولما كانت فراكسينيتوم مستودعا لجميع كنوز العرب وذخائرهم ، سواء الذين منهم
كانوا في فرنسة أو عليا ايطالية أو سويسرة ، فقد أصابها الغالبون وتقاسموها فيما بينهم .

(١) جمع كند وهو ترجمة Conte في اصطلاح العرب . وكان كتاب العرب يجمعون كند
على أكناد

(٢) nice بالافرنسية و nizza بالالمانية والاطالاة

آثار كتابته

في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(١)

من أهم الآثار التي تركها العرب في بلادنا الكتابة التي في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(٢) في « فاله » Valais فقد كان هذا الوادي مجالا لغاراتهم ومركزاً لهم في أثناء مقامهم بجمال الألب . وهذه الكتابة هي دليل واضح على أن تذكارتهم المخيف لم يكن احمى من قلوب الأهالي حتى من بعد مائتي سنة من جلائهم فانها قد كتبت في العقد الثالث أو الرابع من القرن الحادي عشر ، أى زمان بناء الكنيسة التي شيدها هوغو أسقف جنيف . وهو الذى كان ولدا طبيعيا للملك البورغونى رودولف الثالث ، وتولى كرسى الاسقفية نحواً من تسع عشرة سنة^(٣) ودفن في كنيسة لوزان الكاتدرائية بجانب أبيه . ومما يؤسف له أن هذه الكتابة كانت قد ذهبت في أثناء ترميم هذه الكنيسة سنة ١٧٣٩ وجعل الحجر الذى كانت منقوشة عليه من جملة عتبات الباب . ولقد طمست الآن هذه الكتابة حتى لم يبق منها سوى حرف هاء h وحرف ف f وصليب صغير . ولقد ورد نص هذه الكتابة على روايات مختلفة في بعض الكلمات لكنها متفقة في المعنى^(٤) وهى لاتينية معناها :

(١) Saint - Pierre montjoux

(٢) قد خاط رينو بين كنيسة القديس بطرس مونتجو وكنيسة القديس بطرس التي بين مارتيني وسيون

(٣) من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٣٨

(٤) اورد كيلر الروايات وعزا كل رواية الى صاحبها مما لم نجد حاجة لذكره

« ان عصابة اسماعيلية ^(١) انتشرت في وادي الرن وألقت الرعب في البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال في أودية الألب البنينية ^(٢) »
وفي أسفل الكتابة تاريخ بناء الكنيسة حسبما تقدم

(١) الافرنج في القرون الوسطى كانوا يسمون العرب ببناء اسماعيل وقد تقدم لنا ان الحجار كانوا يسمون المسلمين الذين كانوا في بلادهم بالاسماعيلية
(٢) الالب سلسلة جبال تبدأ عند خليج جنوة وتنتهى جنوبى الدانوب . وهى تنقسم الى ثلاثة أقسام : الالب الغربية وهى الليغورية الممتدة من سواحل البحر المتوسط الى مضيق « تاند » والبحرية الممتدة من تاند الى جبل « فيزو » والساحلية الممتدة من جبل فيزو الى جبل « سنيس » والغرائية الممتدة من جبل سنيس الى الجبل الأبيض
والالب الوسطى ، وهى الجبال الهلقتية ، أى السويسرية والبنينية ، الممتدة من الجبل الأبيض الى جبل السملون ، واللييونتية الممتدة من السملون الى بحيرة كوم ، والراتية الممتدة من بحيرة كوم الى بلاد النمسة والالب الشرقية ، وهى الجبال الالغافية والبافارية والستيرية فى النمسة والكادورية والكارنية واليولية بين النمسة وإيطالية ، والدبنارية فى الماسية
واعلى قنة فى الالب قنة الجبل الأبيض علوها ٤٨١٠ أمتار ، وهى أعلى قنة فى اوربة ، وبعدها تأتى قن روز وسرفين وبلغو وفيزو وجنيف وسملون وسان غوتار الخ . ويعرون من فرنسا الى ايطالية من تاند والارجنتير وجبل سنيس وسان برنار الصغير الخ . ويعرون من سويسرة الى ايطالية من سان برنار الكبير وسملون وسان غوتار وسان برناردينو والبولا وبرنينا الخ . وقد اخترقت الالب خمسة خطوط حديدية من ليون الى تورينو ، ومن لوزان الى ميلانو من طريق نفق السملون ، ومن بازل الى ميلانو عن طريق نفق سان غوتار ، ومن بازل الى اينسبورغ عن طريق نفق آرلبرغ ، ومن اينسبورغ الى فينا عن طريق بريكسن وبوتزن وترنت

أسماء عربية في البلاد

كان علماء الآثار قد بحثوا عن أسماء بلاد « فالة » ووجدوا ألفاظا كثيرة لم يعلموا لها أصلا في اللغات الغالبة على هذا الشطر من أوربة . ولما كانت هذه البلاد واقعة في معابر « الفالة » الى « البيامون » حيث مر العرب في القرن الحادى عشر فقد ترجح أن هذه الأسماء عربية الاصل ونحن الآن موردون عدة أسماء لا شك في كونها عربية

(١) « الماغل » في وادى زاس

هذا المكان هو قرية صغيرة في الجنوب من أعالي وادى زاس الذى يمتد منه طريقان الى البيامون ، أحدهما يمر في وادى « فوركا » ويسمى معبر « انترونا » والآخر هو معبر « مورو » نسبة الى جبل مورو . وكلا الطريقين معروف منذ سنة ١٤٤٠ بكونه من أقدم المعابر ، فأحدهما كانت تمر منه المواشى والحيوانات الموقرة بأموال التجار ، والآخر كان يمر منه البريد الطليانى قبل تمهيد طريق السمبلون (٢) . ولقد ثبت أن معاهدة الملك هوغو مع العرب لم تضمن لهؤلاء احتلال معبر سان برنار فقط بل حق الاستيلاء على جميع المعابر لمنع مرور الجيوش . فمن البديهي أن يكون العرب قد استولوا على وادى زاس ملتقى هذين الطريقين وجعلوا هناك برجاً فيه خفراء ، ومنه يأتى اسم « الماغل » بالتشديد محرفا عن « محل (٣) »

(١) Almagell في الوادى المسمى Saasthale

(٢) Sinplon وهو الذى فيه النفق الشهير اليوم بين سويسرة وإيطاليا

(٣) هذا خطأ من صاحب الكتاب الذى لا يعرف العربية فالماجل ليس محرفا عن محل وإنما الماجل هو الماء في أصل الجبل أو في الوادى أو مستنقع الماء، وهو معروف كثيراً وكانوا في مكة المكرمة يستعملون هذا اللفظ لبركة الماء . ذكر ذلك أبو الوليد محمد الأزرقى صاحب كتاب « أخبار مكة » وَاخبر عن ماجل عند حائط خرمان وماجلين أحدهما بالمعلاة . وقال صاحب القاموس : الماجل موضع بمكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه . وفي حديث أبى واقد : كنا نتأقل في ماجل أو صهريج ، قال ابن الأثير الماجل هو الماء الكثير المجتمع وقيل هو معرب . والتماقل التفاوض في الماء

« على العين ^(١) » في وادي زاس

في القسم الأعلى من وادي زاس مثلجة يقول لها أهالي تلك الجهات « مثلجة على العين » اذ منها تخرج ساقية من سواقي نهر « فيسب » Visp الذي هو وادي زاس فتسمية ذلك المكان « على العين » هي في غاية المطابقة

« العين » في وادي زاس

ان الجبل الأعلى الشرقي الذي هو منبع نهر « فيسب » كان يسميه العرب أيضاً « ألب العين »

« مشابل » في وادي زاس

ان أسماء القسم الغربي من وادي زاس لم تكن معروفة المعاني ، الا أن الأستاذ « هيتزغ ^(٢) » يذهب إلى أن « مشابل » Mischabel جاءت من الأشبال أى الأسود ، ويشرح ذلك بقوله ان هناك عدة قنن صغيرة تعلوها قننة كبيرة هي بينها أشبه بلبوة بين أشبالها وانه لا يبعد مثل هذا التخيل عن أم الجنوب . ولأجل تأييد هذا الرأي يستشهد بكون القمم التي الى الشرق من السملون تسمى بجبل الأسد ^(٣) وانه يوجد أسماء أخرى يظهر عليها الأصل العربي لكنها محرفة تحريفاً يصعب معه الاهتداء الى حقيقة أصلها ، فلذلك تركناها واكتفينا منها بجبل « مورو ^(٤) »

(١) Alalain

(٢) Hitzig وهو من كبار المستشرقين كان يقطن زوريخ

(٣) المشابل : اما ان تكون جمع مشبل بمعنى اللبوة أم الاشبال ، او أن يكون أصلها المشايل جمع مشبول وهو المكان الذي فيه الأسود

(٤) moro معناه مغربي وهو اسم يجده الانسان كثيراً في جنوبي اوروبا حيث أقام العرب

فأول ما يعرف بجبل «مورو» الجبل الذى الى الجنوب من حصن «فرا كسينيت»
والثانى الجبل الذى فيه معبر «مورو» الذى يؤدى من حصن العرب هذا إلى
« ما كونيغا » macugna فى البيامون
ويوجد أيضا قمة يقال لها « قمة المورو »^(١) الى الجنوب من « بانيو » فى وادى
« انزه »^(٢) ثم قمة أخرى بهذا الاسم بين « اترونا » ووادى « انزه » الى الشمال
من « برينونة » Prebenone

وكذلك الى الشرق من معبر سان برنار قمة اسمها جبل مورو
فانغلهارد Engelhard المؤرخ يرى فى كثرة هذه الأسماء بالجهة الايطالية من جبال
الألب ان العرب كانوا فيها قديما

اسوار وطرق وكهوف

وغير ذلك

ان العرب كما هو معروف هم أهل اتقان لصناعة البناء ، ولا سيما بناء الأبراج ، وطالما
أثروا فى هذا الباب آثارا باهرة . فمن الغريب أن لا يكونوا تركوا عند معابر الألب
شيئا من المعاقل والحصون . ولكن من المحتمل أن يكونوا أقاموا بالأبراج التى كانت
قبل مجيئهم قائمة عند مضائق الجبال باقية من القرنين الثامن والتاسع ، فلم تكن بهم
حاجة الى بناء حصون جديدة . وعلى كل حال ينبغى أن تكون الحوادث التى جاءت
بعد خروجهم من البلاد قد أنست الاهالى ذكراهم بالمرّة

وأما فى سويسرة فليس الأمر كذلك ، ولا سيما فى مقاطعة لوزان ، فانك تجد
« برج العرب La tour Des Sarrazins فوق « شيزاس » عند « فيفاى »^(٣) »

(١) وفى الأصل Pizzo del moro

(٢) وفى الأصل الألمانى Anzathale ومعناه « وادى انزه » ويجوز ان تكون « وادى عنزة »

(٣) Vevey وهى بلدة من انزه بلاد سويسرة على شاطئ بحيرة ليان بين لوزان

ودهليز العرب وغار الغرب بقرب « لوسنس » Lucens
وفي « فيفلسبورغ » Viflisburg يوجد حائط يقال له حائط العرب ^(١) جاء
ذكره في تاريخ سويسرة لمولر Muller في الجزء الاول صفحة ٢٥١
وان كثيراً من الاسماء المضافة الى « سارازين » المراد بهم العرب توجد في مدينة
« بازل ^(٢) » ونواحيها حسبما ذكر الأب « سيراسة » Serasset في تاريخه
« المباحث التاريخية والأثرية والجغرافية عن ابرشية بازل » في الجزء الثاني صفحة
١٤٩ فهو يقول :

« ويؤكدون أن هذه العصابات الفتاكة ، بعد أن أحرقت دير سان موريس
تقدمت نحو بحيرة جنيف وزحفت الى « الجورا » Jura ولم يقل لنا التاريخ شيئاً
عن توغل العرب في بلاد « روراسيا » Rauracie ولكن ان كانت الكتب قد
سكتت فقد قامت الأخبار المنة المتواترة مقامها . وان كثيراً من أماكن بلادنا
باضافتها الى أسماء عربية ، تشعر بوقوع هذه الغارة الخفيفة . فعلى نصف مرحلة من
« دفلية » Develier على الجبل ، والى الشمال الغربى منه ، يوجد على مقربة من الطريق
السلطاني الرومانى فسحة صغيرة بين صخرتين ، يقال لها غار « السارازين » وأهالى
هذه النواحي يروون بالتواتر ، نقلا عن آبائهم ، أن هذا المحل كان قد احتمله
« السارازين » أى العرب ، وانهم كانوا يذهبون ويوردون جمالهم عند « السورن »
Sorne بقرب « كورتيتيل » Courtetelle فهذا هو الاسم الذى يطلقه الأهالى على
ذلك الطريق الرومانى . وعلى أحد صخور الغار محفور عدد ٢٣ بالارقام العربية . ولما
كان لا يعرف من نقش هذا الرقم فى الصخر ، وكان قديماً جداً ، فيترجح أنه قد نقشه
العرب عند ما كان لهم محرس فى ذلك المحل

(١) فى الأصل Sarazins

(٢) مدينة بازل Basel والافرنسيس يقولون « بال » وهى من أشهر مدن سويسرة
واقعة على حدود المانيا . وفى هذه المدينة أسرة يقال لها الى اليوم أسرة « سارازين » ومنهم اناس
فى جنيف ومن هؤلاء الكولونل سرازين الذى هو من أمراء الجيش السويسرى

وبقرب من « روسميزون » Rossemaison بجذاء جيل « شايوت » Cheibut
توجد آثار طريق يقال له طريق السارازين^(١)

(١) ذكر كيلر في الحاشية نقلا عن « ادوارد كليرك » مؤرخ بلاد « فرانك كونته » من
فرنسة في الجزء الأول الصفحة الثالثة من كتابه ان الأسماء العربية في « فرانك كونته » كثيرة جدا
قال فعندنا خمسة كهوف منسوبة الى السارازين وجسران منسوبان الى السارازين ، وثلاثة قصور
وطريقان وقناة ومطحنة وواد صغير وجندلان من كبار الجنادل ومسلقة حديد ، وكلها منسوبة
الى السارازين أى العرب . ويوجد أيضا حائط يقال له حائط السارازين ومحل يقال له مخيم السارازين
وقرية يقال لها « ساراز » والجملة ٢٠ اسما

وكثرة هذه الأسماء المنسوبة الى العرب معهود في بلاد « بريس » Bresse ومقاطعة ليون ،
فن مدينة ليون الى آخر حدودنا الجنوبية تجد مذاود ومسالف منسوبة اليهم ، وتجد اما كن مثل
ساحل السارازين ومثل سارازينه وغيرها انتهى كلام كليرك
أما بلاد فرانك كونته فهي من مقاطعات فرنسة ، وكانت داخلة فيها بلاد « جورا » من سويسرة

المسكوكات

من قديم الزمان يوجد في سويسرة مسكوكات عربية من الفضة ، غير قليلة ، تستجلب النظر . ولقد تمكن العلماء باللغة العربية من اثبات مكان ضربها وزمانه ، ولكن لم يكن عليهم من السهل الجواب على كيفية وجود هذه المسكوكات تحت الأرض نظير ما وجد من المسكوكات الباقية من الدور الرومانى . فقبل ان ندخل فى بحث تاريخ هذه المسكوكات يجب أن نذكر الأما كن التى عثر عليها فيها وكيفية العثور عليها

فأول تنقيب جرى بشكل علمى وأدى الى نتيجة كان سنة ١٨٣٠ وذلك أنه وجد على مائة خطوة من قرية «شتيكبون» Steckbon على الطريق العام ثلاثون قطعة من الفضة ، لم يعرف أحد فى البداية ماهى . وقد اشترى اكثرها الماجور « شينغ » Schiegg وبعضها دخل فى حيازة البرنس لويس نابوليون^(١) ثم اهداه البرنس بواسطة الاستاذ « اوكن » Oken الى مجموعة العاديات فى زوريخ . وبعد هذا اهدى الاستاذ « كيرن » Kern والاب « ران » Rahn من شتيكبورن جملة من هذه القطع الى المجموعة المذكورة . وقد كان أول من شرح تاريخ هذه القطع ، من علماء المسكوكات ، الاستاذ « فراين » Fraehn من أعضاء اكااديمية بترسبورغ ، فقال : ان هذه الدراهم هى من ضرب عمال الخلفاء على افريقية فى الربع الأخير من القرن الثامن . وكانوا يطلقون لفظة افريقية على البلاد التى تتركب اليوم من تونس وطرابلس . فاقدم هذه الدراهم مضروبة سنة ١٦٩ للهجرة وأحدثها سنة ١٨٢ أى أقدمها فى زمن الخليفة الهادى وأحدثها فى زمن هرون الرشيد الشهير . وكلها مضروبة

(١) اخو بوناپارت وهو الذى صار ملكا على هولاندة

في القيروان عاصمة افريقية في زمان الأمراء عمال الخلفاء نصر (١) وهرثمة (٢) (ابن أعين) ويزيد (٣). وان قطعة واحدة هي مضروبة في زمان ادريس مؤسس الدولة الادريسية (٤)

وهذه المسكوكات مغطاة بالكتابة ، كاسم الامير ، ومكان الضرب وتاريخه ، وبعض آيات من القرآن

وأكثر الكتابة هي بالخط الكوفي الذي يختلف عن الخط العربي الحاضر وأما كيفية دخول هذه المسكوكات الاسلامية إلى سويسرة فيظن الأستاذ فرين أنه كان عن طريق فرنسة ، لأنها وجدت مع هذه الدراهم مسكوكات مضروبة باسم كارلوس الأصلع ملك فرنسة (٨٤٣ - ٨٧٧) وان النورمانديين قد أتوا بها إلى فرنسة في أثناء غارتهم عليها . وكان النورمانديون أتوا بها من شمالي افريقية ، في أثناء غاراتهم على سواحل تلك البلاد . ولقد ظن ذلك بناء على أنه وجد من هذه المسكوكات

(١) نصر بن حبيب ولاء افريقية هرون الرشيد وكان في الأصل على شرطة يزيد بن حاتم في افريقية ومصر كانت ولاية نصر في العشر الأخير من رمضان سنة ١٧٤ فحسنت سيرته وعدل في احكامه

(٢) هرثمة بن اعين ولاء الرشيد افريقية سنة ١٧٩ في ربيع الآخر ، فسكن الناس ، وهزم الثوار وبنى سور طرابلس والقصر الكبير المعروف بالمنستير . قال الرقيق . لما رأى هرثمة بن اعين مارأى من الخلاف في افريقية وسوء طاعة أهلها طلب الاستعفاء فكتب اليه هرون بالقدوم عليه فرجع الى المشرق

(٣) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان يكنى أبا خالد ولاء أبو جعفر المنصور افريقية سنة ١٥٥ وكان من عظماء الرجال وفيه قال الشاعر

حلفت يميناً غير ذى مشنوية عيين امريء آلى وليس بآثم
لشطان مابين اليزيد بن في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

واستمرت ولايته ١٥ سنة و ٣ أشهر بحسب رواية ابن عذارى

(٤) دخول ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم الى المغرب كان سنة ١٧٠ وكان معاصروه من الامراء هشام بن عبد الرحمن الداخل في الاندلس ويزيد بن حاتم في افريقية

في الروسية مما كان قد جاء به النورمانديون أيضاً . إلا أنه بعد أن تحقق كون العرب أقاموا زمانا طويلا في نفس سويسرة لا يبق محل لنسبة جلب المسكوكات الى النورمانديين

وقد وجدت دفينة أخرى من المسكوكات العربية في « مودون » لكنهم لم يعرضوها على علماء المسكوكات إلا منذ سنة . ولقد اعتنى بهذه المسألة المسيو « سوره » Soret من جنيف ومن أعضاء الأكاديمية الذين لهم مباحث جلية عن مسكوكات سويسرة

فأحدى هذه القطع مضروبة في افريقية أيام العباسيين سنة ١٧٠ هجرية (٧٨٦ - ٧٨٧ للمسيح) والثانية عليها اسم اسماعيل بن أحمد في أيام الخليفة المعتضد ، ومكان ضربها الشاش ، وزمان ضربها سنة ٢٨٣ للهجرة (٨٩٦) والثالثة مضروبة في بغداد سنة ٣٦١ (٩٧٤)

وقد ترجم الأستاذ « سوره » كتابات الدراهم ، فأحدها مكتوب عليه من إحدى الجهتين لا اله الا الله وحده لا شريك له : عضد الدولة أبو علي بويه . وعلى الدائر باسم الله ضرب هذا الدرهم في مدينة السلام سنة أربع وستين وثلاثمائة . ومن الجهة الأخرى لله المجد . محمد رسول الله . الطائع لله . الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع

ورأى المسيو « سوره » يوافق رأى الأستاذ « فرين » بشأن المسكوكات العربية التي وجدت في شتكلبورن ، وهو أنها دخلت سويسرة بواسطة النورمانديين . أما التي وجدت في مودون فانه يراها دخلت بواسطة العرب الذين أقاموا بسويسرة . ومن جملة الافتراضات أن تكون هذه المسكوكات قد وصلت إلى سويسرة بطريقة سلمية ، أي كثمن بضائع ، أو أن تكون وصلت الى أيدي السويسريين في أيام الحرب الصليبية من جملة ما غنمه الافرنج من المسلمين . ولا نميل الى قبول هذين الافتراضين كما نميل الى رأى « سوره » من كون دفينة مودون هي مما تركه العرب الذين شنوا الغارة على سويسرة

الملابس العربية

ان في خزانة كنيسة « كور » من بقايا القرون الوسطى أشياء نفيسة الى الغاية ، يندر وجود مثلها في البداعة ، فمنها حلة من الحرير يلبسها القسيس في القداس ، تختلف عن بقية الملابس الكنسية وهي مطرزة بآيات قرآنية مكتوبة بالاحرف العربية . ولانعلم شيئاً عن كيفية حيازة الكنيسة لهذه الحلل ، ولكن يترجح انها كانت في أيام وجود العرب في سويسرة . وكما ان رينو يقول ان في كنائس فرنسة كثيراً من الحلل الدمقسية والآنية الثمينة والأقداح البلورية التي جاءت في زمان وجود العرب بفرنسة ، فلا يبعد أن يكون مافي كنيسة كور من هذه الملابس الكهنوتية قد جاء في زمان وجودهم بسويسرة

واننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا في أيام ازدهار الخلافة في اسبانية ، أعلى كعباً في الصناعات والعلوم من الأوربيين ، وأن الثياب التي كانوا ينسجونها للزينة كانت من أفخر مايوجد . ولقد اتفقت الكلمة على كون الصنائع العربية اليدوية ، من الحلل والآنية الفضية والأسلحة ، هي من الأشياء التي يتنافس الناس بها . إلا أننا نقول ان الشيء الذي فاق العرب به الجميع هو صناعة النسيج التي كان أكثر ازدهارها في القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر . وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة وملوكها ، فانهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية . وأفخر ما كانت تشتمل عليه هداياهم هو الثياب المطرزة المنسوجة بأنواع التصاوير المزركشة بالذهب والفضه مما كانت تخرجه معامل المسلمين . وكان من اصطلاح العرب في النساجة أن يجعلوا خطوطاً عرض الواحد منها سبعة سنتيمترات ، وينسجوا عليها حروف الكتابة التي يريدونها من جهة ، والتصاوير من جهة أخرى . ولم تكن هذه الكتابات وهذه التصاوير من صنع الايدي ، بل كانت من عمل المعامل والانوال . وكانت مادة النسيج من الخز وخيوط الفضة مصنوعة بالتطريق ، وكانت تدور بخيطان الفضة بنود

من الحرير الأصفر ، بحيث لا تزال الفضة تلمع في أثناء النسيج ، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائي تلك الفضة ذهباً .

وقد ذكر ابن خلدون الكاتب العربي المشهور أن أمراء العرب وملوكها كانت تخلع على من تريد تشريفه أو تكريمه خلعاً من هذا النوع ، وكان العمل الذي يخرج هذه المنسوجات يسمى بالطراز . وقد نقل المستشرق الشهير « دساسي » عبارة ابن خلدون في المجلد الثاني صفحة ٧٨٢ من كتابه « المنتخبات العربية » Chrestomatie Arabe كما أنه في صفحة ٣٠٥ من هذا الكتاب ذكر ما يأتي :

« اننا نعرف منسوجات كثيرة من صنع العرب ، هي من النوع الذي يسميه ابن خلدون بالطراز . وأول ما أذكره الطيلسان الذي كان يرتديه قياصرة المانيا عند تتويجهم ، فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابة عربية منسوجة من خيطان الذهب ، كان قد ترجمها وشرحها المرحوم المسيو « تيخسن » Tychsens وظهر أن هذا الطيلسان صنع في بلرم ^(١) سنة ٥٢٨ للهجرة (١١٣٣ للمسيح) ولا شك في أن ذلك كان في زمن رجار ^(٢) لأنه لا يوجد في تلك الكتابة شيء يتعلق بالديانة الاسلامية » ثم ذكر دساسي أسماء كتب ألمانية تتكلم عن هذا الطيلسان . ثم قال :

« وأذكر قطعة ثانية من هذا النوع من الحرير والذهب محفوظة في ذخائر كنيسة توتردام في باريز . وهي من أنفس النسيج وعاليها ألقاب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١ (١٠٢٠) ثم أذكر قطعة ثالثة من هذا النوع وجدت في

(١) Palerme عاصمة جزيرة صقلية

(٢) Roger والمراد به رجار الثاني فان الكونت رجار الأول النورماندي جاء الى ايطاليا سنة ١٠٥٢ وبعد أن فتح قالايرة غزا صقلية ولم يزل يجهاد العرب الى أن استصفي هذه الجزيرة سنة ١٠٩٠ بعد حروب بينه وبين العرب استمرت ٢٨ سنة وكان العرب قد ملكوا صقلية مدة ٢٠٠ سنة ثم مات رجار سنة ١١٠١ وخلفه ابنه رجار الثاني فتوج ملكاً في بلرم سنة ١١٣٠ باسم ملك الصقليتين لانه كان فتح قالايرة ونابولي وغيرها وكان ملكاً عظيماً ومات سنة ١١٥٤ .

أحد قبور دير « سان جرمان دى پراى » St - Germain - Des - Près وفيها كلمتان عربيتان مكررتان كثيراً . وقد ذكر هذه التحف المسيو « فيلمين » Villemain فى كتابه عن الآثار المجهولة الى الآن والتي تنبغى معرفتها خدمة لتاريخ الصناعة . وتكلم أيضاً عن هذه القطعة المسيو « دمارست » Demarest فى رسالة مطبوعة سنة ١٨٠٦ ومما يلحق بهذا الباب ما وجد فى قبر الامبراطور فريديريك الثانى (١) المتوفى فى ١٣ دسمبر سنة ١٢٥٠ فقد عثروا على قيص على أكامه كتابة عربية . وذكر ذلك فى كتاب ايطاليانى مطبوع سنة ١٨١٤ فى نابولى يتضمن كلاماً على قبور بلرم . ولقد نشر المسيو « دمور » Demurf فى أحد تأليفه صورة سجادة ، عليها كتابة عربية ، منسوجة بمصر فى زمان المستعلى بالله أى بين سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٠١ وهى محفوظة فى خزانة الفاتيكان فى رومة » انتهى كلام دساسى .

(١) امبراطور المانيا الشهير، حفيد الامبراطور فريديريك بربروس الذى اغتسل فى نهر طرسوس، ومات وهو ذاهب لمحاربة المسلمين فى الصليبية الثالثة . وكان الامبراطور فريديريك الثانى امبراطوراً على المانيا وملكاً على صقلية . وكانت ولادته سنة ١١٩٤ ومات أبوه هنرى السادس ، وهو ابن ثلاث سنوات ، فكفله البابا اينوشنسيوس الثالث الى أن بلغ رشده ولكن البابا غريغوريوس التاسع كان عدوا له لانه كان يرى فيه عدوا للبابوية ولاستقلال الأمة الايطالية . وكان يثقل على الطليان أن يكون فريديريك امبراطوراً على المانيا وملكاً على الصقليتين فى وقت واحد ، فلأجل أن يستجلب اليه ميل النصرانية قام بالحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ واسترجع من المسلمين القدس صلحاً ، ورجع الى ايطالية ، وهزم « جان بريان » الذى كان شن الغارة على نابولى . ثم عاد الى المانيا بعد غيبة ١٥ سنة لقتال ابنه هنرى الذى كان قد خرج عن طاعته . ثم تألب عليه امرء ايطالية فزحف اليهم وهزمهم فأعلن البابا غريغوريوس حرمه ، ثم جدد البابا اينوشنسيوس الرابع هذا الحرم ، وأعلن اسقاطه من جميع ممالكه ، وذلك سنة ١٢٤٥ فثارت به الناس من كل ناحية ، وطعم غيلوم ملك هولاندة وغيره فى تاج امبراطورية المانيا ، وقتله الطليان من الجهة الاخرى وهزموه ، وانتشر عليه الامر واشتد به الغم ، الى أن مات فى « فلورنتينو » سنة ١٢٥٠ وكان أرقى ملوك عصره ، متكلم بالالمانية والايطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وله مؤلف فى العربية باحث فى عدة من المسائل الفلسفية . وله رسائل باللاتينى وقصائد بالايطاليانى وكانت له علاقات كثيرة مع المسلمين . وكان عنده جيش منهم كثير العدد

وعاد كيلر الى ذكر القطعة التي وجدت في دير « كور » بسويسرة ، فقال : ان عليها كتابة بالعربية « أطال الله لنا أهله » وقال : ان الأستاذ « هيتزغ » قد ترجمها واذا بالترجمة هي دعاء للمدعو له باطالة حياة رجال ثقته وقومه . وهو تفسير غريب . والمرجح أن هذا الأستاذ تصحفت عليه كلمة « أجله » فقرأها « أهله » لا سيما أن الكتابة هي بالأحرف الكوفية . ولا بد أن تكون العبارة « أطال الله أجله » لأن « أطال الله أهله » ليس لها معنى . انتهى كلام كاربيعض اختصار

الخاتمة

القصص على آثار العرب في وادي فاله من سويسرة

قد تقدم في هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها والتي يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادي واستولوا على معبر سان برنار الكبير ، وتغلغلوا في عدة من شعاب الوادي ، وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ومن جملتها احراقهم دير القديس موريس . ومنذ جئنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا في أثناء الحديث مع علماء البلاد ، ولا سيما الذين يعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد في ذلك الوادي قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالي ، وانهم يعرفون من سحنائهم أنهم عرب . فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل ما تعلق بموضوع اقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية ، رأينا حريانا ، زيادة في التثبت ونصحاً بالبحث ، أن نتوجه بنفسنا الى هاتيكا القرى التي يقال ان أهلها من أصل عربي ، ونقب ما استطعنا عن هذه المسألة بمشاهدة أهل الديار ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار . وكان طيبينا في لوزان الدكتور جاك رو^(١) قد أشار علينا بزيارة دير سان موريس الذي فيه خزانة كتب قيمة ومخطوطات متناهية في العتق ، وكتب كتاب توصية لرئيس الدير حتى يضع بين أيدينا من الكتب والمخطوطات ما يوافق موضوعنا ، كما أن صديقنا المحامي الدكتور فريدريش من جنيف ، وهو من المتخصصين في العلوم التاريخية والأثرية ، قد ذكر أنه من جملة تلك القرى قرية اسمها ايزيرابل Iserables وقرية أخرى اسمها فريتوريس Freytorreus وقال : ان القرية الأولى في مكان حصين ، محاط بالأوعار ، مما يستدل منه على أن العرب لجأوا الى ذلك المكان واعتصموا به .

ففي ٢٩ يونيو من هذه السنة قصدت الى سان موريس وهى تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية ساعتين وربع ساعة ، وذهبت الى الدير الذى تنتسب اليه القصبه ، وهو دير عريق فى القدم بناه سيجموند أمير بورغونية فى سنة ٥١٥ للمسيح ، ولا يزال معموراً من ذلك الوقت . فعند ما دخلت الى الدير ناولتهم الكتاب الذى معى من صديقهم الدكتور جاك رو ، فاستدعوا الى الراهب المتولى حفظ المكتبة واسمه طونولى Tonoli فجاء وجلس الى ، وتجاوزنا أطراف البحث الذى جئت الى هناك من أجله ، فقال لى انه لا يعهد فى خزانة كتب الدير مخطوطات فيها شىء يتعلق بغارة العرب على وادى فاله ، وانه يمكن الاطلاع على هذه المسألة فى الكتاب الذى يقال له Monumanta Germanica Historica أى مجموع التاريخ الجرمانى . ثم قال لى : الا أنه من المتواتر عند الجميع أن العرب مروا من هنا وأحرقوا هذا الدير . ثم أشار على بالذهاب الى بلدة مارتيني Martigni وهى على الخط الحديدى تبعد نحواً من نصف ساعة عن سان موريس الى الجنوب ، وتقع بعد سان موريس بثلاث محاط ، وأن هناك رجلاً محامياً يقال له كوكو Goquoz يقدر أن يدلنى على القرى التى يقال ان من أهلها من هو منحدر من دم عربى ، ويقفنى على معلومات قديمى الاطلاع عليها . وكذلك فى مدينة سيون Sion قاعدة مقاطعة فاله رجل يقال له الأب ليومير ، متخصص فى الأمور التاريخية ، وله كتاب عن تاريخ مقاطعة فاله ، فهو أيضاً من الأشخاص الذين قد أجد ضالتي عندهم .

وعلى هذا فقد ذهبت الى مارتيني وبحشت عن المسيو كوكو ، وحدثته بالمقصود من زيارتي له ، فدلى على رجل يقال له فيليب فاركه Farquet يقيم بدائرة تخص دير سان برنار ، وهو معدود من العلماء ، فذهبت واجتمعت بهذا الرجل ، فقال لى انه لا يعلم شيئاً من جهة تاريخ العرب فى وادى فاله غير ما هو شائع على ألسن الجميع ، ولكنه أشار الى ساحة وراء كنيسة مارتيني وقال لى ونحن ننظر من النافذة : ان هذه الساحة التى أمامنا يقال لها ساحة السرازين Place des Sarrazins ومن هنا يعلم أن العرب سكنوا فى مدينة مارتيني هذه ، وهو أمر معقول جداً ، لأنه قد ثبت

فى التاريخ كونهم استولوا على معبر سان برنار المشهور . ومن المعلوم أن مارتينى هى البلدة التى يصعد منها الناس الى جبل سان برنار الذى فيه الدير القديم ، وكل يوم تسير السيارات بالمسافرين بين سان برنار ومارتينى .

وكنى علمت من هؤلاء الأشخاص الذين تحدث معهم فى هذا الموضوع أن قرية ايزرابل هى التى يرجح أن فيها من بقايا العرب ، وأنه يوجد أيضاً قرية أخرى تابعة لمدينة سيون يقال لها ايفولين Evolene هى من هذا القبيل . فسرت بالقطار الى سيون ، واجتمعت بالقسيس الذى يقال له ماير وهو قيم خزانة الكتب التى فى مدرسة سيون ، فلم أجد هذا الرجل معتقداً بصحة هذه الروايات . وهو يظن أن العرب مروا ببلاد فاله غزاة ، عابرى سبيل ، وما عدوا أن أحرقوا دير سان موريس ولا أعلم هل هو معتقد ذلك فعلاً ، أم يحاول انكار وجود آثار للعرب فى تلك الديار فقد وجدته من القسيسين المتعصبين فى الكتلكة الى الغاية ولم أجد فى كلامه ما ينقض شيئاً من الروايات التى أطبق عليها المؤرخون من كون العرب أوطنوا وادى فاله وأقاموا بها حقبة وبقيت لهم فيها أعقاب . وهو نفسه أشار على بمراجعة كتاب بالألمانى لمؤلف يقال له فيشر Fischer لكنه يقول انه غير واثق برواياته .

فتركت القسيس وركبت سيارة وسرت الى قرية ايفولان ، والمسافة من سيون اليها نحو من ٢٥ كيلو متراً ، وهى فى الجبال ليس وراءها عمران ، ومنها الى حدود ايطالية بضع ساعات لا غير . فلما وصلت الى القرية وجدت قرية صغيرة ليس فيها أكثر من مئة بيت ، أهلها فلاحون ، يعيش أكثرهم من الحرث ومن قطع الأخشاب ، لكثرة الحراج التى حولهم . فسألت عن شيخ القرية أو عمدتها ، كما يقال فى مصر ، فدلونى على بيت حقير ، دخلت اليه فوجدت الرجل ، وحادثته فى الموضوع فقال لى انه يسمع بهذه الروايات كسائر الناس ، وانه ليس عندهم وثائق خطية على شىء من هذا . ثم أشار على بمقابلة القسيس مرشد أهل القرية فسألت عن القسيس فلم أجده . ثم ملت الى فندق صغير فى تلك القرية ، يقصد اليه السياح الذين يحبون العزلة فى الجبال ، فوجدت صاحب الفندق رجلاً على أثاره من علم ،

وهو من أهل سيون ، فقال لى : ان الجميع يسمعون أن أهالى هذه القرية أو بعضهم على الأقل هم من أصل عربى ، وانه فى الوادى الآخر الذى وراء وادى ايفولن والذى يقال له انيفيه Anniviers قرى يقال أيضاً ان فيها من بقايا العرب الذين أغاروا على وادى فاليه . وسألت هذا الرجل هل يعلم فى ايفولين عائلة تعلم نفسها منحدرة من أصل عربى ، فأجابنى : أما هكذا فلا أعلم وغاية ما هناك أنهم يقولون بوجود الدم العربى فى هذه القرية ، وأن فى سحنة بعض أهلها ما يدل على كونهم ليسوا من أصل سويسرى .

فغادرت قرية ايفولين ، ورجعت الى سيون ، ومنها ركبت القطار وجئت الى محطة ريد Rid التى منها يمكن الذهاب الى قرية ايزارابل ، فنزلت فى ريد ، وسألت : هل يوجد طريق معبد الى ايزارابل ؟ فقالوا : لا ، ولا سبيل الى الذهاب الا على ظهر دابة أو سيراً على الأقدام . ولما كان وجود مطية يأخذ وقتاً ، وكان من عادتى بحسب اشارة الطبيب أن أمشى كل يوم لا أقل من ساعتين ، لأجل الرياضة الجسدية ، اخترت أن أذهب الى ايزارابل ماشياً . ولكنها كانت مرحلة شاقة لأن الطريق الى ايزارابل انما هو تصعيد مستمر فى عقبة كؤود ، يأخذ اجتيازها ساعتين ونصف ساعة فيصل الانسان الى تلك القرية التى يجدها فى أوعر محل من ذلك الجبل ، لولا ذلك الطريق الذى ينفذ اليها لا يكاد الماعز يجد اليها متسلقاً ولا متعلقاً . ولا شك أن العرب ان كانت بقيت منهم بقايا ولاذت بالجبال ، طالبة النجاة من أيدي أهل البلاد ، لم يكونوا ليجدوا للامتناع خيراً من ذلك المحل . والقرية فى سفح جبل قائم ، تشرف على واد عميق الغور ، والغابات تحف بها . فلما وصلت اليها سألت عن شيخها ، ويقال له كازيمير تافر Tavre فسألته عما يعلم من قضية انتساب هذه القرية الى العرب فقال لى : ان العرب كانوا شنوا الغارة على وادى فاليه ، وأحرقوا دير سان موريس ، وانتشروا فى هذه الأرض ثم انقرضوا كما جاء فى التواريخ ، وان كانت لهم أعقاب فى هذه البلاد فليس ذلك خاصاً بقرية ايزارابل ، فربما كانت بقايا العرب فى عدة قرى .

فسأته هل يعلم عائلات تعلم نفسها من أصل عربي ، فقال لي لا ، فسأته : هل يوجد عندهم أوراق عتيقة تدل على صحة تلك الروايات ؟ فأجابني ان عندهم في خزانة البلدية أوراقا مكتوبة باللاتينية ترجع الى سنة ١٢٠٠ مسيحية فما بعدها ، وان هذه الأوراق كلها صكوك بيع وشراء يراجعونها عند وقوع الخلاف على حدود الأراضي ، وليس فيها شيء عائد الى التاريخ . فتركته وجئت الى ساحة القرية ، فوجدت شبان القرية كلهم مجتمعين في مقهى صغير يشربون فيه المرطبات ، فسألت عن سبب هذا الاجتماع ف قيل لي : ان لشبان القرية جمعية قد جعلت لنفسها علما خاصا ، وان ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالعلم . فكان لي اجتماعهم هذا فرصة لأجل التفرس في هيئاتهم وسحنهم فرأيت فيهم سحنا لا تفرق عن غيرها من خلقة أهل سويسرة ، ورأيت أشخاصا تغلب عليهم السمرة الشديدة ، ولا تشبه خلقة الآخرين . وأما من جهة لغتهم فانهم يتكلمون الافرنسية ولغة أخرى عامية مشتقة من اللاتينية ، وهذه اللهجة العامية غالبية على جميع قرى ذلك الوادي من أوله الى آخره . ولا يتكلم الأهالي فيما بينهم الا بها . وفدتختلف لهجة ناحية عن ناحية . ولم يتسع لي الوقت أن أبحث في عاميتهم هذه ، ولا سيما في لهجة أهالي ايزارابل وايفولين ، لأعلم هل هناك ألفاظ عربية أم لا فان بحثا كهذا ليأخذ وقتا طويلا لم أكن أملكه . فتركت ايزارابل مكتفيا بما رأيته وسمعته ، وعلمت أن تاريخ العرب في ذلك الوادي لا يمكن أن يؤخذ الا من بطون الكتب ، وماعدا ذلك فهو روايات شائعة متواترة لاشك في أن لها أصلا ولكن هذا الأصل قد اختفى بمرور الأيام

ثم ان أحد أصحابي ممن يعنون بتاريخ سويسرة نبهني الى مطالعة القاموس التاريخي السويسري المسمى Dictionnaire historique et biographique de la Suisse اذ فيه تحت لفظة « سرازين » فصل يتعلق بمقام العرب في سويسرة وجبال الألب ، فذهبت الى خزانة كتب الجامعة في جنيف ، وطالعت الفصل المذكور ، وخلصت منه مايلي : في القرن التاسع للمسيح استعاث البابا بالسويسريين والفريزوزينين ، لوقاية

رومة من غارات العرب . وفي سنة ٨٨٨ جاء عرب من اسبانية واحتلوا فرسيناتوم .
 (مقاطعة الفار في فرنسا) وأغاروا من هناك على الشمال والغرب . وسنة ٩٠٦
 اجتازوا جبال الألب الغربية واكتسحوا دير نوفاليز بقرب سوز Suze وفي سنة
 ٩١٣ كانوا في آكي Acque في ييامونت . وفي سنة ٩٢١ وصلوا الى جبل سان برنار
 الكبير ، حسبما روى فليودار دورنز Fléodard de Reims وهناك رموا بالحجارة .
 قافلة انكليزية كانت ذاهبة الى رومة . وفي سنة ٩٣٦ قطع العرب جبال الألب
 الريتية Alpes Rhétiennes واكتسحوا أسقفية كوار Goire فاضطر الملك أوتون
 الأول أن يعوض أسقف كوار مما رزأه به العرب . ومن الوقائع التي لاشك فيها أن
 العرب نزحوا من جبل سان برنار ، ونهبوا دير سان موريس في وادي فاليه ، وذلك
 سنة ٩٤٠ كما روى ذلك أولريك مطران أوغسبورغ . ولا تمكن معرفة ما اذا كانت
 ثمة علاقة بين حوادث سان برنار وحوادث كوار . وفي سنة ٩٤١ كان هوغ ملك
 ايطالية في حرب الماركيز بيرانجه الايفري Berenger D'ivree والملكة برته صاحبة
 برغونية التي كان طلقها ، فاستمال هوغ العرب واستخدمهم وألقى اليهم
 بحراسة معابر الألب . ففر بيرانجه من وجههم والتجأ الى الدوق هرمان الشوابي
 Hermamnn de Soiab وبلغ من قوة العرب أنهم جعلوا رسوماً على المارة الذين كانوا
 يقطعون جبال الألب ، قاصدين رومة ، ويقال أنهم تقدموا من هناك حتى بلغوا
 مقاطعة فو Void التي قاعدتها لوزان ومقاطعة جوره ، التابعة لنيو شاتال ، واستطالوا
 على دير سان غال Saint Gall وكانت توجد كتابة في كنيسة القديس بطرس في
 بورغ Bourg محفورة بين سنة ١٠١٩ و ١٠٣٨ يستدل منها على الغارات العربية
 الى جهة الغرب .

وأما غاراتهم الى جهة الشمال الشرقي فالروايات عنها لم تحقق بصورة قطعية .
 وكذلك لم يتحقق كونهم تديروا جبال الألب ، بصورة ثابتة ، وانما تحقق على
 وجهه ليس فيه وراء أن الملك أوتون مر بكوار سنة ٩٥٢ ومعه زوجته « ادليدة »

فوجد الدير قد نهبه العرب فعوض الدير مما فقده . وذلك سنة ٩٥٥ وأما في جنوبي الألب فقد طال مقام العرب ، ولكن لا نظن صحيحاً أنهم استعمروا وادي ساذ Saas سنة ٩٤٠ الى سنة ٩٦٠ وكذلك ما يقال من احتلالهم بوترازينه Pontresina وأما ما يقال من كون بعض أسماء وادي ساذ هي عربية مثل « على العين » Allalin والعين Ein والماجل Almagel ومشابل Mischabel وبالفرين BaIfirin ومونتومورو Monto Moro فلم يثبت كون هذه الألفاظ عربية . وفي ٢٣ يوليو سنة ٩٧٣ قبض العرب على الراهب ميول ورفاقه ، فثار الناس من أجل هذه الفعلة ، واجتمع غليوم كونت آرل ، وهاردوين أمير تورينو وربالد كونت بروفانس ، وزحفوا الى العرب من كل جهة واستولوا على فركسينة وانقرض العرب من هناك

وهذا الفصل من قاموس سويسرة التاريخي عليه امضاء H. Dübi وهو مأخوذ من بضعة عشر تأليفاً بالانكليزية والافرنسية ، وأكثرها بالألمانية ، وفي رأس هذه التأليف كتاب كلر Keller الذي ترجمناه وأردفنا به كتاب رينو المستشرق الافرنسي بقي علينا أن نلاحظ على هذا الفصل ارتياب كاتبه في عروبة الألفاظ التي ذكرها فنحن نخالفه في هذا الرأي ، ونوافق على رأى كلر ، وهو أن هذه الألفاظ عربية لا ريب فيها وأنه يستحيل أن توجد ثلاثة ألفاظ كهذه مشابهة للالفاظ العربية تصادفاً . وذلك مثل « على العين » و « العين » و « الماجل » فان هذه كلمات عربية صريحة ، وشكل التلفظ بها بحسب رسم حروفها باللغة الافرنسية يدل على كونها عربية مغربية ، لأن اخواننا المغاربة والأندلسيين يميلون الى الكسر في تلفظ الحرف الأول من لفظ عين وما في ضربها من الألفاظ كزيت وجيش وزيد وغيرها ، بخلافنا نحن المشارقة فاننا نلفظ كل هذه الألفاظ بفتح أولها . وأما الماجل فقد تقدم أنه حوض الماء ، وأن هذه اللفظة كانت تستعمل في مكة لحياض الماء التي فيها . وأما مشابل فيجوز أن تكون من أصل عربي بمعنى مكان الأسود ، أو كما قيل من أن هناك جبالا شبهوها بلبوة تجر أشبالها كما أنه يجوز أن يكون أصلها لفظة أوربية

تشابهت اتفاقاً مع اللفظة العربية . أما الألفاظ الثلاثة الأولى فلا يمكن أن يكون وجودها مجرد اتفاق ، لا سيما أنها أسماء لأماكن فيها مياه . وأما بالفرين فقد تكون محرفة عن أصل عربي ويكون أصلها بالفرين تصغير فرن . ويجوز أن تكون لفظة افرنجية . وأما « مونتومورو » فهو ظاهر ومعناه جبل المغاربة أو العرب . وبالاختصار فرأى كاتب هذا البحث من جهة هذه الألفاظ هو في غير محله .

فهذا ما اخترنا نقله وجمعه من أخبار غارات العرب على فرنسا وإيطالية وسويسرة ممحصاً مخوضاً معولاً فيه على أوثق المصادر والله تعالى من وراء العلم هو المبدىء المعيد والأول والآخر .

فتح المسلمين مالطة

قد كان أصل المحور الذي دارت عليه مباحث هذا الكتاب هو غزوات العرب في شمالي جبال البيرانة من فرنسة وإيطالية وسويسرة . ولكن الحديث شجون والتاريخ انما هو حديث عن حوادث يثير بعضها بعضاً . وقلمنا تجدد منها حادثة الا وهي متعلقة بسابقة لها ، ولذلك لم يمكن حصر الكتاب ضمن الحدود التي ذكرناها ، بل تعدى الى موضوع غزو العرب لجزائر البحر الرومي مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التي يقال لها كالابرة . وتناول البحث أيضاً جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريد . فأما جزر الباليار فهذه تابعة للأندلس قديماً وحديثاً . ولذلك أبقينا الكلام عليها الى الكتاب الذي ننوي وضعه على الأندلس ، وقد هيأنا كثيراً من مواد . وانما بقيت جزيرة في البحر المتوسط ، فاتنا ذكر فتح المسلمين لها ، مع كونها ذات ذكر شهير في التاريخ أكبر كثيراً من جرمها الجغرافي الا وهي جزيرة مالطة ، فأحببنا أن نذكر عنها خلاصة تاريخية في هذا الكتاب . فنقول :

يوجد أرخبيل يقال له الأرخبيل المالطي مؤلف من جزيرة مالطة وأخواتها غوزو Gozo وكومينو Comino وكومينوتو Cominotto وفلفولا Filfola وصخور أخرى . تحاذيها ، جاء في الانسيكلوبيدية الاسلامية المحررة بالفرنسية أن هذه الجزر كانت في الأعصر القديمة مأهولة بطائفة من طوائف البحر المتوسط ، لها آثار تدل عليها ، محفوظة في مكان من مالطة يقال له « الحجر القائم » Hagiar kaim وأول ما عرف التاريخ عنها هو أن الفينيقيين استعمروها قبل القرن العاشر قبل المسيح ، واتخذوها قاعدة لسفنهم التجارية . قالت الانسيكلوبيدية : ولم يتحقق كون اسم مالطة مشتقاً من الفينيقية وانما تحقق كون جزيرة غوزو أو غولوز Gailos معنى اسمها « سفينة تجارية مستديرة الشكل » وقد استولى القرطاجنيون على مالطة في القرن السابع قبل

المسيح، وبقوا فيها أربعة أو خمسة قرون ، ثم استولى عليها الرومانيون سنة ٢١٨ قبل الميلاد وبقيت نحواً من عشرة قرون في أيدي الرومانيين واليونانيين . وفي القرن الأول للمسيح تنصر أهل مالطة عن يد القديس بولس . ولما سقطت السلطنة الرومانية الغربية استولى عليها البيزنطيون ، وكانت لهم مركزاً ضرورياً بعد استيلائهم على شمالى افريقية .

وقد استولى المسلمون على مالطة سنة ٢٥٦ للهجرة وفق ٨٦٩ و ٨٧٠ مسيحية . ولكن هذا الاستيلاء هو الاستيلاء الثابت ، لأن ابن الأثير يخبرنا أنه في سنة ٢٢١ أرسل ابراهيم بن الأغلب أسطولا لغزو الجزائر ، والأرجح أن مراده بالجزائر هو الأرخبيل الذى من جملته مالطة . وقد كانت غزوات المسلمين لمالطة وصقلية في القرن الثامن للمسيح ، وربما كانت مالطة دخلت في حوزة المسلمين قبل سنة ٨٠٠ وكان مقام المسلمين بمالطة أطول وأثبت من مقامهم بصقلية ، بدليل كون لغة مالطة عربية وقد اختلف العلماء في أصل اللهجة المالطية ، فزعم بعضهم أنها من أصل فينيقي . وذهب آخرون الى أنها لهجة عربية ، وهذا رأى الجمهور . فاللغة المالطية عربية تشابه في كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين ، وفي كثير منها العرب المغاربة وتكثر في لغة مالطة الامالة ، كما يكثر أيضاً قلب الألف ياء ، فيقولون « بينا » بدلا من أنا ، ويقلبون القاف همزة ، ويستعملون أحيانا نون الجمع المتكلم قبل المفرد ، فيقولون مثلا : انا نقول له بدلا من نحن نقول له . وهذا على نسق أهل المغرب وتختلف اللهجات في نفس مالطة بين المدينة والقرى ، وبين مالطة وغوزو ، ولا توجد الخاء والغين في مدينة مالطة المسماة « فاليت » وانما توجد في جزيرة غوزو . ولم يتم البحث حتى الآن عن اللهجات المالطية حتى يعرف ما هو راجع منها الى العربية الشرقية وما هو راجع الى العربية الغربية . وقد أثرت الثقافة اللاتينية الايطالية في اللغة المالطية ، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في لغة مالطة . ولم يكن للمالطيين حروف يكتبون بها الى أن قام في القرن الثامن عشر رجل يقال له « آجيوس سلدانيس » فاعتنى بالبحث عن لغة بلده . ومن ذاك الوقت أخذوا يكتبون لغتهم ، واستعملوا

الحروف العربية . ثم نهضت عصبة من المالطين اسمها « عقدة تالكنتية تالمطى » أى أى عصبة الكتاب المالطية ونشرت كتاباً فى نحو اللغة المالطية ستمته « تعريف الكتبة المالطية » وذلك فى سنة ١٩٢٤ وجاء فى مقدمة هذا الكتاب ذكر أنواع الكتابة المالطية . ثم ان هذه العصبة نشرت مجلة اسمها المالمطى فى سنة ١٩٢٥ وكان غرضها الاصلى احياء اللغة المالطية العربية أو ما تعبر عنه بالمالمطى الصافى

ومنذ سنة ١٨٥٠ أخذت مسألة اللغة المالطية شكلاً سياسياً . وذلك لأن الانكليز أحبوا أن يعزروا اللغة المالطية العربية ، لعدم رغبتهم فى نشر اللغة الايطالية التى هى لغة الطبقة المثقفة ولغة رجال الكنيسة فى مالطة . ومن شاء الاطلاع على آداب اللهجة المالطية فليراجع كتب بونللى L , Bonelli وشتومة H. Stumme

وقد ترك المسلمون فى مالطة ، عدا أسماء البلاد واللغة العربية ، قطعاً من المسكوكات وعدداً كبيراً من الآثار الكتابية لا سيما كتابات القبور . وأشهر هذه الكتابة السماة « ميمونة » تاريخها يوافق سنة ١١٧٣ مسيحية . وقد نشرت منذ قرن تام ، وبحث فيها المستشرقون مثل ايطالينسكى Italenski ولنسى Lance وآمارى Amari وغيرهم . وقد وجدوا كتابة أيضاً فى جزيرة غوزو ، وهى محفوظة فى متحف مالطة ثم انه وجدت كتابات نحو العشرين فى أثناء الحفريات التى وقعت بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٥ فى محل يقال له رباطو Rabato بقرب نوتايل Notabile وهى محفوظة فى متحف مربع رومانا Romana على مقربة من مكان الحفريات

هذا وقد خرجت مالطة من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ مسيحية ، فان النورمانيين استردوها بعد استردادهم لصقلية . ولكن كان المسلمون مأذوناً لهم فى الاقامة بهذه الجزيرة الى سنة ١٢٤٩ ثم ان مالطة من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٧٩٨ صارت مركزاً لفرسان ماريوحنا أورشليم الذين طردهم الترك من رودس سنة ١٥٢٣ فانقلوا الى مالطة وأنشأوا أسطولا عظيماً ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين ، الترك أو الافريقيين ، وكان يؤتى بألوف من أسارى المسلمين الى مالطة . ولهذا قصد الأتراك

الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥ ولكنهم لم يتمكنوا منها . وحاولوا ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع . وفي المكتبة العمومية في مالطة وفي متحفها بعض كتابات عربية متعلقة بفن الملاحة . انتهى ما ذكرته الانسيكلوبيدية الاسلامية عن مالطة ، نقلناه باختصار

ولما كان العلامة الرحلة اللغوى المشهور احمد فارس الشدياق ، صاحب الجواب قد أقام بمالطة أربع عشرة سنة وكتب عليها كتاباً سماه « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » فقد أردنا أن نأخذ من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بغرضنا من جغرافية مالطة وتاريخها وذكر فتح المسلمين لها ، فنقول :

قال احمد فارس : ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة وأربع وأربعين دقيقة من الطول ، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض . أما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين ألحقوه بأفريقية ، بالنظر الى المكان ، وبعضهم ألحقه بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم . فأما عرض مالطة فاثنا عشر ميلا ، وطولها عشرون ، ودورتها ستون وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة « La Valette » فأما في العصر السالفة فكانت نوتابيلي ، ويقال لها الآن المدينة ، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها . وكانت الجزيرة منقسمة بها الى شطرين : أحدهما يمتد جهة الشرق ، والآخر جهة الغرب . والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الافرنج وسماها باسمه ، وذلك سنة ١٥٧٦ وهى على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس . قلت : زعم بعض المالطين أن أصل هذه الكلمة « شبر الرأس » وبعضهم أنها « جبل راس » وعندى أنها شعب الراس . قال فى الصحاح : شعب الراس شأنه الذى يضم قبائله اه . وهو كناية عن أصل الشئ ومجتمعه . كما أن قبائل الراس مرجعها الى الشعب ، ويحتمل أنها سميت بشيب الراس لأن أهل مالطة كانوا يناصبون المسلمين الحرب وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس اه

قلت : تأييداً لما استشهد به احمد فارس أقول : جاء فى لسان العرب « والشعب

شعب الراس وهو شأنه الذى يضم قبائله . وفى الرأس أربع قبائل ، وأنشد .

فان اودى معاوية بن صخر فبشر شعب رأسك بانصداع اه

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الفرنساوى بوليه أن قاعدة مالطة سميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ، ولد فى سنة ١٤٩٤ ومات سنة ١٥٦٨ وكان شهيراً بالبأس . وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج « سانت المو » ثم قوى عليهم وأخرجهم منها اه . قلت : ان هذه الرواية تخالف ما جاء فى الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة من كون مالطة خرجت من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ اذ ينبغى من هذه الرواية أنه كان فيها مسلمون فى أواسط القرن السادس عشر للمسيح ، وانه كانت فى أيديهم حصون وأبراج ، ولولا ذلك ما قيل ان الأمير لافاليت أخرجهم منها

وأما اسم مالطة فجاء فى كتاب احمد فارس أن اليونانيين سموها مليته ، واشتهر ذلك سنة ٨٢٨ قبل الميلاد . ومعنى ميليته أو ميليسه فى لغة اليونان النحل فحرف المسلمون ذلك وقالوا مالطة . قال : وزعم قوم أنها سميت باسم ميليته ابنة دوريس ، وهو مشتق من ميليت فى السريانية ، وهو اسم إله . ولا يبعد أن يكون ذلك فى اللغة الفينيقية أيضاً . قال : وممن ذكر مالطة من الشعراء الأقدمين اوميروس واوفيدىوس ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التى يقال لها « الفياكونس » هم أول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوى قوة وبأس . ثم خلفهم الفينيقيون ، وهم من جهات صور وصيدا ، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد ، فلبثوا فيها نحو أربعائة وخمسين سنة ، حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سموها للقرطجيين ، وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، ثم جاء من بعدهم الرومانيون سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور . وأعظم ما حدث فى أيامهم قدوم ماربولس ، وانكسار السفينة به وبمَن كان معه ، وذلك سنة ٥٨ للميلاد ، فى موضع يقال له الآن خليج ماربولس . ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة . ثم بعد الرومانيين استولت قبيلة « الفندلس » ثم « القوث » ثم « البليساويون » وألحقوها

بحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فأخذوه في هضم الرعية ، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين اه . ملخصاً

قلت : يريد بالقوث أمة القوط الذين كانوا غلبوا على اسبانية ، وبالفاندالس الأمة التي كانت أيضاً غلبت على اسبانية وافريقية . وأما البليساويون فهم قوم بليساير Belisaire وكان من قواد الامبراطور يوستينيانوس صاحب بيزنطية ، ولد سنة ٤٩٠ وفي سنة ٥٣٣ غزا الفندلس في افريقية ، واستولى على قرطاجنة . ثم غزا أيضاً القوط عند ما كانوا في ايطالية واستولى على صقلية و نابولي ورومة . ولعله في هذه الغزاة استولى على مالطة . ثم قال أحمد فارس :

ذكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فتحت في أيام أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأعاب ، توفي سنة احدى وستين ومائتين ، وإنما لقب بالغرائق لأنه كان مشغولاً بالصيد . روى انه بنى قصرأ في السهلين ، لصيد الغرائق أنفق فيه ثلاثين ألف دينار ، فكفى بهذه الكنية . فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف (أى المؤلف الذى نقل عنه أحمد فارس) : وسلموا الجزيرة للمسلمين . اه . يريد أحمد فارس أن يقول ان المسلمين أخذوها فتحاً

ثم نقل صاحب « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » عن ذلك المؤلف بقية حوادث مالطة ، فقال : ثم قام الأمير روجر النورماندى بعدها بمائتي سنة ، واسترد الجزيرة وأخفها بصقلية ، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة . ولما تزوج القيصر هنرى السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطة في حكمته وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة . وفي أثناء ذلك ولى اخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معاً ، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراغونى ، ثم آل أمرها الى الملك كرويس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الأهلين واتفق دول أوروبا . ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد ساءت له الجزيرة على أن يرخص للاهلين في التصرف بحقوقهم ، الا أن الفرنسييس لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة ،

وانتهكوا حرمة الكنائس ، فتحزب عليهم المالطيون تحزباً لم يخل من سفك دم كثير منهم وتلف أموالهم ، الى أن أتت الانكليز فسلموها لهم ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠
قلت (أى قال أحمد فارس) : لما دخلها نابليون وجد فيها ألفاومائتى مدفع ومائتى ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم . وذلك سنة ١٧٩٨ .

ثم رجع الشدياق الى النقل عن المؤلف الذى نقل عنه فقال : ان أخذ المسلمين المألطة كان من باب المصادقة أولى منه من الغالبة ، وعاملوا الأهلىن أولاً بالرفق والمياسرة ، وقرروا سننهم وأحكامهم ، وامترجوا بهم للغاية ، حتى كأن الجلىلىن واحد ، كما يتبين من بقاء لغتهم فىهم .

قال : أمالغة مألطة فذهب بعضهم الى أنها عربية فاسدة ، وذهب آخرون الى أنها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم ، وما برحت مستقلة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وانها لم تتغير فى مدة القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضاً فينيقية . ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق بأخلاقهم والسلوك بسننهم إنما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم . والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربرا ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية .
قال : ثم بقيت فى دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير وانما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية . ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للعربية ، نحو بير وصيد ، فانهما فى الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد فى كلتا اللغتين .
والحاصل أن مأخذ اللغة المألطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وان كانت قريبة من هذه أيضاً . اهـ

قال أحمد فارس : قلت : دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سواء ما عدا موافقتهما فى تصريف الأفعال والأسماء وفى الضمائر وغير ذلك من أساليب الكلام . ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف

الفينيقية ولا العربية ولا المالطية ، وإن كانت لغته ، ويتعرض للحكم والاستدلال .
فكيف يحكم على الشيء وهو مجهول وكيف يقول : إن لغة المسلمين بقيت في أهل
مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الآن إنها فينيقية لمجرد وجود
كلمتين فيها ؟ وإنما حمله على هذا بغضه وبغض أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم أنهم
ليسوا منهم بل من الفينيقيين اه

قلت : لغة مالطة عربية لا شبهة فيها . وإنما ثبتت العربية في مالطة برغم انقراضها
من صقلية وسردانية والأندلس وجنوبي فرنسة وجميع البلدان التي احتلها العرب من
أوربة ، لكون أصل لغة تلك الجزائر والبلدان لاتينياً ، فلما تقلص ظل العرب عنها
رجعت إليها لغتها الأصلية وانقرض العربي منها بالكلية . فأما مالطة فلغتها الأصلية
لم تكن لاتينية بل كانت الفينيقية وهي أخت العربية ، فلما جاءتهم العربية بعد فتح
الاسلام لمالطة كانت كأنها نزلت في وطنها وثبتت فيها ثبوتاً لم يزله خروج المسلمين
من مالطة كما ذهبت العربية من البلدان الأخرى التي أهلها الأصليون لاتينيون ولغاتها
الأصلية لاتينية

ثم قال أحمد فارس : والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل
العلم والتمدن ، كالذين كانوا في صقلية وغيرها ، فاني لم أجد قط فيما قرأت من كتب
الأدب والتواريخ قال المالطي . والسيوطي رحمه الله لم يغادر في كتاب الانساب الذي
سماه « لب الباب » أحداً من أهل العلم إلا ذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة اه

قلت : أتذكر أنني قرأت في بعض كتب التراجم ، من مؤلفات أهل الأندلس ،
أسماء رجال منسوبين إلى مالطة . وفي معجم ياقوت يذكر نقلا عن السلفي : سمعت
أبا العباس أحمد بن طلوت البنسقي بالشقر يقول : سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطي
بها يقول : كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها
أوقات النهار الصنج ، فقلت لعبد الله بن السمطي المالطي أجز هذا الصراع :

جارية ترمى الصنج فقال : بها النفوس تبتهج

كأن من أحكمها الى السماء قد عرج
فطالع الأفلاك عن سر البروج والدرج

وأما قول ياقوت أنها بلدة بالأندلس فليس بمانع من كونه يريد بها هذه الجزيرة
المسماة مالطة الواقعة في بحر الروم ، فقد جاء في تاج العروس : ومالطة كصاحبة ووقع
في التكملة مضبوطا بفتح اللام والمشهور على الألسنة سكونها بلدة بالأندلس كما نقله
الصاغاني وهي مدينة عظيمة في جزيرة من بحر الروم ، شديدة الضرر على المسلمين في
البحر، يعظمها النصراني تعظيما بالغاً وبها وكلاء عظامهم من كل الجهات. ولقد حكى لي
من أسر بها عن زخارفها ومثانة حصونها وتشديد أبراجها وما بها من عدة الحرب
ما يقضى بالعجب ، جعلها الله دار اسلام بحرمة النبي عليه الصلاة والسلام. فأنت ترى
ان كتاب العرب كانوا يجعلون مالطة من الأندلس كما كانوا يجعلون ميورقة ومينورقة
وسردانية وغيرها

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الذي اعتمد عليه كلاماً عن جزيرة « كوترو » من
أخوات مالطة فقال: ان اسمها جزيرة غورث وانها بالافرنجية كوتسو وان هذه اللفظة
يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر
ميلا في عرض ستة ، وأهلها نحو خمسة عشر ألفا ، وجملة قراها ست ، ومدينتها
تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة . وبقول الجزيرة
وفاكيتها طيبة جداً ، وكذا عسلها . وزعم بعضهم أن مالطة وغورث ومكونة كانت
في الأصل جزيرة واحدة وحدث من الزلازل ما فرقتها . اهـ

وأردف أحمد فارس رحمه الله هذا الكلام بقوله : رأيت جزيرة غورث غير مرة .
أما اسمها فأظنه محرفاً عن لفظة الهودج ، سماها به المسلمون لشدة شبهها به ، كما سموا
الجزيرتين الآخرين كمونة ولفلة لصغرهما . الا أن أهلها ينطقون بها بالعين المعجمة
لا بالمهملة كما ينطق بها أهل مالطة .

ثم ذكر أحمد فارس أن أهل مالطة رغمًا من كون لغتهم فرعاً عن العربية فليس منهم
من يحسن قراءتها والتكلم بها ، وان هناك دار كتب موقوفة فيها ثلاثة وثلاثون ألف

سفر ، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل . ثم ذكر أن في لغتهم امالة كثيرة فهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيح بالحاء المهملة وللخيار حيار بالحاء المهملة أيضاً وللأجاص لنجاص وللدلاع دليع وللخبز حبس وللخوخ حوح بالحائين المهملتين ، ويقولون بس بمعنى حسب ، ولكن يبدلون سينها زايا ويكسرون أولها .

ثم قال : انه لا ينكر أن كثيراً من الكلام العربي الذى بقى فى مألظة مستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللازم واردة المزوم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلاً « وحلت » للوقوع فى الأمر الصعب وأصله الوقوع فى الوحل خاصة ، ونحو « الطلاب » للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب . ونحو « معلوب » للحنيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً ، وفتيت أى قليل وهو من فتت الشيء اذا كسرتة وصغرت جرمه . قال : وان أهل غورث ينطقون بالأحرف الحلقية على حقها الا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور ومفتوح ويضمون ما قبل الألف نحو قاعد وهلم جرا ، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهى لغة ربيعة وقوم من كلب كما فى المزهر ويسمى الوكم .

وذكر من اصطلاحاتهم أنهم يعبرون عن الدخول فى الفعل بلفظة « سائر » وهى نظير قول أهل الشام ومصر « رايح » فاذا قال المالطى : أنا سائر نسافر فهى كقول الشامى أو المصرى : أنا رايح أسافر .

قلت : يظهر أن سائر هذه كانت مستعملة فى المغرب وقد نحتوها فبقى منها سين مفتوحة ، فيقولون عن شخص مثلاً هو فى حال الأكل سياً كل . وأحياناً يقلبونها تاء فيقولون تياً كل ، ويقولون فى المغرب فى مثل هذه الحالة كياً كل . وأظن الكاف هنا منحوته من « كائن » وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة « عمال » فبدلاً من أن يقول هو عمال يأكل تجده يقول « عمياكل » وفى بعض جهات من شمالى لبنان يقلبون الميم نونا فيقولون « عنياكل » .

ثم ذكر أحمد فارس اصطلاح أهل مالطة على ادخال لفظة « تا » بين المضاف

والمضاف اليه ، فيقولون مثلاً « الرجل تالبيت » وذهب أحمد فارس الى أنها منحوتة من متاع ، قال : فان أهل المغرب يدخلونها كثيراً في الإضافة وابتدئون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ . ومما يؤيد هذا التوجيه أن المالطيين لا ينطقون بالعين اذا وقعت في آخر الكلمة فيقولون مثلاً تلا وطلا في طلع وقلع ، قال أحمد فارس : وقلب العين ألفاً أو همزة هو من أساليب العرب ، كما في تقصى وتقصع ، وأقنى وأقنع ، والشمى والشمع ، وتكأ كأ وتكعكع ، وزقاء الديك وزقاعه ، وزأراً وزعزع ، وبدأ وبدع ، والخباء والخباع وغيرها ، حتى انهم قلبوها متوسطة كما في تأرض وتعرض ، ودأماً الحائط ودعمه ، انتهى .

قلنا : ان الهمزة والعين من مخرج واحد فلا عجب أن تأتى ألفاظ بالهمزة وبالعين ومعناها واحد .

ثم قال أحمد فارس : انهم في مألظة يجعلون الهاء حاء ، وأنشد من شعر المالطيين :
المحبوب تا قلبي سافر ليلى ونهارى نبكيح
جعلتلو بدموعى البحر وبالتنهيدات تا قلبي الريح
أى ليل ونهارى نبكيه . وابدال الهاء حاء لغة من لغات العرب ، قالوا المليه والمليح ، والمده والمدح ، وتاه وتاح ، الى آخره .

قال : ومما بقى عندهم من فصيح العربية قولهم دارنادية . وحققها دارندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام دارناطية . ويقولون للداية قابلة ، ويقولون للرهان مخاطرة ، وللعلية غرفة . ويقولون عن لى بمعنى بدالى ، وتجالدوا وهو أفصح من تعاركوا ، وزفن أى رقص ، وبوقال وهى أفصح من قول أهل الشام شربة أو نعارة . ومن فصيح كلامهم يمارى أى لا يقنع بالحق ، ويشرق بالماء ، ويستقصى ، وفرصاد للتوت ، وسفود ، وأهل الشام يقولون سيخ وشيش . ويقولون تقز رأى تباعد من الأدناس ، وعسلوج للقضيب ، وجلوز للبندق الذى يؤكل .

قال : ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجح أن أصل المالطيين من المغاربة . ولكنه في محل آخر قال : انه لا شك في كون اللغة المالطية

عربية ولكنى لست أدري أصل هذا الفرع أشامى هو أم مغربى ، فان فيها عبارات من كلمتا الجهتين والغالب عليها الثانية ، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى فيقولون مثلاً القداس والقديس والتقربن والأسقف مما لا يفهمه أهل المغرب اه .

قلت : ان فى المالمطية ألفاظا واصطلاحات شامية ، وقد ورد هذا الرأى فى الانسيكلوبيديّة الافرنسيّة ، ولكن الألفاظ المغربيّة هى بدون شك أكثر .

وذكر أحمد فارس من أوزان كلام مالطة فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة ، والمصدر على هذا الوزن معروف فى العربيّة قال تعالى ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أى من بقاء ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أى كذب . ثم قال : ان بقاء العربيّة فى مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على مالها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الأجيال ، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتبيها لهم وبقوا محافظين على ما عندهم خلفا بعد خلف ، وهؤلاء الانكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات وما تبيها لهم أن يعمموها عند المالمطين . ويقال ان الذى تحصل عند أهل مالطة من العربيّة مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة

بحث دقيق جليل

عنه مغازى العرب في أوربة ومغازى البحر المتوسط

بقلم

الأستاذ الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الوطنى فى تونس

كان بلغنا أن لدى الأستاذ الأجل الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي ، وثائق ومعلومات لا توجد عند غيره ، فى موضوع فتوحات العرب فى جنوبى أوربة ، فاقترحنا عليه كتابة شىء فى هذ الموضوع نجعله كالقلادة فى جيد تأليفنا هذا ، فتفضل علينا حفظه الله ونفع به الاسلام بالخلاصة التالية :

ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية فى أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه . فانه حين ندب أخاه من الرضاع ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، لفتح بلاد شمالى افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير والى سببلة من قبل البيزنطيين ، ندب القائد البحرىين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ، وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالمسير الى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية فى ذلك . تلك الوصية الخالدة التى يقول فيها : ان القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وانكم ان فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر . وقد اتخذ ولاية شمالى افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التى يسرون عليها

وأول أمير شرع فى اعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان

ابن النعمان ، شيخ وزراء الدولة الأموية ، بعد أن دان له شمالى افريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من قبط مصر ، وسار على منهاجه فى ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب ، فجاز بجيوشه أرض العدو ، وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاها فى ذلك اسماعيل بن أبى المهاجر الذى تقلد اماره شمالى افريقية فى عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبى أوربة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، ولم يعد إلا بعد أن أثنى فى ايطالية ؛ وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة .

وفى ولاية عبيد الله بن الحبحاب لافريقية جهاز أسطولا كبيراً جعل امارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى ، فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل ، ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربى بسبب تخميس أعشارهم لتمكن شطوط ايطاليا وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان ابن النعمان فى شمالى افريقية .

وفى سنة ٢٠٧ ، بعد استقرار الدولة الأغلبية جهاز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التميمى لمانزلة سردينية ، ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ ، وكانت اماره الأسطول والجيوش فى هذه المرة لقاضى القضاة الامام أسد بن الفرات ، فملك مازرة وحاصر سر كوسة ، وحول أسوارها أدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب أسطول الأندلس القائد اصبع المعروف بفرغلوسن . وبعد أن استقرت الأمور فى البلاد المفتوحة قلد زيادة الله اماره ايطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، وما زال موالياً للجهاد حتى فتح بليرم ونابولى .

وفى ولاية أبى عقاب الأغلب بن ابراهيم استؤنفت حرب التحرير فى ايطالية سنة ٢٢٤ وتم فتح صقلية .

وفى ولاية الأمير محمد الأول تقدمت الفتوحات فى شطوط ايطالية واستمرت

من سنة ٢٣٣ الى سنة ٢٤٠ ففتحت باتية وقطانية وبشيرة .

وفي ولاية الأمير أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ندب والى صقلية العباس ابن الفضل لغزو قصر الحديد ومدينة شلقودة وجهاز الأسطول وأمر عليه أخاه وسيره لفتح جزيرة اقريطش فكان له واقعة مهولة في البحر الرومي مع أسطول بيزنطية وفي عهد أبي الغرائيق محمد الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد خفاجة الولاية على ايطاليا وأخرجه سنة ٢٥١ لفتح جنوة ففتحها وتقدم إلى جبال الألب واستمر فاتحا الى نهاية سنة ٢٥٢ وفي سنة ٢٥٣ سيرت بيزنطية أسطولا ضخما ، لمحاربة المسلمين في شطوط أوربة الجنوبية ومنع جحافلهم من التقدم في فرنسة ، فواقعهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة .

وفي سنة ٢٥٥ غزا الأسطول الأغلبى جزيرة مالطة واستولى عليها وألحقها بشمالى افريقية .

وفي عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد الحسن بن رباح ولاية جنوبى أوربة ونهده الى الغزو فيما يليها ؛ فتقدم الى مرسيلية وفتح البروفنص فاستنجدت فرنسة بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا ، فتلقيه الأسطول الافريقى فى عرض البحر الرومي فدارت بينهما معركة مهولة كان الفوز فيها للبيزنطيين بعد أن تحطمت شوانهمم والتجأت بقايا الأسطول الافريقى إلى بليم . لكن الجيوش الاسلامية كانت تتوغل فى فرنسا واستمرت على ذلك من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٧٢ فملككت بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا . غير أن عين البيزنطيين لم تنم عن هذه الفواجع ، فأعادوا كرهة حملتهم البحرية وحاولوا فى هذه المرة قطع خطوط الاتصال بين جنوبى أوربة وشمالى افريقية ، فاحتل أسطولهم مدينة سبرية فقاومهم المسلمون مقاومة عنيفة منعتهم من التقدم .

وفي سنة ٢٧٥ جهزت افريقية أسطولا عظيما لتعقب أسطول البيزنطيين وشل حركتهم عن التقدم في الشطوط ، ولم يلبث أن اشتبك بالعدو وضربه الضربة الحاسمة ومكن سيادة المسلمين في ايطاليا وجانب من فرنسا .

واستمر نجم الاسلام صاعدا في أوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة وأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوربية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل سعى في الانتكاث حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بالاسلام وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الأمراء الاقطاعيين ، وطغيان الكنيسة الكاثوليكية واستمر ذلك الى أن ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط ، وقدر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح في أوروبا وانقلبت جيوش افريقية مغيرة على العالم الاسلامي لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق وبسبب ذلك تحولت السياسة الاسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب الى الدفاع والتسليم .

ولم يجن أحد على الاسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون واليك البيان : لما تغلب عبيد الله المهدي على افريقية وزال عنها حكم بني الأغلب كرهت الولايات الاسلامية في أوروبا أن تقدم طاعتها للمتغلبين ، فأجمع أصحاب الشأن فيها على اعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أوروبا الى افريقية ، فبايعوا بالامارة القائد أحمد ابن زيادة الله بن قره ب ؛ وبمجرد انعقاد هذه البيعة كتب الأمير الى المقتدر بالله الخليفة العباسي بالطاعة ، فأنفذ اليه المقتدر بالتقليد والخلع والالوية وطوق من الذهب ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدي أخذ يسعى في بث الدسائس والفتن بين المسلمين في أوروبا ، وما زال بهم حتى اختلت الامور على ابن قره ب فخلع سنة ٣٠٣ وقاتل بعد أن وصل إلى المهدي ؛ وعقب ذلك اجتمع أولو الحل والعقد من المسلمين في دار الامارة بيليرم فكتبوا الى المهدي ، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهز جيشاً لغزو المشرق

بقيادة الطاغية البربري القائد حباسة بن يوسف يلتمسون منه تعيين الولاة والقضاة. وأن يبق لهم الجيش يدراون به الاخطار أمام الاعداء الى غير ذلك من الشروط التي تضمن لهم الاستقلال الداخلي ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق ، فأبي أن يجيبهم الى هذه الطلبات العادلة ، وأخرج اليهم الجيوش والاساطيل وعين عليهم سعيد بن المضيف فحاصروهم شهورا ، وكانت البلاد ممتنعة عنه فتنحى عنها وأرجل جنود كتامة في أرباض الشواطئ المفتوحة للنهب والسلب ، ففعلوا الافاعيل التي أفزعت النساء والذرية ؛ حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفزع نزعوا إلى طلب الأمان فأمّنهم بلا قيد ولا شرط . وعلى أثر ذلك احتل البلاد وهدم أسوار المدن وجرّد حاميتها من السلاح والخيول وفرض المغارم الكثيرة ، ونصب سالم بن أبي راشد أميراً عليها وعززه بجيش من كتامة فكان دأبهم الاغشاش في الظلم وسلب الأموال ، فانقبضت النفوس وخارت الهمم عن التوسع حتى طمع فيهم رعاياهم الايطاليون والفرنسيون

وفي عهد أبي القاسم بن عبيد الله المهدي عين لولاية أوربا خليل بن اسحاق الطاغية ؛ فقضّى في الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله ، وجعل المسلمين يفرون أفواجاً أفواجاً إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة ٣٢٩ إلى شمالي افريقية كان يفتخر بمظالمه ، فقد حضر مجلساً من وجوه الدولة العبيدية في قصر الامارة وكانوا يتباحثون في شئون الدولة ، فقال : إني قتلت في إمارتي ألف ألف نسمة ، فرد عليه أبو عبد الله المؤدّب ، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة مايكفيك »

وفي أيام الأمير تميم الملقب بالمعز لدين الله وجه القائد جوهر في الغزوة الثانية على مصر سنة ٣٥٧ بعد وفاة صاحبها كافور الأخشيدى فاستولى عليها وبني له مدينة

القاهرة . وفي سنة ٣٦١ رحل المعز إلى المشرق واتخذ القاهرة عاصمة للملكة واستخلف على افريقية أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية ؛ فكان همه ضبط البلاد وتكوين الشعور بالوحدة البربرية ، فشعرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين في أوربا بسريان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الاسلامية ، فأخذوا يواثبون المسلمين في كل مكان ، وما زالوا يجمعون ويؤلبون عليهم الى أن وافقهم سنة ٣٧٢ ، فحشدوا قواهم لمناجزة المسلمين في فرنسة . ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله على جنوبي أوربا أن يهد لقتالها فتحرك اليهم في جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك ارتدت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون فوزاً عظيماً . فما كان من الملك روجار النرماندى قائد هذه الحملات الصليبية الأولى إلا أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الاسلام في أوربا وافريقية

وكان النرمنديون نزلوا من شمال فرنسة إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقبونهم ويناجزونهم في إيطاليا ويفتكون منهم المدن ، مدينة إثر مدينة ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية في جنوب أوربا . ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعز بن باديس إثر الزحف الهلالي التي سيرها اليهم العبيديون سنة ٤٥٢ من مصر لتقويض معالم شمالى افريقية

ولم تقف أطاع النرمنديين على ازالة الحكم الاسلامى من أوربا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين في مواطنهم الآنة بافريقية ، فهجموا في سنة ٤٧٦ على المهديّة دار الملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وكانت المدينة مفتوحة غير محصنة فتغلبوا عليها وعلى زويلة ، وأحدثوا فيها مقتلة ذريعة ، وحرقوا وجربوا المعالم المشهورة وأخيرا صالحهم تميم بن المعز بن باديس على مائة ألف دينار وما اتهبوه من الاموال وسبوه من النساء والذرائى .

ولما انتقل الحكم الى الامير حسن بن على بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥١٦

أراد غسل العار الذى لحق الدولة من فعل النرمنديين ورد ما فقدته من الأقطار
الواسعة فى أوربا ، فندب لذلك حليفه الأمير على بن يوسف بن تاشفين المتونى
صاحب العدوتين أن يهتد لقتال النرمنديين ؛ فأغزى أسطوله شطوط أوربا الجنوبية ،
وكان بقيادة أبى عبدالله ميمون ، فأثنى فيها قتلا وسبيا ورد أمم النصرانية على أعقابها
بعد أن هلك من الطرفين عدد لا يحصى . ولم تخمد هذه الكارثة هم النرماندين وتقعدهم
عن استئناف حملتهم على المهديّة ، فأعادوا الكرة عليها فى أساطيلهم وأواخر
جمادى الأولى سنة ٥١٧ فتلقاهم آساد العرين فى كل مكان وتخطفتهم السيوف حتى
أبيدوا عن آخرهم ، وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ، فكانت وقعة
عظيمة أنعشت أرواح المسلمين بعد طول الخمود ؛ ولكن الصليبيين لم يكفوا عن
متابعة الغارة فأعادوا الكرة على المهديّة سنة ٥٤٣ فاحتلوها بعد وقائع مهولة وخرج
منها السلطان حسن بن يحيى بن تميم بن العز بن باديس بجملته وحاشيته الى جزائر
بنى مزغناى (الجزائر) وجعل الصليبيون المهديّة قاعدة لحركتهم الحربية فى شمالى
افريقية وشن الغارة منها على ما يليها من الشطوط التى استولوا عليها ، وقد مكثوا بها
الى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على فى المحرم سنة ٥٥٥ ولولا نجدة
لكانت بلادنا اليوم بلاداً نصرانية من غير شبهة . انتهى

كتابات عربية

على القبور الاسلامية في مالطة

بعد ان آتمنا كتابنا المتضمن غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ومن جملتها جزيرة مالطة اطلعنا على رسالة للمستشرق الايطالى (ايطورى روسي) Ettore Rossi الذى يعد من اعلم المستشرقين باحوال مالطة ان لم يكن اعلمهم وهو الذى حرر الفصل المختص بمالطة فى الانسيكلوبيديّة الاسلامية واجتمعنا مع الاستاذ المشار اليه فى رومة فى هذه الايام الاخيرة وتباحثنا فى تاريخ مالطة وكثير مما يتعلق بشؤونها وهو الذى قدم لنا رسالته هذه باللغة الايطالية فاجبنا ان ننقل ما جاء فيها من الكتابات العربية التى وجدت على القبور الاسلامية فى مالطة والتى جمعها ايطورى روسي وصورها بالفوتوغرافية ونشر صورها فى الرسالة المذكورة فنحن آثرنا نقلها كما وجدناها فى رسالته آتاما للفائدة

ومما جاء فى صدر هذه الرسالة ان زول العرب فى مالطة وقع بحسب الرواية المشهورة فى سنة ٢٥٦ للهجرة وانه من المعلوم ان ابا الاغلب ابراهيم غزا جزيرة صقلية سنة ٢٢١ للهجرة اى ٨٣٥ - ٨٣٦ للمسيح واستولى عليها فغير معقول ان يكون استولى على صقلية وترك مالطة وهى اقرب الى افريقية من صقلية فلا بد ان يكون استيلاء المسلمين على مالطة وقع قبل سنة ٢٢٦ للهجرة وفق ٨٦٩ - ٨٧٠ للمسيح

اما تاريخ استخلاص مالطة من ايدي المسلمين فيذكرون انه وقع بين سنة ٩٩٢ للمسيح وسنة ١٠٢٥ وذلك بالغارة البيزانطية . ولكن ممالا شك فيه ان المسلمين بعد ان استرجع السحيون مالطة بقوا يسكنون الجزيرة نحو من مئتي سنة اى الى سنة ١٢٢٤ بل الى سنة ١٢٤٩ بحسب رواية العلامة آمارى Amari مؤرخ صقلية

وهذه هى نصوص الكتابات التى وجدت فى المقابر الاسلامية فى مالطة ننقلها كما وجدناها فى الرسالة المذكورة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليماً الله العزة
والبقا وعلى خلقه كتب الفنا ولكم فى رسول الله اسوة حسنة هذا قبر ميمونة
بنت حسان بن على الهذلى عرف ابن السوسى | توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس
السادس عشر | من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة | وهى تشهد
ان لا اله الا الله وحده لا شريك له

انظر بعينيك هل فى الارض من باقى
الموت اخرجنى قصرا فيا اسقى
وصرت رهنا بما قدمت من عمل
يا من رأى القبر انى قد بليت به
فى مضجعى ومقامى فى البلا | عبر
| اخى فجدا وتب | .

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم (...)
توفى ... يوم الأربعاء ودخل قبره يوم الخميس من العشر الاو (...)
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المع (...)
(...) محمد وآله وسلم تسليماً ان ربكم الله
(...) ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر
والنجوم مسخرات

بأمره الا له (؟)

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً فاز

(كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم) ثم يوم القيامة فمن زحرج عن النار
وأدخل الجنة فقد

وما الحيات الدنيا الا متاع الغرور هاذا قبر الشيخ المرحو (م ٠٠٠)

توفى رحمه الله فى العشر الأول من صفر عام ثمانية وسبعين (ن ٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد... توفى يوم الثلاثاء في ذى الحجة سنة
ثلاث و...

(...) الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
(...)

(...) العلي العظيم لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر
بالطاغوت (...)

(...) لقد جاءكم رسول من أنفسكم رؤوف فان تولوا لا اله الا هو (ليه ...))
(...) من شعبان سنة ستة واربعين وخمسمائة برحمة الله وبرضوانه وصلى الله على
محمد (...)

(... أج) وركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما
الحيات (...)

(...) في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر (...)

كل نفس (...)

سلام على أهل (القبور ...)

... عند | ه الا باذنه يعلم ما بين (...)

... لعطى محمد

قف بالقبور ...

بسم الله الرحمن (...)

هذا قبر (...)

(... زح) رج عن النار و (...)

(... ١) لا متاع الغرور

... (الرحيم) هذا قبر أمة الله بنت أبو القاسم ابن عمرو (ع) لا ينحسب الله

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

... الله ...

... (٠٠٠) وانما تو (فون أجوركم ...)

... (٠٠٠) بسم الله الرحمن (الرحيم)

... (٠٠٠) (١) براهم الصمطي

... (٠٠٠) بسم الله الرحمن الرحيم

... (٠٠٠) والحمد لله ...

... (٠٠٠) توفي يوم الخميس الثامن من ... سنة ...

... (٠٠٠) وحمسائة

... (٠٠٠) بسم الله الرحمن الرحيم ...

... (٠٠٠) الله ...

... (٠٠٠) بسم الله الرحمن الرحيم ..

... (٠٠٠) النار وادخل الجنة ...

... (٠٠٠) عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

... (٠٠٠) لا اله

... (٠٠٠) الا الله

... (٠٠٠) محمد ر

... (٠٠٠) سول الله

... (٠٠٠) بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو (الحق القيو) (٠٠٠)

... (٠٠٠) أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا (٠٠٠)

... (٠٠٠) الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

- (...) شربة ولم يأكلوا من كل رطب ويابس
 (...) (صلى الله ..) محمد وآله وسلم تسليما ان (...)
 (...) (...) (...) (...)
 (...) (أجور) كم يوم القيامة فمن زحرج عن النار و (...)
 (...) (و) لا نوم له ما في السموات وما في الأرض (...)
 سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالس
 ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يأكلوا ما بين رطب ويابس
 هذا قبر ؟
 ... عبد
 العزيز ...
 ورحم الله من
 دعا له بالرحمة

(تم والحمد لله في البدء والنهاية)

- ٨٥ } التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول تأليف الشيخ منصور على ناصف
مجلد بالقماش في خمسة مجلدات وهذا الثمن مدة الاشتراك فقط
- ١٠ أقضية الرسول صلى الله عليه وسلم للقرطبي
- ١٥ تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد بك الخضرى
- ٢٠ محاضرات الدولة العباسية » »
- ٣ غوث العباد ببيان الرشاد تأليف الشيخ مصطفى أنى سيف الحمائى
- ٥ دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك الى الامام أحمد فى الرد على ابن تيمية
- ٨٠ شرح البهجة لشيخ الاسلام زكريا الانصارى فى خمسة أجزاء
- ٤ مبادئ اللغة للخطيب الاسكافى
- ١٠ ألفية السيوطى فى علم الحديث مع شرح واف لفضيلة الاستاذ احمد محمد شاكر
- ٢ ألفية السيوطى فى النحو للامام جلال الدين السيوطى
- ٥ الحكمة البالغة ديوان خطب منبرية لمخضوب
- ١٨ لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى مجلد بالقماش
- ٢٢ قاموس آيات القرآن الكريم مجلد بالقماش خير مرشد للآيات
- ٧ } بهجة الحاوى وبهامشه التيسير فى نظم متن التحرير . والتدريب فى نظم غاية
التقريب للعمريطى مجزع

أحسن القصص

- ٥ مختصر قصص الأنبياء
- ٨ مختصر أولى العزم من الرسل: نوح، ابراهيم، موسى، عيسى، محمد عليهم الصلاة والسلام
- ٨ مختصر سير الخلفاء الراشدين

تحت الطبع

- مختصر سير أئمة الدين وبعض الصالحين
- مختصر سير أمهات المؤمنين وبعض شهيرات النساء المسلمات

كتب للمؤلف أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

جِازُ الْعَالَمِ الْأَسْلَامِيِّ

تأليف لو ثروب ستودارد

ترجمة

الأستاذ عجاج نويهض

أكبر دائرة معارف اسلامية عربية شرقية ظهرت باللغة العربية جامعة لأحوال الشرق الأدنى والعرب ابان عزهم وأسباب فشلهم واضمحلالهم وتأخرهم . خير مرجع تاريخي عن أحوال الاستعمار والمستعمرين والمستعمرات ، وفيه يرد الأمير شكيب أرسلان على المبشرين والمستشرقين المغرضين منهم والمنصفين ، وبه خلاصة عن جميع الأمم العربية والشرقية

محاسن المساعي

في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي

رضي الله عنه ونفعنا به

نشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه وتعليق حواشيه وتصديره بمقدمة عن الامام الأوزاعي وبتراجم العلماء له وهو الكتاب الوحيد الخاص بترجمة الامام الاوزاعي رضي الله عنه . والامام الأوزاعي كان في الطبقة الاولى من مجتهدى الاسلام لايتأخر مكانه عن مكان الأئمة الاربعة وكان امام أهل الشام وانتشر مذهبه في الأندلس

كتب مدرسية

طبق آخر منهج لوزارة المعارف العمومية عمل عطية أفندي محمد

الخرائط المدرسية . حيوانات . طيور . نباتات . جسم الانسان الخ . مجموعة
خرائط قيمة متقنة الطبع بالالوان الطبيعية مذيلة بشرح واف باللغة العربية وفق منهج
وزارة المعارف . نالت الجائزة الاولى الذهبية في المعرض العربي الثاني بالقدس

١٥ أسد، حمل، فيل، ديك، بقرة، نمر، دجاجة، حصان، نسر، حداة،
هدهد، بومة، ييغاء، قرد، فأر، حمار، ذئب، ضبع،
٣٠ جسم الانسان

السمير المهدب

للمطالعة والانشاء وخير ما يهدى للتلاميذ تأليف على أفندي فكري

٥ الجزء الاول ٦ الجزء الثاني ٧ الجزء الثالث ٨ الجزء الرابع

٣ السмир الصغير - شعر سهل بالصور . نظم الاستاذ محمد المهرأوى

قررت وزارة المعارف للتعليم الاولى

١ الشرح الجديد في أحكام التجويد تأليف الاستاذ مصطفى أحمد أبي سنة المدرس
بالمدراس الاميرية

٥ تربية البنين تأليف الاستاذ على فكري

٤ تربية البنات » » »

١ التربية والآداب الشرعية تأليف الدكتور عبد الرحمن اسماعيل

١ التحلية والترغيب في التربية والتهذيب تأليف سيد أفندي محمد

٢ مثلث خراب الديار : المسكر والزنا والقمار (للمطالعة والتربية)

روايات ادبية علمية اهل افريقية نهرية

اغرب ما صادف ضابط بوليس

١٠

بقلم البكباشي عبد المنصف محمود

أركان حرب المحابرات السرية بمصلحة خفر السواحل

الطبعة الثانية ٤٥٠ صفحة للزيادات المدهشة التي اشترك في تدوينها كبار الضباط

روائع من قصص الغرب

١٠

مجموعة من أحسن ما ظهر من الروايات في أوروبا
مترجمة بقلم الكاتب الشهير الأستاذ كامل كيلاني

قصص مختارة من الأدب التركي

٥

لطائفة من أدباء الاتراك

تعريب الكاتب الكبير والاديب العراقي

خلف شوقي أمين الداودي

روايات مترجمة بقلم الأستاذ أسعد افندي داغر المحرر الكبير في جريدة الاهرام الغراء

فِرْسَانُ الْحُبِّ لبريفو	حَيَاة شَاعِر للامارتين
بَعْدَ الْعَاصِفَةِ لبوردو	الْأَجْنَحَةُ الْكَبِيرَةُ لبيارلوتي

امس ما ظهر في عالم الادب والتاريخ في سنة ٣٣ وسنة ٣٤

ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم

للكاتب الشرقي الاستاذ أمين افندى سعيد

مزين بصور ٢٠ ملكا وأميرا وبه ملخص حياتهم و١٥٠ وثيقة سياسية وتاريخية

لندره

تأليف الاستاذ أحمد عطية الله

فيه كل ما يريد أن يعرفه شرقي عن لندن والانجليز

ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام

للاستاذ كامل كيلاني

مراتما غاندى

سيرته كما كتبها بقلمه ، نشأته وعمله

ترجمة الاستاذ اسماعيل مظهر

حياة الشرق ، دوله وشعوبه وماضيه وحاضره

تأليف الأستاذ محمد لطفي جمعة الحامى

خلاصة دراسة ٥٠ كتابا بعدة لغات عما كتب عن الشرق

يظهر قريبا

الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن

بقلم الكاتب الشرقي الكبير الاستاذ أمين سعيد

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
FEB 9 '68 TO	FEB 23 '68		
BUR OCT 13 1997			
NOV 16 1997			
BUR DEC 15 1997			
BUR FEB 25 1998			
MAR 17 1998			
APR 14 1998			
APR 28 1998			
C28 (167) 50M			

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0043347754

D893.716

Ar74

~~RECEIVED~~ LIBRARY

COLUMBIA UN

NEW YORK 27

OCT 29 1962

